



العتبة العباسية المقدسة

قِيمُ الشُّورَى فِي الْفِكْرَةِ وَالثِّقَافَةِ

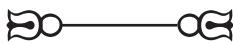
## مَوْسَعَةُ

# الْتَّوْلِدُ الْسَّيِّدِي

الجُزُءُ الثَّانِي

تأليف

الاستاذ محمد نعمة السماوي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



العتبة العباسية المقدسة  
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

شعبة الدراسات والنشر

## كرباء المقدسة

ص.ب (٢٣٣)

هاتف: ٣٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٣

[www.alkafeel.net](http://www.alkafeel.net)  
[info@alkafeel.net](mailto:info@alkafeel.net)

السماوي، محمد نعمة

موسوعة الثورة الحسينية / تأليف الأستاذ محمد نعمة السماوي. - الطبعة الرابعة. - كربلاء، العراق  
: العتبة العباسية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، شعبة الدراسات والنشرات، ١٤٤٠ هـ.

. ٢٠١٨ =

٧ مجلد؛ ٢٤ سم

يتضمن ارجاعات بيلوجرافية

- الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الإمام، ٦١-٤ هجري. ٢. معركة كربلاء، ٦١ هـ. --أسباب ونتائج. الف. العنوان.

BP193.13.A3 S26 2018

مركز الفهرسة ونظم المعلومات

الكتاب: موسوعة الثورة الحسينية/ الجزء الثاني.

الكاتب: الاستاذ محمد نعمة السماوي.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.

مراجعة: شعبة الدراسات والنشرات.

الاخرج الطباعي والتصميم: علاء سعيد الأسدی، محمد قاسم النصراوي.

التدقيق اللغوي: مصطفى كامل محمود، عمار كريم السلامي.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة: الرابعة.

عدد النسخ: ١٠٠٠ .

محرم الحرام ١٤٤٠ هـ-تشرين الأول ٢٠١٨ م

**الأمة الإسلامية**

**في عهد معاوية ويزيد**



## ١ - القيادة - عودة إلى معاوية

### الحاشية- الملا المقربون

#### فرعونية جديدة، تستغل اسم الإسلام وشعاراته

برغم ما قد يبدو للبعض من غرابة في اختيار هذا العنوان، للفصل الذي نحن بصدده، وهو الأمة الإسلامية، والمجتمع الإسلامي في عهد معاوية، وما نشير فيه إلى عودة إلى (الفرعونية)، ليس بمعناها الحرفي البحث الذي يعني تبني أفكار وسلوك فرعون معين بذاته، وهو فرعون موسى الذي ورد عنه وعن تسلطه واستكباره الكثير في القرآن الكريم، فإن هذه الغرابة لن تظل ماثلة أمام أذهان البعض إذا ما اتضح لديهم أن العودة ليست إلى الفرعونية التقليدية بتبنّي حتى اسمها وشعاراتها وطقوسها، بل إلى فرعونية حديثة نسبياً، ترمز إلى الطغيان والحكم الاستبدادي المطلق الخاضع لنزوات ورغبات (الخلفاء الفراعنة).

وأنه ليس أمراً مجانباً للواقع أن نجد أن المجتمع الإسلامي في عهد معاوية كان بسبيله إلى أن يتخذ شكلاً جديداً غريباً عن الإسلام، ويقاد الشكل الجديد أن يصل إلى حالة من (الثبات) أو (الاستقرار) أو (التحجر) على صيغ ومفاهيم وآراء جديدة وغريبة عن الإسلام، لا تمت إليه بصلة، مع أنها تستغل اسمه وشرعيته وغطاءه وبعض مفاهيمه العامة، ما دامت تحقق لها أهدافها المطلوبة، يجعل هذا الاستقرار والثبات يتخذ الشكل الصنمي المتحجر ليألفه الناس وينقادوا إليه بالطاعة والعبادة، لا للأم德 الذي يحتمل أن يعيشه الفرعون الأول لهذه السلالة الحاكمة الجديدة، وإنما لأزمان أوسع، تمتد



لتشمل حياة كل أفراد السلالة التي يحتمل أن تعيش بعد معاویة، من الأولاد والأحفاد إلى ما لا نهاية، بملك عضوض وراثي، له طقوسه وسنته وزراؤه وواعظه وحاشيته وجيشه وجاته وحراسه.. الخ.

### **النظام الأموي-الإفادة من الخبرات الفرعونية المتراكمة**

أما الأسس التي يقوم عليها النظام الأموي الغريب عن الإسلام، فهو خليط من خبرات فرعونية متراكمة في فن السياسة والحكم و(الدهاء) والخديعة مأخوذة عن سير وأخبار وتواريخ الملوك السابقين، قياصرة كانوا أم أكاسرة أم فراعنة، والذين كان عاهل النظام الجديد يحرص كما رأينا على تتبعها متابعة يومية مستمرة ضمن برنامج عمله اليومي المادي، مزوجة مع خبرة (إسلامية) جاهزة، قريبة للنفوس، لا بد من (حرفها) و(تشكيلها) لتبرز كأفضل صيغة عملية للحكم والحياة توضع أمام الأمة مع أن (فائتها) لا تكمن إلا في ترسيخ النظام الجديد.

ولا بد من التمهيد والإعداد لهذا النظام بعمليات دعوية ضخمة لغسل الأدمغة التي تأثرت إلى حد بعيد بالإسلام ونظراته المتكاملة إلى الحياة، واستئصاله إن اقتضى الأمر وزرع إسلام بديل إن اقتضى الأمر، لترسيخ النظرة الجديدة، غير المتحفظة والمتحررة من قيمه ومثله، وجعلها تبدو وكأنها هي (الأصل) أو (الإسلام الحقيقي الواقعي أو العملي) الذي يحقق طموحات (ال الخليفة) الأموي الأول ومن يأتي بعده من (الخلفاء) و(أمراء المؤمنين).. وأنه لا بد - وقد حقق طموحاتهم - قد حقق طموحات الأمة المغلوبة المخدوعة..! التي لا تعرف مصلحتها أكثر مما يعرفها الخليفة الفرعون.

### **التجربة الأموية، تقاطع مع السنن الربانية**

إن التجربة الأموية في الحكم، يبدو أنها لم تكن ترى أن تفهم السنن الربانية التي

تنظم حياة الإنسان على هذه الأرض وتحاول لفت نظره باستمرار إلى طبيعة العلاقات الصحيحة التي ينبغي أن تقوم بينه وبين أخيه الإنسان وبين الطبيعة التي تشكل أحد العوامل المؤثرة في مسيرته وحياته والتي تكلم عنها القرآن الكريم بوضوح.. هذا الكتاب الذي كان من المفترض أن يكون أول من يعتمد ويفهمه بشكل صحيح مسؤول من يتصدى لحمل مسؤولية الخلافة، ويأخذ ويعمل بكل ما جاء فيه بنفس الطريقة التي أخذ وعمل بها الإمام الأول لهذه الأمة، وهو رسول الله محمد ﷺ نفسه.

إن أركان هذه الدولة الأموية الجديدة قامت على أساس أرضية بشرية بحثة، لم تعتمد إلا على قدرات الإنسان المجردة فقط، وعلى التجارب الإنسانية البحثة والمتراكمة عبر الزمن، أما ما تعدى ذلك فإنه لم يكن يتجه إلا بمسار واحد ينجم مع هذه الخبرات البشرية التي من شأنها أن تتحقق مصالحهم وتثبت نظام حكمهم المستتر بالاسلام؛ لأن هذا الستار لا يتعارض مع (الأهداف العليا) التي يتطلعون إليها، وهم يملكون أن يغيروا بعض ألوانه وخطوطه ما دام المطلوب هو الستار وليس ما يحتويه للتأثير على الغالبية العظمى من الناس، تلك التي تملك وعيًا أقل وشعورًا بالمسؤولية أقل منه. هذه الغالبية التي قاموا هم بتربيتها واعدادها وتوجيهها.. أما الأقلية الوعية المدركة، فلها علاج آخر يجعلها تskt ولا ت تعرض على كل التجاوزات التي يقوم بها النظام الحاكم، وهو علاج معروف لدى كل أنظمة القهـر والتسلط والجور.

#### بين الانحراف الحذر والانحراف المعلن

وإذ أتيح لهذه التجربة الأموية أن تستمر قرابة ألف شهر، كانت النهاية الأخيرة (للخليفة) أو الحاكم وبدهاً من يزيد نفسه، تتباهى وتختلف عن النموذج الأول معاوية المتحفظ الحذر الداهية، وخرج خروجاً صريحاً عن الإسلام، ولا تحاول أن تغطي تصرفاتها أمام الأمة وتستهين بها استهانة تامة.



ولو قدر لهذه الأمة الإسلامية أن تستجيب استجابة كاملة لكل التصرفات الشاذة المنافية للإسلام التي صدرت عن (الخلفاء) وحاشياتهم وأقاربهم، وأن تستمر عملية غسيل الدماغ بنفس القوة والحماس والدقة التي قام بها معاوية، ولو لم تقع أحداث مهمة جعلت الأمة تتنبه بشكل واضح وتحفز لتغيير أوضاعها وتصححها نحو مسارها الأول الذي عرفته على عهد رسول الله ﷺ، لكن الإسلام دينًا غابراً وتراثاً عارضاً قدّيماً، أخذ دوره في فترة معينة ثم انتهى، صفحات في مجالات (التاريخ العربي) كما يحاول البعض أن يعرضه أمامنا الآن في خضم هذه الحملة الحديثة للاستشراق والاستعمار وجيش العلماء المبهورين المعجبين (بالحداثة) الغربية والحضارة الغربية والشعارات البراقة التي تحاول أن تجعلها تحمل محل القيم الأصلية للإسلام، بعد أن لم تستطع أن تجعله ينحصر عن حياتنا انحساراً تماماً ونهائياً.

### المعركة الأموية مع الإسلام استمرت طيلة العهد الأموي

إننا ينبغي أن نفهم طبيعة المعركة الأموية مع الإسلام، والتي لم تبدأ مع معاوية بالتأكيد، وينبغي أن نفهم أن التحييز المهمل وغير المسؤول وغير المكترث إلى الجانب الأموي يعتبر تحيزاً ضد الإسلام، فمهما حاولنا أن نقيّم النظرة الأموية قبل الإسلام وبعده، فإننا سنجد أنها تنطلق من اعتبار نفسها قوة تواجه قوة آل هاشم قبل الإسلام وآل محمد عليهما السلام بعد ظهوره.

وطبيعي أنها بعد أن استجابت مكرهة، وأدخل الإسلام مذعنين، سادة وكبار هذه العائلة وفي مقدمتهم أبو سفيان وابنه معاوية، فإن نفوذ وقدرة هذه القوة الأموية بوجه الإسلام وبوجود الرسول ﷺ، قد تضاءلت إلى حد بعيد ولم يعد لها أي بريق أمام اشراق الإسلام ونبيه ﷺ الذي لم يكن بمقدور أحد الوقوف بمواجهةه أو الصمود أمامه وتحديه.

وقد صرَّح معاوية متبجحاً بذلك «وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها، إلا ما جعل الله لنبيه ﷺ فإنه انتخبه وأكرمه»<sup>(١)</sup>.

### التَّبَجُّحُ الْأَمْوَيِّ بِكَرَامَةِ الْأَصْلِ - تَمْهِيدُ لِخْنَقِ الْأَنفَاسِ

لقد أعلَنَ معاوية ما لم يتمكَّن من قوله ملَدة طويلاً، أنَّ أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها دون استثناء، إلا ما جعل الله لنبيه ﷺ، وهذا ليس مجرد فخر عادي أو تبجُّح لا يقصد منه أي شيء، وإنما هو تَعْدِي على كل أسلاف محمد ﷺ وعلى كل من جاء بعده أيضاً، فهو تَعْدِي عليه أيضاً، ويدلُّ على اصراره زرع هذا التصور في عقول المسلمين قوله في كتاب لأمير المؤمنين -: «إِنَّ لِي فِضَائِلَ كَثِيرَةٍ، وَكَانَ أَبِي سِيداً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَصَرَّتْ مَلِكًا فِي الْإِسْلَامِ وَأَنَا صَهْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَكَاتِبُ الْوَحْيِ»<sup>(٢)</sup>.

وإذا ما توقفت هذه المعركة بين الأمويين والإسلام في الأشهر الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ إذ أنها كانت مستمرة معهم طوال حياته، وبعد أن لم يختلف عليه اثنان، فإنها توقفت إلى أجل محمد ريثما يلتقط العدو الأموي أنفاسه ويجهي خططاً جديدة وأساليب مبتكرة لضرب الإسلام من الداخل بعد أن لم يتمكن من ضربه من الخارج.. أساليب تتفق مع المراحل القادمة والظروف المستجدة.

وكانت لحظات ترقب دائمة، انتظرت فيها العائلة الأموية (التاجرة) والمشهورة بالدهاء والمكر وذات النسب الرفع الذي يشتراك مع النسب الرفيع للرسول الكريم ﷺ نفسه بجد أعلى هو عبد مناف، الوقت المناسب الذي ترفع فيه راية الحرب مرة أخرى وتغزو سهاماً قاتلاً في جسم الإسلام.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٤.

(٢) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٩.



### استهدفوا أهل البيت ﷺ بعد أن فشلوا مع النبي ﷺ

وهكذا كان الأمر مع آل النبي بعد أن لم يستطعوه مع النبي ﷺ نفسه، وقد استأنفوا الحرب التي توقفوا عنها لفترة وجيزة فقط. فكان مقتل عثمان الفرصة الذهبية التي مهدوا لها واستغلوها، وكان عدم مبايعة معاوية لأمير المؤمنين ﷺ ثم مطالبته بتسليم الثوار الذين قتلوا عثمان ومطالبته باقراره على الشام ومصر ليسكت عن ذلك رغم علمه أن هذين الأمرين غير ممكни، لما أسلفناه من أسباب في الفصل السابق، الإعلان المباشرة لهذه الحرب الظالمة التي شنها معاوية على أمير المؤمنين ﷺ بعد أن توقف شنها على الرسول الكريم ﷺ، وقد رأينا الأساليب التي اتبعها معاوية (اللفوز) بحربه الظالمة هذه ضد الإمام ﷺ وضد الإسلام.

### ماذا كانوا سيفعلون، لو علموا أن الأمر سيصير إليهم

ولو قد علم آل أبي سفيان أن (ضربة الحظ السعيدة) ستكون إلى جانبهم في النهاية، وأن معاوية سيكون ( الخليفة ) على المسلمين ويجلس على كرسي رسول الله ﷺ، بل ويختله احتلالا دائمياً، هو وآلـه من بعده، لكنـوا في مقدمة المدافعين عن الإسلام والمحاربين من أجله ولما وقفوا منه تلك المواقف المعادية، وكأنـا كانـ الرسول ﷺ وكلـ من جاء بعده، يمهدون السبيل لحكم دائم لآلـ أمـية على عرش الإسلام، فأـي حـظ سـعيد، وأـي فـرصة مـمتازـة قدـ أـتيـحتـ لهـؤـلـاءـ القـومـ وـهـمـ يـرـونـ اـرـثـ مـحـمـدـ ﷺ يـنـتـقـلـ إـلـيـهـمـ وـيـصـبـحـ فـيـ قـبـضـهـمـ يـحـوطـهـ وـيـرـعـونـهـ وـيـحـفـظـونـهـ لـأـوـلـادـهـمـ فـيـ بـعـدـهـمـ بـعـدـ اـجـرـاءـ التـنـقـيـحـاتـ وـالـتـعـديـلـاتـ الـمـنـاسـبـةـ الـتـيـ تـقـضـيـهـاـ طـبـيـعـةـ الـانـحـرـافـ الـأـمـوـيـ الـتـعـمـدـ «ـ الـأـمـوـيـةـ كـانـتـ تـرـيدـ أـنـ تـنـهـبـ مـكـاـسـبـ الـإـسـلـامـ بـالـتـدـريـجـ، هـذـاـ النـهـبـ الـذـيـ عـبـرـ عـنـهـ بـأـقـسـىـ صـورـةـ أـبـوـ سـفـيـانـ حـينـهاـ رـكـلـ قـبـرـ حـمـزةـ رـضـوانـ اللـهـ عـلـيـهـ بـقـدـمـهـ وـهـوـ يـقـولـ: إـنـ هـذـاـ الدـيـنـ الـذـيـ قـاتـلـتـمـوـنـاـ عـلـيـهـ، هـذـاـ الدـيـنـ الـذـيـ بـذـلـتـمـ دـمـاءـكـمـ فـيـ سـبـيـلـهـ، وـضـحـيـتـمـ فـيـ سـبـيـلـهـ قـومـواـ وـاقـعـدـوـاـ وـانـظـرـوـاـ

كيف أصبح كرة في يد صبياننا وأطفالنا.

كان الشرف الأموي يريد أن يقتنص وان ينهب مكاسب البناء الإسلامي والوجود الإسلامي، وكانت هذه المؤامرة تنفذ على مستويات وكانت المرحلة الأولى من هذه المؤامرة ترسخ الأمويين في الشام يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية بن أبي سفيان، ومحاولة استقطاب معاوية للشام، عن طريق بقائه هذه المدة الطويلة فيها.

ثم كان معاوية بن أبي سفيان بنفسه، يتظر الفرصة الذهبية التي يتتيحها مقتل عثمان ابن عفان هذه الفرصة الذهبية التي تعطيه سلاحاً غير متظر يمكن أن يمسكه ويدخل به إلى الميدان.. ولهذا تباطأ عن نصرة عثمان بن عفان، كان عثمان يستنصره ويستصرخه ويؤكد له انه يعيش لحظات الخطر ولكن معاوية كان يتلماً في إنقاذه». <sup>(١)</sup>

ونتساءل، كيف ستكون شرارة المعركة هذه المرة للحفاظ على هذا المكسب الكبير الذي لم يكونوا يحسبوا أنهم سيحصلون عليه، وها هو الآن كلهم، فقد أصبح أمراً واقعاً معاشاً وما عليهم سوى العمل لتشييه واقراره وترسيخ استشهاده بشكل حاذق (وذكي) لأجيالهم القادمة من الأبناء (المحتظرين) سليلي هذه العائلة التي أذهبت النبوة والإسلام كل ما تبقى لها من بريق و Mage غابر، وها هو الآن يعود إليها بأكثر مما كان بفضل هذه النبوة وبفضل الإسلام نفسه!

### معارك جديدة تخوضها الدولة الفرعونية

ومن يمكن أن تكون له قوة وعزم على ﷺ، ليقف بوجوههم بعد اغتيال هذا الإمام؟ ومن يمكن أن تكون له مؤهلاته ومركزه بين أبناء الأمة؟

كانت أمم معاوية معارك أخرى بعد اغتيال الإمام ﷺ على يد ابن ملجم، أهمها

---

(١) أهل البيت ﷺ تنوّع أدوار ووحدة هدف: السيد محمد باقر الصدر: ص ٢٥-٢٦.



معركتان، معركة لكسب الخلافة، الملك إلى الأبد..!

ومعركة لاعداد الأمة وترويضها لتقبل يزيد خليفة وأميراً للمؤمنين..!!

ولا بد لكسب هاتين المعركتين من معارك أخرى تبذل فيها أموال الأمة مرة، وتزهق فيها الأرواح مرة وتشتري بها الضمائر والسيوف، ضمائر المحدثين والقصاصين والمفسرين والشعراء وذوي الحيلة والرأي والمكيدة ورؤساء القبائل ومرتزقة الجند.

لابد من نظام جديد ترسى عليه الدولة الأموية الجديدة أركانها، لا يرتبط بالنظام (القديم) الذي وضع رسول الله ﷺ أصوله وقواعده - والذي أصبح قديماً وغابراً بحكم انحساره السريع عن الحياة الواقعية للأمة وأريد له أن يكون خيالاً وأثراً عابراً وأحد موروثات الأمة لا كيانها الرئيسي وأساس وجودها الوحيد وقيمها كامة إسلامية. فلا يحمل النظام الأموي (الجديد)، من النظام الإسلامي الشامل إلا اسمه، ولا تظهر فيه إلا بعض الممارسات الشكلية التي تزييه وتجعله جديراً بنظر الأمة المغلوبة يحمل اسم الإسلام وتمثيله والوصاية عليه وعلى كل مقدرات الأمة.

وهكذا كان الأمر، وأديرت هذه المعارك مجتمعة من قبل العاهل الأموي المتمكن، وأعد لذلك كل امكانيات الدولة الإسلامية وأموالها وخزانتها التي تجمعت كلها في يديه.

### هل جاء الرسول ﷺ ليبشر بمعاوية؟؟

لقد بدت الأحاديث التي وضعت ورويت عن الرسول ﷺ، بشأن معاوية وكأنها تريينا أن المهمة الرئيسية من بعثة ﷺ إلى الناس كافة، هي التبشير بمعاوية وانذار الناس عاقبة مخالفته! فمعاوية كما روي عنه ﷺ، بدا في الأحاديث الموضوعة في خلافته نفسه (والتي ذكرنا قسماً منها في الفصل الثاني)، أمين الله على كتابه ووحيه، وإن جبرائيل

الذي أشار على الرسول لاستكتابه وأنه عليه السلام بشره بالخلافة ودعا الله أن يعلمه الكتاب والحساب ويقيه العذاب ويمكنه في البلاد و يجعله هادياً مهدياً، ويهدى ويهدى به، وأنه مغفور له وأنه يعادل جبرائيل ومحمدًا في الأمانة، وهو نظير اللوح والقلم وإسرافيل وميكائيل.. ويدل على ذلك أن الخلفاء وقوه من قبل، وأنه لم يتنازل فيقبل الخلافة إلا عندما سمع قول رسول الله عليه السلام: إن ملكت فأحسن.. الخ.

وكما قلنا، فإن هذه الأحاديث الموضوعة والملفقة، التي كانت بالتأكيد رد فعل على الأحاديث والآيات الواردة في فضل أمير المؤمنين - المؤكدة بشكل لا يقبل التباس عن طرق صحيحة لا اختلاف عليها ومصادر موثوقة لدى كل الأمة، هذه الأحاديث الملفقة إذا ما أضيفت إليها هالة الشرف القرشي العالي والنسب الرفيع المزعوم كانت تمهد الأمر لمعاوية لاستلام (الخلافة الملك)، هو وأفراد عائلته إلى الأبد.

وقد حاول معاوية بلفته ذكاء منقطعة النظير أن يحول تاريخ العداء الذي كان قائماً بين آله وبينه هو بالذات من جهة، وبين رسول الله عليه السلام وآله من جهة أخرى، ويعرضه أمام الأمة الصامتة المغلوبة على أمرها، وكأنه تأريخ دوّن بشديد بدأ بين الرسول عليه السلام ومعاوية بالذات، بعد دخول معاوية الإسلام، حتى أنه قال فيه ما لم يقل في أحد غيره، حتى عثمان نفسه ومن سبقه من الخلفاء.

وللتصور وسائل الاعلام العديدة والمتمرة وهي تقوم بعملها لغسل عقول الأمة، والتي بدأت عملها في محيط أهل الشام الجهلة بالإسلام، وهي تقوم بهذا العمل بكل همة ونشاط تدعمها اليدين المنبسطة بالعطاء اللامحدود، يد (ال الخليفة) المسيطر على كل شيء والملك لكل شيء لندرك اندفاعها لتحقيق (الإنجاز الكبير) الذي حققه بهذا السبيل، وللتصور أنها كانت أكبر الوسائل الاعلامية المتيسرة، وقد كانت كلها مكرسة وبطاقة تصوّي لهذا الغرض، وللتصور النتائج الكبيرة التي حققتها تلك الوسائل وخصوصاً

في محيط الشام.

ولما كان أمير المؤمنين عليه السلام يمثل عقبة رئيسية بوجه الأمويين، حتى بعد اختفائه من الساحة، فقد تزامنت الحملة الاعلامية الواسعة للرفع من شأن معاوية حملة أخرى لا تقل عنها سعة للغض من قيمة أمير المؤمنين عليه السلام والنيل منه والحط من شأنه وتحميله مسؤولية قتل عثمان، الذي كان ذريعة للخروج عليه وتحريض أهل الشام ووضعهم في مقدمة المنادين بالثأر.

وقد ساعد معاوية في حملته تأثيره في أهل الشام، وكراه قريش لآل محمد عليه السلام، وقد أوضح أمير المؤمنين عليه السلام السبب الرئيسي لذلك الكره القرشي بقوله: «والله ما تنقم علينا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيّننا..»<sup>(١)</sup>.

#### رمتي بدائها وانسلت

وبلغ من اتساع هذه الحملة أنها وصلت إلى حد اتهام الإمام عليه السلام بمهارات هي جديرة بأصحاب هذه الحملة الظالمة أنفسهم، وقد رد أمير المؤمنين عليه السلام على عمرو بن العاص أحد هذه الاتهامات الظالمة السخيفية، التي لا يمكن أن يتقبلها أحد، إلا أهل الشام «عجبًاً لابن النابغة! يزعم لأهل الشام أنَّ في دعابة، وأنَّي أمرُؤْ تلعابة: أعافس وأُمارس! لقد قال باطلًا، ونطق آثماً. أما - وشر القول الكذب - أنه ليقول فيكذب.. أما والله إني ليمنعني من اللعب ذكر الموت، وإنَّه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة..»<sup>(٢)</sup>.

وروى عن عمر أنه قال فيه «أما والله لو لا دعابة فيه ما شكت في ولايته وإن نزلت

على رغم أنف قريش»<sup>(٣)</sup>.

(١) نهج البلاغة: تحقيق د. صبحي الصالح: ص ٧٧.

(٢) نهج البلاغة: ص ١١٥.

(٣) العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٢.

وحاولوا أن يبيّنوا أنه لا خبرة له بالحرب، وأنه يفتقر إلى الدهاء وبعد النظر... الخ وقد حاول الإمام في محاولته لصد الحرب الظالمه عليه، أن يبعد الأمة عن الانجراف وراء الأضاليل الأموية، ولم يكن دفاعه عن نفسه إلا دفاعاً عن الإسلام وعن رسول الله عليه السلام نفسه؛ لأن أولئك الذين عجزوا عن الطعن برسول الله عليه السلام بعد أن لم تجد تلك الطعون، وأظهر الله رسالته، رأوا أنَّ وسليتهم المناسبة الآن هي توجيه الطعون إلى آله، وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد لجؤوا إلى أسلوب أخير مباشر وهو سبّ من على منابرهم وجعل ذلك سنة، رغم وعود معاوية للحسن عليه السلام أن لا يشتم أباه «ثم لم يف بها وعد به»<sup>(١)</sup>.

كان الإعلام الأموي ينصب على التأكيد على أحقيّة معاوية بالخلافة مع وجود الإمام عليه السلام نفسه على الساحة وتصديه لقيادة الأمة، فإن أهل الشام عاهدوه على الأخذ بدم عثمان ولم يبايعوه بالخلافة « وإنما بايعوه على نصرة عثمان والطلب بدمه، فلما كان من أمر الحكمين ما كان بايعوه بالخلافة»<sup>(٢)</sup>.

فرعون متطور- لم يعلن نفسه رباً أعلى، مع أنه عامل الناس على هذا الأساس وحينما توفي الإمام والآمر إلى معاوية بعد صلح الحسن عليه السلام، فإن الجو المحيط بالعرش الأموي لم يكن يسمح بالتفكير أن هناك من يمكن أن ينافس معاوية أو ينازعه بأي شكل من الأشكال. أصبح الآن السيد المطلق الذي لا يضاهى ولا يجارى ولا يرقى إليه، وبدأت في تلك الفترة مرحلة الانتقال إلى الفرعونية والسيادة غير المقيدة أو المسؤولة.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٧٢.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ٨٥.



ومع أنه لم يعلن، كما أعلن سلفه، فرعون موسى، أنه هو الرب الأعلى، ولم يطالب الناس أن تتوجه إلى شخصه بالعبادة، إلا أنه أرسى قاعدة الحكم المطلق المستبد الذي لم يلجمَ إلى الإسلام إلا لتبرير ما يقوم به من تعزيز مركزه، وایقاع مناوئيه ومعارضيه والعمل وفق ما يراه هو مناسباً وتطبيع الإسلام ليتلاعِم مع أعماله ورغباته.. فتلك النظرة الفرعونية (التقليدية) الأولى التي تدعو بشكل مباشر لعبادة فرعون وفي مجتمعات لم تكن تمتلك الوعي الذي تمتلكه الآن (في عهد معاوية) ربما أدت إلى مضاعفات ضارة إذا ما ثُبّنِت بحذافيرها.. ولعل فرعون كان يبدو سخيفاً ومضحكاً بنظر معاوية، إن ما حاجته إلى أن يعبد الناس كإله، مع أنه كان متسلطاً عليهم بالفعل.. ولو أن نظرة فرعون عدلَت وبدلَت، وأظهرَ (الخلفية) نفسه خادماً للشريعة وحارساً عليها. فإنه بذلك يجتنب الصدام المباشر والمواجهة الصريحة مع أحكام الشريعة، ويتيح له موقفه ذاك الظهور بمظهر آخر يتبع له التحايل والمداورة والمحاورة حتى إذا كانت نواياه واضحة أمام الأمة. وهكذا نرى الكثيرين من زعماء العالم الإسلامي اليوم، يبدون بنفس المظهر الوديع اللَّذِين الذي بدا به معاوية فيدعون أنهم خدم للشعب مع أنهم جلادوه وظلمته وسارقوه.. ويعدمون إلى ما عمد إليه من أداء علني للشعائر والطقوس الدينية في المساجد ويعرضون أنفسهم بشكل أوسع على شاشات التلفزيون وكأنهم بذلك يقولون للأمة: حسبك ما ترين من خشوع وخضوع مظهري، أما ما عدا ذلك فلا حق لك بمناقشته ومحاسبتنا عليه.

إن معاوية يدرك أن ذلك الأسلوب التقليدي المباشر للظلم الذي كان يمارسه فرعون واتباعه أصبح أسلوباً كلاسيكيًّا قدِيماً لا تهضم كل معدة، وأضحي أسلوباً مكشوفاً يمكن الوقوف بوجهه والتصدي له، وإن عليه (أي معاوية)، أن يستفيد من كل التجارب البشرية في السياسة والحكم وكلها تجارب جاهلية لا تمت إلى الإسلام

وصلة لا من قريب ولا من بعيد..!

فقد روي عن زياد بن أبيه قوله: « ما غلبني أمير المؤمنين معاوية قطّ إلا في أمر واحد: طلبت رجلاً من عمالٍ كسر على الخراج فلجمَ إلَيْهِ، فكتبتُ إلَيْهِ: إِنَّ هذَا فسادٌ عملي وعملي، فكتبَ إلَيَّ: إِنَّه لَا ينبعُ لَنَا أَنَّ نسوسَ النَّاسِ سِيَاسَةً وَاحِدَةً، لَا نَلِينٌ جَمِيعاً فَيُرِحُّ النَّاسَ فِي الْمُعْصِيَةِ، وَلَا نَشِتَّدُ جَمِيعاً فَنَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْمَهَالِكِ، وَلَكِنْ تَكُونُ أَنْتَ لِلشَّدَّةِ وَالْفَظَاظَةِ وَالْغَلْظَةِ، وَأَكُونُ أَنَا لِلرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ ». <sup>(١)</sup>

المكر، ثم المكر ((أطير إذا وقعت، وأقع إذا طرتم))

معاوية هنا لا يستبعد أسلوب الشدة والفظاظة والغلظة عن حكمه، ولكنه لم يرد أن يعرف الناس أن ذلك هو أسلوبه الخاص، فأراد رمي هذه (المنقصة) على اتباعه الأذلاء مثل زياد وأشباهه، وأراد أن يظهر أمام الأمة بمظهر المتباهي (بحكمته) و(دهائه) وبعد نظره (وشعرته) التي لا تنتقطع، وربما أراد من وراء ذلك أن يوحِي بقوَّةٍ موهومَةٍ يتمتع بها إضافةً لقوَّة الشروة المحتكرة والسلاح. ولعل في التلویح بذلك تهدیداً غير مباشر للأمة. وأنها أضعف منه ورهن قبضته بما يملكه من مؤهلات استثنائية.

روي عنه أنه قال لجماعة من قريش: «ألا أخبركم عنِّي وعنكم؟ قالوا: بلى، قال: فأنا أطير إذا وقعت، وأقع إذا طرتم، ولو وافق طيراني طيرانكم سقطنا جميعاً». <sup>(٢)</sup> وروي عنه قوله: «ولو أَنِّي بيني وبين الناس شرة ما انقطعت. فقيل له: وكيف ذلك؟

قال: كنت إذا مدوها أرخيتها، وإذا أرخوها مدتتها». <sup>(٣)</sup> وهكذا رووا أسطيرو حكايات عن شخصية معاوية القوية التي لا تصاهاها شخصية أخرى.. فكان

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٠٦ .

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٠٦ .

(٣) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٠٦ .



هذه الحملة للتأكيد على هذه القوة الأسطورية يراد منها قهر كل نزعة مناوئة لدولته وحكومته.. وللمح العشرات من هذه القصص العجيبة بين دفات مختلف الكتب التي سجلت أخبار العرب وتاريخهم وحوادثهم وأدبهم.

روي عن هند بنت عتبة، أم معاوية، حين أنها ناعي يزيد بن أبي سفيان «فقال لها بعض المعزين: أنا لنرجو أن يكون في معاوية خلف من يزيد، فقالت هند: «ومثل معاوية لا يكون خلفاً من أحد، فوالله أن لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمي به فيها، لخرج من أي أغراضها شاء»<sup>(١)</sup>.

«وفخر سليم مولى زياد، بزياد عند معاوية، فقال معاوية: اسكت، فوالله ما أدرك صاحبك شيئاً بسيفه، إلا وقد أدركت أكثر منه بلسانه.»<sup>(٢)</sup> وروي عنه قوله: «أنا ابن هند، إن أطلقت عقال الحرب، أكلت ذروة الغنم، وشربت عنفوان الكراع، وليس للأكل إلا الفلذة، ولا للشارب إلا الرنق»<sup>(٣)</sup>.

وقد رویت بهذا الخصوص كلمة طرفة لعمرو بن العاص عن معاوية. قال عمرو: «ما رأيت معاوية قط متكتئاً على يساره، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى، كاسراً إحدى عينيه، يقول للذي يكلمه: يا هناه، إلا رحمت الذي يكلمه»<sup>(٤)</sup>.

كان معاوية يبدو معانياً بأن يبدو بمظاهر الحليم الذي لا يهزه قول أو فعل سفيه أو جاهل، وقد أدرك الإمام الحسن عليه السلام غرضه عندما صرخ معاوية قائلاً: «إذا لم يكن الهاشمي جواداً لم يشبه قومه، وإذا لم يكن المخزومي تيّاهاً لم يشبه قومه، وإذا لم

(١) البيان والتبيين: الجاحظ: ج ١ ص ٥٦، مكتبة الرياض، دار الفكر، تحقيق عبد السلام محمد هارون.

(٢) البيان والتبيين: الجاحظ: ج ١ ص ٢٥٩.

(٣) البيان والتبيين: الجاحظ: ج ٢ ص ٩٢.

(٤) البيان والتبيين: الجاحظ: ج ٢ ص ٢٠٣-٢٠٢.



يكن الأموي حليما لم يشبه قومه.

فبلغ قوله الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهمما فقال: ما أحسن ما نظر لنفسه! أراد أن تجود بنو هاشم بأموالها فتتضرر إلى ما في يديه، وتزهو بنو مخزوم على الناس فتبغض وتشنأ، وتحلم بنو أممية فتحب»<sup>(١)</sup>.

وقد أدرك شريك النخعي القاضي سر هذا الحلم المفتعل عند معاوية، فعندما قيل له: «كان معاوية حليماً». قال: لو كان حليماً ما سفه الحق، ولا قاتل علياً، ولو كان حليماً ما حمل أبناء العبيد على حرمه، ولما أنكح إلا الأكفاء»<sup>(٢)</sup>.

تربيـة الشـام، أـخصـبت بـفـكرـ مـعاـويـة وـتصـورـاتـه<sup>(٣)</sup>، فأـصـبـحتـ مـهـيـأـةـ لـقـيـامـ دـوـلـتـهـ.

وقد رأينا كيف أن المدة الطويلة التي قضتها معاوية في الشام والياً و (خليفة)، قد عملت على تعزيز مركزه في هذا البلد بعيد نسبياً عن مركز الخلافة الإسلامية الأول وعن مدينة رسول الله ﷺ وعاصمتها، وهو ما كان يشكل تربة خصبة لأفكاره وتصوراته وقيمه التي كانت بعيدة كل البعد عن الإسلام وقيمـهـ وـمـبـادـئـهـ، ثم أراد لغوفـهـ أنـ يـمـتدـ بعد ذلك إلى بقـيةـ أـجزـاءـ الـعـالـمـ الإـسـلـامـيـ.

كيف عرض أهل الشام؟ الطائفة المنصورة؟ الحكمـ علىـ النـاسـ؟ـ الذـابـينـ عنـ بيـضـتهـ التـارـكـينـ لـحـارـمهـ؟ـ

وقد حاول معاوية إظهار أهل الشام - في جملة من أحاديثه وخطبه ورسائله - على

(١) البيان والتبيين: المحافظ: ج ٤ ص ٦١.

(٢) البيان والتبيين: المحافظ: ج ٣ ص ٢٥٨.

(٣) «وكان معاوية يقول: إني لا أحمل السيف على من لا سيف معه. وإن لم تكن إلا كلمة يشتفي بها مشتف جعلتها تحت قدمي ودبر أذني..» الكامل في اللغة والأدب: المبرد: دار الفكر، ج ١ - ص ٥ ويقـيلـ لهـ «ـماـ النـبلـ؟ـ قالـ:ـ الـحـلـمـ عـنـ الـغـضـبـ وـالـعـفـوـ عـنـ الـقـدـرـةـ»ـ الكاملـ فيـ اللـغـةـ وـالـأـدـبـ:ـ جـ ١ـ صـ ٤ـ وـ يـرـويـ أـنـهـ «ـقـيلـ لـمـعاـويـةـ:ـ ماـ الـمـروـءـةـ؟ـ فـقـالـ:ـ اـحـتمـالـ الـجـرـيـرـةـ وـاصـلـاحـ أـمـرـ الـعـشـيرـةـ..ـ»ـ الكاملـ فيـ اللـغـةـ وـالـأـدـبـ:ـ جـ ١ـ صـ ٣ـ٨ـ.



أنهم الصفة المختارة من المسلمين، وأنهم مبعث فخر رسول الله ﷺ واعتزاذه، وأنهم من كان عليهما يعتمد عليهم لتعزيز الدين ونشره.. وحاول نشر الأحاديث الموضوعة والملفقة بشانه بينهم مدركاً أن هذه (الأحاديث) المكذوبة تقابل بالازدراء والسخرية من بقية أبناء الأمة في بقية الأمصار.

كان معاوية يريد مجتمعاً منحازاً إليه بشكل تام، ولم يكن يجد مثل مجتمع الشام ليجعله يقوم بمهمة حمايته وحماية الأفكار المضللة التي كان يخرج بها على الأمة المغلوبة المقهورة.. وكان يريد تشكيل نخبة أو صفة خاصة به، وأن تكون تتسع عددياً لتشمل أحد الشعوب الإسلامية برمتها، مستغلاً قلة وعي هذا الشعب وقلة معرفته بالإسلام لتمرير مخططاته عليه بل وجعله يتبعها وكأنها من بنات أفكاره. وقد تعامل معه في ظل خلافة عمر وعثمان (بتسامح) محاولاً استئثاره بهما كان الشمن.. حتى أنه روى لهم (عن طريق محدثيه وواعظيه) على لسان رسول الله ﷺ أنه قال فيهم « وإن أهل الشام هم الطائفة المنصورة على من خالفها »... وهذا مما كان يحتاج به معاوية لأهل الشام في قتالهم أهل العراق. <sup>(١)</sup>.

وكان بعرضه صورة مشرقة له شخصياً يزيينها بأحاديث ملقة بشأنه عن رسول الله ﷺ وصور (مشوهة) لأعدائه وفي مقدمتهم أمير المؤمنين رض، وأخرى بشأن أهل الشام أنفسهم، تجعله يذهب معهم إلى حد التهادي بالتصريح العلني أمامهم بأنه ملك وليس خليفة، وكان يروي لهم قائلاً: « أنا أول الملوك وأآخر خليفة ». <sup>(٢)</sup>

وقد جعل محدثيه يلفقون حديثاً، يجعلون منه سنة فقالوا « والسنة أن يقال لمعاوية ملك ولا يقال له خليفة لحديث «سفينة الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٢٩ .

(٢) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٣٧ .



عضوًّا<sup>(١)</sup> .. فكأن الأمر هنا أمر واقع معاش أخبر به رسول الله ﷺ ولا يمكن تغييره. إذن ما حاجة أهل الشام إلى خليفة مقيد وبينهم هذا الملك المطلق الذي أثبت (كفاءته) و (جدارته) وانحيازه المطلق إليهم، وتبنيهم كأعزاء أخلاق.. ولم يتحرجو من وضع قصص ملقة تصف لهم حكم معاوية بعد استبداده بالحكم كتب إلى علي بن أبي طالب<sup>(٢)</sup> معظمًا من شأنهم رسالة مضللة توحى للأمة وأهل الشام خاصة، وكأنه (أي معاوية) لا يعمل إلا بإرادتهم ومشيئهم، وكأنه ليس الموجه والمسيطر الحقيقي عليهم «وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان...، وإنما كان الحجازيون هم الحكم على الناس والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكم على الناس أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة؛ لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام.»<sup>(٣)</sup>.

وعندما أراد أهل المدينة على مبايعة يزيد فإنه كتب إلى مروان بن الحكم عامله عليها «أن أدع أهل المدينة إلى بيعة يزيد، فإن أهل الشام والعراق قد بايعوا»<sup>(٤)</sup> فكأن بيعة أهل الشام ليزيد إشارة إذن لبقية المسلمين لكي يبايعوه بدورهم. أما إشارته إلى أهل العراق، فباعتبارهم أصعب فئة يمكن أن تستمال، ومع ذلك فقد بايعدت وقضى الأمر ولم يبق على الجميع إلا أن يحذوا حذوهم.

وكان تصرحياته بشأن أهل الشام ملفتة للنظر حقًا «إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذين عن يضته التاركين لمحارمه، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المتهمين لمحارم الله والمحلين ما حرم الله والمحرمين ما أحل الله». <sup>(٥)</sup>

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٣٨ .

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ٧٦ والكامل في اللغة والأدب: المبرد: ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣) لعقد الفريد: ج ٥ ص ١١٢ .

(٤) مروج الذهب: المسعودي ص ٥٠ .



وقوله فيهم «وقد كنت في أصلاح جند وأطوعه»<sup>(١)</sup> يؤكد حقيقة مهمته لحرف هذه الشرحية الكبيرة من المسلمين عن دينها وتضليلها وتربيتها على قيم الدين الأموي المجنين.

وحتى عندما كلف عمرو بن العاص بمهمة التحكيم، أراد إيهامه، بل إيهام أهل الشام أنفسهم أنه إنما كان يفعل ذلك ويكلفه بعد أن عرف رأي أهل الشام فيه ورغبتهم في أن يمثل معاوية «وأنا وأهل الشام راضون بك»<sup>(٢)</sup>.

وكتب إلى أمير المؤمنين في ختام رسالته التي ذكرناها في الهاشم<sup>(٣)</sup> أبيات كعب بن جعيل التي يعلن فيها انحياز أهل الشام الأعمى لمعاوية، وكأنه رد فعل على (انحياز) أهل العراق لأمير المؤمنين، ولعله أراد المسألة أن تبدو هنا كمجرد صراع بين أهل العراق وأهل الشام لا غير.

رأى الشام تكره ملك العراق	وكلا لصاحب مبغضاً
وأهل العراق هم كارهينا	إذا ما رمونا رمينا هم
يرى كل ما كان من ذاك دينا	فقالوا: على إمام لنا
ودنّاهم مثل ما يُقرضونا	وقالوا نرى أن تدينوا له
فقلنا رضينا ابن هند رضينا	ومن دون ذلك خرط القتاد
فقلنا ألا لا نرى أن نديننا	
وضرب وطعن يقر العيونا <sup>(٤)</sup>	

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ١١٥ ، وفي البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٥ «وكلت في أطوع جند وأقله خلافاً..».

(٢) البيان والتبيين: ج ١ ص ١٧٢ .

(٣) راجع هامش ١ في نفس الصفحة.

(٤) الكامل في اللغة والأدب: المفرد: ج ١ ص ٢٢٢-٢٢٣ .



### ردود على المغالطات الأممية

وقد رد الإمام على مغالطات معاوية وأكاذيبه وإيحاءاته المضللة قائلاً: «وأما تَبَيِّنُكَ  
بَيْنَكَ وَبَيْنَ طَلْحَةَ وَالظَّيْرَ وَأَهْلَ الشَّامِ وَأَهْلَ الْبَصَرَةِ فَلَعْمَرِي مَا الْأَمْرُ فِيهَا هُنَاكَ إِلَّا سَوَاءَ  
لأنَّهَا بَيْعَةٌ شَامِلَةٌ لَا يَسْتَشْنِي فِيهَا الْخَيْرُ وَلَا يَسْتَأْنَفُ فِيهَا النَّظَرُ»<sup>(١)</sup> كما رد شاعر عراقي<sup>(٢)</sup>  
مكذباً زعم معاوية وشاعره بأن الأمر أمر صراع بين أهل العراق وأهل الشام.. وإنما  
جعل معاوية أهل الشام بمواجهة الأمة كلها بما فيهم ثقلها الكبير أهل العراق وأهل  
الحجاز - أي مركز العاصمة الإسلامية - المدينة - وکعبـة المسلمين مكة.

دَعْنْ يَا مَعَاوِيَ مَا لَنْ يَكُونُوا  
فَقَدْ حَقَقَ اللَّهُ مَا تَحْذِرُونَا

أَتَكُمْ عَلَيْيِّ بِأَهْلِ الْعَرَاقِ  
وَأَهْلِ الْحَجَازِ فَمَا تَصْنَعُونَا؟

وكان هذا الإيحاء المضلل من قبل معاوية بشأن أهل الشام، وأنهم الفتنة المنصورة  
والمسددة، مع ما كان يدفعه إليهم من أموال يستميلهم بها، طريقة ذكية جديرة أن تفعل  
 فعلها فيهم وفي جماهير واسعة من أبناء المجتمع الإسلامي لو لم يتصد أمير المؤمنين عليه السلام  
لتلك الأضاليل والمزاعم ويفندها أمام الأمة ويكشفها ببيانه وحججه القوية الواضحة  
ويذكر الأمة دائمًا ببطلانها وزيفها وضعف الأسس التي تقوم عليها.. فقد ذكر الإمام  
في جملة من رسائله وخطبه وأحاديثه جملة من الأقوال تطرق فيها إلى مزاعم معاوية  
وأكاذيبه بشأن أهل الشام منها: -

«وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصٍ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعَرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ»<sup>(٣)</sup>.

«وَأَمَّا قَوْلُكَ أَنَّ أَهْلَ الشَّامِ هُمْ حُكَّامُ أَهْلِ الْحَجَازِ، فَهَاتَ رَجَلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ يَقْبِلُ

(١) الكامل في اللغة والأدب: المبرد: ج ١ ص ٢٢٥.

(٢) هو النجاشي أحد بنى الحمرث، انظر الكامل في اللغة والأدب: المبرد: ج ١ ص ٢٢٥ ..

(٣) مروج الذهب: المسعودي ص ١٧.



في الشورى أو تحل له الخلافة»<sup>(١)</sup>.

«ألا وإن معاوية قاد ملأ من الغواة وعمّس عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنية»<sup>(٢)</sup>.

«ألا وإن أخواف الفتنة عندي عليكم فتنةبني أمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة عمت خطتها، وخصت بليتها وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها. وايم الله لتجدنبني أمية لكم أرباب سوء بعدي.. لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعا لهم أو غير ضائير لهم»<sup>(٣)</sup>.

«[أهل الشام، جفاة طغام، وعييد أقزام، جُمعوا من كل أوب وتلقظوا من كل شوب، من ينبغي أن يفقهه ويؤدب ويعلم ويدرب ويولى عليه، ويؤخذ على يديه، ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا من الذين تبُوا الدار والإيمان]»<sup>(٤)</sup>.

«ومتى كتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمر الأمة؟ بغير قدم سابق، ولا شرف باسته»<sup>(٥)</sup>.

«ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا المهاجر كالطليق ولا الصحيح كاللصيق ولا الحق كالمبطل ولا المؤمن كالمدغل، ولبيس الخلف خلف يتبع سلفاً هو في نار جهنم»<sup>(٦)</sup>.

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٧٧.

(٢) نهج البلاغة: ص ٨٩.

(٣) نهج البلاغة: ص ١٣٨.

(٤) نهج البلاغة: ص ٣٥٧.

(٥) نهج البلاغة: ص ٣٧٠.

(٦) نهج البلاغة: ص ٣٧٤.

إلى معاوية «وأرديت جيلاً من الناس كثيراً، خدعتهم بغيك، وألقيتهم في موج بحرك، تغشهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجازوا عن وجهتهم ونكصوا على أعقابهم، وتولوا على أدبارهم، وعولوا على حسابهم». <sup>(١)</sup>

«فسبحان الله! ما أشد لزومك للأهواء المبتدةعة والخيرة المتبعة مع تضييع الحقائق واطراح الوثائق التي هي لله طلبة، وعلى عباده حجة» <sup>(٢)</sup>.

«فإنما هو [معاوية] الشيطان، يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماليه، ليقتحم غفلته، ويستلب غرته» <sup>(٣)</sup>.

«أهل الشام العمى القلوب، الصنم الأسماع، الكتم الأبعاد، الذين يلبسون الحق بالباطل، ويطعون المخلوق في معصية الخالق ويحتلبون الدنيا رذها بالدين، وينشرون عاجلها بأجل الأبرار المتقين» <sup>(٤)</sup>.

«وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ، لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَ فِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ» <sup>(٥)</sup> وفي هذا إشارة واضحة إلى شدة طاعة أهل الشام لمعاوية.

إلى معاوية «فَعَدَوْتَ عَلَى [طَلَبِ] الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ [وَ طَلَبَتِي] فَطَلَبَتِي بِمَا لَمْ تَجِنْ يَدِي وَ لَا لِسَانِي وَ عَصَبَتِه [عَصَبَتِه] أَنْتَ وَ أَهْلُ الشَّامِ بِي، وَ أَلَّبَ عَالَمُكُمْ جَاهِلَكُمْ

(١) نهج البلاغة: ص ٤٠٦.

(٢) نهج البلاغة: ص ٤١٠.

(٣) نهج البلاغة: ص ٤١٦.

(٤) نهج البلاغة: ص ٤٠٧.

(٥) نهج البلاغة: ص ١٤٢.



وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ»<sup>(١)</sup>.

«إني من ضلاظم الذي هم فيه والمدى الذي أنا عليه لعلى بصيرة من نفسي ويقين من ربي»<sup>(٢)</sup>.

إلى معاوية «فقد سلكت مدارج أسلافك بادعائك الأباطيل واقتحامك غرور المين والأكاذيب وبانتحالك ما قد علا عنك، وابتزازك لما قد اخترن دونك، فراراً من الحق وجحوداً لما هو ألزم لك من حملك ودمك مما قد وعاه سمعك وملئ به صدرك، فما زالت الحق إلا الضلال المبين، وبعد البيان إلا اللبس؟ فاحذر الشبهة واشتمها على لبستها، فإن الفتنة طالت أغدق جلابيها، وأعشت الأبصار ظلمتها»<sup>(٣)</sup>.

«معاوية الذي لم يجعل الله عز وجل له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام طليق ابن طليق حزب من هذه الأحزاب لم يزل لله عز وجل ولرسوله ﷺ وللمسلمين عدوا هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين فلا غرو إلا خلافكم معه وإنقيادكم له وتدعون آل نبيكم ﷺ الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً»<sup>(٤)</sup> «أوليس عجبًا أن معاوية يدعو الجفاوة الطغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة! ويحييونه في السنة المرتين والثلاث إلى أي وجه شاء»<sup>(٥)</sup>.

### أهل الشام، أول ضحية لمعاوية

لقد كان من الطبيعي أن يقع أهل الشام ضحية أغواء معاوية وايحاءاته وتأثيراته

(١) نهج البلاغة: ص ٢٤٦.

(٢) نهج البلاغة: ص ٤٦٧.

(٣) نهج البلاغة: ص ٤٥٢.

(٤) تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٨٠.

(٥) تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ١٣٤، ونهج البلاغة: ص ٤٥٦.

القوية تحت ظروف استئثار طبقة من قبله بكل مقدرات الشام مع وجود الخلافة التي عيشه في منصبه والياً على الشام.. ويمكن القول أنه كان يتصرف خارج دائرة نفوذه الخليفة.. بل ذهب إلى أبعد من ذلك في أيام عثمان إلى درجة أنه اعتبر أن الولاية حق مشروع له ولعائلته فقط.. وقد احتاج على أمير المؤمنين وعلى بعض من رضوه، بأنه إنما كان معيناً من قبل غيره. وبدت الفترة الزمنية الطويلة التي أمضاها والياً على الشام وكأنها ايدان له للاستمرار في الولاية طيلة حياته، ولو أنه كان يضمن رضا الإمام عليه السلام ببقائه واستمراره لكن من أول المؤيدين له، إلا أنه كان يعرف موقف الإمام عليه السلام ويكدره حق التقدير، لذلك فإنه تصرف منذ البداية وفق تقديراته ومعرفته الذكية بالإمام عندما أدرك أنه لن يحصل على أي شيء في ظل القيادة الجديدة، بل أنه سيجرد من كل (المكتسبات) التي حصل عليها في السابق ومن كل ما سرقه واستأثر به من ثروات ومقدرات الأمة المغلوبة.

وكان على أمير المؤمنين أن يتصدى بكل قوة لكشف القوة (المعارضة) التي ترفض قيادته والمتمثلة بمعاوية وعمرو بن العاص بعد سقوط حلف الجمل الثلاثي وانهزام فلوله أمام جيش الإمام.

### **كب ودهم لكي ينفذوا مخططاته الشيطانية**

إن معاوية لم يكن بالمرء الهين الذي يتنازل بسهولة عن ملك طويق عريض بمجرد تذكيره بمبادئ الإسلام وقيمه، وقد عمد بوقت واحد إلى جملة من الأساليب المخادعة المضللة كان في مقدمتها تبني قضية مقتل عثمان والمطالبة بدمه وتحميل الإمام مسؤولية السكوت عنه ثم التحرير عليه ثم الایحاء لأهل الشام بأنهم الفئة المنصورة التي ستأخذ على عاتقها الانتقام (لإمام الأمة المظلوم) على حد تعبيره، واستخلاصهم لنفسه واغداد الأموال عليهم، واستهالة بعض رؤساء القبائل (والأشراف) من كانوا



محسوبين في الظاهر من أتباع الإمام عليه السلام ومحاولة الإيقاع بين البقية منهم ومحاولته الماكرة لرفع المصاحف قبيل مهزلة التحكيم التي اجبر عليها الإمام عليه السلام من قبل الفئات المنافقة والجاهلة والمشترة بأموال معاوية والتي كانت ضمن جيش الإمام... وحملاته الإرهابية على أطراف العراق والنجاش بقيادة بسر بن أرطأة وغيره لقتل كل من عرف عنه موala الإمام وأهل بيته... وقد تشعبت أساليب معاوية وطرقه، وعمد إلى رصد الأموال الطائلة التي كانت بين يديه لتنفيذ مخططاته.

ومع أن الإمام عليه السلام لم يعمد إلى ما عمده إليه معاوية من أساليب لا تمت إلى الإسلام بصلة، إلا أنه بذل جهوداً مضنية لكشف أقنعة الزيف التي تقنع بها وحاول جاهداً تخلص من جرهم إلى ضلاله وغواياته مدركاً أنه يتمتع بإمكانات شيطانية هائلة جعلته عليه السلام يصرح دون تحفظ أن معاوية هو الشيطان الذي تسلح بكل قوى الشر التي تحبس بين جوانحه... وقد رأينا كيف أن البعض أراد الإمام أن يلتجأ إلى المساومة (وهو أحد أساليب معاوية نفسه)، إلا أنه رفض ذلك مطلقاً، عازماً على رفع الإسلام وقيمته سلاحاً وحيداً أمام قوة الشر التي هبت مع هذا العدو المقنع، فكان في مقدمة مهام الإمام كشف شخصية معاوية ودحض مفترياته بشأن أهل الشام الذين التحقوا بركب الإسلام مؤخراً، ولم تكن لهم به معرفة الأنصار والمهاجرين الأوائل من أهل الجزيرة.

كانت مهمة كشف معاوية وتعريفه وبيان نوایاه وأساليبه تترافق مع المهام الكبيرة التي قام بها الإمام عليه السلام لانتشار الأمة من الضياع والغفلة وردها إلى حضرة الإسلام وتحصينها ضد الاغراءات التي يلوح بها عدوها. لقد كان عليه السلام يدرك أن هذا العدو بلاء مبرم، وأنه ليس بالمرء الهين البسيط أو الواضح الذي يمكن مناقشته وردّه وإنما كان إنساناً ملتوياً، بل شيطانٌ تلبس بصورة إنسان، وكان يدرك أن المعركة معه ستكون شاقة بعد الملابسات والظروف التي أدت إلى خروج الكثيرين عليه بدافع حرصهم على

مصالحهم وفهمهم الخاطئ للإسلام.

ولقد وجدها - يتلأ أشد الألم من هذا العدو الماكر الذي يبعث بالأمة ومقدراتها خصوصاً وأنه يجد أن هناك من لا يخرج من المقارنة بينه هو ﷺ وبين هذا العدو الخبيث كما بینا من قبل.

### كل شيء مشروع أمام طموحات فرعون.. الغاية تبرر الواسطة

إن من الطبيعي أن يسعى حاكم مثل معاوية، لتعزيز سلطته ونفوذه، بمختلف الوسائل المتاحة، خصوصاً وأنه يمتلك منها القدر الذي يحقق طموحاته ورغباته.. ومن أول هذه الوسائل وفي مقدمتها، القوة والعنف. وهو أمر قد يستغربه العديدون رغم وضوحاً وجود الأدلة الكثيرة عليه، إذ إن المعلوم عن هذا الرجل أنه كان حليماً وداهية وأنه من أهل المكر والخديعة ما وجد إليهما سبيلاً... وقد حفلت كتب التاريخ والسيرة والأدب بأمثلة عديدة وقصص شائقة عن (حلمه) و (دهائه)، غير أنها لو نظرنا إلى حوادث التاريخ نظرة متفحصة لأدركنا أن تفكيره ينصب أول ما ينصب على التصدي بالقوة لكل ما يقف أمام طموحاته ورغباته، وأنه إنما استغل (دهاءه) الشهير لتحقيق الغلبة على (العدو)، بل أن أول ما أخذ بنظر الاعتبار هو إعداد قوة يتصدى بها لهذا العدو الذي كان أمير المؤمنين ﷺ نفسه واتباعه، هذا الإمام الذي ابتلي بمعاوية وابتلي معاوية به كما ذكر - في إحدى رسائله إليه: «وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي: فجعل أحذنا حجة على الآخر، فعدوت على الدنيا بتأويل القرآن، فطلبتني بما لم تجنب يدي ولا لسانني، وعصيتك أنت وأهل الشام بي، وألّبَ عالمكم جاهلكم، وقائمكم قاعدكم...»<sup>(١)</sup>.

(١) نهج البلاغة: ص ٤٤٦.



### نقد الإمام لأهل الشام.. استهدف تخلصهم من الورطة الأموية

ولم يكن نقد الإمام لأهل الشام لأنهم أهل الشام، بل أراد أن يوضح بذلك أنهم كانوا نتاجاً أموياً متأثراً بمعاوية ولمساته وصبغته الشيطانية، وقد أراد الإمام كشف واقعهم أمام الأمة وأمامهم هم، كما أنه عمل بنفس الوقت على تعرية معاوية وبعض أتباعه (الكبار) أمثال عمرو بن العاص ومروان، لكي يظهروا بصورتهم الحقيقية أمام الأمة كلها ومنهم أهل الشام المخدوعون به والمنقادون وراءه انقياداً أعمى.

وقد اتجه الإمام اتجاههاً إيجابياً عندما أوضح خطة معاوية لخداع أهل الشام ولم يكن ينطلق من عداء خاص لهم وإنما كان يتوجه لتخلصهم من الورطة التي أوقعهم فيها معاوية.. إنه كان يذوبأسفاً على حالم التردية وهم يخوضون خلف معاوية في الباطل، وكان يأمل أن يخلعهم من تلك الحال ويذهب إلى حد المطالبة بالدعاء لهم عسى أن يفيقوا من ضلالتهم ويتراجعوا عن خطئهم، لذلك نراه  يمنع قوماً من أصحابه سمعهم يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين؛ لأنه يدرك أن اللجوء إلى أسلوب السب، أسلوب سلبي يعمل على توسيع الشقة بين المسلمين، وأنه سيقابل بأسلوب مماثل من الطرف الآخر، مما سيكون من شأن ذلك أن يجعل من (المعركة) معركة شخصية وليس معركة من أجل الإسلام «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم أحقن دماءنا ودماءهم، وأصفح ذاتَ بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به»<sup>(١)</sup>.

إن وصف أعمالهم سيكون في مقدمة الأفعال الإيجابية التي تجعلهم يدركون كما تدرك الناس كلها الأخطاء التي وقعوا فيها، وسيكون من شأن ذلك أن يقوم بعضهم

---

(١) نهج البلاغة: ص ٣٢٣.

على الأقل في البداية على تصحيح تلك الأخطاء وتجاوزها. وبذلك فإنهم سيتخلصون من الورطة التي وقعوا فيها بدلاً من الذهب في الخطأ إلى النهاية، وهي مهمة أخذ الإمام عليه السلام على عاتقه القيام بها، فأهل الشام جزء من الأمة وصلاحهم نصر للأمة كلها، واندفعهم في طريق الشر الذي رسمه معاوية لهم خسارة للجميع بما فيهم أهل الشام أنفسهم كما أن من شأن ذلك أن يظهر أهل الشام على حقيقتهم. وقد فعلت حملة الإمام الاعلامية عملها في نفوس المسلمين وأدركوا إلى أي حد كان أهل الشام منساقين وراء أباطيل معاوية وضلاله وكان نتيجة ذلك أن «أمير المؤمنين علي قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت لما ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشام. فبينما هو يتجهز للمسير قتل عليه السلام»<sup>(١)</sup>.

#### الارهاب.. الأسلوب الأمثل لتوطيد دعائم الملك الأموي

ولم تكن القوة والارهاب الحل الأخير الذي يلجأ إليه معاوية عندما تعبيه الحيل وتسد أمامه الطرق الأخرى، بل إنها يقفان في مقدمة الحلول لجسم مشاكله وخصوصياته، ولم يخفف معاوية من غلوائه وأساليبه الإرهابية العميقية إلا عندما استبانت له الأمور وسيطر على (المملكة الإسلامية) برمتها ولم يعد يشعر بوجود خطر حقيقي يقف بمواجهته، وعند ذلك فقط حاول أن ينشر أسطورته بخصوص دهائه وحلمه..، مع أن سلاح الدهاء والحيلة هذا قد استخدمه منذ البداية جنباً إلى جنب مع سلاح العداون والارهاب. ومع أن المؤرخين يوردون حقائق كثيرة ووقائع متعددة لغارات شنها معاوية وأعونه، فإنهم يتنا夙ون بعضها ربما في غمرة الاعجاب (بالدهاء) المتفوق والاستثنائي الذي عرف به هذا الطاغية. فهذا قائد «بسير بن أرطأة العامري... قتل بالمدينة، وبين المسجدتين خلقاً كثيراً من خزاعة وغيرهم، وكذلك بالجرف قتل بها خلقاً

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٧١.



كثيراً من رجال همدان وقتل بصنعاء خلقاً كثيراً من الأبناء ولم يبلغه عن أحد أنه يهالي عليهأً أو يهواه إلا قتله»<sup>(١)</sup>

### مسرحية الاستخلاف

ولا تفوتنا المسرحية التي أعدها معاوية عندما نصب مجلسه (لاستشارة) الناس لأخذ البيعة ليزيد، وتلوّيجه بالقوة لمن يرفض ذلك، عندما «قام رجل من الأزد فأشار إلى معاوية وقال: أنت أمير المؤمنين، فإذا مت فأمير المؤمنين يزيد، فمن أبي هذا، فهذا وأخذ بقائم سيفه فسلّه» فقال له معاوية: أقعد فأنت من أخطب الناس»<sup>(٢)</sup>.

ويينبغي أن لا ننسى أن معاوية أول من ابتكر طريقة القتل صبراً في صفوف المسلمين وبدأ بأحد رجال الإسلام المرموقين وهو حجر بن عدي الكندي، ففي «سنة ثلاثة وخمسين قتل معاوية حجر بن عدي الكندي، وهو أول من قتل صبراً في الإسلام»<sup>(٣)</sup> وهو أمر نقم عليه بسببه الكثiron من رجالات المسلمين فقد «روي عن الحسن البصري أنه كان ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله علياً وقتله حجر بن عدي واستلحاقه زياد بن أبيه ومبaitته ليزيد ابنه»<sup>(٤)</sup>.

ولا ننسى أن نشير إلى قيام معاوية بدس السم لأعدائه بعد أن أعيت حيله معهم وفي مقدمة هؤلاء الإمام الحسن<sup>عليه السلام</sup> ومالك الأشتر، أشهر أعون أمير المؤمنين<sup>عليه السلام</sup> وعبد

(١) مروج الذهب: ص ٢٧ وراجع الطبرى ج ٣ ص ١٥٣-١٧٠ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٥٠-٢٥٢.

(٢) مروج الذهب: ص ٣٤ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٥٢.

(٣) مروج الذهب: ص ٣ والطبرى ج ٣ ص ٢١٨ وما بعدها والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٢٦ وما بعدها.

(٤) البداية والنهاية: ص ٨-١٣٣.



الرَّحْمَنُ بْنُ الْخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ<sup>(١)</sup>.

وقد امتدت حملات معاوية الارهابية إلى كل أجزاء الدولة الإسلامية ووصل بعض أتباعه إلى الكوفة نفسها<sup>(٢)</sup>.

#### نماذج من أعماله الارهابية

فقد وجه معاوية «النعمان بن بشير في الفي رجل إلى عين التمر. فأغاروا عليها» «ووجه معاوية في هذه السنة [سنة تسع وثلاثين] سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل وأمره أن يأتي هيـت فيقطعها، وأن يغير عليها، ثم يمضي حتى يأتي الأنبار والمدائـن فيقع بأهلها. وفيها وجه معاوية أيضاً عبد الله بن معدة الفزارـي في ألف وسبعيناً رجل إلى تيماء وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادي، وأن يقتل من امتنع من اعطائه صدقة ماله، ثم يأتي مكة والمدينة والحجـاز يفعل ذلك.

ووجه معاوية الضحاك بن قيس وأمره أن يمر بأسفل واقصـة، وأن يغير على كل من مر به من هو في طاعة عليـ من الأعراب، ووجه معه ثلاثة آلاف رجل، فسار وأخذ أموال الناس، وقتل من لقيـ من الأعراب، ومر بالشـعلية فأغار على مسالـح عليـ وأخذ أمتعـهم. وفيها سار معاوية بنفسـه إلى دجلـة حتى شارـفـها<sup>(٣)</sup>.

وفي سنة أربعين أرسل معاوية «بـسر بن أبي أرطـأة في ثلاثة آلاف من المقاتـلة إلى الحـجاز وأخذ بـيعة أهلـها لـعاوية.. وهـدم بـسر دورـاً بالـمدينة ثم مضـى حتى أتـى مـكة.

ثم مضـى بـسر إلى الـيمـن وقتل عـاملـها وقتلـ ابنـه، ولـقـي بـسر ثـقل عـبد الله بن عـباس

(١) راجـع الطـبرـي: ج ٣ ص ٦٥-١٢٧-٢٠٢ والـكامـل فيـ التـارـيخ ٣٠٩-٢٢٧-٣٠٩ وـمـروـج الـذهب ٣/٥.

(٢) راجـع الطـبرـي: ج ٣ ص ١٤٩-١٥٠ والـكامـل ٣-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٧-٢٤٨.

(٣) راجـع الطـبرـي: ج ٣ ص ١٥٠.



وفيه ابناء له صغيران فذبحهما. وقتل بسر في مسيرة ذلك جماعة كثيرة من شيعة علي باليمين<sup>(١)</sup>.

وبسر هذا نفسه ولاه معاوية البصرة بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام وصلح الحسن عليه السلام فاستعمل أشد الأساليب إرهاباً.

وفي سنة اثنين وأربعين «سار بسر بن أبي أرطاة العامري إلى المدينة ومكة واليمين وقتل من قتلها في مسيرة ذلك من المسلمين... أقام بسر بن أبي أرطاة بالمدينة شهرًا يستعرض الناس ليس أحد من يقال هذا أعاد على عثمان إلا قتله... وجد قوماً من بني كعب وغلماً منهم على بئر لهم فألقاهم في البئر»<sup>(٢)</sup>.

ولن تنسى التهديدات التي أطلقها معاوية وعماله لكيج جماح المعارضين. والكل يعلم أنه ما كان يتورع عن تنفيذ تهدياته بنفس الأساليب التي نفذها بسر بن أرطاة وزياد بن أبيه وسمرة بن جندب ومسلم بن عقبة المري فيما بعد في المدينة بعد هلاك معاوية وواقعة الطف المعروفة.

«وهل يخصى من قتل سمرة بن جندب! استخلفه زياد على البصرة، وأتى الكوفة فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت. قتل سمرة في غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جمع القرآن»<sup>(٤)</sup>.

وبذلك اعطي معاوية شرعية للارهاب في سبيل توطيد دعائم (ملكته الاسلامية)

(١) تاريخ الطبرى: ج ٣ ص ١٥٣ ، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٥١ .

(٢) يراجع تاريخ الطبرى: ج ٣ ص ١٧٠ .

(٣) تاريخ الطبرى: ج ٣ ص ١٧٥ .

(٤) تاريخ الطبرى: ج ٣ ص ٢٠٨ .

وجعل ذلك سنة لدول الظلم الاحقة حتى يومنا هذا، واعطى المبررات للمتطرفين للقيام بأشد الاعمال قسوة بدعوى الجهاد لاقامة (مالك اسلامية) مشابهة للملكة الاموية الاولى.

### حصانة لأعوان الدولة.. مصونون غير مسؤولين

وتدل حادثة بسيطة على مدى ما يستشعره الناس من خوف شديد من معاوية، عندما أقدم أحد ولاته على البصرة وهو عبد الله بن عمر بن غيلان على قطع يد شخص حصبه أثناء القاء خطبته. وقد أتت القبيلة التي يتتمي إليها هذا الشخص إلى الوالي فقالوا: «إن صاحبنا جنى ما جنى على نفسه، وقد بالغ الأمير في عقوبته، ونحن لا نأمن أن يبلغ خبره أمير المؤمنين [معاوية]؛ فياقى من قبله عقوبة تخص أو تعم». فإن رأى الأمير أن يكتب لنا كتاباً يخرج به أحدهنا إلى أمير المؤمنين يخبره أنه قطعه على شبهة وأمر لم يتضح. فكتب لهم بعد ذلك إلى معاوية<sup>(١)</sup> وقد جعلوا الكتاب ذريعة للشكوى على العامل وأنه قطع ذراع أخيهم على شبهة وأمر لم يتضح فأجابهم معاوية «أما القود من عمالي فلا يصح»<sup>(٢)</sup>. وفي هذا ما فيه من تجاوز صريح على حدود الإسلام ودلالة واضحة على اطلاق يد العمال في أعمال الإرهاب، الأمر الذي لم يكن يريد أن يظهر به أمام الأمة، وإنما أراد الظهور بمظهر الجود الحليم الذاهية. وقد استمعنا إلى جوابه على رسالة زياد التي احتج فيها على معاوية؛ لأنه أمن رجلاً يطلبه زياد و قوله له بأن يكون هو من يظهر بمظهر الرجل الهين الرحيم ويظهر زياد بمظهر الغلظة والشدة ليتسنى لها السيطرة على الناس ولئلا يفلت الزمام من أيديهما.

(١) تاريخ الطبرى: ج ٣ ص ٢٤٥.

(٢) تاريخ الطبرى: ج ٣ ص ٢٤٥.



### كشف الانحراف.. لا داعي للتلمحيات

وينبغي أن لا تغيب عن أذهاننا تهديدات معاوية وخطبه الم موضوعة بدقة والتي أراد من ورائها تخويف الأمة بجمعها وإرهابها وحملها على السكوت تجاه كل تصرفاته وتصرات عماله وأقطاب حكومته، وكان يعلم أن تهديداته ستنتشر في أرجاء مملكته بالسرعة التي يتاح فيها لراكب المطي أن يبلغ غايته.

ففي أول خطبة خطبها في المدينة بعد انفراده بالسلطة وفي العام الأول نفسه الذي أطلق عليه خطأً - وبفعل مقصود أيضاً — عام الجمعة، قال: «إني ما والله وليت أمركم، حين توليته. وإذا أعلم أنكم لا ترون بولايتي ولا تحبونها، وإنى لعلم بما في نفوسكم من ذلك. ولكنني خالستكم بسيفي هذا الخالسة. والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه. وإياكم والفتنة فلا تهموا بها»<sup>(١)</sup>.

وقال في خطبة أخرى: «يا أهل المدينة: إني لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق يعيون الشيء وهم فيه، وكل امرئ منهم شيعة نفسه، فاقبلونا بما فينا»<sup>(٢)</sup> ولا يخفى ما وراء هذه الإشارة إلى أهل العراق، وما لا قوه على يديه بسبب مواقفهم منه، والتهديد المبطن بأنه سيلجأ مع كل خارج عليه إلى ما جأ إليه معهم.. ولا يخفى خوفه من النقد هنا ودعوته الناس لقبوله - على علّاته - كما هو.

وقال في خطبة أخرى «وإياكم والتي إذا أخفيت أوبقت، وإن ذكرت أو ثقت»<sup>(٣)</sup>.

ولعل خطب عمال معاوية وهم من خواصه وأقاربه، وتهديداً لهم لا تقل عن خطب وتهديدات معاوية، بل ربما فاقتها. فمعاوية على أي حال يتكلف الظهور بمظهر

(١) البداية والنهاية ابن كثير: ج ٨ ص ١٣٢.

(٢) العقد لفريد: ج ٥ ص ٣٦٤-٣٦٥.

(٣) العقد لفريد: ج ٤ ص ٨٢.



الحليم الرشيد، أما هؤلاء الولاة فهم لا يتكلفون ذلك، بل لعل معاوية يدفعهم إليه. فقد خطب عتبة ابن أبي سفيان لما وله أخوه معاوية امرة موسم الحج عام ٤١هـ أي بعد انفراده بالسلطة، وتوجه إلى الأمة بهذا المقال العنيف: «فلا تندوا الأعناق إلى غيرنا فإنها تنقطع دوننا، ورب متمن حتفه في أمنيته. أقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم، وإياكم ولو، فقد أتعبت من كان قبلكم ولن تريح من بعدهم»<sup>(١)</sup> فهو هنا يحذر الناس حتى من مجرد الأمنيات بزوال حكم بنى أمية.

كما هدد عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق أهل المدينة لما أصبح واليًا عليها وذلك في خطبة له في مسجد رسول الله ﷺ وذلك لمجرد أن أهل المدينة بدؤوا ينظرون إليه..! «ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إليّ أبصاركم، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم؟ أغركم أنكم فعلتم ما فعلتم فغفونا عنكم؟ أما إنه لو أثبتم بالأولى ما كانت الثانية؛ أغركم أنكم قتلتم عثمان فوافقتם ثائرنا منا رفيقا؟ قد فني غضبه وبقي حلمه؟ اغتنموا أنفسكم، فقد والله ملكتناكم بالشباب المقتبل، البعيد الأمل الطويل الأجل، حين فرغ من الصغر، ودخل في الكبر، حليم حديد، ليّن شديد رقيق كثيف، رفيق عنيف، حين اشتد عظمه. واعتدل جسمه، ورمى الدهر بيصره، واستقبله بأثره، فهو إن عض نهس، وإن سطا فرس، لا يقلقل له الحصى، ولا تقع له العصا، ولا يمشي السُّهْمِي». <sup>(٢)</sup>

وخطب مهدداً أهل مكة لما استعمله أبوه واليًا عليها: «فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا حتى شرب الدم دماً، وأكل اللحم لحماً وقرع العظم عظماً وعاد الحرام حلالاً وأسكت كل ذي حس عن ضرب مهند عركاً عركاً وعسفاً عسفاً وذخراً وذخراً، حتى طابوا عن حقنا نفسا. والله ما أعطوه عن هواه ولا رضوا فيه بالقضاء. أصبحوا يقولون: حقنا

(١) الكامل في اللغة والأدب: المبرد: ج ٣ ص ٣١٢-٣١١.

(٢) العقد الفريد: ج ٤ ص ١٣٢.



غلبنا عليه. فجزيناه هذا بهذا وهذا في هذا. يا أهل مكة: أنفسكم أنفسكم وسفهاءكم سفهاءكم! فإن معى سوطاً نكالاً وسيفاً وبالاً، وكل منصوب على أهله». <sup>(١)</sup>

ولسنا بصدق إبراد كل الشواهد والخطب والكلمات التي صدرت عن معاوية وعماه وحاشيته، فالأمر يحتاج إلى كتاب مستقل. غير أن الذي نحب أن نؤكده عليه هو أن الناس تدرك أن الحكم الأموي ما كان يتورع عن تنفيذ تهدياته في خضم سعيه المحموم للتشبث بالملك الذي وصل إليه الحكم على أشلاء الناس ورقبتهم.. وعليه فلا يظنّ أحد أن تلك التهديات كانت مجرد كلام لا غير، وأن معاوية وأعوانه لا يهدرون من ورائهما سوى تخفيف غلواء أعدائهم. بل أن العنف الأموي كان سمة مميزة لهم أدركها الناس وعرفوا إلى أي مدى كان بنو أمية شغوفين به.

#### مثـل أـعلـى (ـوـاطـئـ)

إن المتبع لسيرة معاوية وتاريخه يدرك، بلا شك، أن هذا الرجل كان يسعى بخطى حثيثة لوضع مثل أعلى أئمة المسلمين، معاير للمثل الأعلى الذي دعا إليه رسول الله ﷺ وجسّده بسلوكه وتصرفاته، وهو الإسلام وقيمه ومبادئه، وكان لا بد، لوضع هذا المثل الأعلى (الوطائـ) المتمثل به وبعائلته التي حاول أن يتمتّز بها عن بقية أبناء الأمة، موضع الصدارـة لكي تتطلع إليه هذه الأمة باستمرار بدلاً من التطلع إلى المثل الأعلى الحقيقي.. وهذا ما احتاج إلى تمهيد يأخذ بأذكى الأساليـب وأمـكرها وأشدـها تعـقـيـداً وأـكـثـرـها قـدـرة على التسلـل من جـوانـب الـضـعـفـ المـتـاحـةـ منـ الـجـمـعـ الـمـسـلـمـ الـذـيـ كانـ قـرـيبـ عـهـدـ بالـجـاهـلـيـةـ، وـمـاـ كـادـ يـرـىـ الإـسـلـامـ وـيـؤـمـنـ بـهـ وـيـحـاـوـلـ تـحـكـيمـهـ فـيـ حـيـاتـهـ حـتـىـ شـهـدـ حـمـلةـ مضـادـةـ لـتـشـويـشـهـ وـسـلـخـهـ عـنـ الـحـيـاةـ وـمـسـخـهـ وـجـعـلـهـ صـنـيـاًـ دونـ رـوحـ اوـ حـيـاةـ.. وـمـاـ كـادـ يـبـرـزـ عـلـىـ السـاحـةـ كـقـوـةـ قـائـدـةـ وـحـيـدةـ حتـىـ بـرـزـتـ مـعـهـ أـشـكـالـ جـدـيـدـةـ مـنـ الـصـرـاعـ قـادـهاـ

(١) العقد الفريد: ج ٤ ص ١٣٣.

نفس أولئك الذين قادوها في بداية الدعوة الإسلامية. وقد حاول أمير المؤمنين عليه السلام أن ينبه الأمة إلى خطر ذلك، واتخذت حملته طابعاً دائمياً منظماً، إلا أن الذين فتنوا الأمة حاولوا أن يصوروه عليه السلام طرفاً في هذه الفتنة، بل وطرفاً رئيسياً فيها.

وإذ إن الأحداث سارت بالشكل الذي انحرف بها عن مسارها الطبيعي منذ وفاة الرسول صلوات الله عليه وآله، فإنها استمرت تسير بدرجة أوسع من ذلك الذي شهدته أول مرة، وكان تسارع الانحراف في عهد عثمان يبدو أنه في صالح معاوية وأنه تمهد لنمط مثل نمط حكمه خروجاً سافراً عن الإسلام. ولعل الملاحظ يجد أن معاوية قد أفاد فائدة كبرى من ذلك وسعى لتعزيز مركز مدرسته الانتهازية العبئية التي لا ترى أمامها أي مثل أعلى تتطلع إليه غير المصالح والمنافع الخاصة والامتيازات الشخصية. ولئن قالها أبو سفيان في عهد عثمان «تلقوها يا بنى أمية تلتف الكرة» و قالها كثيرون غيره من (خلفاء) بنى أمية صراحة، فإن مؤسس الدولة الأموية وعاهلها جسد تلك المقوله عملياً من خلال استئثاره بالسلطة استئثاراً تماماً واستيلائه عليها كحق أموي خالص.

وقد ركز اهتمامه منذ البداية خلال حكمه عاملاً على الشام و ( الخليفة ) بعد ذلك، على أهل الشام واتخاذهم بطانة له كما اتخذ الشام مقراً للخلافة باعتبارها المكان الأثير المحبوب المستجيب، وقد أراد الشام أن تكون مركزاً لنشر فلسفته وأطروحته الأموية النفعية، المتطلعة للإمساك بمراكز القوى والجاه والنفوذ والثروة في كل أرجاء العالم الإسلامي، لكي تستجيب له كلها كما استجابت له الشام. وتحاول إلى صفة كما اناهارت هذه.

وتكشف وصيته ليزيد عن مدى تأثيره بأهل الشام - باعتبارهم لم يسمعوا إلا صوته ولم يروا إلا بعينيه - كما تكشف عن مدى مخاوفه من تأثيرهم بغيرهم إذا ما اختلطوا ببقية أبناء الأمة وهذا ما حذر منه بشدة في هذه الوصية، «وانظر أهل الشام



فليكونوا بطانتك وعيتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم»<sup>(١)</sup>.

### فلسفة أم عبّث

«فَمَا أَخَذَ مِنْ مَالِ اللَّهِ فَهُوَ لَيْ

أما ما هي (فلسفته) أو مذهبه الذي نشره بين أهل الشام وأرادهم أن يتبنوه، وما هي نتائج نشره لهذا المذهب؟ إن واقع أهل الشام يخبرنا عن ذلك. لقد أراد تحديدهم بين الإسلام وبين الكفر، بل أن يميل بهم إلى الكفر على نحو متستر خفي، ولم يرد لهم أن يتعلموا إلا على يد (المعلمين) الذين تخرجوا من مدرسته وأعادّهم هو واختارهم من المحدثين والقصاصين والمفسرين والشعراء والمحرضين وناشري الإشعارات والأشراف وغيرهم! لقد قام باعداد حملة منظمة لاعداد وتخريج جيوش من هؤلاء مهمتهم (تأهيل) أهل الشام ليكونوا وعاء للفلسفة الأموية التي لم تأخذ من الإسلام إلا ما يحقق لها طموحاتها وأطمعها وثبتت حقها (الشرعية) المطلق في الخلافة والملك والذي اكتسبته بحكم الغلبة والأمر الواقع.

يدرك السيوطي (في تاريخ الخلفاء ص ٢٠٠) «أن خلافة عبد الملك بن مروان كانت خلال خلافة ابن الزبير وبعهد من أبيه فقد «بويغ بالخلافة بعهد من أبيه في خلافة ابن الزبير فلم تصح خلافته، وبقي متغلباً على مصر والشام ثم غالب على العراق... إلى أن قتل ابن الزبير سنة ٧٣ فصحت خلافته من يومئذ واستوثق له الأمر» ولو أنه قتل من قبل ابن الزبير لمات باغياً غير أن قوته وغلوته وقتلها ابن الزبير جعله (خليفة) شرعاً لا بد أن تدين له الأمة. إن سياسة الأمر الواقع هذه أكد عليها الأمويون وتأثر بها بعض

---

(١) الطبرى: ج ٣ ص ٢٦٠ «.. ثم أردد أهل الشام إلى بلادهم ولا يقيموا في غيره يتأدبو بأدبهم»، العقد الفريد: ج ٥ ص ١٢٢.



الكتاب والمؤرخين و (الفقهاء) ولا تزال مؤثرة إلى يومنا هذا على البعض، ربما بوجي من الحكماء والملوك الذين يحكمون آلافاً من البشر ويشكل حكمهم أمراً واقعاً.

وقد أعلن معاوية في إحدى المرات عن هذه الحقوق التي أتيحت له ك الخليفة وعنده صعصعة بن صوحان «وكان قد قدم عليه بكتاب علي وعنده وجوه الناس: الأرض الله وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزأ لي»<sup>(١)</sup> وقال لأهل الكوفة: «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتجروا ولا لتزكوا وقد عرفت أنكم تفعلون ذلك ولكن إنما قاتلتكم لأنتم أمر عليكم فقد أعطاني الله ذلك فأنتم كارهون»<sup>(٢)</sup>.

### أهل الشام.. أخذوا الإسلام عن الأمويين إسلاماًً أمورياًً

وكان لابد لهذا الوعاء الشامي أن يظل مغسولاً وفارغاً حتى لا يختلط ما فيه بها سوف يضنه معاوية، وبعبارة: جاهلاً لا يعرف إلا ما يريده أسياده أن يعرف، وهكذا توالت لدينا أخبار هذا المجتمع الشامي الجاهل الذي أصبح مثار تندر المجتمعات العربية الإسلامية الأخرى بعد أن جعله سيده مسلوب الإرادة ومشدوداً بشكل دائمي إلى العربة الأموية الجاحمة.

إن انحرافات مجتمع الشام، وهي مقر (الخلافة) الأموية وعاصمة الإسلام ومركز الثقل (الأشاع)، أريد لها أن تنتشر لتشمل كل المجتمعات الإسلامية، وهذا ما وقع بالفعل. وإن لم يكن أهل الأمصار الأخرى مثل البصرة والكوفة ومكة والمدينة مثل الشام. إلا أن غلبة (الخليفة) وأعوانه من الولاية والقادة العسكريين ورؤساء القبائل نشرت حالة مروعة من اللامبالاة وعدم الاهتمام بين الناس، ولم يأخذوا أمور حياتهم، التي نظمها الدين وتحكم فيها طوال سنوات عديدة، مأخذ الجد، واستسلموا لمن

(١) مروج الذهب: ص ٥٣.

(٢) البداية والنهاية: ج ٧ ص ١٣٤.



اغتصب الخلافة وتناسوا ما أرادته لهم هذه الفتنة الحاكمة أن ينسوه.

ولا نظن أننا سنجد ناقداً أو مفكراً أو كاتباً واحداً يحروء أن يقول ان الشام قد استواعبت أمور الرسالة الإسلامية بمثل الوضوح الذي استواعبتها به المدينة أو مكة أو الكوفة، وكان مجتمع الشام الواقع على تخوم مجتمعين متغيرين يكاد يفقد أصالة أي منها. وقد بلغ عدم اهتمام أهل الشام ولا مبالاتهم حداً جعلهم ينظرون حتى إلى الأمور العادلة نظرة سطحية، وقد رويت عنهم روايات تبعث على الدهشة عن مؤرخين لم يعرف عنهم انحيازهم لأي من أطراف الصراع. وربما كان السبب في فساد أهل الشام أنهم كانوا أقرب إلى مجتمع (متحضر)، تأثروا به وربما بعد عهدهم بمجتمع البداوة الذي ربما تنكروا له تحت وطأة انبهارهم بمظاهر الحياة الرومانية المتطورة. «وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعکوف على شهواتهم منها وقد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحواهم»<sup>(١)</sup> وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار تأخر دخولهم في الإسلام وتأثرهم المبكر بيزيد ومعاوية اللذين ولما عليهم واستمرت ولایة هذا الأخير وخلافته بعد ذلك لحوالي نصف قرن، أدركنا إلى أي مدى كانت الظروف أمامه متاحة للتتأثر فيهم وجعلهم طوع يديه.

### أضاليل في أباطيل

«وقد بلغ من أمرهم في طاعته، أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين يوم الجمعة في يوم الأربعاء وأغاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها، ورکعوا إلى قول عمرو بن العاص أن علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته ثم ارتقى بهم الأمر في

(١) مقدمة ابن خلدون . ١٣٦



طاعته إلى أن جعلوا لعن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهلk عليها الكبير.

وذكر بعض الاخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصاً من صوص الفتنة!..

وبلغ من أحكماته للسياسة واتقانه لها، واجتذاب قلوب خواصه وعوامه، أن رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حال منصرفهم عن صفين، فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني بصفين. فارتفع أمرهما إلى معاوية. وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينه يشهدون أنها ناقته. فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير له. فقال الكوفي: أصلحك الله إنه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى. ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع إليه ضعفه وبرّه وأحسن إليه وقال له: أبلغ علياً أنني أقاتلته بهائة ألف ما فيهن من يفرق بين الناقة والجمل<sup>(١)</sup>.

«وربما رتبت قصة الجمل هذه من قبل معاوية ليصدرها إلى العراق ويعلمهم كيف حال أهل الشام في طاعته».

«وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان إلى الشام، وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر. ونزل عبد الله بن علي الشام ووجه إلى أبي العباس السفاح أشياخاً من أهل أرباب النعم والرياسة من سائر أجناد الشام، فحلقوه لأبي العباس السفاح أنهم ما علموا الرسول الله عليه السلام قراة ولا أهل بيت يرثونه غيربني أمية حتى ولitem الخلافة..!»<sup>(٢)</sup>.

(١) مروج الذهب: المسعودي: ٤٠-٣٩.

(٢) مروج الذهب: المسعودي: ٤١.



فإذا كان أرباب النعم والرياسة هؤلاء لا يعلمون إلا هذه الأضاليل، فكيف بالعامة والبسطاء من الناس؟

ومن حق المسعودي وغيره من المؤرخين أن يعجبوا: «ثم تدبر تفرقهم في أحواهم ومذاهبهم فانظر إلى اجتماع ملئهم، أن رسول الله ﷺ أقام يدعو الخلق إلى الله اثنين وعشرين سنة، وهو ينزل عليه الوحي، ويمليه على أصحابه فيكتبوه ويدونونه ويلتقطونه لفظة لفظة وكان معاوية في هذه المدة بحث علم الله، ثم كتب له ﷺ قبل وفاته بشهور، فأشادوا بذكره، ورفعوا من منزلته بأن جعلوه كاتباً للوحي وعظموه بهذه وأضافوه إليها وسلبواها عن غيره وأسقطوا ذكر سواه»<sup>(١)</sup>.

#### إعلان الانحراف.. لاخوف من الأمة

لقد بُرِزَ الخروج الأموي السافر عن الإسلام، لا بمجرد إعلانه عن تغيير الخلافة إلى ملك - كما حاول بعض المؤرخين إيصاله على أنه انحراف في الجانب السياسي وحسب! - وإنما بمارسات حياتية عملية تناقض ممارسات الإسلام وقيمته بشكل واضح.. وقد رأينا أن أول مظهر لذلك هو الاستئثار بالأموال العامة والبذل الكيفي لها لفرض استقطاب وشراء بعض الناس واستئثارهم، وقد بلغ الأمر إلى درجة اعطاء مصر بأكملها لعمرو بن العاص، كما سنرى عند تناولنا سيرة هذه الشخصية الغربية الأخرى المساوية والمشابهة لشخصية معاوية في كثير من الوجوه.

(١) مروج الذهب: المسعودي: ج ٣ ص ٤٣ وقد روى الطبرى: ج ٣ ص ٩٤ أن أحد الشباب الشاميين كان مت候مساً لقتال جند الإمام - وكان يشتم ويبلغن ويكثر الكلام وقال: «فإنني أقاتلكم لأن صاحبكم، لا يصلي كما ذكر لي، وأنتم لا تصلون أيضاً، وأقاتل لكم؛ لأن صاحبكم قتل خليفتنا، وأنتم أردقوه على قتله» فتأمل كلامه وتأمل في موقف أهل الشام عندما ذكر لهم أن الإمام ضرب في محراب الصلاة فتعجبوا أن يكون الإمام عليه السلام من المصلين. فـأي غاية بعيدة ذهب إليها التضليل والخداع للأمويـان لأهل الشام!.



ورأينا من مظاهر ذلك الشدة التي أخذ بها النظام الحاكم خصومه ومناوئيه، كما تجسّد بقيام هذا النظام بأكبر عملية تحريف وتزوير لمعاني القرآن الكريم والسنّة النبوية الكريمة أي محاولة تزوير الإسلام برمته.

وإن تناصينا الحملة التي قام بها أسلاف الحاكم الأموي ضد الإسلام والرسول الكريم عليه السلام، فإننا لا يمكن أن نتناصى الحرب الضروس التي شنها هذا الحاكم (المتميّز رسمياً إلى الإسلام الآن) على مركز القيادة الإسلامية بحجّة المطالبة بدم عثمان وما جرّته هذه (المطالبة) الظلمة من ويلات وآلام على المسلمين، ما زالت آثارها تمتد حتى أيامنا هذه، حيث يتسع الفتق وتزداد رقعة الخلافات والمشاكل. وما رافق حربه الأولى من ممارسات استهدفت هدم الإسلام وتطويقه والتقليل من دوره وتأثيره، ما دام يقف في طريق الحاكم الطامع والذي يسعى لبسط نفوذه وسيطرته على الأمة الإسلامية. ولم يجد ذلك الانحراف في المجال السياسي وحسب، مع إنه ظهر جلياً في هذا المجال مما يدع لأحد فرصة اختلاق المعاذير لمعاوية. وبدت القواعد التي وضعها في هذا المجال - فيما بعد - وكأنها القواعد الصحيحة للحكم.

ورأينا من مظاهر ذلك حياة الترف والبذخ التي أخذ بها معاوية نفسه ونهج بها خلفاؤه من بعده ابتداء من يزيد وحتى بقية (الخلفاء) من آل مروان.

وحسبينا ما تطالعنا به كتب التاريخ والأدب والتراث، مع أن كاتبيها لا يقفون بآجعهم في المعسكر المعادي لهؤلاء الأمويين.

### بدع أصبحت سنناً في دول الظلم

لقد افتحت معاوية عهده - وربما قبل أن يستولي على قيادة المسلمين - بعشرات من الخروقات الفاضحة والابتكرات (الجديدة) والبدع التي خالف بها الإسلام صراحة،



وكان بذلك أول خارج عن الإسلام خروجاً معلنًا غير مبطن أو مبرر مع أنه كان في موقع قيادة الأمة و(خلافة) المسلمين.

فقد كان معاوية:

«أول من بايع لولده في الإسلام في حياته»<sup>(١)</sup>.

«وأول من عهد بها في صحته»<sup>(٢)</sup>.

«وأول من وضع شرف العطاء الفين»<sup>(٣)</sup>.

«وأول من خطب جالساً وأول من جلس بين الخطبيتين»<sup>(٤)</sup>.

«وأول من عمل المقصورة في المساجد»<sup>(٥)</sup>.

«وكان استلحاقه زياذاً أول ما ردت به أحكام الشريعة علانية، فإن رسول الله ﷺ قضى بالولد للفراش وللعاهر بالحجر»<sup>(٦)</sup>.

«وكان أول من اخذ الحرس»<sup>(٧)</sup>.

«وأول من اخذه [السرير] في الإسلام معاوية»<sup>(٨)</sup>.

«وأول من ورث المسلم من الكافر معاوية، وقضى بذلك بنو أمية بعده حتى كان

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٧٤، وتاريخ الخلفاء: ص ١٨٣.

(٢) تاريخ الخلفاء: ص ١٨٣.

(٣) العقد الفريد: ج ٥ ص ١١٢.

(٤) العقد الفريد: ج ٥ ص ١١٢ ، وينظر الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٧٤ .

(٥) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٧٤، تاريخ الخلفاء: ص ١٨٧.

(٦) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٣٠.

(٧) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٧٢.

(٨) مقدمة ابن خلدون: ص ٢٨٧.



عمر بن عبد العزيز فراجع السنة، وأعاد هشام ما قضى به معاوية وبنو أمية من بعده. وبه قال الزهرى: وقضت السنة أن دية المعاهد كدية المسلم وكان معاوية أول من قصرها إلى النصف وأخذ النصف لنفسه»<sup>(١)</sup>.

«وأول من أحدث الخطبة قبل الصلاة في العيد معاوية»<sup>(٢)</sup>.

«وأول من أحدث الأذان في العيد معاوية»<sup>(٣)</sup>.

«وأول من نقص التكبير معاوية»<sup>(٤)</sup>.

«وأول من اتخذ الخصيـان لخاص خدمته»<sup>(٥)</sup>.

«وأول من عـشت به رعيـته»<sup>(٦)</sup>.

«وأول من استـحـلـفـ فيـ الـبيـعـة.. استـحـلـفـهـمـ باـالـلهـ، فـلـمـ كـانـ عـبـدـ الـمـلـكـ بـنـ مـرـوـانـ استـحـلـفـهـمـ بـالـطـلاقـ وـالـعـتـاقـ»<sup>(٧)</sup>.

وهو أول من اتخذ كاتباً وصاحبأً للأمر من النصارى «وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي»<sup>(٨)</sup>.

وقد تبدو بعض مظاهر الحياة في بلاط معاوية غير مقبولة لدى جماهير واسعة من

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢١٧.

(٢) تاريخ الخلفاء: ص ١٨٧.

(٣) تاريخ الخلفاء: ص ١٨٧.

(٤) تاريخ الخلفاء: ص ١٨٧.

(٥) تاريخ الخلفاء: ص ١٨٧.

(٦) تاريخ الخلفاء: ص ١٨٧.

(٧) تاريخ الخلفاء: ص ١٨٧.

(٨) الطبرى ٣-٢٦٤.



الأمة الإسلامية حتى قبل أن يكون معاوية (خليفة)، إلا أنه ببرها باعتبار أنها رد فعل (إيجابي) على مظاهر الحياة الرومانية الفخمة في البلاط الروماني التي كانت قريبة من (العرش الأموي)، وأنه لابد للوايي الأموي ثم (الخليفة) بعد ذلك أن يتظاهر بالفخامة ويحيط نفسه بالحرس ويقيم في القصور، ويتناول أطيب المأكولات ليبرز (لأعدائه) بعض مظاهر القوة الإسلامية! هكذا برع معاوية تصرفاته لعمر عندما حاول محاسبته على ذلك، مع أنه لم يجد استعداده للتخلّي عن مظاهر الفخامة تلك<sup>(١)</sup> كما رأينا في غضون هذا الفصل. فكيف به عندما لم يجد من يحاسبه ووْجَد نفسه (متملكاً) ومسطراً على كل مقدرات الأمة وثرواتها؟

وربما بدا الأمر وكأنه يمكن قبوله إذا لم يتعد اتخاذ الحرص والمحاجب أو الظهور بالمواكب الفادحة. أما حين يتعداه إلى القيام بتجاوزات خطيرة كبعض تلك التي ذكرها المؤرخون وذكرنا قسماً منها مثل استلحاق زiad بن أبيه ومنح مصر طعمة لعمرو بن العاص والقتل والارهاب والعطاء الكيفي والتمهيد لقتل ابن عمه عثمان ثم المطالبة بدمه تمهيداً للحصول على كرسيه، والمبايعة مسبقاً لابنه العاطل عن كل المؤهلات المطلوبة ليكون مجرد فرد سوي في الدولة الإسلامية لا رئيساً لهذه الدولة. فإن الأمر إذا تعدى إلى تجاوزات من هذا النوع واضرارها وهي كثيرة لو أريد تقصيها لاستنفدت بحوثاً بأكملها فأي إسلام يمكن أن نقول إن معاوية كان يحمله ويخكم بموجبه؟

فهل بلغت تعاليم الإسلام من الغموض والتعقيد أن معاوية لم يجد فيها ضالته والابتعاد عنها فيما بعد. وهل استنفد الإسلام طاقاته ليبتعد عنه معاوية بهذا الشكل

(١) وقد روی «أن معاوية قدم على عمر بن الخطاب من الشام وهو أبغض الناس فضرب عمر بيده على عضده فأفلح عن مثل الشراب أو مثل الشراك فقال: هذا والله لتشاغلك وبالهممات وذوق الحاجات تقطع أنفسهم حسرات على بابك» الكامل في اللغة والأدب: ج ١ ص ٧١.

ويرى أنه غير صالح للحكم؟ أم أن معاوية كان بعيداً عن الإسلام منذ البداية وظل بعيداً عنه دائمًا؟

ثم أي مجتمع هذا الذي قد أصبح يتقبل هذه التجاوزات الفاضحة على الإسلام من (ال الخليفة) وحاشيته وولاته وأقاربه وجنده ولا يثور أو يتحرك أو يمديأ أو لساناً؟

وليت الأمر اقتصر على مجتمع الشام وحده، وهو مركز الدولة الإسلامية، لكنه قد امتد ليشمل كل المجتمعات الإسلامية في كل حواضر الإسلام، وإن لم يكن بالدرجة التي كان عليها في المجتمع الشامي. باعتبار أن هذا المجتمع قد تلقى الرسالة بشكل متاخر وكان اختلاطه القليل لشعب الجزيرة وقربه وتأثيره ببعض المجتمعات الجاهلية الفرعونية الأخرى، وقيام معاوية، منذ بداية دخول هذا المجتمع إلى الإسلام تقربياً، رأساً على قمته منذ أن عين والياً عليه بعد وفاة أخيه يزيد في عهد أبي بكر واستمراره في عهد عمر وعثمان.. هذه الأمور مجتمعة أدت إلى تأخر أهل الشام عن المسيرة الإسلامية الصحيحة وعدم مواكبتها بشكل سليم، ومن هنا كان خوف معاوية منبقاء أهل الشام مع أهل البلدان الأخرى حتى لا يتأثروا بهم كما رأينا ذلك في توصياته ليزيد قبيل وفاته. وقد وجد معاوية في مجتمع الشام تربة خصبة ينشر فيها أفكاره ومبادئه وسياساته، فهو (مؤهل) لتقبل كل ما يلقيه إليه من نفيات على أنها سياسات عليا وتطورات سامية وقيم إسلامية نبيلة!

#### توسيع تجربة الشام تمهد لتجريد الأمة من مسؤولياتها

إن معاوية عمل على أن تكون كل أقطار الإسلام كالشام، وأن يكون كل المسلمين كأهل الشام، لقد استجاب الشاميون بسهولة استجابة تامة له، وأصبحوا يفهمون الإسلام ويرونه من خلال المنظار الذي وضعه على عيونهم. إنهم نتاج تربيته ونتائج



عمله الدؤوب المنظم الذي استمر سنوات طويلة ومنذ بداية دخولهم الإسلام، مسخراً في سبيل ذلك إمكانات هائلة -كما سبق أن أوضحنا- وأرادهم أن يكونوا (مركز اشعاع) لأفكاره وقيمه يصدره عن طريقهم إلى الأمسار الأخرى لتكون بدورها على النمط الشامي (المثالي) الذي رأه معاوية صالحًا منسجًا مع الحكم الذي أراد بسطه باسم الإسلام.

وطبيعي أن يختار معاوية وكلاء وعماله وحاشيته وقواد جيوشة ومحدثيه وفقهاء! من أولئك الذين يتبنون فلسفته المصلحية الدرائعة ونظراته وسياساته. ولو استعرضناهم استعراضًا بسيطًا لرأينا أنهم كذلك بالفعل.

ولو أنهم كانوا مجرد متلقين عن معاوية ومطبقين لسياساته وحسب هان الأمر، ولكن المصيبة أنهم (مبدعون) مثله، ويقادون يتسابقون معه في فنون (الدهاء) والسياسة والانحراف والمكر. وقد أثر وجودهم على رأس السلطة أعواناً معاوية وولاة له وعما لا على مسيرة المجتمع الإسلامي، وحرفه سلباً وإبعاده عن المسيرة الإسلامية الصحيحة. وقد كانوا (أعلاماً) في فنهم، يعرفهم الجميع ويرمّونهم ويلاحظونهم و(يقتدون) بهم.

إنهم شكلوا أكبر (نقاط الضعف) التي أخذت على الإسلام نفسه في عهدهم والعهود التالية أيضاً باعتبار أنهم الممثلون لسلطته الشرعية والمنفذون لأحكامه والقيمون عليه.

وبذا الأمر للمجتمع المسلم كالتمثيلية الهزلية، عندما تربع على مركز القيادة من لم يكن مؤهلاً حتى للانساب لهذا الدين العظيم، وبذا (القادة) على مسرح الحكم كالصور الكاريكاتيرية المضحكة، عندما تربعوا على جوانبه، وتقاسموا المغانم، وجلسوا جلسة حميمة، مقربين من بعضهم، مبتسمين، بل ومقهقحين بوجه المجتمع الإسلامي المقهور



المغلوب، حاسرين عن وجوههم الأفغنة والأستار التي حجبوا بها تلك الوجوه، وأعلنوا مرات عديدة بوقاحة وصراحة متحدية خروجهم السافر عن الإسلام نفسه وتعاليمه وقيمه. وكانت قهقهاتهم وغمزاتهم لبعضهم تدل على استهتارهم التام بكل قيم الدين. وقد طالعتنا كتب الأدب والتاريخ بصور من الجلسات الحميمة بين معاوية وعمرو بن العاص والتي كانا يتبادلان فيها الطعون الخفية، والغمزات و(القفشات) والتلميحات، وكأنهما ليسا مسؤولين عن مصائر الملاليين من أبناء هذه الأمة المظلومة المبتلة.



## عمرو بن العاص

### شريك في الجريمة، شريك في السلطة

#### أبناء المرواني في الصدارة

شخصية عمرو بن العاص، ابن سلمى (النابغة) المشهورة في الجاهلية والتي نسبت هي عمراً لأبيه، ولو لا ادعاؤها لكان قد نسب إلى أب آخر، ولربما كان مجرى حياته قد تغير بسبب ذلك<sup>(١)</sup>. هذه الشخصية العجيبة التي تقرن دائمًا مع شخصية معاوية العجيبة الأخرى، أمدت معاوية بزخم هائل وجرأة مضافة للوقوف بوجه الإمام ، معلنًا ادعاءه الغريب بأنه سكت عن قاتلي عثمان والتأثيرين عليه، بل أنه شجعهم على ذلك، وذهب إلى حد مطالبة الإمام بنفسه بدم ابن عمه الذي أهدره هو، كما بينت لنا حوادث التاريخ المؤكدة.

ومع أن الرجلين، معاوية وعمراً قد مهدا حقاً لقتل عثمان، الأول بانحرافه المعلن عن الإسلام حينما كان عاملاً لل الخليفة المقتول على الشام إلى حد استفزاز الناس ومطالبتهم بعزله مع نفر من الولاة المنحرفين الآخرين، بل أنه مهد لعوامل القتل بسكته عندما تجمعت السحب فوق كرسي الخليفة واحجامه عن نصرته إلى حد توجيه

---

(١) من المعلوم أن أمّه سلمى بنت حرملة وكنيتها النابغة كانت من أشهر النساء اللواتي كن يبغين ويأخذن الأجرة على بغاهن. وعندما ولدت عمراً ادعاه خمسة نفر من قريش كلهم يزعم أنه أبوه. وعندما سئلت النابغة قالت: كلهم أتاني فانظروا أشباههم به فالحقوا به، فغلب عليه شبه العاص ابن وايل فلحق به، ولم يستطع العاص انكاره حسب تقاليد الجاهلية. ومن المعلوم أن أبي سفيان كان أحد هؤلاء الخمسة فربما خرج من صلبه معاوية وعمرو وزياد. فتأمل.



تحذير شديد لقائده الذي أرسله من الشام لييقى على مراحل من المدينة فلا يتعداها منها كانت الأسباب حتى ولو قتل عثمان. وتم ذلك فعلاً ولم يتدخل قائد معاوية لنصرة عثمان، بل لعل وجوده على هذه المراحل القريبة من المدينة هو الذي عجل بقتله، والثاني بتحريضه المباشر العلني على عثمان ومطالبته إياه بالاعتزال، وكما اعترف هو - بنفسه - بذلك.

والحق أن هذا الثنائي، لو كان يريد المطالبة بدم عثمان حقاً و يجعل من نفسه مسؤولاً عن ذلك، لكن قد اتجه لصاحبه، أول ما يتوجه، مطالباً بذلك الدم..! كان أخرى بمعاوية أن يطالب عمرو بن العاص بذلك، وكان حرياً بعمرو أن يطالب معاوية به، لو كانا يريدان حقاً المطالبة بالدم...!

### **التقاء المصالح يلغى الخلافات.. تقاسم الغنائم**

حقق لها هذا الطموح الكبير (امرة المؤمنين) وملك مصر للثاني، ولكن التقاء مصالحهما (الكبيرة) التي لا يضاهي أهميتها شيء بنظرهما، جعلهما مجردين على غض النظر عن بعضهما، بل والتغامز بالسر وفي مجالسهما الخاصة ضاحكين من المقتول ومن المطالبين بدمه على السواء، وراحوا يطبلان ويزمران خلف جنازته مثيرين من الصخب والغبار ما من شأنه أن يربك أجيالاً من هذه الأمة الإسلامية، حتى أنها لا تزال إلى اليوم في خلاف وجداول حول هذه المسألة الواضحة وضوحاً عجياً لكل ذي حس!

كيف حصل أن معاوية لم يطالب عمرو بن العاص بدم عثمان، لو كان يريد المطالبة به حقاً من أهدره؟

وكيف حصل أن عمراً لم يطالب معاوية بدم عثمان لو كان مثله - أيضاً - يريد المطالبة به من أهدره..؟

(المغم الكبير) الذي تطلعا إليه، وحصلوا عليه بعد ذلك، هو الذي جعل كلاً منها يغض بصره عن الآخر، وربما كانا متفقين على المهمة منذ البداية، فما قاما به قد أتى أكله الآن وجاء بشرته المرجوة. أدركا أن تخطيطهما وعملهما وسعيهما الدؤوب - مع الساعين - لتأليب الناس على عثمان، ثم أدى الأمر إلى قتله، وقيامهما بالمطالبة بدمه ثم الدعوة إلى الخروج على ولی أمر الأمة الإمام ﷺ بهذه الحجة، هو الذي حقق لهما هذا الطموح الكبير، (امرأة المؤمنين) للأول، وملك مصر للثاني..!

وكما كاد أولهما للإسلام قبل أن يظهر وينتشر ويغلب، كاد الثاني له، بنفس المهمة ونفس النشاط. «وكما كان أبو الأول من ألد أعداء الإسلام وخصومه كان أبو الثاني من أعدائه الألد أيضاً ومن المستهزئين برسوله الكريم ﷺ (وفيه نزلت) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْرَؤُ﴾<sup>(١)</sup> <sup>(٢)</sup>

كان العاص أحد الأشراف الذين ساروا إلى أبي طالب ومنهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس، وطلبوها منه أن يمنع الرسول ﷺ من أداء رسالته وتسليمها إليهم، وعندما امتنع أبو طالب من الاستجابة لطلبهم عادوا ثانية منذرين ومهديين، إلا أن أبو طالب استمر على موقفه المؤيد والداعم للنبي ﷺ دون حدود.

### ابن الأبر

وكان العاص بن وائل السهمي أحد الذين تصدوا باستمرار للرسول ﷺ، وكانت له مواقف عديدة حاول فيها النيل منه ﷺ والاستهزاء برسالته، وفي إحدى المرات حاول خباب بن الأرت صاحب الرسول ﷺ أن يتضايقاً ثمن سيف عملها له فامتنع

(١) الكثثر.<sup>٣</sup>

(٢) مروج الذهب: المسعودي: ص ٢٨.



عن الدفع قائلا: «أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو حزم؟ قال خباب: بلى. قال: فانظري إلى يوم القيمة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حرقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثراً عند الله مني، ولا أعظم حظاً في ذلك. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَاُوتَنَّ مَالًا وَوَلَدًا هُ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا هُ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدَدًا هُ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِيَنَا فَرْدًا﴾<sup>(١)</sup>.

وكان العاص أحد الذين اعتربوا رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكتيبة فقالوا «يا محمد، هلمن فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر... فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ هُ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ هُ وَلَا أَنْتُ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ هُ وَلَا أَنَا عَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ هُ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ هُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ﴾<sup>(٢)</sup>.

و«قال ابن اسحاق: وكان العاص بن وائل السهمي - فيما بلغني - إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لانقطع ذكره واسترحم منه، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ هُ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحِرْ هُ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَكْبَرُ﴾<sup>(٣)</sup>».

(١) مريم ٧٧-٨٠ وتكلمتها ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا هُ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدَدًا هُ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِيَنَا فَرْدًا﴾.

(٢) السيرة النبوية: ابن هشام: ج ١ ص ٣٥٧.

(٣) الكافرون.

(٤) السيرة النبوية: ابن هشام: ج ١ ص ٣٦٢.

(٥) الكوثر.

(٦) السيرة النبوية: ابن هشام: ج ١ ص ٣٩٣ والطبرى: ج ١ ص ٥٩٣.

وكان العاص من المستهزئين بالرسول ﷺ <sup>(١)</sup> فلما تادوا في الشر، وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى عليه سورة الكوثر، وقد أصيّب كل هؤلاء المستهزئين ومنهم العاص الذي «خرج على حمار له يُريد الطائف، فربض به على شبارقة، فدخلت في أخص رجله شوكه فقتله» <sup>(٢)</sup>.

ومن بحمل ما نراء، وما ترويه كتب التاريخ والسيرة بإسهاب، نرى أن العاص السهمي كان أحد الذين أخذوا على عاتقهم التصدي للرسالة، وكان عمله استثنائيًّا في هذا المجال وقد لا يقل عن عمل أبي سفيان، وعلى ذلك العداء الشديد أخذ عمرو بن العاص نفسه وآل عليها أن يكون حرباً على رسول الله ﷺ والإسلام.

#### عداء موروث

إن العداء القوي الذي يحمله الآباء قد لا يكون وحده كافياً لدفع الأبناء لاتخاذ نفس مواقفهم، فكم قد حارب الابن آباء والأخ أخاه في معارك الإسلام الكبرى، وكم قد تخلى كثيرون عن آبائهم وعشائرهم عندما انحازوا إلى صف الإسلام.

غير أن الأمر مع هذين الشخصين الغربيين اللذين احتلا مركز الصدارة في العديد من أحداث التاريخ الإسلامي المهمة لم يكن نفسه مع المؤمنين الآخرين. فهما لم يسلما إلا عندما لم يريا من ذلك بدأ، وحينما لاح لهما أن مصلحتهما تكمن الآن بتبني الإسلام بعد أن كانوا يتبنيان الشرك. وليس بمقدور أحد - من دلائل حالمها على امتداد حياتها فيما بعد - أن يقول إن توجههما للإسلام كان من أجل الإسلام وجهاً فيه، كما اتجه إليه أغلب الصحابة.

(١) السيرة النبوية: ابن هشام: ج ١ ص ٤٠٩.

(٢) السيرة النبوية: ابن هشام: ج ١ ص ٤١٠.



لم يكن اجتماعهما الآن لأول مرة يكيدان للإسلام وأهله، ولم يكونا غرّين فتىًن ليتأثراً ب مجرد تأثر عاطفي بأوضاع الأهل والعشيرة، وإنما كانوا أصحاب (مواقف) متبناة معروفة وعن سابق اصرار وتصميم.

ولعل عمرًاً كان يكبر معاوية بعشرين عامًاً مما أتاح له أن يرافق ويصادق أبو سفيان الذي اجتمع معه على الشر قبل أن يجتمع مع ابنه عليه.

#### معاوية وعمرو.. لقاء على الشر والعدوان.. منذ أيام الجاهلية

لم يكن لقاء معاوية وعمرو بن العاص لقاء الصدفة وحدها أول لقاء (الخطب السعيد) الذي أتاح لها الاستئثار بمقدرات الأمة الإسلامية كلها، فقد التقى من قبل على الشر وعلى حرب الإسلام، فقد روى حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ كلفه أن يدخل في جيش المشركين في غزوة الخندق، وكانت الليلة شديدة البرد والظلماء قال «فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي التَّوْمِ الرِّبِيعِ وَجُنُودَ اللَّهِ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَنْعَلُ، لَا تُقْرِئُهُمْ قِدْرًا وَلَا نَارًا وَلَا بَيَاءً». فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرْيَشٍ: لَيُنْظَرُ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ؟ فَأَلَ حُذَيْفَةَ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ إِلَى جَنِينِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ<sup>(١)</sup> وَقَدْ وَرَدَ فِي شَرْحِ الْمَوَاهِبِ عَنْ لِسَانِ حَذِيفَةَ «فَضَرَبَتْ بِيَدِي عَلَى يَدِ الَّذِي عَنْ يَمِينِي، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ: مُعاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، ثُمَّ ضَرَبَتْ بِيَدِي عَلَى يَدِ الَّذِي عَنْ شَمَائِلِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ<sup>(٢)</sup>.

فالعلاقة الحميّة قد جمعت بينهما منذ البداية لهدفهما المشتركة: الحرب على الإسلام.

(١) السيرة النبوية: ابن هشام: ج ٢ ص ٢٣٢.

(٢) السيرة النبوية: ابن هشام: ج ٢ ص ٢٣٢.

كل مؤهلات عمرو بن العاص أنه كان ماكراً، هذا ما أشار إليه الكتاب المولعون بجمع (الطرائف) (والغرائب) في كتب الأدب والتاريخ، ولعل حيلته المفرطة وظهوره الواضح في هذا المجال ولعبه أقدر الأدوار في الكيد للرسول ﷺ وآلـهـ وخصوصاً في حرب صفين في لعنة التحكيم القدرة، جعلته من أشد الأشخاص المغامرين الملتفين للنظر عبر تاريخنا كله.

### كصحابه معاوية : يمكر ويضجر

كان عمرو بن العاص أحد مبعوثين من مشركي قرش إلى النجاشي، وقد حاولا رشوطه ورثوة بطارقته وحاشيته ليسلم إلـيـهـا من هاجر إلى الحبشة من المسلمين الأوائل، وقد فشلت خططهما لإقناع النجاشي بذلك، عندما رفض بشدة عند سماحته قول جعفر بن أبي طالب، -أحد هؤلاء المسلمين المهاجرين- أن يسلّمهم إلـيـهـا، ولم يشن رفضه عمرو بن العاص عن مكيدته، فحاول إثارة النجاشي بإثارة مسألة عبودية المسيح لله وأنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، وإن هذا ما يعتقد به المسلمون، معتقداً أن النجاشي كان مشركاً، وأيضاً لم يزد هذا النجاشي إلا إصراراً بالحفظ عليهم والاقتناع بما جاء به الإسلام، وقد رد ما قدمه إليه المبعوثان من الرشوة التي أرسلتها قريش<sup>(١)</sup>.

وكان عمرو بن العاص في القافلة التي قادها أبو سفيان وفيها أموال لقريش<sup>(٢)</sup> وكان ما كان بعدها في معركة بدر المظفرة، وفي معركة أحد التي عزم فيها مشركون قريش الأخذ بثار قتلاهم كان عمرو بن العاص من المترعمن لهذه الحرب ضد المسلمين، وقد

(١) السيرة النبوية: ابن هشام: ١م ص ٣٦٥-٣٣٨، والطبرى ج ١ ص ٥٤٩، والكامل في التاريخ ج ١ ص ٥٩٨-٦٠٠.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٦٠٦.



خرج إلى المدينة «بريطة بنت منبه بن الحجاج وهي أم عبد الله بن عمرو» وكان يقول الشعر محضًا<sup>(١)</sup>.

وبلغ من أذاه للرسول ﷺ أنه عليه السلام كان يدعو عليه مع من كانوا يدعون عليهم كأبي سفيان والحارث بن هشام<sup>(٢)</sup>.

وحتى قصة (إسلامه) كانت بدافع المصلحة أكثر مما كانت بدافع الإيمان، كما روى هو عن نفسه بقوله لأصحابه «والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوًّا منكرًا، ورأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإنما إن تكون تحت يديه أحب إلينا من أن تكون تحت يدي محمد وإن ظهر قومنا فتحن من قد عرفوا، فلن يأتيانا منهم إلا خير»<sup>(٣)</sup> وقد حثه النجاشي نفسه على الانصمام للإسلام بقوله «ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجندوه»<sup>(٤)</sup>، ومع ذلك لم يعلن (إسلامه) المزعوم، ولم ير بدًا في النهاية عندما غالب دين الله من التوجه إلى الرسول ﷺ شارطاً عليه «إني أبأيك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، قال - والحديث لعمرو - فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو بایع ..»<sup>(٥)</sup> وبایع عمرو، عسى أن يجد في الدين الجديد معنىًّا كما كان يجد في عهد الجاهلية والشرك.

وهنا لا نعدم من يضع حديثاً مزوراً على لسان الرسول ﷺ بشأن عمرو، كما وضع

(١) السيرة النبوية: ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) السيرة النبوية: ج ٢ ص ١٠٨ .

(٣) السيرة النبوية: ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٤) السيرة النبوية: ج ٢ ص ٢٧٧ .

(٥) السيرة النبوية: ج ٢ ص ٢٧٨ .

العديد من أمثاله بشأن معاوية، فقد روي عنه ﷺ قوله «أسلم الناس وأمن عمرو»<sup>(١)</sup>.

### إلى الدين حتى يستأثر بالدنيا

لم يكن معاوية وعمرو من المبادرين إلى الإسلام منذ البداية، عندما علموا أن طريقهما غير طريق الأهل المشركين، بل كان طريقهم واحداً، تبني موافق الآباء والانحياز للإسلام في النهاية حين لم يكن يبدو أمامهما طريق آخر.

قيم المصلحة الشخصية والمنفعة هي قيمهما العليا في كل حياتهما الطويلة الحافلة. وهي لم تكن قريبة من قيم الإسلام بأية حال من الأحوال.

إن (المثل العليا) الأرضية التي يضعها الناس أمامهم دائماً للحصول على أكبر قدر من المكاسب المادية، هي التي انتصبت أمامهما في كل مراحل حياتها تلك.. ولن يستطيع أحد - منها بذل من جهود - أن يدعى أنها تطلعوا إلى المثل الإسلامي الأعلى الحقيقي، وأخذوا عنه غير ما أرادت مصالحهما أن يأخذوا، وإن تمثل ذلك بعض الإداءات العبادية الطقوسية الظاهرة مثل الصلاة وغيرها، فلم يكن عليهما بد من ذلك، باعتبارهما احتلا موقعين قياديين، بل أكبر موقعين قياديين للمسلمين، وإذا ما تجردا صراحة من كل التزام شكلي يربطهما بالإسلام فإنها سيفقدان مبرر الشرعية التي يحاولان الحكم باسمها وهي التزام الإسلام، وسيكون ذلك خروجاً سافراً عنه، حتى أمام البسطاء من أهل الشام ويكون مدعاه لثورة مضادة يكونان هما قد حرکاها واججها ضد نفسيهما. فهما لم يأخذوا من الإسلام إلا القدر الذي لا يتعارض مع مصالحهما والذي أتاح لهما التمكّن من السيطرة والنفوذ<sup>(٢)</sup>.

(١) السيرة النبوية: ج ٢ ص ١٠٨.

(٢) وكان الإمام علي عليه السلام دقيقاً بوصف نظيرهما المغيرة بن شعبة الذي كان مثلهما ولعب معهما أقوى الأدوار لحرف الأمة عن مسیرتها. «فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربه من الدنيا وعلى عمد ليس على

مکر اُم غباء؟

كانت حياة عمرو بن العاص حافلة بالمكائد والدهاء والخيالة، ولم يكن ابن النابغة هذا من يعتز بطهارة مولد أو يفتخر بأصل أو محتد يفتخر به أمام الناس، فكان لا بد لعقدة النقص هذه أن تشير فيه كوامن الحقد على المجتمع أولاً، ثم كوامن التطلع والصعود إلى أكثر من مستوى (السادة) الحقيقيين،! ليعرض بعض ما يراه الكثيرون - حتى وفق قيمهم الجاهلية، عيباً وشيناً، وإن كان هو شخصياً لا يدل له فيه.

كان عمرو بن العاص يفتخر بأنه (داهية) مثل معاوية، وتلك كانت كل مواهبه، وإنما أخذنا الدهاء على أنه التصدى للأمور بمقتضى الحال، وفق ما يميله عليه الواجب، ووفق فهمه لأمور الشريعة، فذلك هو الحكم بعينها، أما إذا كان الدهاء يعني عنده المكر والخديعة والوصول إلى الغاية بكل الطرق المتاحة والتوصل إلى الغلبة بأية طريقة، وغض النظر عن الإسلام وقيمه واستقامته، فإن الدهاء هنا يتتصب صورة مشوهة للقوى والغرائز المتدنية ولا يعني إلا استئثارها لتحقيق الغلبة وحسب.. ولا يهم إن تلاقت الأساليب مع الإسلام أو افترقت عنه.. ولا يهم إن غرّق الأمة أو حرقها في سبيل أهدافه الشريرة.

ورحم الله أبا الحسن عليه السلام عندما يصف هذا النمط من الناس.. «آثروا عاجلاً وأخرروا آجلاً، وتركتوا أصافياً وشربوا آجناً. كأني أنظر فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه،... حتى ثابت عليه مفارقة، وصُبِغَت به خلائقه، ثم أقبل مزبدًا كالتيار لا يُبالي ما غرق، أو كوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرق». <sup>(١)</sup>

ومن الطريف أنه حتى إذا ما قال قائل أمم معاوية أو عمرو نفسيهما بأنهما على

نفسه ليجعل الشهابات عاذراً لسقوطاته» نهج البلاغة ٧٥١.

(١) نهج البلاغة: ٢٠١

باطل وأنهما يجانبان الإسلام ويبتعدان عنه، وهما يسعian للغلبة والنصر والتتفوق فهما لا ينزعجان من ذلك ويتقبلانه على أنه شهادة بمهارتها وقدراتها في الحيلة (والدهاء) الذي لابد منها من يتولى حكم الناس وسياستهم، وقد يعتبران ذلك زينة للرجال (الكيّسين) الكبار، مع أنها في الواقع قد لا يجدان ما يردا به على الناقدين الذين ينطلقون في نقدهم من منطلقات إسلامية بحثة، وكم قد روي لنا عن أناس تصدوا المعاوية بالنقد والتجريح فلم ينزعج بل قال «إننا لا نحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملوكنا» كما بيئاه من قبل.

كانا متآمرين قديمين وسارقين لمكاسب الأمة يعرف أحدهما الآخر حق المعرفة. وتروي عنهما تلك الحادثة التي أشارت إلى عدم نزاهتهما وقيامتها بموقف تمثيلي أمام عمر عندما أوشكها أن يتکاشفها بها فعلاه وقاما به من سرقات «قدم معاوية من الشام وعمرو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالها إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوية، فقال له معاوية: أعملي تصيب وإلي تقصد؟ هل نخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك؟ قال عمرو: فعلمت أنه بعملي أبصر مني بعمله! وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك، فرفعت يدي فلطممت معاوية. فقال عمر: تالله ما رأيت رجلاً أسفه منك! قم يا معاوية فاقتصر منه. قال معاوية: إن أبي أمرني أن لا أقضي أمراً دونه. فأرسل عمر إلى أبي سفيان فلما أتاه. قص عليه ما جرى فقال: لهذا بعثت لي أخوه وابن عمه، وقد أتى غير كبير، وقد وهبت ذلك له<sup>(١)</sup> فانظر إلى دهائهما في التخلص من ورطتهما التي كادا أن يكشفا فيها أوراقهما.

ولا يستطيع أحد أن ينكر الموهب الكبيرة التي تتمتع بها عمرو بن العاص، ولا تلك

(١) العقد الفريد: ج ١ ص ١٨.



التي تمنع بها معاوية، وهي مواهب استثنائية فريدة، وقدرات تدل على الذكاء الكبير، غير أنها مواهب وقدرات كرست للشر الخالص، فكأنها في ميدان الشر شيطاناً من شياطين الانس، وقد وصف الإمام - معاوية بهذا الوصف فعلاً عندما كتب إلى زياد يحذره منه وقد بلغه أنه يحاول استلحاقه بأبي سفيان:.. «وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبّك ويستغل غربك، فاحذره فإنّها هو الشيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه عن شماله ليقتحم غفلته ويستلب غرته».<sup>(١)</sup>

### شيطاناً يجتمعان

فكيف ظننا بهذين الشياطين، وقد اجتمعا سوية، وواجهها الاستقامة الواضحة لأمير المؤمنين ﷺ والوضوح الخارق لهذا القائد الذي لم ير شيئاً إلا ووجد الله معه وفيه وبعده - كما عبر هو ﷺ - عن ذلك. وقد قال معاوية نفسه - عندما أذهله الوضوح الذي كان ينظر به الإمام إلى كل أمور الحياة «أعنت على علي بأربعة: كنت أكتم سري وكان رجلاً يظهره، وكنت في أصلاح جند وأطوعه، وكان في أخبت جند وأعصابه، وتركته وأصحاب الجمل وقلت إن ظفروا به كانوا أهون على منه وإن ظفر بهم اغتر بها في دينه! وكنت أحب إلى قريش منه. فيا لك من جامع إلى ومفرق عنه»<sup>(٢)</sup>.

### بين منظار الإسلام ومنظار المصالح الدنيوية

لقد كان الإمام ﷺ يرى كل شيء بمنظار الإسلام، وكان معاوية يرى كل شيء بمنظار المصالح الدنيوية المحدودة، وكان الإمام يرى في هذه الدنيا (الممر) ما لم يتمكن معاوية ولا عمرو بن العاص ولا أشباههما أن يروه، ويتططلع إلى آخرة لم يروها أيضاً، ومن هنا كان التباين والاختلاف، إنه أمر بسيط يراه كل مسلم، وهو من أولويات

(١) نهج البلاغة: ص ٥٨٥-٥٨٦.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٠٩.

الإيمان وأصول الدين، وإلا كان الدين بجملته عبأً إذا كان أي مسلم منا لا يتطلع إلى المعاذ وإلى الحساب في الآخرة حين يعرض كل أمرئ على ربه وتعرض أعماله معه.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ فَإِنَّمَا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَإِنَّمَا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ طَنَّ أَنْ لَنْ يَخُورَ بَلِّ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾<sup>(١)</sup>.

### لو كانا يريان الأمور بعيني الإمام ﷺ

كان الإمام ﷺ يرى ما لا يريانه ويعلم ما لم يكونوا يعلمانه، ومن هنا كان التباهي الكبير بينه وبينهما وبين أمثالهما من لا يمتلكون رؤيا إسلامية صحيحة. «ولو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيءاً، إذا خرجمت إلى الصعدات تكون على أعمالكم وتلتذمون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف عليها، ولهتم كل امرئ منكم نفسه، لا يلتفت إلى غيرها، ولكنكم نسيتم ما ذكرتم، وأمنتם ما حذرتم، فتاه عنكم رأيكم، وتشتت عليكم أمركم..»<sup>(٢)</sup>.

أتري أن الإيمان بالله لم يكن غير بضاعة كاسدة لا يأخذ بها أو يتعاطى تجارتها إلا المغفلون والمعجزة؟ أما الدهاء والأذكياء! أمثال معاوية وعمرو بن العاص اللذين لم يريا أمامهما سوى هذه الدنيا وعرضها، فليس عليهما سوى أن يتظاهرا به أمام الناس، أما في الواقع فإنكاره هو الشيء العملي الوحيد الذي فعلاه.

إنما لم يصرحا بکفرهما وعدم إيمانهما علينا، بل صرحت به تصرفاتهما وأعمالهما

(١) الانشقاق ٦-٥١.

(٢) نهج البلاغة: ص ١٧٣-١٧٤.



المشينة، فإنها وجدًا في الإسلام الأموي المبتكر مادة لتحقيق طموحاتها بعد أن أتيحت لها فرصة الوقوف على رأس الهرم الكبير الذي ضم أبناء الأمة كلها على امتداد أقطارها، ولم يأخذوا (الآخرة والمعاد والحساب) بأخذ الجد، إلا حينما حان حينها واقرب أجلها، ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن جرّا على نفسها وعلى الأمة البلاء والويلات.

### لا يتذكرون الموت إلا ساعة الاحتضار

فهذا معاوية يختضر، وقد اقترب أجله، ويبدو الآن في حيرة وهم شديد لما يحتمل أن يلاقيه بعد الموت - فهو ليس في يقين ثابت من ذلك طيلة حياته وحتى ربما في هذه اللحظات التي أوشكت أن تنتهي تلك الحياة، إنه يتذكر جرأته على اقتحام الذنوب والمعاصي وكل دروب الباطل، وهنا يوصي «أن يرد نصف ماله إلى بيت المال»<sup>(١)</sup> فلعل في ذلك مخرجاً من هذه المحنـة التي لم يكن يتوقعها طيلة حياته، وكأن في التخلـي عن نصف أمواله حسماً لخلافـه مع شريعة الله وأوليائه «ولما اشتـد مرضـه أخذـت ابنته رملـة رأسـه في حجرـها وجعلـت تقلـبه. فقالـ: إنـك تقلـلين حـوـلاً قـلـباً، جـمـع المـال منـ شـبـ إلى دـبـ فـليـه لا يـدخلـ النـار؟»<sup>(٢)</sup>.

ولما احتضر تمثل:

إن تناـقـش يـكـنـ نقـاشـك يا رب  
أـو تـجـاـوز فـائـتـ ربـ صـفـوحـ  
وـتـمـثـلـ — عـنـ اـحـتـضـارـهـ

عـذـابـا لا طـوقـ ليـ بالـعـذـابـ

عـنـ مـسيـءـ ذـنـوبـهـ كـالـتـرابـ»<sup>(٣)</sup>

هوـ الموـتـ لـاـ منـجـىـ مـنـ الموـتـ وـالـذـيـ

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٧٠، والبداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٤ .

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٧٠ .

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٧٠ والبداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٥ .

ثم قال: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وجد بحلنك على جهل من لم يرج غيرك ولا يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة، وليس لذي خطيئة مهرب. ولما أزف أمره وحان فراقه اشتدت علته وأيس من برئه أنشأ يقول:

فيما ليتني لم أعن في الملك سادة  
ولم أك في اللذات أعشى النواضر  
وكنت كذبي طمرين خاشع ببلغة  
من الدهر حتى زار أهل المقابر<sup>(١)</sup>  
وقال: «يا ليتني كنت رجلاً من قريش بذمي طوى، ولم أل من هذا الأمر شيئاً»<sup>(٢)</sup>  
«ولما احضر معاوية جعل أهله يقلبونه فقال لهم: أي شيخ تقلبون؟ إن نجاء الله من  
عذاب النار غداً»<sup>(٣)</sup>.

### فرط بذريعة الرسول ﷺ واحتفظ بقلامة من أظفاره

«وقال محمد بن سيرين: جعل معاوية لما احضره يضع خدأ على الأرض، ثم يقلب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ويقول: اللهم إنك قلت في كتابك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشَرِّكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشَرِّكُ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِنَّمَا عَظِيمًا﴾ اللهم فاجعلني فيما تشاء أن تغفر له، ثم قال: اللهم أقل العثرة واعف عن الزلة وتجاوز بحلنك عن جهل من لم يرج غيرك فإنك واسع المغفرة. ليس لذي خطيئة من خطيئة مهرب إلا إليك»<sup>(٤)</sup> «فلما حضرته الوفاة قال: إن رسول الله ﷺ كسانى قميصا فحفظته وقلم أظفاره يوماً فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة فإذا مت فألبسوني ذلك القميص وأسحقوا تلك القلامة وذروها في عيني وفيدي، فعسى الله أن يرحمني ببركتها»<sup>(٥)</sup>.

(١) مروج الذهب: ص ٦٣.

(٢) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٥.

(٣) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٥.

(٤) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٥.

(٥) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٧٠.



فهل حفظ الله عهده - حينما شهد الشهادتين بلسانه - حتى يغفر له، وهل حفظ لرسول الله عليه السلام آله وذراته ودينه، حتى تحفظه قلامه أظفاره وقميصه يدفنها معه في قبره؟ أنه لم يفعل سوى الشيء الوحيد الذي كان قادرًا عليه عند موته، وهو الاعتراف بالذنب وطلب التوبة، فليته اعترف بذنبه قبل ذلك وطلب التوبة، إذن لكان قد جنب الأمة وجنب نفسه الويالات والمصائب، ولما آل أمرها إلى ما آل إليه.

### ساوم على الباطل في شيخوخته

وهذا عمرو يختضر قبل أن يختصر معاوية، فلا يجعل هذا من موته عبرة له. إنه يدو حائرًا أممًا (لغز) الموت هذا الذي لم يفهمه ولم يعترف به طيلة حياته، سوى أنه فناء واندثار. ولهذا كانت جرأته على الباطل. وهذا هو الآن أمم المصير المحتوم الذي تجاهله دائمًا يقول: «اللهم لا براءة لي فاعتذر، ولا قوة لي فانتصر. أمرتنا فعصينا ونهيتنا فركنا». اللهم هذى يدي إلى ذقني»<sup>(١)</sup> وما عساه أن يقول، وكيف يعتذر، فهو هنا يستعد للاقتalaة ربه عاريًا إلا من الذنوب التي احتطبتها على ظهره، كيف سيعتذر وقد تولى معاوية من دون الله واتخذه خليلاً ووليًّا وقائداً، أسيمحى كل ذلك لمجرد أنه قال ما قاله في لحظة موته؟ أيكون الإسلام عبثًا إلى هذا الحد؟ ألم يقرأ، وهو القارئ والمحدث والمفسر! كلام الله وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَحَدَّدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنَّدَادًا يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًّا لَّهُ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لَهُ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذَا تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَنَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَتَبَرَّأُوا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَنَا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالُهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.<sup>(٢)</sup>

(١) مروج الذهب: المسعودي: ص ٢٨.

(٢) البقرة ١٦٧-١٦٥.

أطاع معاوية ودعا الله؟ فهل سعى الله وفي سبيله؟ هذا ما ينبعي أن يتساءل عنه كل أولئك المتصدين لدراسته. لقد أطاع هواه ودعا إلى مصالحه. وعلم أنه مع أمير المؤمنين ﷺ لن يجني أي نفع أو فائدة! وأنه لن يخلف من الأموال ما خلف. فقد «خلف عمرو من العين ثلاثة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار، ومن الورق ألف ألف درهم وغلة مائتي ألف دينار بمصر وضيّعه المعروفة بالوهط قيمتها عشرة آلاف ألف درهم»<sup>(١)</sup> «خلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً دنانير والبهار جلد ثور»<sup>(٢)</sup>.

### عندما يموت الطغاة

وما أحسن قول ابن الزبير الأصي فيه.

على عمرو السهمي تجبي له مصر  
ولم يغن عنه حزمه واحتياله  
وكايده عنه وأمواله الدر»<sup>(٣)</sup>

«الم تر أن الدهر أختت صروفه  
ولا جمعه لما أتيح له الدهر  
وأمسى مقیماً بالعراء وضللت  
ندم حيث لا ينفع الندم، واعتذر حيث لا يفيد الاعتذار، ولكنه ندم واعتذار مما يعتبر به على أي حال. لقد قالا الحق عن نفسيهما. ولكن متى؟ حينما أوشكت آخر أنفاسهما أن تنقضي ولم يعد لها دور يلعبانه في هذه الحياة. وقد شهدا على أنفسهما أمام الله وأمام الناس، وبقيت الشهادة الأخرى في الدار الآخرة يشهدانها على نفسيهما أمام الله، وهل يملكان إلا أن يقولا الحق...»

ومن العجيب أن العديد من مؤرخينا وكتابنا يغضون النظر عن أمثال هذه

(١) مروج الذهب: ص ٢٩.

(٢) المقريزي: ج ١ ص ٣٠١، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة - القاهرة -

١٩٣٤، ونحو البلاغة: ص ٥٧٩.

(٣) مروج الذهب: ص ٢٩.



(الهنات) كما يغضون النظر عن جل هناتها وزلاتها! وهي أكثر من أن تُحصى، ولا يريدون إلا سماع من يقول فيها خيراً. أما في غيرهما فليقل ما يشاء، وإن قال فيها خيراً فمن أين سيأتي بذلك اللهم إلا أن يكون كاذباً، ولم نعدم في ظل الدولة الأموية ومشياطها، من علمائهم وفقهائهم وقصاصيهم من ينسب إليهم الفضل كل الفضل وينزعه عن غيرهم ما دام في هذا مصلحة له، وما دام جيده يمتلك من أموال الخلفاء الكرماء، فقد «ظهرت أحاديثهم الكاذبة ونشأ عليها الصبيان يتعلمون ذلك. وكان أشد الناس في ذلك الشعراً المراقون والمتصنعون الذين يظهرون الخشوع والورع، فكذبوا وانتحلوا الأحاديث ولدوها، فيحيظون بذلك عند الولاية والقضاء ويدنون مجالسهم ويصيّبون بذلك الأموال والقطايع والمنازل حتى صارت أحاديثهم وروایاتهم عندهم حقاً وصدقًاً. فروعها وقبلوها وتعلمواها وعلموها وأحبوا إليها وأبغضوا من ردها أو شك فيها فاجتمعت على ذلك جماعتهم وصارت في يد المتنسّكين والمتدينين منهم لا يستحلون الانتقال لملأها فقبلوها وهم يرون أنها حق، ولو علموا بطلاتها وتيقنوا أنها مفتعلة لأعرضوا عن روایتها ولم يدينوها ولم يبغضوا من خالفها فصار الحق في ذلك الزمان عندهم باطلًا والباطل حتاً والكذب صدقًاً والصدق كذبًاً»<sup>(١)</sup>.

ولسنا بمعرض المقارنة بينهما وبين الإمام عليه السلام، فهذا أمر لا يمكن إجراؤه بالمقاييس الحقيقة الصادقة، ولن يتاح لامرئ ذلك إلا إذا أتيحت له فرصة المقارنة بين إبليس وأحد الملائكة الكرام، فلا مجال للمقارنة إذن، وأنه لتجني على الإمام عليه السلام إذا ما رحنا نقرنه بهذه النهاج المسوخة، وقد كان ذلك من أكثر الأمور التي تمسه وتوسله عليه السلام حقاً، فقد ورد بكتاب كتبه إلى معاوية: «فيما عجب للدهر إن صرت يقرن بي من لم يسمع بقديمي، ولم تكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها، إلا أن يدعني مدع ما لا أعرفه ولا

---

(١) شجرة طوبى: ص ٨٩

أظن الله يعرفه»<sup>(١)</sup>.

### شتان ما بين الفائز والخاسر

ولا يسعنا هنا إلا أن نذكر قول الإمام عليه السلام عندما ضربه الخارججي ابن ملجم الضربة التي أودت بحياته، والتي لخص بها حصيلته من هذه الحياة، وكانت الفوز بكل تأكيد، فقد طفرت إلى فمه هذه العبارة (فترت ورب الكعبة)، هل كان هذا الفوز قد تمثل بمحاسن مادية وأموال جمعها كما جمعها غيره أو بملك عضوض تمهد له واستقام لأولاده فيها بعد، لم تكن عبارته تلك تعبر إلا عن اقتناعه بسلامة موقفه طيلة حياته وإنحيازه المطلق إلى الإسلام ومبادئه.

لقد فاز، وقد أدرك ذلك كما أدركه طيلة حياته - عندما انتهى المشوار الطويل للاختبار الصعب، هذا الاختبار الذي امتد طيلة عمره في هذه الحياة الدنيا، ونجح فيه كله، وقد وفده على ربه غير خائف وغير آسف، بل فرح مستبشر، لقد كان على بصيرة من ربه، ولقد رأه كما رأه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ، لم يتبسّ عليه أمر، ولم تشكل عليه مسألة: «وإن معي لبصيري ما لبَسَ على نفسي ولا لبَسَ على»<sup>(٢)</sup> «وإني لعلى بينة من ربِّي ومنهاج مننبي وإني لعلى الطريق الواضح القطة لقطا..»<sup>(٣)</sup>.

لم نلمح ندماً أو خوفاً من مستقبل رهيب في كلمات الإمام عليه السلام كما لمحناها في كلمات عدويه اللذدين وهم يقبلان على الآخرة.

(١) نهج البلاغة: ص ٥٢٥.

(٢) نهج البلاغة: ص ٩٥.

(٣) نهج البلاغة: ص ٢٤٠.



### طمعه قتله... حرض على عثمان وطالب الأبراء بدمه

مهد عمرو بن العاص لأمر خطير كان يأمل أن ينال به ما فاته من كسب بعد عزله من مصر، فعندما قرب عثمان أقاربه وأغدق عليهم الأموال والقطاع ورأى نفقة الناس عليه بسبب ذلك، رأى أن الفرصة أصبحت مؤاتية له ليديلي بدلوه في خضم الأحداث التي بدأت تلوح في الأفق، فقد حاول إثارة الثوار على عثمان عندما تصدى له أمام الناس قائلاً: «اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك، فتب إلى الله نتب» فناداه عثمان: «وإنك هناك يا بن النابغة؟ قملت والله جبتك منذ عزلتك عن العمل» فنودي من ناحية أخرى: «تب إلى الله» فرفع يديه وقال: «اللهم إني أول تائب» ورجع إلى منزله<sup>(١)</sup>.

كان موقفه التحريضي ضد عثمان، والذي كشفه هو صراحة فيما بعد، أحد العوامل التي أدت إلى التسريع بقتله، خصوصاً إذا ما علمنا موقعه من المصريين الذين كان عاماً عليهم من قبل عمر بن الخطاب.

لم يركب هذه الموجة إلا لكساب رآه ماثلاً أمامه، ولو كان يدرى أن الأمور ستستقيم للإمام ﷺ لما كلف نفسه بهذه المؤونة، ولاكتفى بما نال من مكاسب سابقة.

وعندما تراكمت الغيوم ورأى أن الأمر لابد أن يتمخض عن أحداث خطيرة، أبسطها مقتل عثمان، وقد رأى حينذاك أن يختفي عن مسرح الأحداث بعد أن مهد لذلك، لكيلا تسجل عليه المواقف الأخيرة وقد يقتل عثمان وهو في المدينة، وهو أمر بدا أنه قد خطط له بعناية وحذر، «وخرج عمرو بن العاص إلى منزله بفلسطين، وكان يقول: والله إني كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان، وأتى علياً وطلحة والزبير

---

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٤.

فحرضهم على عثمان»<sup>(١)</sup>.

كان عثمان شيئاً كبيراً فانياً، ناهز الثمانين من العمر، ولو قد انتظر الثوار وفاته، لمات حتف أنفه بعد سنة أو سنتين، وماذا كان يمكن أن يجنيه عمرو أو معاوية الذي تقاعس عن نصرته عندما استنجد به - كما أسلفنا - عندما يموت عثمان هذه الميزة الطبيعية، وماذا ستكون حجتها لإعلان الحرب على الإمام علي والخروج عليه، بعد أن أجمعت الأمة كلها على أن يكون قائدها وإمامها؟

وماذا يمكن أن يجني عمرو من خلافة على علي سوى الإهمال والإبعاد وعدم نيل أي امتياز أو مكسب، كما يتوقع من غيره..!

ولعل معاوية وعمرو قد بيتا الغدر بعثمان بليل، وعزموا على ذلك، وربما اتفقا صراحة، وإن حاولا أن لا ييديا ذلك للناس، أو ييديا عكسه فيما بعد.

ذلك أمر من حق كل باحث أو قارئ أن يفكّر فيه، ما دمنا قد رأينا تلازمهما في كثير من المواقف قبل دخولهما الإسلام وبعد ذلك، وعملهما (ل قضيتيهما المشتركة)، عصيان إمام الأمة وأعلن الحرب عليه بحججة الأخذ بثار عثمان الذي قتله هما بالتحريض عليه والتقاعس عن نصرته والتمهيد لأسباب الثورة. ثم تلازمهما ومساراتهما وتشاورهما الدائم في العديد من أمور الدولة التي اغتصبها واستأثرا بكل ما حصل عليه من أموال وجاه وملك طويل عريض.

وقد صرّح عمرو عندما بلغه مقتل عثمان قائلاً: أنا أبو عبد الله. أنا قتله وأنا بوادي السباع»<sup>(٢)</sup>.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٦.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٥٨، وقال «أنا أبو عبد الله، تكون حرب من حك فيها قرحة نكاها...» الطبرى: ج ٣ ص ٦٩.


 كرهه لعلي ﷺ جعله ينحاز لمعاوية

(أَمَا عَلَيْ فِلَّا خَيْرٌ عِنْدَهُ، وَهُوَ غَيْرٌ مُشْرِكٌ فِي شَيْءٍ مِّنْ أَمْرِهِ).

وعندما قتل عثمان، كان على عمرو أن يحدد موقفه من أمير المؤمنين ﷺ! فهو يدرك أنه لن يعني شيئاً وراء هذه البيعة، وقد أدار المسألة بعقله الذي لا يحسب حساباً إلا للمصلحة الشخصية والنعم الخاص، فوجد أنه يستطيع أن يضع يده في يد أي أمرئ إلا عليه ﷺ، فليس وراءه أي مكسب أو معنـم، هذا ما علمه عمرو، وعلمه معاوية أيضاً وقبلهما طلحـة والزبير ونظائرهما. فعلى ﷺ عندما يتسلم قيادة المسلمين فإنه سيأخذ الجميع بالحق دون تمـايز أو اعتبار سوى اعتبار الإسلام، وأنه لن يضعـها في أي مركز يرغـبـانـه، وهـل يتخـلى معاـويـة عن (مشروع عـرـشـ) بنـاهـ في عـشـرـينـ عـامـاً؟

وهل ستتاح الفرصة لعمـرو للعودـة إـلـى مصر وحكمـها، وذـلـك جـلـ أـمـنيـتـهـ؟

وهـكـذا أـعـلنـ عمـروـ مـنـذـ الـبـداـيـةـ: «وـإـنـ يـلـهـ اـبـنـ أـبـيـ طـالـبـ، فـهـوـ أـكـرـهـ مـنـ يـلـهـ إـلـيـ»<sup>(١)</sup>.

«أـمـاـ عـلـيـ فـلـاـ خـيـرـ عـنـدـهـ، وـهـوـ يـدـلـ بـسـابـقـتـهـ، وـهـوـ غـيـرـ مـشـرـكـ فـيـ شـيـءـ مـنـ أـمـرـهـ»<sup>(٢)</sup>.  
وهـكـذاـ فـإـنـهـ عـنـدـمـاـ «بـلـغـهـ بـيـعـةـ عـلـيـ، فـاشـتـدـ عـلـيـ»<sup>(٣)</sup>.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٥٨ ، والطبرـيـ «وـإـنـ يـلـهـ اـبـنـ أـبـيـ طـالـبـ فـلـاـ أـرـاهـ إـلـاـ يـسـتـنـظـفـ الـحـقـ وـهـوـ أـكـرـهـ مـنـ يـلـهـ إـلـيـ» ٦٩-٣.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٥٨ .

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٥٨ ، والطبرـيـ: ج ٣ ص ٦٩ «فـبـلـغـهـ أـنـ عـلـيـ بـوـيـعـ لـهـ فـاشـتـدـ عـلـيـ، وـتـرـبـصـ أـيـامـ يـنـظـرـ مـاـ يـصـنـعـ النـاسـ، فـبـلـغـهـ مـسـيرـ طـلـحـةـ وـالـزـبـيرـ وـعـائـشـةـ. فـقـالـ: أـسـتـأـنـيـ وـانـظـرـ مـاـ يـصـنـعـونـ، فـأـتـاهـ الـخـبـرـ أـنـ طـلـحـةـ وـالـزـبـيرـ قـدـ قـتـلـاـ فـارـتـجـ عـلـيـهـ أـمـرـهـ، فـقـالـ لـهـ قـائـلـ: إـنـ مـعـاوـيـةـ بـالـشـامـ لـاـ يـرـيدـ أـنـ يـبـاعـ لـعـلـيـ، فـلـوـ قـارـبـتـ مـعـاوـيـةـ! فـكـانـ مـعـاوـيـةـ أـحـبـ إـلـيـ مـنـ عـلـيـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ وـقـيلـ لـهـ أـنـ مـعـاوـيـةـ يـعـظـمـ شـأـنـ قـتـلـ عـثـمـانـ بـنـ عـفـانـ وـيـحـرـضـ عـلـيـ الـطـلـبـ بـدـمـهـ، فـقـالـ عـمـرـوـ: اـدـعـوـ لـيـ مـحـمـداـ وـعـبـدـ اللهـ، فـدـعـيـاـ لـهـ، فـقـالـ: قـدـ كـانـ مـاـ بـلـغـكـاـ مـنـ قـتـلـ عـثـمـانـ، وـبـيـعـةـ النـاسـ لـعـلـيـ، وـمـاـ يـرـصدـ مـعـاوـيـةـ مـنـ مـخـالـفـةـ عـلـيـ. وـقـالـ: مـاـ تـرـيـانـ؟ أـمـاـ عـلـيـ فـلـاـ خـيـرـ عـنـدـهـ، وـهـوـ رـجـلـ يـدـلـ بـسـابـقـتـهـ، وـهـوـ غـيـرـ مـشـرـكـ

وعندها انهمرت دموع الحزن من عينيه على هذه المصيبة التي تمثلت ببيعة الإمام، ورأى أن يستثمر هذه الدمع حالاً، وأن لا يجعلها تنسكب دون فائدة، فإذاً فليس كبها منذ الآن على الخليفة القتيل (المظلوم)، الذي كان أول من ظلمه هو وصاحب معاوية، «ثم ارتحل عمرو من فلسطين راجلاً معه ابنه يبكي كما تبكي المرأة، وهو يقول: «واعثماناه. أني الحياة والدين..!» حتى قدم دمشق»<sup>(١)</sup>.

لماذا اتجه إلى دمشق مباشرةً، ولم يلتحق بطلحة والزبير وعائشة؟ لأن أراد أن يكمل الخطة التي وضعها مع صاحبه ونفذها بنجاح، وعليهم الآن أن يجنبنا ثمار ما زرعنا، ويتعاونا بشتى الطرق وببعضها على الأمر بأضراسهما، فهي فرصة العمر الكبيرة الوحيدة، وإن أفلت فسيفلت كل شيء منها ويوضع، هكذا حسباً وخططاً وعزماً، وتوكلًا على إرادتها الشريرة وشيطانها المريد. «ثم خرج ومعه ابنه، حتى قدم على معاوية، فوجد أهل الشام يحضرون معاوية على الطلب بدم عثمان، وقال عمرو: أنت على الحق. اطلبوا بدم الخليفة المظلوم»<sup>(٢)</sup>.

### من يطالب بدم عثمان؟

ولننظر إلى الكلمة التي وضعها المؤرخون هنا، أو التي وضعها لهم البعض «فوجد أهل الشام يحضرون معاوية على الطلب بدم عثمان»، من الذي كان يطالب بدم عثمان؟

في شيء من أمره، فقال عبد الله بن عمرو: أرى أن تكف يدك وتخلس في بيتك حتى مجتمع الناس على إمام فتباعي و قال محمد بن عمرو: أنت ناب من أنبياء العرب، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر. قال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرتني بالذى هو خير لي في آخرتى وأسلم في ديني. وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذى انبأ لي في ديني، وشرلي في آخرتى» الطبرى: ج ٣ ص ٦٩ - ٧٠.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٥٧.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٥٨ والطبرى: ج ٣ ص ٧٠.



من كان يخوض من؟ هل هم أهل الشام الذين كانوا يخوضون معاوية؟ أم معاوية كان يخوض أهل الشام (في الخفاء) ليخضوه في العلن؟ لا شك أنه معاوية. لكنه أراد أن يbedo الأمر أبناء الأمة الإسلامية الآخرين، وكان أهل الشام دفعتهم غيرتهم وحياتهم المجردة والانتصار (للمظلوم) فطالبوها معاوية بذلك. وكأنها هو لم يرد ذلك وأنه أجبر عليه من قبل الأمة ولن يفعل سوى أن استجاب لإرادتها.

إن (مكر) معاوية هنا يتجلّى بأبرز صورة وأدقها، فهو لم يكن يرغب أن يbedo الأمر وكأنه رغبة شخصية منه، قد يؤخذ عليها فيها بعد إذا لم ينجح، فوضع خطة للرجوع إذا ما فشلت خطته المعلنة، كما أراد أن يري أهل الشام أنه إنما يستجيب لهم لشدة حبه لهم، وأنه إن نهض في النهاية، فإن عليهم أن يطليعوه طاعة تامة دون تردد. فهو يستجيب لطلبهم..! وعليهم أن يستجيبوا لأوامره وقادته.

كان هذا - وهو رغبة أهل الشام في الأخذ بثأر عثمان - ما كان معاوية يؤكده دائمًا، ففي إحدى رسائله إلى الإمام عليه السلام، كتب يقول «وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان»<sup>(١)</sup>.

وأي شهادة أكبر من شهادة عمرو بن العاص لأهل الشام بأنهم على الحق..؟ ليس أكبر منها سوى شهادة معاوية لهم، ووصفه إياهم بأنهم الفتنة المحققة التي ينصر بها الله الدين وأنهم خير جند وأطوعه، وأنهم الفتنة المنصورة. «إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذاين عن بيضته، التاركين لمحارمه»<sup>(٢)</sup>!

لقد أراد إيهامهم بأن أمر الدين وقوامه يعتمد عليهم وأنهم إن سار بهم هو لكان وإياهم عن المحجة البيضاء والطريق الواضح، وأراد بذلك أن يسخرهم لأغراضه،

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٧٦.

(٢) مروج الذهب: المسعودي: ص ٥٠.

وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد.

### أقصر الطرق.. مساومة مكشوفة

((إنما أردنا هذه الدنيا..)).

ولعل انخداع أهل الشام الشديد بمعاوية وإخلاصهم له وانقيادهم إليه ومسيرهم وراءه قد زين له أن يستغني حتى عن عمرو بن العاص - شريكه في الجريمة - وهو على ما هو عليه من طاقة كبيرة في المكر والشر لا يستغني عنها معاوية في أيام محتبه وهو بمواجهة الإمام عليه السلام فقد «كان معاوية لا يلتفت إليه، فقال لعمرو ابناء: ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك فانصرف إلى غيره، فدخل عمرو على معاوية فقال له: والله لعجب لك إني أرفك بها أرفدك وأنت معرض عني. أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة، إن في النفس ما فيها، حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرباته، ولكننا إنما أردنا هذه الدنيا، فصالحة معاوية وعطف عليه»<sup>(١)</sup>.

«وقد قال عمرو بن العاص لمعاوية: ولو لا مصر وولايتها لركبت النجاة منها، فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده. فقال معاوية: مصر والله أعمتك ولو لا مصر لألقينك بصيرا»<sup>(٢)</sup>.

«ولم يبأي شرط أن يؤتيه على البيعة ثمنا، فلا ظفرت يد البائع وخزيت أمانة المباع»<sup>(٣)</sup>.

لقد كانا يفهمان بعضهما جيداً، ويعلمان أنها يجتمعان على باطل، ومصالح دنيوية

(١) الطبرى: ٣: ص ٧٠، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٥٨.

(٢) مروج الذهب: ص ٢٦.

(٣) نهج البلاغة: ص ١٢١.



بحثة لا علاقة لها بالله والإسلام، لكن عظم ما سعيا إليه - وقد بدا عظيماً في أعينهما السعي للملك - جعلهما ينسيان كل قيم عليا، إن كانوا قد عرفها على الإطلاق.

### باع دينه، فخسر كل شيء

وكان معاوية يدرك أن عمراً إن تخلى عنه فإنه لن يظل محايضاً، ولن يظل على رأيه في المطالبة بدم عثمان، وأنه إن آيس من أي مكسب دنيوي، فإنه سيثير الناس عليه ويحرّضهم عليه ويفشل الأمر في النهاية إنه لابد سينقلب عليه، ويعلن للملأ خطأه وتوبته وأنه إنما كان يريد الدنيا مع معاوية، وسيجد حتماً من يستمع إليه، وهكذا وضع معاوية يده بيد عمرو بعد أن اراد الاستئثار بكل المكاسب لنفسه واتفقا على العمل سوية وكتبَا كتاباً بذلك، فقد روى عن أبي موسى الأشعري انه قال: أخبرني الحسن قال: علم معاوية والله إن لم يبايعه عمرو بن العاص لن يتم له أمر فقال له: يا عمرو اتبعني. قال: لماذا؟ لآخرة؟ فوالله ما معك آخرة، أم للدنيا؟ فوالله لا كان حتى أكون شريك فيها. قال: فأنت شريكي فيها. قال: فاكتب لي مصر وكورها. فكتب له مصر وكورها. وكتب في آخر الكتاب: وعلى عمرو السمع والطاعة. قال عمرو: واكتب، إن السمع والطاعة لا يمنعان من شرطه شيئاً. فقال معاوية: لا ينظر الناس إلى هذا. قال عمرو: حتى تكتب. قال: فكتب والله ما يجد بداً من كتابتها»<sup>(١)</sup>.

ولو نظرنا إلى أسلوب التخاطب بينهما والمساومة، لرأينا تاجرين يحاولان أن يتفقا على السعر، السعر الذي وضعاه ثمناً لمصير الأمة كلها، ونرى في لهجتها استهانة مطلقة بكل القيم التي جاء بها الإسلام، فكأنهما يتساومان على قطيع من الأغنام أو قطعة من الأرض.

---

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٨٧.

وهكذا وضعوا برنامجهما المشترك للعمل، وفتحا نفسيهما لبعضهما، لقد باع عمرو نفسه للشيطان، مع أنه شيطان مثله. وكان يدرك عظم ما يقوم به من فعل قبيح، لكنه رأى أن الثمن الباهظ كان يستأهل كل شيء، حتى السقوط النهائي في أحضان الشيطان.

أي طاقة للشر في نفس هذا الرجل توشك أن تنفلت فلا يريد معاوية التفريط بها ويرى أن مصر ثمن بسيط لها مع أنه أراد محاطلته إلى أقصى حد ممكن «ودخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية وهو يكلّم عمرًا في مصر، وعمرو يقول له: إنما أبأيعك بها ديني. فقال عتبة: أثمن الرجل بدينه فإنه صاحبٌ من أصحاب محمد!»<sup>(١)</sup>.

إنه صاحب من أصحاب محمد عليهما السلام أيعقل هذا؟ كيف كان عمرو بن العاص من أصحاب محمد عليهما السلام؟ متى كان ذلك؟ هل كان قبل الهجرة أم بعدها بسنة؟ أم عام الفتح... وهل روي لنا أنه كان من صحابة الرسول عليهما السلام. اللهم إلا كما روى لنا عن معاوية أنه كاتب الوحي. أليس الرسول عليهما السلام هو القائل فيه وفي صاحبه معاوية، كما روى لنا عبادة بن الصامت وقد جلس بينهما مفرقاً، وقد فرحا بذلك ظناً منها أنه يكرمهما كلّيهمما بجلوسه بينهما، إلا أن عباده قطع عليهما فرحتهما وقال مخاطباً إياهما: «بينا نحن نسير مع رسول الله عليهما السلام في غزوة تبوك، إذ نظر إليكم تسيران وأنتم تتحدثان، فالتفت إلينا فقال: «إذا رأيتموها اجتمعوا ففرقوا بينها، فإنهم لا يجتمعان على خير أبداً» وأنا أنهاكم عن اجتماعكم»<sup>(٢)</sup>.

### لا يجتمعان إلا للشر

لا يجتمعان على خير أبداً، كان ذلك علم من الله علمه رسوله عليهما السلام، ولعله يدرك الشر المستطير الذي سيتخمس عنده أي لقاء لهذين الشيطانين على الأرض والولايات

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٨٧.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ٨٨.



التي ستجر على أمته لقاء ذلك.

وهكذا اجتمعا اجتماعاً مصرياً، وكان عمرو ووزير المعاوية وأميناً ومستشاراً، كان هو (رجل) الدولة الأموية بحق وأهم أعمدتها ومهندس سياستها كما يقال الآن. ولو رأينا طاقة الشر المعتملة في نفسه، والتي تفتحت على الخصوص خلال معركة صفين لرأينا أن معاوية ربما كان يعد مصر حصة قليلة بحق عمرو ولما أبداه هذا من مكر لا يخطر حتى ببال الشيطان نفسه مما أمال كفة المعركة ورجحها لصالح معاوية في معظم مراحلها.

لقد خرج في معركة صفين بأفكار ومقررات عجيبة جعلت معاوية نفسه يندهش لها ويقاد يقفز من الإعجاب ولعله هنا نفسه على الصفقة التي عقدها معه، ورأى أنه الرابع الوحيد فيها، وأن مصر كانت ثمناً بخساً لابن النابغة.

ولنأخذ مقتطفات مما كتبه المؤرخون لنا عن السعي المسؤول لعمرو لإتمال الكفة إلى جانبه وجانب معاوية، واستعداده الكبير لتجاهل الإسلام وقيمته ومبادئه والصفقات التي عقدها لمواجهة رجال المبادئ الذين أنكروا عليه سعيه ذاك وحضروه منه أمثال الإمام عليه السلام وعمار وغيرهما.

#### شريك في السلطة.. شريك في المكائد

فعندما أزمع الإمام عليه السلام على مباشرة الحرب بنفسه وجهز الناس، أصبح معاوية في حيرة من أمره «فدع عمرو بن العاص فاستشاره. فقال: أما إذا بلغك أنه يسير، فسر بنفسك، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك. قال: أما إذا يا أبا عبد الله فجهز الناس». <sup>(١)</sup> ويتبين لنا كما سيتبين لنا بصورة أوضح أن عمرو بن العاص لم يكن مجرد مستشار

---

(١) الطبرى: ج ٣ ص ٧١ وكمال فى التاريخ: ج ٣ ص ١٦٣ .

لعاوية، بل كان شريكاً فعلياً في كل أعماله، كما يتضح لنا أنه في بعض مراحل الصراع بين معاوية والإمام ﷺ حاول عمرو الاليقاع بمعاوية نفسه ليخلو له الجو كما أدرك ذلك معاوية نفسه، لذلك فإن تصرفاتها تجاه بعضها كانت تتسم بالحذر الشديد والغش الذي غالباً ما ينشأ بين شريكين غير أميين.

وقد قام عمرو (بوجبه) بهمة عالية رغم عمره الذي أوشك أن يشارف على الثمانين، ومن ذلك ندرك طمعه الشديد بها قد يغدقه عليه معاوية من عطايا وهبات، فشمر عن ثيابه وأقبل على مهمته بجد منقطع النظير «فجاء عمرو فحضر الناس، وضعف علياً وأصحابه»<sup>(١)</sup> «وكتب معاوية، في أجناد أهل الشام، وعقد لواءه لعمرو، فعقد لوردان غلامه فيمن عقد، ولابنيه عبد الله ومحمد»<sup>(٢)</sup>.

فلا عجب أن نسمع من عمرو، وهو يشارك في هذه الحملة الظالمة ضد الإمام ﷺ افتراءات وأكاذيب يرددتها مدعياً أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالها، غير أن لا عجب أن تروح مجتمع من المسلمين المضللين بنقل رواياته الكاذبة على أنها أحاديث صحيحة لتلقفها منهم أجيال مضللة أخرى مبهورة برجال الحديث هؤلاء أمثال البخاري ومسلم.. فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما مسندًا متصلًا بعمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ أَلَّا يَأْتِي طَالِبٌ لِيُسُوءَ بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ».

فماذا نتوقع من شخص يشهر سيفه على الإمام ﷺ ولو أتيحت له فرصة قتله؟ هل يؤيد ما ورد في حقه من أحاديث صحيحة موثوقة؟ أم يضع مقابلها مفتريات وأكاذيب ومزاعم وادعاءات باطلة؟ إن هذا ما فعله عمرو بن العاص بالضبط، حتى أنه راح يتهم الإمام ﷺ اتهامات لا تليق أن تلقى حتى على أبعد صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) الطبرى: ج ٣ ص ٧١ وكمال في التاريخ: ج ٣ ص ١٦٣ .

(٢) شجرة طوبى - ص ٨٤ .



فكيف بأخيه ونفسه ووصيه ومن عرفه الناس كلهم، ولم يدر بخلدهم أن يتهدوا إلى الحد الذي تمادي فيه ابن النابغة. وكانت من المضحكات المبكيات، حتى أن الإمام عليه السلام رد عليه مستنكراً أن يبلغ في تفكيره الشيطاني إلى الحد الذي ذهب إليه هذا الشيطان وقد وصفه وصفاً بليغاً في معرض هذا الرد الذي كان يقطر مراارة وأملأ «عجبًا لابن النابغة! يزعم لأهل الشام أن في دعابة، وأنى امرؤ تلعاية، أعافس وأمارس! لقد قال باطلًا، ونطق اثماً. أما - وشر القول الكذب - إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، وسائل فيدخل ويسأل فيلحف، ويخون العهد، ويقطع الإلَّا، فإذا كان عند الحرب فأي زاجر وامر هو! ما لم تأخذ السيوف مأخذها، فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القرم سبته، أما والله إني ليمنعني من اللعب ذكر الموت، وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة، إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتني أتياً، ويرضخ له على ترك الدين رضيبيه»<sup>(١)</sup>.

ولربما يدعى مدع أن أقوال الإمام عليه السلام بحقه وحق معاوية قد لا يجوز الأخذ بها هنا؛ لأنه خصم، والخصم قد لا يتورع عن القول في (خصمه) أو (منافسه) أي شيء، وربما خرج في أقواله عن جادة الحق والصواب، إن هذا يصح على معاوية وعمرو بلا شك أما بالنسبة للإمام فيما عرف أن أحداً نسب إليه أقوالاً وتصريحات باطلة حتى في حق أشد مناوئيه وأعدائه، وعلى الذي يتصدى لدراسة هذين الشخصين العجبيين أن يعرف مجمل توجهاتهم ومدى صلتهم بالإسلام.

فهل عرف أحد معاوية أو عمرو مزية تجعلهما من رجال العقيدة وأنه يمكن أن يكونا صحابيين لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه أم أن كل مؤهلاً لهما أنصبت على مجالات المكر والخداعة والدهاء؟ وهل لمس أحد في تصرفاتها أنها كانا يذكران الله و يجعلانه نصب أعينهما؟ هذا ما لا يمكن لأحد أن يدعيه، حتى أولئك الذين عاشوا في ظلهم ونالوا من عطاياهم

(١) نهج البلاغة: ص ١١٥.



وإنعامهما !

### بين موقف و موقف

لقد أراد معاوية أن يمنع الإمام عليه السلام وجنده الماء في صفين عندما وصل قبله إلى نهر كان هناك، وقد حاول عمرو أن يعزز من القوة التي وضعها معاوية، وخرج بنفسه لهذا الغرض، إلا أن الخطة فشلت وأراح أتباع الإمام جند معاوية عن الماء، إلا أنهم سمحوا لهم بإياعز من الإمام عليه السلام بالتزود منه، وهو أمر يفصح أشد الإفصاح عنه عليه السلام وعنهم، وبين اختلافهم واختلافهم نفسياً و الأخلاقهم وقوه المبادئ لديهم.

ومع ذلك فقد كان عمرو من الفطنة ما جعله منذ البداية يشير على معاوية أن لا يمنع اتباع الإمام عليه السلام الماء. وقال له: «خل بينهم وبين الماء، فإن القوم لن يعطشو وأنت رّيان؛ ولكن بغير الماء، فانظر ما بينك وبينهم» إلا أن معاوية لم يأخذ برأيه، وقد تبين له فيما بعد صواب رأيه عندما أراح جند الإمام جنده، وعزموا على منعهم منه إلا أن الإمام عليه السلام أمرهم «أن خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسركم، وخلوا عنهم! فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم»<sup>(١)</sup>.

وكما أوضحنا فإن عمرو بن العاص قد شارك مشاركة فعلية في الحرب التي أعلنها معاوية ضد الإمام عليه السلام، فقد كان «على خيول أهل الشام كلها». <sup>(٢)</sup> وعندما خرج عمار ابن ياسر «خرج إليه عمرو بن العاص، فاقتتل الناس كأشد القتال، وأخذ عمار يقول: يا أهل العراق، أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما، وبغى على المسلمين، وظاهر المشركين، فلما رأى الله عز وجل يعز دينه ويظهر رسوله، أتى النبي صلوات الله عليه وسلم فأسلم، وهو فيما نرى راهب غير راغب، ثم قبض الله عز وجل رسوله صلوات الله عليه وسلم ! فوالله إن

(١) الطبرى ج ٣ ص ٧٦ وكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٦٧ وما بعدها.

(٢) الطبرى: ج ٣ ص ٨٢ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٦٧ وما بعدها.



زال بعده معروفاً بعداوة المسلم، وهوادة المجرم، فأثبوا له وقاتلوه، فإنه يطفئ نور الله، ويظاهر أعداء الله عز وجل<sup>(١)</sup>.

### الغدر، حتى ولو بالحليف، هو القاعدة

وفي مرحلة من مراحل القتال، عرض الإمام عليه السلام أن يقاتل هو ومعاوية لجسم النزاع، وقال: «علام يقتل الناس بينما! هلّم أحاكنك إلى الله، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور، فقال له عمرو: أنصفك الرجل، فقال معاوية: ما أنصف، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله، قال له عمرو: ما يحمل بك إلا مبارزته، فقال معاوية: طمعت بها بعدي»<sup>(٢)</sup> وهكذا نرى أن هناك منافسة خفية بين الشريكيين على المنصب الخطير الذي كاد أن يكون قريب المنال. ولم يجمع بينهما حب في الله كما قد يتوهם بعض المخدوعين، ولم تجمع بينهما قضية مقدسة من أجل الإسلام ومبادئه.

### الفترة الباغية

ويبدو أن الكتيبة التي قادها عمرو هي التي قتلت عمار بن ياسر، وذلك مما رأى عمراً؛ لأنَّه كان يعلم منزلة عمار من رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وقوله فيه: «قتله الفتنة الباغية»، مما هو شائع ومعروف عند الجميع، وقد فزع عمرو من ذلك أشد الفزع إلا أن معاوية طمأنه وهدأه بالتفاتة ماكرة من التفاتاته العجيبة.

فقد خرج عمار بن ياسر في صفين مواجهًا كتيبة عمرو قائلاً: «اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم ابن عفان ويزعمون أنه قتل مظلوماً والله ما طلبتم به ولتكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرواً بها وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين

(١) الطبرى: ج ٣ ص ٨٣ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٦٧ وما بعدها.

(٢) الطبرى: ج ٣ ص ٩٤.

ما يتمنون فيه من دنياهم ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم فخدعوا أتباعهم أن قالوا إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبارة ملوكاً وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون ولو لا هي ما تبعهم من الناس رجالان..<sup>(١)</sup>. ونرى في قول عمار وصفاً دقيقاً لحالم، فقد كان من الاطلاع على أوضاعهم ومن رهافة الحس أن راح يشخص لنا حالم ومواقفهم الماكرة، وقد وجه خطابه إلى عمرو قائلاً: «يا عمرو بعثت دينك بمصر تبا لك تبا طالما بغيت في الإسلام عوجا»<sup>(٢)</sup> وقال: «لقد قاتلت صاحب هذه الراية [عمرو] ثلاثة مع رسول الله عليه وآله، وهذه الرابعة ما هي بأبر ولا أتقي»<sup>(٣)</sup>.

لقد راع عمراً أنه ساهم بقتل عمار وأنه في المعسكر المعادي له وحز في نفسه قول عبد الله ابنه له: «يا أبت قتلتكم هذا الرجل في يومكم هذا وقد قال فيه رسول الله عليه وآله ما قال!»<sup>(٤)</sup> وقد تجاهل عمرو قول رسول الله عليه وآله في عمار وتناساه وسأل ابنه: ما قال رسول الله عليه وآله. قال: «لم تكن معنا ونحن نبني المسجد، والناس ينقلون حجراً حجراً ولبننة لبنة، وعمار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين فغضي عليه، فأتاها رسول الله عليه وآله فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول «ويمك يا بن سمية! الناس ينقلون حجراً حجراً ولبننة لبنة وأنت تنقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين رغبة منك في الأجر! وأنت ويمك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية!» فدفع عمرو صدر فرسه، ثم جذب معاوية إليه، فقال: يا معاوية، أما تسمع ما يقول عبد الله! قال: وما يقول؟ فأخبره الخبر، فقال معاوية: إنكشيخ أخرق، ولا تزال تحدث بالحديث وأنت ترחש في بولك! أو نحن قتلنا عماراً! إنما

(١) الطبرى ج ٣ ص ٩٨.

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٩٨، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٨٧.

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٩٩، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٨٧.

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٩٩، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٨٨.



قتل عماراً من جاء به. فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم يقولون: إنما قتل عماراً من جاء به، فلا أدرى من كان أعجب، هو أو هم؟<sup>(١)</sup>.

ونحن نعجب بدورنا من هذا المكر الذي لا يخطر حتى ببال الشيطان نفسه، غير أن عجبنا يزول إذا ما علمنا أن هؤلاء أناس توجهوا بشكل تام إلى الدنيا ومتافتها ومغرياتها، ولم يكن أمامهم سوى الدجل والكذب والمكيدة والمكر، ولو لا ذلك ما تبعهم رجالان على حد تعبير عمار رضوان الله عليه.

#### حيلة رفع المصاحف.. تفتق عنها مكر ابن النابغة

على أن ما أشعل الفتنة حقاً وكان سبباً لانشقاق أتباع الإمام عليه السلام وتفرقهم وظهور الخوارج، وما أدى إلى قتل الإمام نفسه في النهاية هي قصة رفع المصاحف بالرماح من قبل أهل الشام، ذلك الأمر الذي تفتق عنه مكر ابن النابغة، وذلك عندما مالت كفة القتال وأوشك معاوية أن ينهزم بما تبقى له من جند، وأوشك عمرو نفسه أن يقع بيد جند الإمام عليه السلام «فلما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد، وخف في ذلك الهالك، قال معاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك، لا يزيدنا إلا اجتهاعاً، ولا يزيدكم إلا فرقة؟ قال: نعم، قال: نرفع المصاحف ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم، فإن أبي بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: بلى، ينبغي أن تقبل، فتكون فرقة تقع بينهم وإن قالوا: بلى، نقبل ما فيها، رفينا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل وإلى حين»<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن عمراً استند في توقعاته خلاف أهل العراق إلى ما سبق أن عرفه عن الكثيرين منهم من ميل إلى الخلاف والمعارضة وإلى الطابور المدسوس في جيش الإمام والذي سبق أن ساوم معاوية وأبدى استعداده لنصرته في اللحظات الحاسمة

(١) الطبرى ج ٣ ص ٩٩، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٨٨.

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٠١، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٩٢.

أمثال الأشعث بن قيس الذي أبدى ترحيباً فائق النظير بهذا الاقتراح وتبناه كأنه الحل الوحيد للمسألة كلها، كما أن جماعة مضللة أخرى كانت تأخذ بظاهر الأقوال القرآنية أبى أن تستجيب لتحذير الإمام ﷺ بأن مسألة رفع المصاحف خدعة ينبغي أن لا تنطلي عليهم وكان في مقدمة هؤلاء مسعود بن فدكى التميمي وزيد بن حصين الطائى فى عصابة معهم من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك. ويبدو أن الذين قبلوا رفع المصاحف كانوا أغلبية فى جيش الإمام ﷺ وأنهم اضطروا إلى ذلك رغم عدم قناعته التامة بذلك ومعرفته بخصوصه الذين لم يعيروا فى أي وقت من حياتهم أى أهمية لكتاب الله ولإسلام برمه، وقد صرخ فىهم محدراً إياهم من هذه اللعبة الخبيثة: «عباد الله، أمضوا على حكم وصدقكم وقتل عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم. قد صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال، ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة»<sup>(١)</sup>.

### الحيل لا تنطلي إلا على الأغبياء

فلم يزدهم بيانه إلا إصراراً على قبول رفع المصاحف وطلبوه إليه أن يبعث إلى الأستر الذي كان على وشك إحراز نصر حاسم في المعركة، وهددوه بشق وحدة الجيش والخروج عليه ويبدو أنهم كانوا أغلبية كما ذكرنا، وقد استجاب الإمام - مضطراً طلبهم غير أنه استمر يذكرهم بموقفه ورفضه لذلك فقال: «فاحفظوا عنى نهي إياكم واحفظوا مقالتكم لي أما أنا فإن تطيعوني تقاتلو وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم قالوا

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٠١ ، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٩٢ - ١٩٣ .



له إما لا فابعث إلى الأشتر فليأتك<sup>(١)</sup>. وقد تلّكَ الأشتر بالاستجابة لذلك، عالماً برهافة حسه ومعرفته بالإمام عليه السلام أنه لم يكن ليقبل بذلك وأنه ربما كان مجبراً على الاستجابة له، وقد آلمه أن يتخلّى عن موقفه وقد أوشك أن يصل إلى معاوية نفسه وقد صرخ بمن جاء يدعوه إلى التراجع: «أما والله لقد ظننت حين رفعت أنها ستوقع اختلافاً وفرقة، إنها مشورة ابن العاشرة، ألا ترى ما صنع الله لنا! أينبغي أن أدع هؤلاء وأنصر عنهم؟»<sup>(٢)</sup>.

وقد وقف الأشتر موقفاً شديداً من هؤلاء الداعين إلى قبول رفع المصاحف إلا أنه لم يستطع ثنيهم عن قرارهم وقد زادهم اصراراً سعي بعض المساومين والمخاذلين من أصحاب الإمام عليه السلام أو من الذين عدوا من أصحابه أمثال الأشعث بن قيس الذي كان يبدو فرحاً بهذا القرار.

والذي زاد الطين بلة أن هؤلاء المستجبيين لاقتراح أهل الشام الذين اختاروا عمرو بن العاص صاحب الاقتراح نفسه ليمثلهم في لجنة التحكم، أبوا إلا أن يرسلوا أبا موسى الأشعري رغم معارضته الإمام عليه السلام ذلك قوله لهم: «إنكم قد عصيتموني في أول الأمر، فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن أولي أبا موسى. فإنه ليس لي بشقة، قد فارقني وخذل الناسعني ثم هرب مني حتى آمنته بعد أشهر»<sup>(٣)</sup> ثم عرض أن يولى ابن عباس أو الأشتر، إلا أن الأشعث وجماعته رفضوا ذلك.

فكان طرفاً التحكيم عمرو بن العاص الذي يميل كل الميل إلى معاوية؛ لأن مصالحها واحدة وفشل معاوية يعني فشل عمرو نفسه، وأبا موسى (عبد الله بن قيس) الذي لم يكن يميل إلى الإمام وقد خذل الناس عنه وهرب منه حتى آمنه الإمام.

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٠١ ، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٩٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٠١ ، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٩٣ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٠٢ ، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٩٤ .

وخلال مهزلة التحكيم حول عمرو الدعوة إلى ابنه عبد الله كما حاول الأشعري أن يدعو إلى صهره عبد الله بن عمر (زوج ابنته) أي إنها خانا من جاء للتحكيم باسمه، قال أبو موسى: أما والله لئن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). فقال له عمرو: إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه! فقال: إن ابني رجل صدق، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة<sup>(١)</sup>.

### نفس أمير المؤمنين تفيض أسى وحزناً حتى على أعدائه

وحتى مع رجال أمثال معاوية وعمرو، لم يترك الإمام ص النصح والإرشاد والدعوة إلى طريق الحق والتوبة والتراجع عن الباطل، ولعل نفسه كانت تفيض أسى على أولئك الضالين المنحرفين، ولعله كان يتمنى أن يت亨جوا طريقه، لأنّه طريقه هو خاصة، بل لأنّه طريق الإسلام الذي اختطه محمد صلوات الله عليه وسلم، فقد حدث شريح بن هانئ أن الإمام ص أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العاص، «قال: قل له إذا أنت لقيته: أن علياً يقول لك: إن أفضل الناس عند الله عز وجل من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه وكراهه، من الباطل وإن حنّ إليه وزاده، يا عمرو، والله إنك لتعلم أين موضع الحق، فلم تجاهل؟ إن أوتيت طمعاً يسيراً كنت به الله وأوليائه عدواً، فكأن والله ما أوتيت قد زال عنك، ويحك! فلا تكن للخائين خصيماً، ولا للظالمين ظهيراً. أما أني أعلم بيومك الذي أنت فيه نادم، وهو يوم وفاتك، تمنّى أنك لم تظهر لمسلم عداوة، ولم تأخذ على حكم رشوة. قال: فبلغته ذلك، فتعمّر وجهه، ثم قال: متى كنت أقبل مشورة علي أو أنتهي إلى أمره أو أعتد برأيه! فقلت له: وما يمنعك يا بن النابغة أن تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم مشورته! فقد كان من هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه، ويعملان برأيه، فقال: إن مثلي لا يكلم مثلك، فقلت له: وبأي أبويك ترغب عنِّي!

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٠٢ ، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٠٧ وما بعدها.



بأبيك الوشيط أم بأمك النابغة!»<sup>(١)</sup>.

ولم يكن محتملاً من عمرو أن يتقبل كلام الإمام ونصيحته وهو من أعماء حب الدنيا وسار وراء أطامعه إلى آخر الشوط، وكان ما كان من نتيجة التحكيم (المهزلة) وكان الإمام عليه السلام يعلم من هما الحكمان. ولكن ما كان بوسعيه أن يفعل مع مهادنين خونة وجهلة وطامعين ومتخاذلين، وقد قال فيما بعد حاثاً الناس على المسير ثانية إلى الشام بعد أن شهدوا بأعينهم النتيجة المخجلة المفزعية للتحكيم: «كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي الحكومة أمري، ونحلتكم رأيي، لو كان لوصيتي أمر! ولكن أبيتم إلا ما أردتم، فكنت أنا وأنت كما قال أخو هوازن:

أمرتهم أمري بمنعج اللوى      فلم يستبينوا الرشد إلا أضحمى الغد  
إلا أن هذين الرجلين اللذين اختزموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء  
ظهورهما، وأحياناً ما أمات القرآن، واتبع كل واحد منها هواه بغير هدى من الله، فحكمها  
بغير حجة بيّنة، ولا سنة ماضية، واختلفا في حكمها، وكلاهما لم يرشد، فبرئ الله منها  
ورسوله صالح المؤمنين»<sup>(٢)</sup>.

### ملك مصر سنتين.. مات بعدها حتف أنفه

وبعد صفين اتجه الشر يكان لتحقيق حلمهما، سلب مصر وضمها (للدولة الأموية) المنفصلة عن الدولة الإسلامية الكبرى بقيادة الإمام عليه السلام، وتحويل عمرًا التصرف بها، كما اتفقا منذ البداية. وقد دعا معاوية كبار أصحابه ومنهم عمرو بن العاص نفسه، فقال لهم: أتدرؤن لم دعوتكم؟ إني قد دعوتكم لأمر مهم أحب أن يكون الله قد أغان علية، فقال القوم كلهم - أو من قال منهم: إن الله لم يطلع على الغيب أحداً، وما يدرينا

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١١٢ ، والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١١٦ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢١٦ .

ما تريده! فقال عمرو بن العاص: أرى والله أمر هذه البلاد الكثير خراجها، والكثير عددها وعدد أهلها، أهمك أمرها، فدعونا إذاً لتسألنا عن رأينا في ذلك، فإن كنت لذلك دعوتنا، وله جمعتنا فاعزم واقدم، ونعم الرأي رأيت، ففي افتتاحها عزك وعز أصحابك، وكنت عدوك، وذل أهل الخلاف عليك. قال له معاوية مجيباً: أهلك يا بن العاص ما أهلك - وذلك لأن عمرو بن العاص كان صالح معاوية حين بايعه على قتال علي بن أبي طالب، على أن له مصر طعمة ما بقي - فأقبل معاوية على أصحابه فقال: إن هذا - يعني عمراً - قد ظن ثم حقق ظنه، قالوا له: لكن لا ندرى؛ قال معاوية فإن أبو عبد الله قد أصاب، قال عمرو: وأنا أبو عبد الله! قال: إن أفضل الظنون ما أشبه اليقين»<sup>(١)</sup>.

وقد جهز معاوية عمراً لمحاربة محمد بن أبي بكر وإلي الإمام على مصر، وقد قتل محمد ومثل بجثته بشكل شنيع، ألقاه قائد عمرو في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار. وكان من أمر معاوية بعد ذلك أن بعث بحملات إرهابية في أطراف الدولة الإسلامية المتبقية تحت حكم الإمام كما سبق وأوضحتنا في هذا الفصل.

فقد استقر عمرو في مصر وإلياً وحاكمًا وأطلق سنته أربعين للهجرة أي قبيل اغتيال الإمام علي على يد الخارجي ابن ملجم. وصفاته الجو وجمع ما جمع من أموال إلى أن توفي عام ثلاثة وأربعين أي بعد ثلاث سنين من مقتل الإمام ولم يمكنه إليها معاوية إلا أقل من سنتين فقط، فهل كانت تستحق هاتان السنستان وما ناله فيها من (مكاسب)، أن يفقد عمرو حياته الباقية! وهل أفلحت تجارتة مع شيطانه معاوية؟ أم كانت صفقة خاسرة أمضها عجوز طماع مع آخر لا يقل عنه طمعاً وخبيطاً. ثم جنى جناها في يوم شديد الحساب إذ أخذنا على عاتقيهما مهمته حرف الأمة عن الإسلام وتشويهه إلى الأبد،

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٢٨ والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٢٢٨.



وإلى أن يتسرى للأمة من ينبعها من الضلال الأموي المقيت، ويعيد للإسلام صفاءه وأصالته، وهي بالتأكيد مهمة لا يقدر عليها إلا آل البيت عليهم السلام ومن سار على منهجهم، منهاج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

### لم يرتدع رغم نصائح الإمام

كان الإمام ع يعلم مدى استعداده للشر، ويعرف مدى الدمار الذي سيلحق بالمسلمين إذا ما احتجز قوة الشر عنده مع اختها عند معاوية، وكان يدرك ضرورة فصل هاتين القوتين عن بعضهما، كما علمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إن أنها لا تجتمعان على خير أبداً كما صرحت صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولقد حذره كثيراً من معاوية وشريكه، بنفس القوة التي اتجه فيها إلى معاوية يحذره شرور نفسه وسيئات أعماله، وقد شخّص الإمام بدقة حال عمرو مع معاوية، وكشف أمامه نفسه الملتوية المجبولة على الشر والخداعة، وقام يلقي عليه الحجة بعد الحجة، إذ ربما يعمد إلى التذرع بما يعمد إليه البسطاء والمغفلون، وكشف أمامه نفسه؛ لأنه ربما حسب نفسه بمنجاها من مراقبة الآخرين وأن سلوكه ربما تخفي دوافعه عليهم. وربما تذرع - كما قلنا - بما يتذرع به البسطاء، وهو ليس بسيطاً، وليس بالذي لا يدرك ما يقوم به.

وكان حجج الإمام ع باللغة قوية مؤثرة في كل خطاباته ورسائله إليه وقد رأينا نموذجاً منها، وهذا نموذج آخر: «إنك جعلت دينك تبعاً للدين امرئ ظاهر غيه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره وطلبت فضله، اتباع الكلب للضرغام، يلوذ إلى مخالبه وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته، فأذهبت دنياك وأخرتك. ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت، فإن يمكنني الله منك ومن ابن أبي



سفيان أجز كما بها قدمته وإن تعجزا أو تقيا فما أمامكم شر لكم»<sup>(١)</sup>.

لقد أراد الإمام أن يردع عمراً وينبه عن طريقه الأعوج ويريه أنه خاسر، لا في الآخرة وحسب - والتي لم يكن عمرو يحسب حسابها بأي حال من الأحوال، وإنما في هذه الدنيا، التي أصبحت على وشك الانتهاء وقد شارف على الشهرين، وأي لذات وبما هاج لابن الشهرين، غير مباهج الإسلام ولذات التهيؤ للقاء الله لو كان يعقل، وهو الذي يحسب نفسه أعقل البشر وأكثرهم دهاء وفهمأ.

﴿قَالَ رَبُّ ارْجِعُونِ لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾

إن دنياه ستظل مجرد سعي مستمر بجوج وطمع دائم، يشقى به، ولا يرى نفسه إلا فقيراً محتاجاً مهما حصل عليه ونانه ومهما امتلاه كيسه من الذهب. وقد أدرك عمرو ذلك ووعي الدرس والنصيحة، ولكن في اللحظة الأخيرة التي زاره فيها ملك الموت وخفق فوقه بجناحيه. وحين لم يعد الدرس والنصيحة تجديان. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبُّ ارْجِعُونِ لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلْمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرَّزَ إِلَى يَوْمِ يُبَيَّعُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرْدُ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْكِمُونَ مِنْ قَبْلٍ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الْجُرْمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَأَرْجَعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُؤْفِقُونَ وَلَوْ شِئْنَا لَا كَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمَلَّنَ

(١) نهج البلاغة: ص ٥٨٠.

(٢) المؤمنون ٩٩-١٠٠.

(٣) الأنعام ٢٧-٢٨.



جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيْنَا كُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخَلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ .<sup>(١)</sup>

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيْقًا مُقْرَنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ .<sup>(٢)</sup>

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلَّرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا وَيَوْمَ يَعْصُضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدِيهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَخْنَدْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيِّلاهُ يَا وَيَلَتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخْنَدْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الدِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ .<sup>(٣)</sup>

«أي ندم وحسرة يحيشان في نفس هذا الظالم الذي يرى أمامه من أصله في النار ويرى إبليس وكل متشيط منحرف موسوس معه. ويرى الرسول والذين آمنوا في الجنة، خالدين فيها، منعمين في مستقرهم المريح هنا. إن أسفه وأساه على ما فاته ليعادل عذابه في الجحيم. وأنه ليصب جام غضبه على من أصله وكان سبباً لمجيئه إلى هذا المكان المفزع. كيف صدق به وكيف أطاعه؟ لأنه وعده بأنه سيحمل خطایاه ومسؤولياته أمام رب العالمين؟ ولعله لم يعده حتى بهذا»<sup>(٤)</sup>.

### مات عمرو وبقي شره

ولقد صح قول الإمام عليه السلام ... ندم عمرو، ولكن عند موته وقبيل خروج روحه كان الدرس بليغاً لابن النابغة هذا، وكانت الموعظة جادة ومؤثرة، إلا أن عمراً لم يفهمها إلا في النهاية، وحين لم يعد يجديه الفهم، وكان عند مماته واعظاً لمن أتى بعده وأراد أن

. (١) السجدة ١٢-١٤.

. (٢) الفرقان ١٣-١٤.

. (٣) الفرقان ٢٦-٢٩.

. (٤) الحوار في القرآن الكريم، المؤلف/ مخطوط: ص ٢١٦



يسير سيرته، غير أن الطغاة والظالمين لا يتعظون بغيرهم، وغالباً ما يشكل سلوكهم مصائب عليهم وعلى الآخرين، وكان عمرو نفسه مصيبة أحققت بال المسلمين وعملت على تأثيرهم بعد أن أصبح أحد الطواغيت والفراعنة المسترلين بلباس الإسلام. وقد كان هو أول أعوان الفرعون الأموي الأول حينما أراد أن يمهد الأمر لحكمه وحكم سلالته بكل الطرق المتاحة.

ولن نقول: إنه ليس أمراً مستغرباً أن يفعل عمرو ما فعل؛ لأنه ابن نابغة معروفة. إذ ما ذنبه في ذلك، غير أن قذاراته التي أزكمت روائحها التنتة أنوف الناس إلى يومنا هذا وطريق الشر المظلمة التي انتهجها على الدوام جعلهم لا يتذكرون حسنة له، فكأنه هو الذي أثار الناس عليه وحرضهم ضدها.

مات عمرو، وظللت نتائج أفعال عمرو، خراباً ودماراً لف المسلمين إلى يومنا هذا، فكأنه سعى بستين من حكم مصر ليضيع على الإسلام فرصة حكم البشرية لآلاف السنين حكماً عادلاً لا سلطان فيه لطاغوت أو فرعون.



**زياد ابن أبيه (بن أبي سفيان)؟**

**بين بعد الطموح، ودناءة الأصل**

### **أصل دنيء وأخوة في الزنى**

يمثل زياد بن أبيه (عقبة الشر) الثانية بعد أخيه عمرو، ولا يكاد يتفوق عليهما في ذلك، إلا أخوهما معاوية<sup>(١)</sup> نفسه.

فهذه الشخصية كان لديها الاستعداد الكامل للانحراف، وربما كان استعداداً موروثاً آخر، فهو ابن (نابغة) أيضاً كصاحب عصرو، ولعل (مهنة) أمها سمية التي كانت كانت من ذوات الرؤى بالطائف تشكل أكبر عقدة نقص في حياته، حتى عندما قربه الإمام ع وعهد إليه ببعض المهام، عندما رأى قدراته الجيدة البشرة بمستقبل جيد. فلم يكن يستطيع أن ينسى هذه الوهدة التي مرغته بها أمه برغمها، ولم يستطع أن يصمد أمام اغراء معاوية لـالحاقة بأبي سفيان في أغرب عملية رشوة حذفت على مر التاريخ.

فعندما خرج معاوية على الإمام ع بحججة المطالبة بدم عثمان، وحشد جيوش أهل الشام وبعض الخارجين من استهالم معاوية بمختلف الأسباب والذرائع والذين لجأوا إليه بحكم أنه (مثل) المعارضة المعلنة المسلحة المتصدية للدولة الإسلامية بقيادة الإمام،

---

(١) من المعلوم أن معاوية ادعى زياداً لأبي سفيان، كما أن أبو سفيان نفسه كان أحد الخمسة الذين أدعوا (عمراً)، لأنه زنى بأمه (النابغة) التي نسبته إلى العاصم، لما كان يحبها به من أعطيات وهدايا، فانظر إلى هذه الفارقة التاريخية الغربية، واجتماع هؤلاء (الأخوة) إلى باطلهم في أكبر عملية تزوير وتشويه للإسلام قمت عبر كل تاريخه.



وكانوا يستطعون عن طريقه تنفيذ رغباتهم وأطماعهم والاعلان عن مواقفهم المناوئة للإمام عليه السلام والإسلام على حد سواء، وعندما خرج معاوية حاول أن يستميل العديدين حتى من بين أتباع الإمام نفسه وعما له محاولاً النفاذ إليهم من خلال استئثار نقاط الضعف الموجودة لديهم. وكانت المساومات التي أجراها مساومات علنية مكشوفة أحياناً ومتسترة أحياناً أخرى، فهي صفقات (تجارية) في عالم (السياسة)، لها مردود (ينفع) الطرفين المتعاملين كليهما، وكانت الرشوة على قدر المرتشي وأطماعه ومطامحه.

### الخائن

ومنذ البداية، لم يكن زياد يمتلك الحصانة الالزمة للصمود أمام اغراء امتيازات المنصب الذي شغله ( الخليفة ) لعامل أمير المؤمنين عليه السلام ، عبد الله بن العباس على البصرة وفارس وأعماها، فكان يمد يديه ويستأثر ببعض أموال المسلمين، وكان يبلغ الإمام عليه السلام بعض تصرفاته، وقد حذرته تحذيراً هيناً ليناً في البداية، وأوصاه أن «استعمل العدل، واحذر العسف والحيف، فإن العسف يعود بالجلاء والحيف يدعو إلى السيف»<sup>(١)</sup> ثم حذرته تحذيراً شديداً وقرعه، عندما أوشكت الأخبار الواردة بشأنه أن تتحقق، وعندها شعر زياد بالخوف الشديد من الإمام، وأنه لا أمل له بأي (مكسب) إضافي من وراثة أو بسرقة تتم من وراء ظهره، ولم تكن سيرة الإمام عليه السلام وأخلاقه تغيب عن زياد، وما جدوى أن يكون عامل له وهو كأحد الناس لا يتميز عليهم بمال أو ثروة إضافية، وقد استشعر الخطر الماثل أمامه إذا ما تجرأ وخرج على أصول التعامل والحكم التي أوضحتها الإمام ورسمها لعما له وأصحابه.

لقد كتب إليه الإمام ثانية، ولعله كتب إليه قبل ذلك «وإني أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً، لأشدن عليك شدة تدعوك

(١) نهج البلاغة: ص ٧٦٥.



قليل الوف ثقيل الظهر، ضئيل الأمر»<sup>(١)</sup>.

وإذا ما ظهر على الجانب الآخر من المعركة من يلوح له بما يرى أنه لا يمكن الحصول عليه ما دام مع الإمام عليه السلام، وهو الأموال الطائلة والصلاحيات المطلقة بأموال الناس ومقدراتهم، ويلوح له بأمر آخر لم يزل في نفسه، فإن آخر حصونه قد تهاوت أمام الاغراءات العديدة التي قدمها له (أخوه) معاوية بكل سخاء.

وقد أراد الإمام عليه السلام منذ البداية، ومنذ أن رأى معاوية يلوح بنسبة (السامي) لزياد ويعرض عليه أن يلحقه به، أن يحذر زياد من الوقوع في هذه المكيدة التي سجلت عليه العار إلى الأبد وتجعله مضغة لا في أفواه معاصريه وحسب، بل في أفواه جميع من سيأتون بعد ذلك، فقد كتب إليه: - «إنني ولتيك ما ولتيك، وأنا أراك له أهلاً، وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أهلي الباطل وكذب النفس لا توجب له ميراثاً ولا تحل له نسباً، وأن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماليه، فاحذره ثم احذره»<sup>(٢)</sup>. وربما انتظر زياد الفرصة المناسبة للالتحاق بمعاوية، وقد واتته هذه الفرصة أخيراً بعد اغتيال الإمام وصلاح الحسن عليه السلام. ولم يكن بالمرء الذي يستهين به معاوية، فقد كان «عاملاً لعلي بن أبي طالب على فارس، فلما مات علي عليه السلام وبایع الحسن معاوية عام الجماعة، بقى زياد بفارس، وقد ملكها وضبط قلاعها، فاغتنم به معاوية»<sup>(٣)</sup>.

**الولد للفراش وللعاهر الحجر.. قانون إسلامي مجّمد**

وهكذا تم الاتفاق والتمهيد لسقوط آخر، لا يقل عن سقوط (سمية) نفسها ومهد معاوية للأمر، وأحضر شهوداً قالوا: إن أبو سفيان قال إن زياداً كان ابنه، وقد عززت

(١) نهج البلاغة: ص ٥٣٦.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٣٠.

(٣) العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٤٩.



الشهادات بشهادة أبي مريم السلوبي الذي أُعلن في مجلس عام أنه جمع بين أبي سفيان وسمية أم زياد على زنا، وهل شهادة أبلغ من شهادة أبي مريم في هذا المجال؟! وكانت سمية من ذوات الرأيات بالطائف، تؤدي الضريبة إلى الحارث بن كلدة، وكانت تنزل بالملوّع الذي تنزل فيه البغايا بالطائف خارجاً عن الحضر في محلّة يقال لها حارة البغايا<sup>(١)</sup>.

وتروي كتب التاريخ القصة وتوسيع فيها ويتذر المؤرخون المسلمين ويعجبون، ويرون في عمل معاوية وزياد خروجاً صريحاً عن الإسلام، فقد «كان استلحاقه أول ما ردت به أحكام الشريعة علانية، فإن رسول الله عليه السلام قضى بالولد للفراش وللعاهر الحجر»<sup>(٢)</sup>.

ومن المعلوم أن معاوية قد استلحق زياداً «وشهد له الشهود بذلك، وهذا خلاف حكم رسول الله عليه السلام في قوله «الولد للفراش وللعاهر الحجر»<sup>(٣)</sup>.

وقد روي عن الحسن البصري «أنه كان ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله علياً، وقتلته حجر بن عدي، واستلحاقه زياد بن أبيه، ومباييعته لزيد ابنه»<sup>(٤)</sup>.

لقد كانت الأشياء الأربع التي نقمها الحسن البصري تمثل قمة الخروج السافر

(١) مروج الذهب: ص ٧.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٠١.

(٣) العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٤٨.

(٤) مروج الذهب: المسعودي ١٣٣ وقد روى الطبرى عن الحسن البصري قوله «أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه منها إلا واحدة لكان موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة واستخلفه ابنه بعده سكيراً حميراً، يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله عليه السلام «الولد للفراش وللعاهر الحجر وقتلته حجرًا» ويا له من حجر، مرتين» الطبرى: ج ٣ ص ٢٣٢.

والانحراف عن الإسلام، ولم تكن الأمور الوحيدة التي فعلها معاوية في حياته، التي كانت سلسلة من الخروج المتمدد عن الإسلام، ولم تكن من الأمور التي يمكن السكوت عنها بأي حال من الأحوال، ومع ذلك يأتي من يقول إن معاوية تأول فاختطاً، وكأن الأمور التي أقدم عليها كانت (اجتهاداً) في مسألة بسيطة تتعلق بأمور (مستحبة) أو مكرورة، وأن خطأ لم يتيح عنه تحطيم الأمة ودمارها فقد أنها عزتها كامة إسلامية إلى يومنا هذا، وأن معاوية لم يخطط (لخطئه) ولم يسهر الليالي ويعد الجيوش لأغراضه ومطامعه، وكأنه لم يعمل ما عمله عن سبق تصميم واصرار !

ولعل تقادم الزمن على ذلك العهد، والخروقات السافرة التي ألفنا أن نراها أمامنا في زماننا هذا، جعلنا لا نرى في عمل معاوية إلا أمراً مقبولاً، وأنه ليس خروجاً سافراً كبيراً عن الإسلام الذي ألفنا أن نراه بصورة مشوهة أيضاً، واعتقدنا أن نرى خروجاً أكثر صراحة عن الإمام وقد اتسعت زاوية الانحراف عما كان عليه حتى في زمن معاوية نفسه.

غير أننا إذا ما علمنا أن هذا الرجل الذي حكم باسم الإسلام، ونصب من نفسه قياماً على الشريعة، هو نفسه الذي أقدم على انتهاك هذه الشريعة بذلك النوع من الإصرار والمثابرة اللذين عمد إليهما، أدركنا عظم الجريمة التي أقدم عليها.

### كيف غاب الحياة؟

ولو قد تصفحنا فصول المهزلة التي حصلت باستلحاق زياد بـأبي سفيان وشهادة أبي مريم السلولي الذي جمعه بسمية، وشهادات بعض من ادعى أن أبو سفيان قد دخل على سمية وزنى بها، ورأينا تصاعد ابتسamas السخرية والغضب على هذه المهزلة التي شكلت أكبر خرق واضح من (خليفة المسلمين)، لرأينا السبب الذي كان خلف حنق



معاوية وغضبه على أولئك الساخرين المتنكرين، فهو لم يغضب لأن الناس قالت عن أبيه أنه زان، أو أنه اخترق حدًّا من حدود الإسلام أو حتى الأخلاق والمرءة التي تمنع بها بعض العرب حتى قبل ظهور الإسلام، بل؛ لأنه وجد أن مصلحته أن يصانع هذا الدهمية ويشكل معه ومع عمرو والمغيرة رباعيًّا منسجمًا يرسي أسس المملكة الأموية الصاعدة وكان معاوية يدرك ما عليه زياد من طاقات كبيرة واستعدادات فائقة للشر، وقد رد على المغيرة الذي حاول التهويين من شأنه أمامه قائلاً: «داهية العرب معه الأموال، متحصن بقلاع فارس، يدبر ويربض الحيل. ما يؤمنني أن يباح لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعاد علي الحرب خدعة»<sup>(١)</sup> وقد أشخاص إليه المغيرة نفسه لاقناعه، فقال له في معرض (كلامه) «أرى أن تصلك حبلك بحبله وتشخص إليه»<sup>(٢)</sup> وقد سار زياد إلى معاوية وقد سأله عن الأموال التي معه فقدم له كشفاً بالحساب «فأخبره بما حمل منها إلى علي ﷺ وما أنفق منها في الوجوه التي تحتاج فيها إلى النفقة، فصدقه معاوية على ما انفق وما بقي عنده، وقبضه منه، وقال: قد كنت أمين خلفائنا»<sup>(٣)</sup> وكانت مصلحة معاوية أن (يصدقه).

قيل إن «الدهاء أربعة، معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبدية والمغيرة للمضلات وزياد لكل صغيرة وكبيرة»<sup>(٤)</sup> ومع ذلك فإن داهية الروية (الخليم الصبور)، رب هذه المملكة غضب وانزعج فقد هدوءه وحلمه عندما قيل له أنه بادعائه زياداً لأبي سفيان، يخرج عن الإسلام، ولم ير أن يستجيب لهذه النصيحة؛ لأنه رأى أنه لا يستطيع أن يفرط بهذه الطاقة التي كان يحتاج إليها حاجة شديدة، فهو لم يكن يلعب

(١) الطبرى: ج ٣ ص ١٧٦

(٢) الطبرى: ج ٣ ص ١٧٦

(٣) الطبرى: ج ٣ ص ١٧٧

(٤) العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٥٠.

لعب صبيان! وهو يمهد لمشروعه الكبير... لقد احتاج يونس بن عبيد في جملة المحتجين وقال معاوية: «يا معاوية قضى رسول الله ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقضيت أنت أن الولد للعاهر وأن الحجر للفراش مخالفًا كتاب الله تعالى، وانصرافاً عن سنة رسول الله ﷺ بشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان. فقال معاوية: والله يا يونس لتنتهي أو لأطيرن بك طيرة بطئاً وقوعها. قال يونس: هل إلى الله ثم أقع؟ قال: نعم، واستغفر الله»<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن معاوية يمهد لفلسفة ت يريد أن لا يعرف الناس إلا شيئاً واحداً وهو أن الله غفور رحيم (خصوصاً معه هو)، لقد نسي عدالته ونسي غضبه وقدرته وعقابه، لم يرد أن يعرف عن الله إلا أنه مختص بغفران ذنبه هو من دون الخلق وكأنه قد حصل على صك بذلك، لقد كان الأمر برمتة مجرد ملهاة لا يدخل فيها الله إلا كطرف مهمته دعوة الناس لحكم معاوية وغفران أخطائه وأخطاء أصحابه وحاشيته وحواريه وهذه نقطة ينبغي الانتباه إليها عند تحليل كلمات معاوية وخطبه وأقواله.

أما قانون الله العام الواضح الذي نظم الحياة وجعل الإنسان خليفة على الأرض واصطفى منبني آدم المؤهلين لهذه المهمة من الأنبياء وأوصيائهم، يتحملونها بأكبر قدر من المسؤولية فلا يهم أن يخرب ما دام الذي خرقه هو معاوية (حبيب الله وأمينه ومهديه وهاديه) فكأن له قانوناً خاصاً واستثناء انفرد به دون الخلق، متناسياً قول الله تعالى، بل كل أقواله: «أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ»<sup>(٢)</sup>.

«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُوْمُهُمْ سُوءَ العَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ

(١) مروج الذهب: ج ٣ ص ٩، (كما أنه غضب على ابن عامر وهو أحد أعونه عندما بلغه قوله (لقد هممت أن آتي بقصاصة من قريش يخلفون أن أبي سفيان لم ير سمية) الطبرى: ج ٣ ص ١٩٥).

(٢) المائدة: ٩٨



# لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢).

وهكذا قابل معاوية ابتسامة السخرية والهزء بابتسامة محاثلة، ولم يعر أي اهتمام لقول القائلين وسخرية الساخرين، ولم يرد أن يفهم إلا المقطع الذي يقول بأن الله - عز وجل - غفور رحيم ... (متاؤلاً) كتاب الله نفسه ومفسّراً إياته على هواه.

وقد عَبَرَ أَحَدُ هُؤُلَاءِ السَّاخِرِينَ -عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أُمِّ الْحَكْمَ- عَنْ رِزْيَةِ الْمُسْلِمِينَ  
(بِخَلِيفَتِهِمْ) الظَّرِيفِ الْمُقَدَّامِ بِأَيَّاتٍ جَاءَ فِيهَا:

الداهية) زياد أصبح أخاً (للداهية) معاوية، اعترف به رأس الدولة بشكل رسمي متحدياً بذلك ما جاء به الإسلام وكل أمة الإسلام، وكأن شهادة أبي سلمة تبيح له ذلك. (٤)

«وفي سنة خمس وأربعين ولـى معاوية زياد بن أبيه البصرة وأعماها»<sup>(٥)</sup>.

الأحزاب (١٦٥)

١٦٧ الأعاف (٢)

(٣) مروج الذهب: ص ٩.

(٤) وكان زيد نفسه كما قلنا توافقاً لاحقاً نسبه بمعاوية، فعندما قدم الكوفة قال: «قد جئتكم في أمر ما طلبته إلا إليكم، قالوا: ادعنا إلى ما شئت، قال تلحقون نسبي بمعاوية؛ قالوا: أما بشهادة الزور فلا، فأتيت الصرى، فشهد له رجل» الطبرى: ج ٣ ص ١٩٥.

(٥) مروج الذهب: ص ٢٦.



«... ثم جمع له البصرة بعد ذلك وجمع له الحجاز مع العراقيين»<sup>(١)</sup>.

### عقدة النقص لا يحلها التظاهر بالقوة

ولا شك أن زياداً لو لم يسلك طريق القوة والعنف، وخصوصاً بعد الفترة التي اغتيل فيها الإمام عليه السلام حيث تخلص من (القيود الشديدة) التي أخذ بها - عماله بضرورة التزام العدالة والحق والأمانة، كمارأينا في الرسالتين المرسلتين إليه هو على الخصوص واللتين ذكرنا قسمًا منها هنا، لا شك أن هذه الاستعدادات للعنف والظلم اللذين جاؤ إليهما في أغلب الزمن بعد وفاة الإمام عليه السلام في فارس حيث ملكها وضبط قلاعها، كما رأينا، إضافة إلى ما تتمتع به من قدرة فائقة، تشكل خطراً كبيراً على معاوية، إذا ما بقي زياد مناوئاً له، وهكذا كانت استهالته بكل طريقة ممكنة تشكل ضرورة آنية مستعجلة لمعاوية..<sup>(٢)</sup> عندما «قدم على معاوية من فارس، فصالحه على مال يحمله إليه».

وهكذا استلحقه بأبي سفيان، وعينه عاملاً على البصرة أولًا وأعطاه حرية في التصرف لقمع أي شخص أو جماعة تفكير برفع راية العصيان والتمرد على الدولة الأموية.

### قانون أموي ((لأخذن الولي بالولي...))

وكان زياد عند حسن ظن (أخيه)، وكان عليه أن يثبت كفاءته وحزمه وحسن

(١) مروج الذهب: ص ٣٦.

(٢) كما أن تلکؤ زياد وعدم الالتحاق بمعاوية حال مقتل الإمام عليه السلام يعود إلى اعتقاده بأن الريح ليست بعد مؤاتية لمعاوية وأنه قد يفشل أمام الجيش الذي أعده الإمام والذي بقي بعد وفاته متأهباً للقتال لذلك فإنه رد على معاوية قائلاً «العجب من ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، ورئيس الأحزاب، كتب إلى يتهددني ويبني وبينه ابن عم رسول الله صلوات الله عليه وسلم يعني ابن عباس والحسن في تسعين ألفاً واضعي سيفهم على عواتفهم، لا ينتشون، لئن خالص إلى الأمر ليجدني أحجز ضرباً بالسيف»، الطبرى: ج ٣ ص ١٧١.



إدارته للأمور منذ اللحظة الأولى. لذلك فإنه ما كاد يصل البصرة ويجتمع الناس في أول لقاء عام له في مسجدها أعلن بتصريح العbara «... وإنني لأقسم بالله لآخذن الولي بالولي والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لي قناتكم»<sup>(١)</sup>. ومع أنه حاول بذلك - كما روي لنا - ضبط البصرة وتنقيتها من اللصوص وأشباههم. إلا أنه حاول بتهديداته تحويل الناس اتباعاً وعيذاً لمعاوية، وقد قرن تهدياته بمهاراته العسكرية، لا يشعر بعضها، وحول الدولة إلى مؤسسة أممية خاصة، والمسجد إلى ثكنة عسكرية، لا يشعر فيها أحد بالأمان، وهو يواجه ربه، إلا بالقدر الذي يكون فيه آمناً عندما يكون والي الخليفة راضياً عنه، وكانت الاجراءات المظهرية الدالة على ذلك هي اللجوء إلى اتخاذ حرس خاص من الشرطة يشكلون وجهاً لقوى القمع التي يستعين بها في هذا المجال، فقد كان «زياد أول من سير بين يديه الحراب والعمد، واتخذ الحرس مرابطة خمسائة لا يفاررون المسجد»<sup>(٢)</sup>.

وربما يكون لهذا الأمر، ومظاهر الفخامة والسيادة التي جأ إليها زياد أسبابها النفسية المتعلقة بولادته المشبوهة، وهو أمر لا بد أن يفكر به المستغلون بعلم النفس والدراسات الإنسانية، عند استعراض أمر زياد، وربما أراد أن يؤكّد خصوصيته وقربه من معاوية (كآخر) لم يتمتع بحقوق الأخوة منذ زمن طويل، وهذا هو الآن في دائرة السلطة، معيناً

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٥٠.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٠٧، والطبرى: ج ٣ ص ١٩٩ . والطبرى: ج ٣ ص ١٩٧ .  
وقال فيها «وقد (أحدثنا) لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوماً غرقته ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيته نقتب عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ففكوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف يدي وأذاي لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقها» الطبرى: ج ٣ ص ١٩٧ .  
ونجد أن زياداً قد (أحدث) أحكاماً وعقوبات جديدة لم يأت بها الإسلام.



عن مظاهر، ربما كان معاوية نفسه لم يلجم إلينا إلى ذلك الحد الذي جأ إليه زياد.

### سياسة جديدة أساسها الشدة والعنف

وكانت شدته إعلاناً عن استعداده السافر للدفاع عن مصالحه الخاصة التي هي مصالح (الخلافة) نفسها، ومصالح (ال الخليفة) معاوية أخيه! فكانه بذلك أعطى المبر للجوء إلى العنف، هذا الأمر الذي لم يكن معاوية يقره علينا وإن كان يغض النظر عنه ويرتاح إليه ويشيد بصاحبه، ويروح يهني نفسه على حسن اختياره لهذا الرجل الصلب الكفؤ، الذي راح يعلن منذ الوهلة الأولى عن صلابته وكفاءاته، كرد لجميل (أخيه) الذي لم ينسه ولم يفرط به حتى أنه استلحقه بأبيه.

كما أراد زياد أن يبين لأهل البصرة، ولأهل الأمصار كلهم أيضاً أنه يتبع سياسة جديدة لم يعرفوها من قبل، وإن مقاييس جديدة في تقييم الناس وعطائهم، ستكون على حسب ما يقومون به، للتقارب من البيت الحاكم الذي أراد أن يبين لهم أنه أحد أعمدته وأركانه بل وأصحابه المتصرفين به، وقد أنشد في بداية ولايته للبصرة قائلاً:

«ألا رب مسرور بنا لا نُسره      وآخر محزون بنا لا نضره»<sup>(١)</sup> <sup>(٢)</sup>  
فقد أراد أن يعلن عن فتح صفحة جديدة، الولاء فيها للبيت الأموي هو المقاييس.

كما أن معاوية أراد أن يقول للناس بصريح القول: إنني إذا ما كنت ليناً، وأنتحمل (زلاتكم) و (أخطاءكم) في الظاهر، فإن عليكم أن لا تأمنوا ذلك، ولا تطمئنوا إلى ابتسامة الأسد مني، فربما كنت مغيضاً وأنا أبتسم بوجوهكم، وأنا امرؤ من الناس تنطوي نفسي على عوامل الحقد والغضب، ومعي أناس لا يستطيعون كبح جماح غضبهم كما

(١) مروج الذهب: ص ٢٩.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٧٤.



أفعال، فحذار، ثم حذار منهم. ومني أولا... وهكذا صرخ ياحدى المناسبات، عندما سكت عن رجل أغاظ عليه «فقيل له: أتحلم عن هذا؟ فقال: إني لا أحوال بين الناس وبين أسلتهم، ما لم يحولوا بيننا وبين ملوكنا»<sup>(١)</sup>.

و حينذاك فقط، إذا ما ظهرت أي بادرة للحيلولة بينه وبين الملك، فإن الحلم يختفي ويحل محله الغضب، و حذار من هذا الغضب. إنه يتتحمل الأمور البسيطة فكأنها يمتلك بذلك البداية الحقيقة للغضب والنقطة من الناس، إلا أنه لا يتسامل مع أي إنسان يسعى للإطاحة بالعرش الأموي أو أي إنسان يعلن عن عدم شرعية قيام هذا العرش.

**شديد فظ غليظ... اعترف لنفسه بهذه الصفات**

لقد أظهر معاوية (حنكة ودهاء) لإدارة الدولة التي قام بتأسيسها هو وجعل مركزها الشام وجعل منها حاضرة (الدولة الإسلامية)، هذه البلاد التي رأى أهلها الإسلام بعينيه، وفهموه كما أرادهم أن يفهموه، ورباهم على مفاهيمه هو وقيمه وتصوراته عن دين الله القويين، كما أراد أن يبين أنه لا يستعمل أسلوباً واحداً في سياسة الدولة، وأنه كان يحلم ويسكت على المسيء ما لم يحلف بينه وبين الملك، فإنه أراد أن يبين أن وراءه رجالاً أشداء أمثال زياد لا يتورعون عن الشدة والارهاب وأن هؤلاء رجال

(١) وقد قال في خطبته المشهورة تلك في البصرة «إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلْطَنِ من بعْضِي  
لم أكُشِّفْ لَهُ قناعاً، وَلَمْ أهَاتْكَ لَهُ سترًا، حتَّى يَبْدِي لِي صَفْحَتِهِ. فَإِذَا فَعَلَ لَمْ أَنْاظِرْهُ...» وقال: «إِنَا  
أَصْبَحَنَا لَكُمْ سَاسِهِ، وَعَنْكُمْ ذَادَة، نَسُوكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَعْطَانَا وَنَزَدُونَا عَنْكُمْ بِفِيءِ اللَّهِ الَّذِي  
خَوْلَنَا، فَلَنَا عَلَيْكُمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيهَا أَحَبْبَنَا، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فِيهَا وَلَيْنَا» الطبرى: ج ٣ ص ١٩٧-  
١٩٨-، فهو هنا يهدىهم إذا ما أظهروا أي بادرة تدمير ضد الدولة. كما أنه لم يعد لهم بأن يسوق لهم  
بسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي بَيْنَ أَحْكَامِهِ فِي شَرِيعَتِهِ الْمَقْدَمَةِ... وَإِنَّا بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي (أَعْطَاهُمْ) وَفِيهِ الَّذِي  
خَوْلَهُمْ). ولا ندرى كيف أَعْطَاهُمُ اللَّهُ سُلْطَانَهُ وَكَيْفَ خَوْلَهُمْ فِيهِ؟  
أنها خطوة لقلب مفاهيم الحكم والخلافة في الإسلام أصبحت فيها بعد هي الأساس وهي مفاهيم  
أو حدتها معاهدة كـا هو معلم .

محنكون أقواء، وأنه يلبس لكل حالة لبوسها، وأن على الجمع أن يخدروا ذلك<sup>(١)</sup>. فقد روی عن زياد اللفظ الشديد الغليظ - حسب تعبير معاوية أنه قال: «ما غلبني أمير المؤمنين [معاوية] قط إلا في أمر واحد. طبّلت رجلا من عمالى كسر على الخراج، فلجاً إليه، فكتبت إليه أن هذا فساد عملي وعملي. فكتب إلى: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جمِيعاً فيمرح الناس في المعصية، ولا نشتد جمِيعاً فتحمل الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشدة والفتاظة والغلطة، وأكون أنا للرقة والرحمة»<sup>(٢)</sup>.

وهذه رواية سبق ان ذكرناها ونعدها لتأكيد طبيعة سياسة معاوية غير المقيدة بقانون او مبدأ اسلامي واضح.

### أهل المدينة : استعنوا عليه بالله ورسوله

شديد فظ غليظ طبّقت شهرته الآفاق بما فعل ونان من أهل البصرة والكوفة وكأنه كان يفخر بذلك، ويعتبر بهذه الشهادة وهذا الوصف الدقيق من (أخيه) المحب الغيور. لقد وزعا المهمات توزيعاً عادلاً ودقيقاً. وإن على الذين يرroc لهم التمرد على سلطة الدولة أن يتوقعوه سيفاً مصلتاً على رؤوسهم عندما يوليه معاوية عليهم حاكماً مستبداً مطلقاً، فالدولة لابد لها من الشدة. كتب زياد إلى معاوية «إنه ضبط العراق بيديه وشأله

(١) عندما جمع معاوية إلى زياد الكوفة مع البصرة صعد المنبر وحاول استئلة أهلها إليه قائلاً: « فأردت أن أشخص إليكم في ألفين من شرطة البصرة ثم ذكرت أنكم أهل حق وأن حكمكم طالما دفع الباطل فأتيتكم في أهل بيتي فالحمد لله الذي رفع مني ما وضع الناس وحفظ مني ما ضيعوا حتى فرغ من الخطبة فحصل على المنبر فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوماً من خاصته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ثم قال ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولن لا أدرى من جليسه ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلقون بالله ما منا من حصبك فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسه وعزله حتى صار إلى ثلاثين ويقال بل كانوا ثمانين فقط أيديهم على المكان» الطبرى: ج ٣ ص ٢٠٧ .

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٠٦ .



فارغة، فجمع له الحجاز مع العراقيين، واتصلت ولايته بأهل المدينة، فاجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله ﷺ وضجوا إلى الله ولاذوا بقبر النبي ﷺ ثلاثة أيام لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعسف، فخرجت في كفه بشرة ثم حكها، ثم سرت واسودت فصارت أكلة سوداء فهلك بذلك»<sup>(١)</sup> وكان ذلك عام ثلاثة وخمسين، قبل هلاك معاوية بثمانى سنين.

فهو إذاً سفاح شهور<sup>(٢)</sup>، كان اسمه يلقي الرعب في قلوب الناس، وحسيناً مثالاً لذلك، خوف أهل المدينة الشديد منه عندما سمعوا أنهم سيكونون تحت حكمه، ولم يمنع خوفهم احتمال قيام (بخليفتهم الخليم)، بالأأخذ على يديه ومنعه من العسف والجور، وكيف لا يخافون وهو قد رصده لذلك. ولن يردعه حتى إداً ما أبدى شدته المعروفة تجاههم، وأدركوا أنه مثل في الجور والعسف، أليس هو قاتل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وميثم التبار وشريك بن شداد وجماعته الذين كانوا مع حجر وأضرابهم وهو صاحب الحملات الإرهابية على أطراف الدولة الإسلامية، وأنه كان يلبس قفازاً فولاذيًّا مغلقاً بالحرير.

لقد بلغت درجة عنف زياد أنه «جمع الناس بالковفة بباب مقره يحرضهم على لعن على، فمن أبي ذلك عرضه على السيف»<sup>(٣)</sup>.

لقد أراد على عليه السلام إنقاذه من الهلاك، وكان جزاؤه أن راح هذا الهالك يحرض الناس على سبه ويهددهم ويعرضهم على السيف.

(١) مروج الذهب: ص ٣٢.

(٢) مع أنه لم يتبع أسلوب الإرهاب وحده وحسب، بل كان يلجأ إلى أسلوب الرشوة كما يلتجأ سيده معاوية فقد «كتب خمسة من مشيخته أهل البصرة في صحابته، فرزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسائة»، الطبرى: ج ٣ ص ١٩٩.

(٣) مروج الذهب: ص ٣٢.

## تعاون على الشر والعدوان

ونتساءل: هل أن ما كان يفعله زياد يجري دون علم معاوية؟ وهل أنه لم يلزم الناس بسب على كما فعل زياد؟

أسئلة نجد أن أجوبتها واضحة لا لبس فيها، كان معاوية هو الموجه الأول والقائد لعمليات العنف والجور كلها، فهل كانت هذه دولة إسلامية تقوم على نفس الأسس التي قامت عليها الدولة الإسلامية الأولى في عهد رسول الله ﷺ أو الدولة التي قامت في عهد أمير المؤمنين رضي الله عنه أو على أقل التقديرات على نمط الدولة التي قامت بعد وفاة رسول الله ﷺ في عهد عمرو وأبي بكر.

إن الإرهاب هو السمة التي أراد معاوية أن تبدو بها هذه الدولة، رغم محاولاته التظاهر بالحلم واللين، وزياد هو خير من يعرض في هذا المجال<sup>(١)</sup>.

## الإرهاب الأموي

ويبدو أن تلاميذ زياد في الإرهاب مثل سمرة بن جندب، علموا أن ما يقر بهم ويعرف من أقدارهم عند أسيادهم هو تمايدهم في القتل والإرهاب، وقد فاقوا بذلك هؤلاء الأسياد أنفسهم. فعندما استخلف زياد سمرة على البصرة وأتى الكوفة «فجاء

(١) كأن زياداً كان أول من حاول اضافة فخامة خاصة على (السلطان) وأراد بذلك إضافة عنصر جديد من الخوف أو الحاجب النفسي السليبي الذي لا يتسم بالاحترام المتبادل بين الراعي والرعية، وإنما تحكم منه عناصر جديدة قديمة من التعامل الفرعوني الذي يجعل لفرعون قيمة خاصة استثنائية ويؤطره باطار خاص لا ينبغي لأحد من البشر أن ينفذ منه أو يفكر باختراقه. وقد بلغ من حرص زياد على ذلك أنه أقام قاعدة جديدة وهي ألا يسلم على قادم بين يدي السلطان فقد روي أن «عبد الله بن عباس قدم على معاوية وعنده زياد فرحب به معاوية وألطفه وقرب مجلسه ولم يكلمه زياد شيئاً فابتداه ابن عباس وقال: كأنك أردت أن تحدث بيننا وبينك هجراؤ؟ قال: لا ولكنك لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين!» العقد الفريد: ج ١ ص ١٧، وقد أيد معاوية تصرف زياد.



وقد قتل ثمانية آلاف من الناس فقال له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت»<sup>(١)</sup>.

### جريمة قتل حجر بن عدي

على أن أكبر جريمة اهتز لها العرش الأموي، وخرج منها، بل وندم عليها حتى معاوية نفسه، بل وقع نفسه عليها، وأبدى الندم في أخريات أيامه وكان يقول: ما لي ولحجر! وكان زياد هو المهد والمشارك الأول بتلك الجريمة النكراء.

وكان الأمويون يشعرون منذ أن كان المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة، إن حجر ابن عدي كان يتزعم المعارضة دونهم، وكان سكوت المغيرة عنه مكيدة منه، فقد كان يقول لمن يحرضه على حجر «إني قد قتلتته إنه سيأتي أمير بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شيئاً بما ترونـه يصنع بي فإذاـخذـهـعـنـدـأـولـوـهـلـةـفـيـقـتـلـهـشـرـقـتـلـةـ»<sup>(٢)</sup>.

وعند وفاة المغيرة جمع معاوية الكوفة إلى زياد، ولم يكن زياد - الذي يرى أنه له حصة كبيرة في هذه الدولة - ليحتمل ما احتمله المغيرة، وقد أثاره اجتماع الناس إلى حجر وعلو مركزه في الكوفة، ولم يحتمل أن يرد عليه حجر في مواقف ذكر بعضها المؤرخون، وقد كتب إلى معاوية في أمره وعظمته وكثير عليه «فكتب إليه معاوية أن شدّه في الحديد ثم أحمله إلى، فشد في الحديد ثم حمل إلى معاوية، فقال له معاوية: أما والله لا أقيلك ولا أستقيلك. أخرجوه فاضربوا عنقه، فأخرج من عنده، فقال حجر للذين يلون أمره: دعوني حتى أصلِّي ركعتين، فقالوا: صل، فصل ركعتين خفَّ فيها، ثم قال: لو لا أن ظنوا بي غير الذي أنا عليه لأحببت أن تكوننا أطول مما كانتا، ولئن لم يكن فيها مضى من الصلاة خير مما في هاتين خيراً، ثم قال لمن حضره من أهله: لا تطلقوا عنـي حـدـيدـاـ ولا

(١) الطبرى: ج ٣ ص ٢٠٨.

(٢) الطبرى: ج ٣ ص ٢١٩.



تغسلوا عني دماً، فإني ألاقي معاوية غداً على الجادة. ثم قدم فضربت عنقه»<sup>(١)</sup>.

لقد اقلقت هذه الحادثة المروعة بال معاوية «فبلغنا أنه لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حجر يوم طويل»<sup>(٢)</sup>.

### مكر وغدر

وقد استطاع زياد بأسلوب ماكر، استغل فيه ضعف أشراف الكوفة ووقوعهم بين يدي معاوية متخاذلين بل موته، أن يجعل هؤلاء (الأشراف) يدعون أصحابهم وأقاربهم وأخوانهم الملتفين حول حجر، للتخلّي عنه، وكان حديثه معهم يدل على مكر شديد لم يكن ليصدر إلا عن أحد هؤلاء (الدهاء) الذين أقاموا أعمدة الدولة الأموية الغاشمة، فكان حديثه تقريراً في البداية ثم دعوة إلى أمر لم يكونوا ليستجيبوا له لولا هذا التقرير.

قال زياد: «يا أهل الكوفة أتشجون بيد وتأسون بأخرى! أبدانكم معى وأهواوكم مع حجر! هذا الهجهاجة الأحمق المذبوب أنتم معى وإخوانكم وأبناءكم وعشائركم مع حجر هذا والله من دحسكم وغضكم والله لظهورن لي براءتكم أو لا تبنكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم فوثبوا إلى زياد فقالوا معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما هنا رأى إلا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين وكل ما ظننا أن فيه رضاك وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر فمرنا به»<sup>(٣)</sup> وهنا بعد تهديدهم واعشارهم أنهم باتوا على خطر، أظهر لهم خطته، قال: «فليقم كل امرئ منكم إلى هذه الجماعة حول حجر فليدع كل رجل منكم أخيه وابنه وهذا قرابته ومن يطيعه من عشيرته حتى تقيموا عنه كل من استطعتم أن

(١) الطبرى: ج ٣ ص ٢١٩.

(٢) الطبرى: ج ٣ ص ٢١٩.

(٣) الطبرى: ج ٣ ص ٢٢٠.



تقيموه ففعلوا ذلك فأقاموا جل من كان مع حجر بن عدي<sup>(١)</sup>. ومع ذلك فلم يسلم ما تبقى من أصحاب حجر، حجرًا إلى أعون زياد إلا بعد معارك حشد فيها زياد كل أعونه من (الأشراف) وأتباعهم، إلا بعد خيانة محمد بن الأشعث، الذي قيل أنه طلب من زياد أن يؤمن حجرًا، وقد أخذ (الأمان) وأحضره أمام زياد الذي هدد وتوعد، وقال بعد أن حبسه: «والله لأحرضنَّ على قطع خيط رقبته»<sup>(٢)</sup> وقد قبض على بقية أصحابه، وقد قتل بعضهم وحبس آخرين وعذبهم وضربهم. وقد دعا زياد بعض رؤوس الأربع وطلب منهم الشهادة ضد حجر وهم عمرو بن حرث وخلالد بن عرفطة وقيس بن الوليد وأبي بردة بن أبي موسى الأشعري. «فشهد هؤلاء الأربعه أن حجرا جمع إليه الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عنده أبي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه وعلى مثل رأيه وأمره»<sup>(٣)</sup>. ولم يكتفي زياد بشهادة الأربعه<sup>(٤)</sup>. ودعا بقية الناس إلى الشهادة مثلهم، فتطوع كثيرون وكان من هؤلاء من سيرد اسمهم في مجال هذه الدراسة، عمر بن سعد وشيث بن ربيعي، وحجر بن أبي جر العجي، وعمرو ابن الحجاج الزبيدي وشمر بن ذي الجوشن العامري، وخفر بن ثعلبة، وزحر بن قيس الجعفي، «وهوئلاء قد اشترکوا بشکل فعال بمذبحه الطف التي استشهاد فيها الإمام الحسين وأصحابه، مع سبعين آخرين»، بذل ابن زياد جهوداً شاقة من أجل جمع

(١) الطبری: ج ٣ ص ٢٢٠-٢٢١.

(٢) الطبری: ج ٣ ص ٢٢٤.

(٣) الطبری: ج ٣ ص ٢٢٦.

(٤) وكان نص شهادة أبي بردة بن أبي موسى الأشعري: (اشهد أن حجر بن عدي خلع الطاعة، وفارق الجماعة ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب والفتنة وجمع إليه الجموع يدعوه إلى نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين معاوية، وكفر بالله عز وجل كفراً صلعاً) الطبری ٣/٢٦٢.



هذه الشهادات.

وقد كتبت أسماء أشخاص لم يكونوا يعلمون أي شيء مما ذكر، كما أن بعض الأشخاص لم يشهدوا وكتبت أسماؤهم في حضر الشهادة المزورة.

### تحريض على الجريمة

وقد تردد معاوية بقتل حجر وأصحابه ويبدو أنه كان يخاف من تصاعد النكمة الشعبية ضده وحدوث ما لا تحمد عقباه، وكتب إلى زiad بذلك قائلاً: «فأحياناً أرى قتلهم أفضل من تركهم وأحياناً أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم»<sup>(٥)</sup>، غير أن زiad أخرط شيء قام به في حياته.

ولما كان يعلم أن هاجس معاوية الوحيد هو الحفاظ على الدولة التي أقامها وإنما لم يكن ليثار إلا إذا تعرض أحد بسوء لهذه الدولة فإنه كتب إليه رسالة مختصرة أشار فيها إلى أن بقاء حجر يشكل خطراً بالغاً، وأنه حتى زiad نفسه - رغم بطشه وقوته - لا يستطيع ضمان أمن الكوفة إذا ما عاد إليها حجر، قال زiad: «فعجبت لاشتباه الأمر عليك فيهم، وقد شهد عليهم بما قد سمعت من هو أعلم بهم، فإن كانت لك حاجة في هذا المصر فلا تردد حجراً وأصحابه إلى»<sup>(٦)</sup>.

### حجوهם رب الكعبة

وقد روی عن الحسن عليه السلام لما بلغه قتل حجر وأصحابه، قال: «صلوا عليهم

(٥) الطبرى: ج ٣ ص ٢٢٨.

(٦) الطبرى: ج ٣ ص ٢٢٨.



وكفونهم، واستقبلوا بهم القبلة، قالوا: نعم، قال: حجّوهم ورب الكعبة»<sup>(١)</sup>.

وقد حاول معاوية التنصل من ارتكاب جريمة قتلهم وقال: «لست أنا قتلتهم، إنما قتلتهم من شهد عليهم»<sup>(٢)</sup>، وهو نفس العذر الذي تذرع به عندما قتل عماراً، عندما قال: قتله من جاء به، ولم يستطع في نهاية المطاف إلا أن يرى عظم الجريمة التي ارتكبها قبيل أن يلم به ملك الموت ويتووجه بما جنى قائلاً: «يوم لي من ابن الأدبر طويل! ثلاث مرات»<sup>(٣)</sup>.

لم يبق زياد بعد مقتل حجر سوى عامين، فهذا جناه وهذا عمله، فهل خلصه معاوية من ميتته، وهل وقف له عند المعاد وعند الحساب؟ وهل تبناه إلى الأبد ولم يتبرأ منه؟

---

(١) الطبرى: ج ٣ ص ٢٣١.

(٢) الطبرى: ج ٣ ص ٢٣٤.

(٣) الطبرى: ج ٣ ص ٢٣٢.

## المغيرة بن شعبة.. (الداهية) الوسوس

### دهة أم أغبياء؟

لأندرى كيف تحملت الأمة وجود طاقات الشر المتمثل بهذا الرباعي من (الدهة) الذي جثم على صدرها في وقت واحد، وكان يكفي أن تبتلى بوحد منهم فقط لتمسخ وترور هويتها، فلا تعود أمة إسلامية كما أراد لها نبیها الکریم ﷺ لقد كان رابع (الدهة)، المغيرة بن شعبة لا يجب أن يتحرك إلا في الظلام وكان يتطلع للقيام بدور المشير الناصح الغیور، وقد حاول أن يدلّي بدلوه بعد مقتل عثمان ويجرّب حظه مع الإمام علیؑ عندما أراد عزل جميع ولاة الخليفة المقتول، أشار على الإمام أن يقيّهم على مكانتهم، وعندما أبي الإمام ذلك قال له: «إإن كنت أبیت علی فائز من شئت واترك معاویة، فإن في معاویة جرأة، وهو في أهل الشام يستمع منه»<sup>(١)</sup>. وعندما رفض الإمام (اقتراحه) رضأً باتاً وقال له: «لا والله لا أستعمل معاویة يومين. والله لا أعطیه إلا السيف»<sup>(٢)</sup>، جاءه في اليوم التالي وقال إنه كان مخططاً في رأيه ونصيحته لإبقاء معاویة. وقد أدرك الإمام علیؑ دوافعه وعلم أنه لم يكن ناصحاً، وأنه كان بفعله يساوم الإمام علیؑ ليقى قربه كمستشار أمني ومحاویة ليجعل له عنده يداً يذكره بسببها في المستقبل، وقد ذكر له معاویة هذه اليد، وربما اتفق معه في الخفاء على العمل سوية منذ البداية.

---

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٨٧.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٨٧.



## المصلحة الشخصية أولاً؟

كان المغيرة كأصحابه ينظر بعين التاجر الذي يفكر دائمًا بما قد يستفيده من الآخرين الذين يتعامل معهم، ويضع أمامه مقاييس أرضية بحثة للربح والخسارة. كم سيربح هو وكم سيخسر، لا كم سيربح الإسلام أو تخسر المبادئ، وربما كان الدين آخر (سلعة) يفكك بالتعامل بها؛ لأنه قد يبدو بنظره سلعة باترة لا مكان لها في دنيا التجارة. وهكذا فإنه لم يقترب من الدين إلا إلى الحد الذي يتمكن منه من تحقيق مطامعه وأطماعه. وقد وصفه أمير المؤمنين عليه السلام وصفاً دقيقاً عندما لمس تماديه في دروب الانحراف والضلاله وسعيه لتفريق شمل الأمة قائلًا: «إنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربه من الدنيا، وعلى عمد ليس على نفسه ليجعل الشبهات عاذراً لسقطاته»<sup>(١)</sup>.

وكما جعلوا من معاوية كتاباً للوحجي وأميناً الله على وحيه<sup>(٢)</sup>، فإنهم بالغوا بأمر أصحابه وجعلوا منهم أبطالاً ممتازين، أو هكذا حاولوا أن يفعلوا في ظل إعلام أموي مركز هادف حاول رفعهم والغض من قيمة أعدائهم ومناوئتهم.

## معتدل.. متحيز

كان المغيرة بن شعبة كاتباً لأبي موسى الأشعري، ولا شك أنه كان يتمتع بمؤهلات ومعلومات في الأدب والتاريخ، غير أن ما تميز به هو (دهاؤه) الذي اشتهر به اشتهاه أصحابه من قبل (ومكيدته) وأراءه الشريرة حتى قالوا فيه وفي غيره: «ذوو رأي العرب ومكيدتهم»: معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وقيس بن سعد ومن المهاجرين عبد الله بن بديل الخزاعي، وكان قيس وابن بديل مع علي عليه السلام وكان المغيرة بن شعبة وعمرو مع معاوية، إلا أن المغيرة كان معتزلًا بالطائف حتى حكم

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٨٧.

(٢) نهج البلاغة: ٧٥١.



الحكمان فاجتمعوا بأذرح»<sup>(١)</sup> فكيف يكون معتبراً وهو مع معاوية.

كان المغيرة يتمتع (بدهاء) كبير لا يقل عن دهاء سيده، وكان معاوية يدرك أنه سيكون عموداً قوياً من أعمدة دولته، فكان يستميله وهو يعلم أنه قابل للشراء، وأن المبادئ آخر شيء يمكن أن يشغل حيزاً في تفكيره.

### نحن مع من غالب

لقد كان المغيرة أحد الذين شهدوا مهزلة التحكيم وقرباً من بطليها عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري وكان فيما مضى كاتباً له<sup>(٣)</sup>، وربما أراد أن يكون من (المعزلة) ليقيم الموقف ويرى إلى جانب من تكون الغلبة في النهاية فينحاز إليه.

### علاقة قديمة بمعاوية

ومن الرواية التي رويت لنا في تاريخ الطبرى نجد أن المغيرة لم يكن بعيداً عن ساحة المعركة، وأنه كان يراقب مسألة التحكيم، وربما كان يمد الحكمين بآرائه، إن بدا أنه على اتصال بكليهما، وربما كان ينسق بينهما ويعمل على توحيد القرار الذي سيظهران به أمام الناس: فقد روى الطبرى قائلاً: «فلما اجتمع الحكمان بأذرح وافاهم المغيرة

(١) مع أنه لم يسلم إلا قبيل وفاة النبي ﷺ ولعله حاول دس نفسه في جهاز الدولة الإسلامية ككاتب من كتاب الحوائج، هذا إذا صحت رواية بعض المؤرخين وبالغ فيه البعض الآخر فقد روى «إن خالد بن سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، يكتبان بين يديه في حوائجه، وكان المغيرة ابن شعبة والحسين بن نمير يكتبان ما بين الناس، وكانا ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضر» العقد الفريد: ج ٤ ص ٢٤٤. ومن ذلك نستنتج أنه ربما كانت علاقة المغيرة بمعاوية (كتائب عنه في كتابة الحوائج) لا الوحي طبعاً، علاقة أقدم من تاريخ قيامه بالولاية على الكوفة نائباً عن معاوية.

(٢) الطبرى: ج ٣ ص ١٦٨ مع أن روایات أخرى تروى أنه كان قرب (الحكمين) وأنه جس نضهما وتوصل إلى قناعات خاصة بشأن التحكيم.

(٣) وقد عزله عمر بن الخطاب عن كتابة أبي موسى (العقد الفريد: ج ٢ ص ١٠٥).



ابن شعبة فيمن حضر من الناس، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير ووافى معاوية بأهل الشأم وأبى علي وأهل العراق أن يوافوا، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي الرأي من قريش أترون أحدا من الناس برأي بيتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يتفرقان قالوا لا نرى أحدا يعلم ذلك قال فوالله إنني لأطن أني سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأراجعهما فدخل على عمرو بن العاص وبدأ به فقال يا أبا عبد الله أخبرني عما أسألك عنه كيف ترانا عشر المعتزلة فإننا قد شككنا في الأمر الذي تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن نتأنى ونشتبث حتى تجتمع الأمة قال أراكم عشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك حتى دخل على أبي موسى فقال له مثل ما قال لعمرو فقال أبو موسى أراكم أثبت الناس رأيا فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك فلقي الدين قال لهم ما قال من ذوي الرأي من قريش فقال لا يجتمع هذان على أمر واحد<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك فقد اجتمع الحكمان على أمر واحد. خلعا كلاهما الإمام ﷺ وأقر أحدهما معاوية في العلن وأقره الثاني في السر وإن أبدى للناس نفسه أنه ضد صاحبه. ربما كان (المغيرة) يموه على المسلمين ويريهم أن لكلا طرف في التحكيم رأياً لن يتعداه ولن يحيد عنه حتى يسير التحكيم إلى نهاية الشوط ويؤدي غايته. «والذي فعله عمرو هو نفس الذي فعله أبو موسى لا يفترق عنه قط في نمير ولا قطمير. وأن أبا موسى وعمراً اتفقا على أن يعهدوا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. فعمرو لم يغالط أبا موسى ولم يخدعه؛ لأنه لم يعط معاوية شيئاً جديداً ولم يقرر في التحكيم غير الذي قرره أبو موسى ولم يخرج عما اتفقا

---

(١) الطبرى: ج ٣ ص ١٠٥ - ١٠٦.

عليه»<sup>(١)</sup>.

لقد تحدى معاوية (المطالب بثار الخليفة المقتول) الإمام ﷺ وتصدى له بقوة السلاح، ووُجِدَ في نفسه القوة لهذا التصدي بوجه إمام الأمة المجمع عليه من قبل الأمة كلها في بيعة تاريخية لم يسبق لها مثيل، أما الآن وقد وجد من يؤيده ويطعن بشرعية خلافة الإمام ﷺ ويدعو إلى إعادة أمر الخلافة إلى (الصحابة) ثانية، في عملية (تحكيم) مهد لها، فإن موقفه قد أصبح أقوى مما كان عليه في السابق.

وقد هرب أبو موسى إلى مكة بعد (التحكيم)، ثم قدم على معاوية بعد استتباب الأمور له وحاول التقرب منه لنيل ولاية أو منصب، إلا أن معاوية لم يتحقق له رغباته.

#### الاقتراح المشؤوم - دمر الأمة في سبيل مصالحه الشخصية

كان المغيرة بن شعبة مشؤوماً، بما ارتكبه بحق هذه الأمة، فبغض النظر عن الدور المشين الذي لعبه باعتزاله الحرب بين الإمام ﷺ ومعاوية، وكأن الأمر كان يحتاج لتربيص وتدبّر واعتزال لمعرفة من هو الضال المضل الباغي ومن هو المصيب الذي يدور مع الحق أني دار. ومع أنه بقيامه بدور المحايد هو وأشباهه أمثال أبي موسى وسعد بن أبي وقاص وغيرهما، وما في ذلك من احياء للأمة بأن (أصحاب رسول الله ﷺ) أنفسهم في شك من أمرهم بشأن أي الرجلين أحق بالأمر، علي أم معاوية، فإن المغيرة كان سبباً في أحداث ثلاثة أحقت بالأمة الخراب والدمار، ثم لم تنهض من كبوتها بعد، أو هما - وقد تكلمنا عنه في سيرة زياد - هو التمهيد لخنق المعارضة الإسلامية بقيادة حجر بن عدي، وقوله هو نفسه عن حجر: أئن قد قتلتني. فكان ذلك أول ذل دخل الكوفة. فقد قيل: «إن أول ذل دخل الكوفة موت الحسن بن علي وقتل حجر بن عدي ودعوة زياد»<sup>(٢)</sup>.

(١) حب الدين الخطيب: نقلًا عن هامش ابن الأثير: ج ٣ ص ٢٠٩-٢١٠.

(٢) الطبرى: ج ٣ ص ٢٣٢.



### أشار على معاوية باستلحاق زياد

أما دعوة زياد واستلحاقه فكانت بaimاء ومشورة من المغيرة نفسه أيضاً. فقد كان المغيرة يدرك حاجة معاوية لزياد، لذلك فإنه تستر على أمواله التي أودعها عند عبد الرحمن بن أبي بكرة ولم يعذبه كما طلب منه معاوية للاعتراف بها لديه. وقد أراد في البداية جس نبض معاوية لمعرفة مدى حاجته لزياد وقال له: «ما زياد هناك يا أمير المؤمنين! فقال معاوية: بئس الوطء العجز، داهية العرب معه الأموال، متحصن بقلاع فارس، يدبر ويربع الخيل، ما يؤمنني أن يبایع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعاد على الحرب جذعة»<sup>(١)</sup> وقد عرض المغيرة على معاوية أن يذهب بنفسه لاقناع زياد، وقد ذهب إليه وأشار عليه بقوله: «أرى أن تصل حبلك بحبله، وتشخص إليه»<sup>(٢)</sup>.

وقدم زياد على معاوية «فسائل معاوية زياداً عما صار إليه من أموال فارس، فأخبره بما حمل منها إلى عليٍّ<sup>عليه السلام</sup> وما أنفق منها في الوجوه التي يحتاج فيها إلى النفقة، فصدقه معاوية على ما اتفق، وما بقي عنده، وقضى منه، وقال: قد كنت أميناً لخلفائنا»<sup>(٣)</sup>.

وقد تساهل معاوية بأمر الأموال التي كانت مع زياد، وسمح له بنزول الكوفة وكان المغيرة نفسه واليأ علىها، فكان يعظمه ويكرمه، ورغم استسلام زياد لمعاوية إلا أنه كان يخشي شره وكان يوصي المغيرة بمراقبته وأخذه بالصلة في الجماعة<sup>(٤)</sup>.

### دعا معاوية إلى بيعة يزيد.. وضع الأمة في مأزق شديد

أما ثالثة الأثافي فكانت مشورته المشؤومة بجعل يزيد ولیاً للعهد بعد معاوية، وكان

(١) الطبرى: ج ٣ ص ١٧٦.

(٢) الطبرى: ج ٣ ص ١٧٦، وراجع العقد الفريد ج ٥ ص ٢٦٨.

(٣) الطبرى: ج ٣ ص ١٧٦، وراجع العقد الفريد ج ٥ ص ٢٦٩.

(٤) الطبرى: ج ٣ ص ١٧٦-١٧٧.

الدافع إليها، أن المغيرة أحس بفتور من قبل معاوية وأنه أراد تنحيةه، فسار إليه وأشار عليه بتولية يزيد وأنه سيكتفي الكوفة إذا ما بدأ التمهيد لهذا الأمر الذي جرّ الويالات على هذه الأمة وجعل السلطة الأموية تكشف عن انحرافها وخروجها السافر عن الإسلام بشكل علني ونهائي، ونستمع إلى القصة كاملة من مروج الذهب: «كتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر و خاف أن يستبدل به: أما بعد، فقد كبرت سنّي، ورق عظمي، واقترب أجي، وسفهني سفهاء قريش، فرأي أمير المؤمنين في عمله موفق».

فكتب إليه معاوية: أما ما ذكرت من كبر سنك، فأنت أكلت شبابك؛ وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك، فإني لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان، وأما ما ذكرت من سفهاء قريش، فحملهاً لها أحلاوك ذلك محل؛ وأما ما ذكرت من العمل، فـ«ضح رويداً يدرك الهيجا حمل».

فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة، كتب إليه يستأذنه في القدوم، فأذن له فخرج، فلما دخل عليه، قال له: يا مغيرة، كبرت سنك، ورق عظمك، ولم يبق منك شيء، ولا أراي إلا مستبدلاً بك، قال المحدث عنه: فانصرف إلينا ونحن نرى الكابة في وجهه، فأخبرنا بما كان من أمره، قلنا له: فما ت يريد أن تصنع؟ قال: ستعلمون ذلك.

فأتى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الأنفس ليغدى عليها ويراح، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر، فلو نصبنا لنا علمًا من بعده نصير إليه! فإني قد كنت دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد، فقال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك ورُم هذا الأمر لا بن أخيك، فأقبلنا نركض على النجف، فالتفت فقال: والله لقد وضعتم رجله في ر CAB طويل ألقى عليه أمة محمد عليهم السلام<sup>(١)</sup>.

(١) العقد الفريد: ج ١ ص ٧٧-٧٨.



وقد روی الطبری هذا الخبر بصيغة أخرى، قال: «قدم المغيرة على معاوية واستعفاه وشكى إليه الضعف، فأعفاه وأراد أن يولي سعید بن العاص. وقد أخبر رجل سمع الحديث بذلك، قائلًا: يا مغيرة، ما أرى أمير المؤمنين إلا قلاك، رأيت ابن خنيس كاتبك عند سعید بن العاص يخبره أن أمير المؤمنين يوليه الكوفة، قال المغيرة: أفلًا يقول كما قال الأعشى:

أم غاب ربک فاعتربت خصاصة      فعل ربک أن يعود مؤیداً  
رویداً أدخل على يزید، فدخل عليه فعرّض له بالبيعة، فأدى ذلك يزید إلى أبيه.  
فرد معاوية المغيرة إلى الكوفة، فأمره أن يعمل في بيعة يزید. فشخص المغيرة إلى الكوفة.  
و عمل في بيعة يزید وأوفد في ذلك وافداً إلى معاوية.

فهل وضع رجل معاوية في ركاب طویل، أم وضع رجله هو؟ هل كان ذلك عمل امرئ يحسب حساباً للآخرة؟ أم عمل امرئ لا يرى أمامه إلا هذه الدنيا؟

ورجع إلى الكوفة فرحاً يقائه على (عرش الكوفة) متمثلاً:

بمثلي فافزعني يا أم عَمرو      إذا ما هاجني السفر النعور»<sup>(١)</sup>

### هرب من الطاعون وعاد ليقتله الطاعون

ومات المغيرة بعد ذلك بأقل من أربع سنين وهو ابن سبعين سنة، وكان قد هرب من الكوفة! فقدمها فطعن فمات وضم معاوية الكوفة إلى زياد<sup>(٢)</sup> وتزوج زياد زوجته.

ولسنا بصدّ إيراد سيرة ذاتية للمغيرة، فليس في حياته لقطات مشرفة، إلا ما حاول بعض كتاب الدولة الأموية إيراده. أما الآخرون فقد رواوا عنه أخباراً أخرى، روی ابن

(١) الطبری: ج ٣ ص ١٩٦.

(٢) الطبری: ج ٣ ص ١٩٦.

هشام «أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بنى مالك من ثقيف فتهايـجـ الحـيـانـ منـ ثـقـيفـ بـنـوـ مـالـكـ رـهـطـ المـقـتـولـينـ وـالـأـحـلـافـ رـهـطـ المـغـيرـةـ فـوـدـيـ عـرـوـةـ المـقـتـولـينـ ثـلـاثـ عـشـرـ دـيـةـ وـأـصـلـحـ ذـلـكـ الـأـمـرـ». <sup>(١)</sup>

### ماض ملوث.. يزني وهو أمير

وقد عزله عمر عن البصرة عام ١٧ هـ عندما كان والياً عليها واستعمل بدله أباً موسى وأمره أن يشخص إليه المغيرة، وقبيل شخوصه إلى عمر أهدى جارية إلى أبي موسى، وكان سبب عزله أن أباً بكرة - وهو أخو زياد لأمه - وجماعة معه منهم زياد رأوا المغيرة بين رجلي امرأة «وكانا في مشربتين في كل واحدة منها كوة مقابلة الأخرى، فاجتمع إلى أبي بكرة ليسده فبصر بالمغيرة، وقد فتحت الريح باب كوة مشربته، وهو بين رجلي امرأة، فقال للنفر: قوموا فانظروا، فقاموا فنظروا وهم أبو بكرة ونافع بن كلدة، وزياد بن أبيه، وهو أخو أبي بكرة لأمه، وشبل بن معبد البجلي فقال لهم:

اشهدوا قالوا: ومن هذه؟ قال: أم جميل بن الأفقم، وكانت من بنى عامر بن صعصعة وكانت تغضي المغيرة والأمراء [والأسراف] وكان بعض النساء يفعلن ذلك في زمانها، فلما قامت عرفوها» <sup>(٢)</sup> وأدلوا بشهادتهم أمام عمر، إلا زياد الذي أبدى ترددًا بمعرفة المرأة، وكان حوار المغيرة للشهود دقيقاً بحيث جعلهم لا يعطون وصفاً متطابقاً للحالة التي شاهدوه عليها.

وقد أورد الطبرى تفاصيل أكثر من تلك التي أوردها ابن الأثير، فقد روى عن محمد بن يعقوب بن عتبة عن أبيه، قال أن المغيرة «كان مختلفاً إلى أم جميل، امرأة من بنى هلال، وكان لها زوج هلك قبل ذلك من ثقيف، يقال له الحجاج بن عبيد، فكان

(١) السيرة النبوية: ابن هشام: م ٢ ص ٣١٣-٣١٤.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٣٨٤-٣٨٥، والطبرى: ج ٢ ص ٤٩٢-٤٩٤.



يدخل عليها، فبلغ ذلك أهل البصرة، فأعظموه، فخرج المغيرة يوماً من الأيام حتى دخل عليها، وقد وضعوا عليها الرصد، فانطلق القوم الذين شهدوا جميعاً، فكشفوا الستر، وقد واقعها»<sup>(١)</sup>.

وقد شهدوا عليه أمام عمر أنهم رأوه بين رجلي أم جميل إلا زياد - كما ذكرنا، لذلك فإن شهادة الثلاثة ردت في نهاية المطاف بسبب الحوار الدقيق الذي أجراه معهم المغيرة.

**صحابي مزيف.. ادعى أنه أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ**

لم تكن حصيلة المغيرة من (صحبته) للرسول الكريم ﷺ ما يعتد به، إلا ما ذكر عن كونه نائباً لمعاوية في كتابة الحوائج، وحتى هذه تحتاج إلى تأمل وتدبر، وكما تبجح معاوية بوجود قميص لرسول الله ﷺ معه وبعض قلاماته أطفاله فإن المغيرة تبجح بأنه كان أحدث الناس عهداً به فقد كان المغيرة بن شعبة يدعى أنه أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ يقول: أخذت خاتمي، فألقيته في القبر، وقلت: إن خاتمي سقط مني، وإنما طرحته عمداً لأمس رسول الله ﷺ فأكون أحدث الناس عهداً به ﷺ.<sup>(٢)</sup>

ومع أن ذلك لا يتيح له مترفة خاصة ممتازة، إذ لو أن الأمر كذلك فكيف بمن كانوا بضعة من النبي ﷺ وكانوا نفسه. ومع ذلك فقد حاولت الدعايات المضللة ووسائل الإعلام الأموية المغرضة طمس فضائلهم، ولم يكن لها من فلم سوى إبراز ما ادعاه معاوية والمغيرة وأمثالهما. مع أن ما ادعياه لا يقدم من الأمر شيئاً ولا يؤخر منه أي شيء.

ومع ذلك فقد كانت هذه كذبة من المغيرة أراد منها رفع شأنه بنظر الناس، فقد روی أن نفراً من أهل العراق سألوا أمير المؤمنين قائليين: «يا أبا حسن جئنا نسألك عن

(١) الطبرى: ج ٢ ص ٤٩٢.

(٢) السيرة النبوية: ابن هشام: م ٦٦٤ والطبرى: ج ٢ ص ٢٣٩.



أمر نحب أن تخبرنا عنه؟ قال: أظن المغيرة بن شعبة يحذثكم أنه كان أحدث الناس عهداً برسول الله عليه السلام، قالوا: أجل، عن ذلك جئنا نسألك؛ قال: كذب! قال: أحدث الناس عهداً برسول الله عليه السلام قثم بن عباس»<sup>(١)</sup>.

### قاتل عمر بن الخطاب

وكان غلام المغيرة بن شعبة هو الذي قتل عمر بن الخطاب، وهو فيروز أبو لؤلؤة وقتل معه سبعة أشخاص، عندما أبى عمر أن يستجيب لشكواه من المغيرة - وكان قد شكا إليه ثقل الخراج. ولسنا بصدده الحديث عن ملابسات تلك القضية، غير أنها لا تستغرب من المغيرة الذي كان عمر يقرره كثيراً أن يكون قد حرض خادمه على قتل عمر، فهو لم يكن يغير شيئاً باله إلا إذا كانت فيه مصلحته، ولم يكن لا يحساب آخر - سوى حساب المصالح والنزاعات الأرضية المتبدلة - قيمة في نظره.

### انتهازي متلون

وعندما جعل عبد الرحمن بن عوف الأمر لعثمان في مسألة الشورى التي ابتكرها عمر قال له المغيرة: «يا أبا محمد، قد أصبحت إن بايعدت عثمان، ولو بايعدت غيره ما رضيناه، قال: كذبت يا أعور! لو بايعدت غيره لبايعدته وقلت هذه المقالة»<sup>(٢)</sup>.

لقد عرف عبد الرحمن المغيرة، وأنه متقلب كذاب، وأنه كان يغير اهتمامه لمن سيكون خليفة، ما دام يستطيع تحقيق بعض المطامح في ظله. ولا يفرق عنده إن كان عثماناً أو علياً، فهو مع الغالب، وهو مع من يدفع له.

(١) السيرة النبوية: ابن هشام: م ٦٦٤ ص ٢ والطبرى: ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٢-٣٣ .



### كيف التقى الزناة وأولاد الزواني

لأندرى كيف التقى هؤلاء (الدهاء) الأربعة وكيف حصل إن كانوا قريبين إلى بعضهم هذا القرب الشديد. غير أن ما حصل قد حصل. وكانوا أعمدة هذه الدولة المنسخ التي لم ينجبها الإسلام ولم تلدتها مبادئه وقيمه. وكانوا بلية جلبت معها بليات أكبر على هذه الأمة المنكوبة المصطهدة.

لقد تراغوا في نعمة الملك والامارة أمداً محدوداً، وكان طمعهم الغريب وهم في ذلك العمر الذي وصل فيه بعضهم إلى أرذله يكاد يكون مدعاه للاستغراب والعجب، أقلم يأن لهم أن يرتدعوا بعد أن أصبحوا على حافة هذه الحياة الدنيا وأوشكوا أن يفدو على ربهم وحسابه العادل؟ غير أن من يعمل عملهم ربما لم يجعل في رأسه حساباً لهذا الخالق العادل الرحيم الجبار! ورحم الله الشاعر الذي مر عليه وهو يدفن فقال فيه:

أرسَمْ ديار لل מגيرة تعرف  
عليها دوي الانس والجن تعزف  
فإن كنت قد لاقت هامان بعذنا  
وفرعون فاعلم أنذا العرش منصف<sup>(١)</sup>  
لقد غالب عليه ضعفه دائمًا، فكان في صفات معاوية، وكان من أعمدة الدولة  
الأموية، فهو داهية المضلالات، وقف مع الدهاء الثلاثة وخدمهم وأعوانهم لإقامة هذه  
الدولة على أساس فرعونية تلبس زياً إسلامياً براقاً تخدع به جاهير المسلمين وتموه عليهم  
طبيعة أغراضها وأهدافها.

(١) مروج الذهب: ص ٣٠.

## مروان بن الحكم

### الشيطان الغبي... قاتل عثمان

#### الأموي الذي لعنه رسول الله في بطن أمه

ابن طريد رسول الله عليه وآله، ومن لعنه عليه وآله وهو في بطن أمه، وهو ابن عم عثمان وزوج ابنته، وابن عم معاوية أيضاً من العائلة الأموية العدوة للإسلام والحاقدة على رسول الله عليه وآله، فهو نتاج الحقد الأموي، وهو آلته الخبيثة التي أبرزها في عهد عثمان، وكان أحد الأسباب الرئيسية في مقتله؛ حيث إن قربه منه ونفوذه وامتداد سيطرته عليه، شكل أحد أهم الأسباب التي نقمها الناس عليه وما نقم الناس على عثمان أنه آوى طريد رسول الله عليه وآله الحكم بن أبي العاص، ولم يزد أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف، وتصدق رسول الله عليه وآله بهزون - موضع سوق في المدينة - على المسلمين فاقطعها الحرف بن الحكم أخا مروان، وقطع فدك مروان، وافتتح إفريقيا فأخذ - خمس الفيء فوهبه مروان<sup>(١)</sup>.

#### الوزير الأول لعثمان - عينه ولسانه

لقد كان فتاه المدلل والناطق الرسمي باسمه والناظر في أموره وشؤونه الخاصة والعامة وأمين سره والقائم على أمره، كان مروان هو الذي يسيطر على مقدرات الخليفة الشيخ ومقدرات الدولة الإسلامية التي يديرها هذا الشيخ الضعيف إدارة اسمية، وكان قربه الشديد منه يتاح له أن يعيش في مملكة أسطورية، رغم أن الشيخ يدرك أحياناً من

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٣.



هو مروان ويدرك أنه قد تجاوز حده، فيقرعه عندما يتجاوز هذا الحد ويتصرف بشكل فاضح يثير الناس ويزعجهم، كان يتصرف وكأن هذه الدولة ملك لبني أمية خاصة من دون الناس يتمتعون بها ويتصررون بها كيف شاؤوا، وكان أداة فعالة للانحراف المتسارع والفساد الذي بدأ يظهر بجسم الدولة الإسلامية الناشئة.

### استغلوا ضعف الشيخ فتسللوا إليه

لقد تسلل بهدوء وخبث إلى جوار الشيخ الضعيف واستغل حبه لأقاربه وضعف الشيخوخة به ليتلاعب به ويدمر آخر صورة جميلة ربما بقيت له في بعض الأذهان بحكم انتهاه لصحابة رسول الله ﷺ والتي رسمها له من لم يوده حقاً ولكن رسمها نكالاً (بمنافس العائلة الأموية) الذي كان مقدراً له أن يكون على رأس هذه الدولة، لو لم تتلاعب الأهواء وتتصارع المطامع بعيد وفاة رسول الله ﷺ، فحتى عبد الرحمن ابن عوف الذي رشحه للخلافة وحتى طلحة والزبير أصبحوا من الناقمين عليه بل والمحرضين بفعل تصرفاته التي كان يbedo مروان وراء أغلبها، بل وراءها كلها، ولم يكن مروان، الذي لم يكن ذا سابقة في الإسلام أو شرف قديم فيه، يجرؤ على الظهور علانية على الشعب المسلم متقدماً أصحاب رسول الله، بل كان يعمل في الظلام من وراء الأستار، وكانت حياته الظلامية وما يحوكه من خطط لإيقاع الخليفة الشيخ في حبائله، مدعوة لبروز المزيد من الخبط والماكائد والدسائس ضد كل من يلمس أنه قد يكون عقبة في سبيل مجد العائلة الأموية المعاد، والذي كاد أن يضمحل بفعل ظهور الإسلام.

على أنه أظهر نفسه في النهاية بشكل علني سافر وأخذ يتحدى الشعب المسلم وجعل مسألة تحريض عثمان على الإمام شغله الشاغل، مدركاً أن الأمة في خضم وقوعها في غمرة الانحراف المعلن لابد أن تستنجد به وتلتلف حوله في النهاية، فهو المؤهل الوحيد لقيادة الأمة وتخليصها من الورطة التي وقعت فيها.

## استغلال السلطة

وعندما أتيحت لمروان فرصة التقرب من عثمان إلى أدنى حد ممكن بعد أن تزوج ابنته أم أبان، استغل ذلك أبغضه استغلال وورط الخليفة الشيخ بأخطاء كان فيها حتفه في النهاية ولم يكن الرجل في ثاني شطري عهده إلا ثوب عثمان وذهن مروان [الذي] كان مفتوناً بالصلف، مستبد النزعة، يثيره النقد حتى الحماقة، ولا يدفعه إلى معالجة الخطأ بقدر ما يدفعه إلى الإصرار عليه، ولم يكن فحسب مشيراً للأمير، ولا وزيراً ينصاع لإرادته ويعمل وفق أمره، ولا أدلة يستعين بها عثمان على إنجاز ما يريد، ولكنه كان أولئك جمِيعاً في حساب المظاهر، وكان أيضاً الأمير في حساب الواقع المريح السافر! وكان امرءاً لم يعوزه الخبر إلى جوار الشره وبعد الأهواء، يحرك بأصابعه الخيط في الناحية التي تميلها عليه شهوته، ويعمل دائمًا وهو محجوب عن الناس بهيكل الخليفة الشيخ، فيبدو العمل وبيدو عثمان في آن، الخفاء كان ميدانه والدس سلاحه، والتمويلية مركبه إلى هواه، أفلأ يشي كل هذا بجن طبعه؟ كانت الكلمة الواحدة يوسموس بها للخليفة كفيلة بما يريد، ولو أن مروان كان حقاً وزيراً صدق لواسعه أن يتدارك الفتنة وأن يكشف مخلصاً عن مكمنها ثم يشير على ولی نعمته بالعلاج الحاسم، ولكنه كان امرءاً جبان الطبع لا يستطيع أن يواجه الحقائق فاستعان دائمًا على الأزمات بأسلحة الظلم.

أفشى الدس والخدع والحقيقة، ومشى بين الخليفة وبين شعبه، كذلك لم يبق في الأمة رجل مشى إلى الخليفة بكلمة نقد إلا لبسها مروان ثوب باطل ولا دعوة تحدثت بها الشفاه إلا حاول خنقها قبل أن تذيع»<sup>(١)</sup>.

«ولم يكن في هذا بحامي الخليفة ولا بالذائد عنه بقدر ما كان ذائداً عن جاهه هو

(١) الإمام علي بن أبي طالب: عبد الفتاح عبد المقصود ج ٢ ص ١٦-١٧-٢٤-٢٣، ط ٤ مكتبة مصر.



وعن سلطانه. حارب مروان النقد ليدافع بهذه الحرب عن سلطانه، وحاول خنق حرية الرأي؛ لأن حياته الناعمة وحياة آله لا تكون إلا في ظلام الاستبداد، هو حقاً لم يجد للعيان في صورة المناجز، ولكنه اخند من عثمان ستاراً توارى خلفه، وما أحسب خطأ واحداً من أخطاء الشيخ إلا وفيه آثار واضحة من أصابع ابن الطريد<sup>(١)</sup>.

### بداية تفاقم الانحراف في عهد عثمان

وإذ كان لابد من وقف الانحراف الذي بدأ يهدم جسم الأمة الإسلامية ويزعنع أركانها ويحيلها إلى أمة مملوكة لكسرى أو لقيصر، بدأ الناس يطالبون بقطع أسباب هذا الانحراف وطرد الزمرة الطفيليّة التي تسليقت على أكتاف الخليفة العجوز وبدأت تحكر كل مكاسب الأمة، وفي مقدمتهم مروان ومعاوية وابن عقبة وابن عامر وسعيد وغيرهم دون أن تكون لديهم المؤهلات الالزمة ليساواها حتى أقل المسلمين مستوى وجاهًا ونفوذاً، فكيف بهم وقد أصبحوا سادة وأمراء وحكاماً ومالكين لثروات هائلة يعجز العقل عن تخيلها؟

وقد أدرك الناس أن طرد مروان أولاً كان يشكل حاجة ملحة؛ لأنهم علموا أنه كان شئماً على الأمة الإسلامية برمتها؛ لأنه كان يتصرف بمقدراتها ويوحى لل الخليفة العاجز بأفكاره الشيطانية التي كان يحوّلها في الظلام والتي من شأنها أن تهدم كيان الدولة وتجعل منها دولة مستبدة لا تمت للإسلام بصلة. ثم عندما رأوا أنه لا يزال مقرباً ومتنفذًا ومسطراً على شؤون هذه الدولة وقراراتها بدؤوا يطالبون برأسه، وعندما رفض الخليفة إبعاده أو التخلّي عنه، رغم الوعود المتكررة منه بذلك، وعندما تيقنوا بشكل قاطع أنه سبب كل المصائب التي لحقت بالإسلام والتي سوف تلحق به في المستقبل إذاماً اتسعت زاوية الانحراف بذلك النمط المتسارع.

(١) الإمام علي بن أبي طالب: ج ٢ ص ٢٤-٢٥.

وقد اتسع الشق أمام إصرار عثمان على تقريب مروان، حتى رأينا أن المطالبة قد أصبحت بالتالي برأس عثمان نفسه، وهكذا كان نتاج الثورة المسلحة مقتل عثمان وإصابة مروان الذي خيل للثوار أنه قتل أيضاً.

**الإمام ﷺ أول من حاول ايقاف الانحراف: «إني كلمتك مرة بعد أخرى»**

كان الإمام ﷺ يمثل أمل الأمل لتصحيح الانحراف الواضح عن الإسلام في عهد الخليفة الثالث والذي كان يتمثل بالإجراءات الكيفية عند البت في العديد من القضايا، وإغراق الأموال على الأقارب، وتعيينهم في أهم مناصب الدولة الحساسة.

«وكان عثمان كثيراً ما يوليبني أمية من لم يكن له من رسول الله ﷺ صحبة، وكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحاب محمد ﷺ، فكان يستعتبر فيهم، فلا يعز لهم»<sup>(١)</sup> لذلك فإن الأمة التي يئس من عدول عثمان عن مواقفه، اتجهت إلى الإمام ﷺ لكي يحل الأزمة الناشبة بينها وبين الخليفة والتي لا يبدو أنها ستتحل ما دام وراء الخليفة الشيخ مستشار أحق مثل مروان، فكان الإمام كثيراً ما يتوجه بالنصائح إلى عثمان ويعاتبه إلى حد التقرير، وكان يذهب إليه بنفسه أحياناً وأحياناً يرسل إليه ابنه الحسن ﷺ لهذا الغرض «وكان كلما اشتكتى الناس إليه أمر عثمان، أرسل ابنه الحسن إليه، فلما أكثر عليه، قال له: إنَّ أباك يرى أن أحداً لا يعلم، ونحن أعلم بما نفعل، فكف عننا! فلم يبعث علي ابنه في شيء بعد ذلك»<sup>(٢)</sup> ثم عندما استنجد به عثمانأخيراً، قال له الإمام: «إني قد كلمتك مرة بعد أخرى، فكل ذلك تخرج وتقول حتى ترجع عنه، وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد، فإنك أطعتهم وعصيتني»<sup>(٣)</sup>. وقد اعتذر

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٧.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ٥٦.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٤.



عثمان مرة أخرى ورجمع وخطب في الناس، حتى اقتنع أهل مصر، وهم أغلبية التائرين ورجعوا.

وهنا كانت عين مروان الأموية ترى أن سبب كل ما أحق بال الخليفة الأموي وحاشيته من علي عليه السلام، كما كان أبوه وعمه أبو سفيان يريان أن سبب كل (بلاء) أو انتقاد لمجد العائلة الأموية من محمد عليه السلام، وكان يرى أيضاً أن أمل الأمة بتفويت الانحراف سوف يتحقق عندما تزول المظاهر الطارئة التي أوجدها عثمان بمجرد موته ميتة طبيعية، وهو الآن شيخ قد أشرف على الشهرين، وميته محققة بين لحظة وأخرى. ويعلم علم اليقين أن الامتيازات الأسطورية التي حصل عليها سوف تسلي منه إذا ما تولى الإمام الخلافة.

#### لا تنازل عن (المكاسب)

كان مروان يحمل نفس الهاجس الذي يراود معاوية وغيره من الحاشية الصالعة بالشر، وهكذا فإنه لم يكن يقبل أن يتنازل بسهولة عن المكاسب التي حصل عليها وجعل الخليفة الشيخ ضحية لأطماعه، وقد حرضه على التراجع عن الوعود التي قطعها للإمام، وقال له: «تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغتهم عن إمامهم كان باطلأ، ففعل عثمان»<sup>(١)</sup>. فقد خطب عثمان في الناس قائلاً «اللهم إني أتوب إليك، اللهم إني أتوب إليك! اللهم إني أتوب إليك! والله لئن ردّي الحق إلى أن أكون عبداً فناً لأرضين به، إذا دخلت منزلي فادخلوا علي، فوالله لا أحتجب منكم، ولا أعطينكم الرضا، ولا زيدنكم على الرضا، ولا نحيين مروان وذويه.. فلما دخل أمر بالباب ففتح، ودخل بيته، ودخل عليه مروان، فلم ينزل يقتله في الذروة والغارب حتى قتله عن رأيه وأزاله عما كان يريد فلقد مكث عثمان ثلاثة أيام ما خرج استحياء من الناس»<sup>(٢)</sup>.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٤.

(٢) الطبرى: ج ٢ ص ٦٦٠.

«وبعد خطبة عثمان، خرج مروان إلى الناس وقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهاينا، شاهت الوجوه إلى من أريد، جئتم تريدون أن تنزعوا ملائكتنا من أيدينا، أخرجواعنا، والله لئن رأيتمونا ليمرن عليكم من أمر لا يسركم ولا تحملوا غب رأيكم ارجعوا إلى منازلكم فإنما والله ما نحن بمحظيين على أمرنا»<sup>(١)</sup>.

كان كلام مروان - وحتى تصوفاته - عندما يجري بهذا الشكل الموحى بأن الأمر أمر ملك خاص ببني أمية الذين لا تعرف لهم سابقة في الإسلام، بل سجلت عليهم عداوتهم العنيفة له منذ البداية، تستفز الأمة وتشير سخطها وتولد في نفوس أبنائها حالة من اليأس والقنوط من مستقبل مشرق يحكم فيه الإسلام لا مروان وأشباهه وتصحح فيه المسيرة وتعاد إلى ما كانت عليه، وكان مروان يبدو كرأس الحربة التي يوجهها البيت الأموي بجماهير المسلمين، وكان هو يدرك ذلك ويدرك ما له من صالحيات ويندفع بحمقى إلى أقصى حد لإعلان ما لم يجرؤ حتى أحمق الناس من بني أمية لإعلانه وإظهاره، فكان يستهتر بالأمة ولا يرى أنها أمّة إسلامية وحدّها الإسلام وقادت على قيمه ومبادئه، وكان مروان، حينما يتصور أن توجه الأمة إلى علي عليه السلام سيضنه في النهاية في الموقع الصحيح، على رأس الدولة الإسلامية التي انفرد بها عثمان وأقاربه واستثروا بخيراتها ومكاسبها، يستشيط غضباً من ذلك ويحاول بكل طريقة النيل من الإمام وإظهاره على أنه منافس لعثمان في الملك والسلطة، وحاول عدة مرات تحريض عثمان عليه ودق أسفي العداوة والبغضاء بينهما، رغم أن الجميع - ومنهم - عثمان يدركون النوايا السليمة للإمام عندما يتقدم بنصائحه إلى عثمان لإنقاذه وإنقاذ الأمة من شر فتنة شاملة تصيب الجميع وتعود على الإسلام بالشر والوبال. ولم يستطع في إحدى المرات عندما جاء الإمام مع جماعة من الناس لإنقاذ الموقف ونصح عثمان، إلا أن ينبرىء مع

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٦ والطبرى: ج ٢ ص ٦٦٠.



جماعة من أقاربه مهددين الإمام ووجهين إليه الاتهام قائلين: «أهلكتنا وصنعت بنا هذا الصنع. والله لئن بلغت الذين تريد لتمرن عليك الدنيا، فقام مغضباً وعاد هو والجamaة إلى منازلهم»<sup>(١)</sup>.

لم يكونوا يريدون أن يتنازلوا عن سلطتهم التي اكتسبوها بقربابتهم من الخليفة لأي سبب من الأسباب، ولو أدى ذلك إلى قتلهم، وهو ما كان يتهده بالفعل، وهو ما كان ييدو أنهم يريدونه، بل ويسعون إلى تحقيقه. إذ كيف يتمنى لهم الخروج على الإمام الذي كانت كل الدلائل تشير إلى أن الأمة كانت تتوجه إليه بكل كيانها ومشاعرها. فلو مات عثمان موتاً طبيعياً، ترى ما هو المبرر الذي سيجدونه وإعلان الحرب عليه؟

#### كل الناس تكره مروان حتى نائلة زوجة عثمان

وقد أثار موقف مروان من الناس وسبه إياهم واستهانته بهم، وتحريض عثمان على عدم الاستجابة لمطالبهم، التي كان يرى أن في الاستجابة لها وهنّاً بمركز الخليفة وذويه وربما زيادة الهوة بينه وبين الناس مما يفوت عليه الفرصة لإقدامهم على قتله وهو ما ييدو أنه قد سعى إليه مع معاوية بكل جد ودبرا هذه النهاية المشؤومة للشيخ الفاني. أثار موقف مروان هذا غيض نائلة بنت القرافصة زوج عثمان التي قطعت أصابعها عندما هجم الثوار على عثمان وقتلوه، وقد حنقت على مروان. «وكانت نائلة زوج عثمان تكره مروان وتكره تدخله في الأمر»<sup>(٢)</sup> وكانت ترى أنه قد تماهى في ذلك إلى أبعد الحدود، وأنه سبب كل المشاكل التي تحيط بعثمان وتوشك أن تودي به، وكان تشخيصها لقيمة مروان وشخصيته تشخيصاً دقيقاً حيث أدركت وهي القريبة منه والمتدينة إلى العائلة الأموية بحكم زواجهها من عميدها أن مروان قد سيطر على زوجها سيطرة تامة وأن كره الناس

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٣.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٦.

لعثمان إنما يعود سببه لكرههم هذه الشخصية الغبية النزقة التي لم تعرف لها سابقة في الإسلام والتي أصبحت تدير أمور الدولة إدارة تامة وتتلاءم بمقدراتها بشكل كييفي وعبيدي فاضح، وقد جاءت في النهاية إلى زوجها عثمان محنزة إياه من مروان وطلبت منه بإعاده قائلة: «وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما تركك الناس لمكانه»<sup>(١)</sup>.

وقد أصبح مروان وحده قضية بأكملها، بل أصبح هو القضية الأساسية، حتى أن التأثيرين قد طلبوا من عثمان. «أحد أمور ثلاثة، إما أن يعزل نفسه، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم أو يقتلوه، فكانوا يرجون أن يسلم إلى الناس مروان أو يعزل نفسه فيستريح»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قتل عثمان بسبب مروان ومعاوية وأضرابهما من قربهم إليه لإدارة شؤون الدولة الإسلامية الناشئة، ومن الغريب أنها شخصياً جنباً في النهاية المكاسب التي أعقبت ذلك واستثمراً مقتله إلى أبعد الحدود!

### مروان ومعاوية أعداً وأخرجا مسرحية قتل عثمان

ومهما يقال عن مقتل عثمان، وبواعث الثورة عليه، فإن الواقع التاريخية تجمع على الأسباب التي ذكرت في هذا الفصل والفصل السابق، لو جردننا القضية من (الأموية)، وبعبارة أخرى، لو نظرنا نظرة حيادية غير متحيزة إلى القضية بمجملها كواقعة من وقائع التاريخ الإسلامي، يتعامل معها الجميع وفق تصوراتهم وفهمهم للإسلام ومصالحهم التي تقترب بعضها من مصلحة الإسلام حتى تكون نفسها هي هذه المصلحة، كما هو الحال مع الإمام - وتبتعد بعضها عنه حتى لا نكاد نجد أي رابطة تربطها به كما هو

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٧.

(٢) البداية والنهاية: ج ٤ ص ٢١٦-٢١٧.



الحال مع الحزب الأموي الذي سيطر بعد ذلك على كل الدولة الإسلامية، وصور قضيته على أنها القضية العادلة الواقعية الموضوعية، وأنها قضية الأغلبية من أبناء الأمة، وأن الإمام عليه السلام كان مجحفاً بتصديه لهم. وساعد فوز الأمويين على الاستئثار بكل شيء على انطلاق هذه الحيلة المعدة إعداداً جيداً ومتقدماً على الكثير من المسلمين وخصوصاً في الشام الذين عرّفوا الإسلام الأموي فقط، ذلك الذي صوره لهم معاوية وتلقوه عنه شخصياً، فقد كان تعرفهم عليه عن طريقه، وكانوا نتاج تربيته ونتاج يديه الماهرتين وحذقه في شؤون السياسة والحياة! كما أن أولئك الذين لم تنطل عليهم أحابيل معاوية وحيله لم يتمكنوا من الإعراب عن آرائهم صراحة ولم يكن بإمكانهم سوى السكت، وكان معاوية أمهل القادرين على إسكات الناس بمختلف الأساليب، وقد تعرضنا إلى بعضها في هذه الدراسة.

إن مواقف الأمويين، وحتى تلك المواقف الخاطئة المتكررة لمروان وأخوه، لا تدل على مجرد فورة عاطفية أو ميل مجرد للعائلة والأهل، وإنما تعبّر عن تحطيم للمشعث هذه العائلة، ورص صدوف أبنائها لمواجهة ما احتملوا أن يواجهوه، مما قد يعمّل على نقض بنائهم الذي رأوه صاعداً وهم يرون أن رأس الدولة ومعظم ولاته وحاشيته منهم هم، فليس من السهل عليهم أن يتخلوا عن كل ذلك ببساطة بمجرد أن يموت الخليفة موتاً طبيعياً، ولا بد من إعداد لهذا الموت وإخراج جيد له.

وهكذا فإن مواقف مروان لا يمكن تبريرها كلها بأنها كانت نتيجة اندفاعات الشباب والطيش وعدم الحكمة أو أنها كانت تعبّر عن ميل عاطفي مجرد لعثمان، إذ إنها لم تكن تصرفات مروان لوحده وإنما عكست تصرفات كل أعضاء الأسرة الأموية الذين حاولوا استفزاز الأمة وفي مقدمتها الإمام عليه السلام، وقد رأينا موقف معاوية من مجموعة من المسلمين كان الإمام عليه السلام معهم وتحذير معاوية لهم بشكل وأسلوب متعالٍ مدروس لا

شك أنه أراد من ورائه إعطاء انطباع للأمة بأن الأوامر ملك خاص لا شأن لأحد به أو مناقشته مهما كان مركزه أو قرباته من رسول الله عليه السلام أو ساقبته في الإسلام!

وقد بدا بشكل واضح أن معاوية ومروان وكل أعضاء البيت الأموي أرادوا جر الإمام عليه السلام ليكون طرفاً معلناً للعداء لعثمان، ليستمروا بذلك في النهاية ويخروجا عليه إذا ما أصبح في موقع القيادة الفعلية للأمة، ومع أنه أفشل خططاتهم، لا لمجرد إفشال هذه المخططات، بل بفعل مبدئي ثابت، ولم يحرض أحداً على عثمان، بل على العكس، حاول منع وقوع المأساة التي لم تود بعثمان وحده، وإنما أثرت على مسيرة كل الأحداث فيما بعد - كما تبأ الإمام وأوضحتناه - بإسداء النصح المتكرر لعثمان، حتى منعه عثمان من ذلك.

كان مروان يجاهه حالة مستعجلة لابد فيها من حسم سريع، وكان لابد أن يتصدى بكل الوسائل الممكنة لمن حسب أنهم يريدون الاستحواذ على ملكهم كما صرح بذلك أمام الثوار. وهكذا فإن تصرفاته لم تكن مجرد نزوات عابرة في رأسه وإنما كانت نتيجة موقف مبيت مرسوم لاستفزاز الأمة وإخراجها عن طورها لكي يكون تصرفها العفواني في مصلحة البيت الأموي في النهاية ليتمكن استئثاره من قبلهم إلى أقصى حد ممكن. وهكذا كان الأمر كما خطط له معاوية ونفذه مروان.

### مروان.. قاتل طلحة يوم الجمل

لقد التحق مروان بالخارجين على الإمام في معركة الجمل أولًا، ثم بمعاوية بعد ذلك، وشاء سوء حظ طلحة الذي كان مروان أحد أتباعه في تلك المعركة، أن يقتل على يديه «وكان الذي رمى طلحة مروان بن الحكم»<sup>(١)</sup>.

«لما رأى مروان بن الحكم يوم الجمل طلحة بن عبيدة الله، قال: لا أنظر بعد اليوم

---

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٣٢ والطبرى: ج ٣ ص ٤١.



بثأري في عثمان، فانتزع له سهماً فقتله»<sup>(١)</sup>.

وقد روي أنه أخذ أسيراً يوم الجمل «فاستشفع الحسن والحسين - إلى أمير المؤمنين - فكلماه فيه، فخلى سبيله، فقال له: «بياعنك يا أمير المؤمنين؟ فقال ﷺ: أولم بياععني بعد قتل عثمان؟ لا حاجة لي في بيته! إنها كف يهودية، لو بايعني بكفه لغدر بسيفه، أما أن له إمره كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الakash الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر»<sup>(٢)</sup> وقد تحقق ما قاله الإمام ﷺ، ولا بد أن علمه بذلك كان عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ .. فقد لقيت الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر.

### أفل نجمه أمام نجم معاوية ويزيد

وقد رأينا الملابسات العديدة التي وضعت معاوية على كرسي الخلافة، وفي كل هذه السنين التي واجه الإمام ﷺ لم نجد موقفاً بارزاً لمروان، ويبدو أن نجم معاوية قد غلب نجمه، حيث قبع بعد ولاده معاوية في المدينة يحتر مكاسب قتل عثمان. وقد عبر عن ذلك معاوية صراحة بقوله لسعيد بن العاص: «إنه كصاحب الخبرة كفى إنصاجها فأأكلها»<sup>(٣)</sup>. ويبدو أن معاوية وجد فيه منافساً محتملاً أو خليفة له قد يحتل مكانه في النهاية مرجحاً على يزيد، لذلك فإنه فيما يبدو قد أبعد الأضواء عنه وأهمله إلى حد بعيد، وغاية ما حمله من مسؤوليات أنه كان يوليه المدينة سنة ويوليها سعيد بن العاص سنة أخرى، وكان يحرض أحدهما على الآخر ويكيده بينهما. وربما أراد إضعافه إلى الحد الذي يتمكن فيه من إتمام البيعة ليزيد.

وهنا تتضارب الأخبار في موقف مروان من هذه البيعة، فأحددها يذكر أن معاوية

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٧٠.

(٢) نهج البلاغة: دار الكتاب اللبناني: ص ١٠٢.

(٣) العقد الفريد: ج ١ ص ٢٥١.

عندما أراد مبايعة يزيد بولاية العهد، كتب بهذه البيعة إلى الأمصار، ومنها المدينة، وعامله عليها مروان بن الحكم، وقد غضب مروان عند سماعه ذلك «فخرج معقاباً في أهل بيته وأخواله منبني كانانة حتى أتى دمشق فترثها، ودخل على معاوية يمشي بين السلاطين، حتى إذا كان منه بقدر ما يسمعه صوته، سلم وتكلم بكلام كثير يوبخ فيه معاوية منه: أقم الأمور يا بن أبي سفيان وأعدل عن تأميرك الصبيان، واعلم أن لك من قومك نظراً، وأن لك على مناؤتهم وزراء»<sup>(١)</sup>. وقد هدأه معاوية وأوعده بولاية العهد من بعد يزيد. فمروان كان يطمح بالخلافة، وربما كان متفقاً منذ البداية مع معاوية على أن تؤول إليه من بعده، وكان يعد نفسه نظيراً له، وكان الغضب من تولية يزيد هو رد الفعل الطبيعي لديه فهو يرى في استخلافه تعدياً على حقوقه ونقضاً لاتفاق الذي قد يكون مبرماً بينهما على الأرجح.

غير أن هذه الرواية التي تروى لنا عن الغضب الذي اجتاح مروان، حتى أن سفرته الطويلة من المدينة إلى الشام لم تستطع أن تطفئ سورته، وأبى إلا أن يعلن عنه أمام معاوية بهذه الشدة، تناقضها روايات أخرى.

إحداها تقول أنه قام خطيباً في أهل المدينة عندما وصله خبر استخلاف يزيد، وقال لهم: «إن أمير المؤمنين قد اختار لكم، فلم يأْل جهداً، وقد استخلف ابنه يزيد بعده»<sup>(٢)</sup>.

وآخرى تروى أنه قام خطيباً فيهم «فتح لهم على الطاعة، وحذرهم الفتنة، ودعاهم إلى بيعة يزيد»<sup>(٣)</sup>. ونرى من خلال هذين النصين أنه قد قبل باستخلاف يزيد وروج له

(١) مروج الذهب: ص ٣٢.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٥١.

(٣) العقد الفريد: ج ٥ ص ١١٢.



وحت عليه، ولم يجد في نفسه قوة للوقوف بوجه معاوية والاعتراض على هذا الأمر، كما يدللان على تراجعه وصمود شخصيته أمام شخصية معاوية القوية المتحدية، بل وحتى أمام يزيد. ومهما يكن فإن الصفقة التي عقداها لم تتم في حينها، وجاءت متأخرة بعد هلاك يزيد على رغم معاوية. وأصبح مروان خليفة المسلمين و(أمير المؤمنين) وأورثها من بعده أولاده الأربع الذين لقيت منهم الأمة بأساً شديداً وشراً منقطع النظير.

### **مأثرته الوحيدة.. بغض أهل البيت ﷺ، تحريض على قتل الحسين ﷺ**

لقد عاش مروان بدايات الانحراف، وشهد ذرورتها على عهد معاوية ويزيد، وكان شاهداً حياً على كل ما وقع من انتهاكات صريحة وخروج واضح عن الإسلام في كل المجالات، ولم تخف عنه خفايا مسيرة هذا الانحراف وخطواته ومراحله.

وقد قبع في بيته في المدينة نائباً عن معاوية أو معزولاً عن الولاية، ولعل معاوية قد أتاح له أن يغترف ما يشاء من أموال المسلمين، ما دام قد كرس وقته وجهده لحماية العرش الأموي، وحسبه أن يظل متنهماً مرفهاً ما دام الأمر قد مهد بحيث لا يخرج عن هذا البيت الذي يتتمى إليه.

على أن أهم ما طبع شخصية مروان هو كرهه الشديد لآل الرسول ﷺ، وقد عمل على إحداث فجوة بين عثمان والإمام في بداية الأمر، وكان يتصدى بكل السبل للإمام ﷺ ويحاول النيل منه. كما منع قيام المسلمين بburial of the Imam الحسن ﷺ قرب جده رسول الله ﷺ، مدللاً بذلك على حقده الأسود على آل البيت. وفي النهاية حاول تحريض والي المدينة الوليد بن عتبة على الإمام الحسن ﷺ واقتراح عليه قتله أو إجباره على البيعة ليزيد وذلك عند ورود خبر هلاك معاوية إلى المدينة، وقد رفض الوليد ذلك قائلاً:- «إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني، والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس»

وغربت عنه من مال الدنيا وملكتها، وإني قتلت حسيناً، سبحان الله! أقتل حسيناً إن قال: لا أباع! والله إني لا أطن امرءاً يحاسب بدم حسين بخفيف الميزان عند الله يوم القيمة»<sup>(١)</sup>.

كان مروان أبرز ممثل للصلف والغرور الأمويين، وأكثر المجاهرين بالعداء لآل رسول الله عليه وآله.

#### قطعة مهملة من أحجار الشطرينج

ولم يكن حضوره واضحاً في رسم السياسة الأموية ومسيرتها بعد مقتل عثمان، ولم يكن من الذين يصيغون القرارات ويشاركون مشاركة فعالة في هذه السياسة إلا بعد موت يزيد ثم معاوية ابنه من بعده، حيث طمع في الخلافة كثيرون حتى عبيد الله بن زياد بن سمية.

ويبدو أن مروان لم يكن يملك المؤهلات التي يملكها الدهاء الأربع، وأن تأثيره السابق كان منصباً على الخليفة الضعيف عثمان، ولذلك لم يأخذ دوراً رئيسياً في إدارة هذه الدولة وأن تقريريه كان بسبب انتهاكه للعائلة الأموية وأحد الرموز السابقة المقربة من عثمان، أما مؤهلاته الشخصية فلم تكن مما يفتخر به. غير أنه كما قلنا كان مثل الانحراف وشاهده الحي وعرابه القديم.

على أن أقدر دور قام به في واقعة الحرة المشؤومة ضد أصحاب رسول الله عليه وآله وأنصاره، حيث حرض يزيد على أهل المدينة، ومهد لدخول مسلم بن عقبة المري إليها واستباحتها بشكل ينדי له جبين الإنسانية.

لم يحسن مروان العمل إلا في الظلام، وكانت نفسه الشيطانية تخشى النور وتهرب

(١) الطبرى: ج ٢ ص ٢٧٠.



منه.

### كاد أن يباعي ابن الزبير لولا أن منعه ابن زياد

لقد تضاءل دور مروان إلى حد بعيد، ولم يعد يتطلع إلى الخلافة أو يطمح إليها حتى عند موت يزيد ومعاوية ابنه من بعده. وعندمارأى إقبال الناس على مبايعة ابن الزبير واجابتهم له «فأراد أن يلحق به وينضاف إلى جملته»، فمنعه من ذلك عبيد الله بن زياد، وقال له: إنك شيخبني عبد مناف فلا تعمل<sup>(١)</sup>، فكان ذلك أول ما حرك مطامعه بهذه الخلافة. ثم التقى بعد ذلك عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، وعرض عليه أن يدعوناسإليه، على أن يكون ولـي عهده، أو ولـي عهد خالد بن يزيد من بعده، فاتفقا على ذلك، فمضى الأشدق يدعو إليه الناس إلى أن تم له الأمر.

### ليس نقائل إلا عن عرض دنيا

ويبدو أن الناس قد علموا طبيعة هؤلاء المتخلفين الذين لا يتعاملون إلا بالقوة والرشوة يعطون المال من يشاؤون ويمنعونه عمن يشاؤون. وقد أصبح التعامل معهم عليناً يتم على هذا الأساس؛ فقد اشترط حسان بن مالك، وكان رئيس قحطان، وسيدها بالشام على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد منها: «أن يفرض لهم لكل رجل ألفين ألفين، وإن مات قام ابنه أو ابن عمـه مكانـه، وعلى أن يكون لهم الأمر والنـهي وصدرـ المجلس وكلـ ما كانـ من حلـ وعقدـ فـعن رـأـيـ منـهـمـ وـمشـورـةـ، فـرضـيـ مـروـانـ بـذـلـكـ فـانـقـادـ إـلـيـهـ. وـقـالـ لـهـ مـالـكـ بـنـ هـبـيرـةـ الـيشـكـرـيـ: إـنـهـ لـيـسـ

لـكـ فـيـ أـعـنـاقـنـاـ بـيـعـةـ، وـلـيـسـ نـقـائـلـ إـلـاـ عـنـ عـرـضـ دـنـيـاـ، فـإـنـ تـكـنـ لـنـاـ عـلـىـ مـاـ كـانـ لـنـاـ مـعـاوـيـةـ وـيـزـيدـ نـصـرـنـاـكـ، وـإـنـ تـكـنـ الـأـخـرـىـ، فـوـالـلـهـ مـاـ قـرـيـشـ عـنـدـنـاـ إـلـاـ سـوـاءـ، فـأـجـابـهـ مـرـوـانـ إـلـىـ

---

(١) مروج الذهب: ص ١٠٣.

ما سأّل»<sup>(١)</sup>.

هكذا قالوا له صراحة: ليس نقاتل إلا عن عرض دنيا، وإن كنت لنا كمَا كان معاوية ويزيد نصرناك، واعط كل واحد منا ألفين، ونحن أهل الحل والعقد... أما على أي أساس يمنح هذه الامتيازات لمن يتعاملون معه بهذه الصراحة ويقولون له: ليس نقاتل إلا عن عرض دنيا، لا دفاعاً عن الإسلام أو المبادئ، وكيف يبرر جلوسه خليفة لرسول الله عليه السلام، وكيف يبرر الشرعية التي يريد أن يزيّن بها عرشه؟ فهذا يبدو أنه أمر لا يهتم به مروان كما لم يهتم به معاوية أو يزيد من قبل، فالشرعية - بعد مرور هذا الزمن ووصول المجتمع الإسلامي إلى هذه الحال من الخدر والكسل واللامبالاة - لم تعد أمراً ذا بال.

ولله در الشاعر الظريف، أخوه مروان نفسه عبد الرحمن بن الحكم، عندما وصف أخاه بأنه (خيط باطل) كما كان يدعى.

#### مروان: خيط باطل: أهل الدار أدرى بما فيها

«لَحِيَ اللَّهُ قَوْمًا أَمْرُوا خَيْطَ بَاطِلٍ عَلَى النَّاسِ يُعْطَى مِنْ يِشَاءُ وَيُمْنَعُ»<sup>(٢)</sup>  
لقد أدرك هذا الشاعر أن كل واحد من قومه، آل أمية خيط باطل، وأنه يعطي ما يشاء ويمتنع ما يشاء أيضاً، ما دام لا يتقييد بدين أو منهج ثابت في الحياة، وما دامت مصلحته ورغباته وزواطه هي وحدتها التي تسيره وتحكم فيه.

#### بطل مسرحي

وقد رويت قصة هزلية عن (قبول) مروان لمنصب الخلافة، وقد أريد بها الإيحاء بأنّه كان زاهداً فيها وأنه كان منتصراً إلى كتاب الله يتلوه في كل وقت من أوقات يومه،

(١) مروج الذهب: ص ١٠٤.

(٢) مروج الذهب: ص ١٠٤.



فبعد موت معاوية بن يزيد، وإقبال الناس إلى ابن الزبير، تشاور رجال بني أمية مع أشراف وجوه أهل الشام، ورفضوا أن يتقل (ملك أهل الشام) إلى الحجاز، ورأوا أن يختاروا رجلاً منهم لهذا الأمر، فوقع اختيارهم على مروان «فأتوا مروان بن الحكم، فإذا عنده مصباح، وإذا هم يسمعون صوته بالقرآن، فاستأذنوا ودخلوا عليه، فقالوا: يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر. فقال: استخروا الله واسألوا أن يختار لأمة محمد عليه السلام خيراً وأعداً. فقال له روح بن زنباع الجذامي: إن معي أربعمائة من جذام، فأنا أمرهم أن يتقدموا في المسجد غداً، ومرأتك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليه فإذا فعل ذلك، تnadوا من جانب المسجد: صدقت، صدقت، فيظن الناس أن أمرهم واحد، فلما اجتمع الناس، قام عبد العزيز، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان كبير قريش وسيدها، والذي نفسي بيده، لقد شابت ذراعاه من الكبر، فقال الجذاميون: صدقت صدقت، فقال خالد بن يزيد: أمر دبر بليل، فباعوا مروان بن الحكم»<sup>(١)</sup>.

وهكذا تم إخراج هذا الفصل المهزلي الجديد الذي دبر بليل وأخرج هذا الإخراج وتوزع أبطاله وممثلوه على خشبة المسرح، والذي حرف (الخلافة) وصرفها عن آل أبي سفيان لآل مروان، لتبدأ سلسلة (الخلفاء) الظرفاء المتحررین من كل (قيود) الإسلام والتزاماته، وكان الفضل في ذلك لشيخهم الذي شابت ذراعاه من الكبر، وهو يتلو كتاب الله وينظر فيه ولا شاغل له غيره، والذين كانوا يسمعون صوته وهو يقرأ القرآن من مسافة بعيدة، والذي كان خير أمة محمد وأعداً، هذه الأمة التي استجاب الله دعاءها فوهبها لها. والذي مهد لهم الطريق إلى العرش الجميل الذي استأثروا به دون الناس جميعاً.

---

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٣٤.



## قادة أم أعضاء عصابة سرية

ولأنريد أن نتعرض بالتفصيل إلى كل رموز الحكم الأموي والحاشية الأموية، وقد استعرضنا نماذج منهم ورأينا أنهم كانوا القادة الحقيقيين الذين يتحكمون بمصير الأمة الإسلامية ومقدراتها. ولن نتكلّم عن أبي الأعور السلمي وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس والنعمنان بن بشير وسفيان بن عوف وعبد الله ابن مساعدة الفزارى وبسر بن أبي أرطأة ومسلم بن عقبة ووردان والحارث بن عبد الله الأزدي ومعاوية بن خديج وسعيد بن العاص وسمرة بن جندب وغيرهم وغيرهم... فهم كانوا أدوات بيد معاوية ولم يذكر التاريخ لنا أنهم كانوا حريصين على الإسلام بقدر حرصهم على ما نالوه من جاه ومكانة في ظل النظام الأموي الجديد.

إن كرسي الخلافة الإسلامية قد سرق (ذبح) بطريقة غير إسلامية، وإن الطريق إليه كان عبر الرشوة والغش والارهاب.

أما ما زعم عن ذلك الدهاء الأموي، فلم يكن إلا تمويهً، فالدهاء الأموي كان عبارة عن عمليات متسلسلة من الكذب والخداع والمداهنة والنميمة والتفرقة ولم يكن ينجح وحده في مواجهة استقامة الإسلام وقوه مبادئه لو لم يرافقه السيف والارهاب وضروب الرشوة!

وحتى في يومنا هذا يوجد من يعتقد أن معاوية كان حملاً وديعاً، وأنه نال ما ناله بفضل حلمه وصبره وتسامحه ومرءوته، متناسين شلة الإرهاب من القادة والعمال ورؤساء القبائل الذين أحاطوا بعرشه، وأنه تصدى بكل عنف لجميع من رأى أنهم كانوا يشكلون عقبة بطريق الزعامة الأموية، وكان أمره مع الإمام عليه السلام نفسه وتحريضه أهل الشام معروفاً لا يمكن تجاهله.



### الارهاب الرسمي.. هو الشرعي

وحسبي أن نرى أن استعانته بمجموعة من الإرهابيين والقتلة الرسميين المسترين بشرعية الدولة والمذرعين بالحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية، كانت تدل على توجهه الدموي لتنفيذ أغراضه إذاما فشلت سياسته مع من يريد ترويضهم وإخضاعهم والتغلب عليهم.

كان معاوية يغلف تهدياته بابتسامة عريضة، وهو يتوجه إلى قريش بحديثه قائلاً: «ألا أخبركم عنى وعنكم، قالوا: بل. قال: فأطير إن وقعم، وأقع إن طرم. ولو وافق طيراني طيرانكم سقطنا جميعاً»<sup>(١)</sup>.

وبما أن الجو لا يتسع إلا لطائر واحد، فمن عسى أن يكون هذا الطائر سوى معاوية نفسه. وما على قريش - وغير قريش - إلا أن تستسلم وتلقي أعتنتها لمعاوية وأهل الشام الذين رباهم على مفاهيمه وقيمته وتصوراته.

ولم يحاول معاوية أن يتستر في النهاية على العديد من خططه وآرائه، فبعد أن استقامت له الأمور، أعلن خروجه السافر عن القيم السماوية العليا، والتصاقه بقيم الأرض وحدها، فهو ابن الدنيا، وهي أمه، هكذا أعلنها صراحة عندما قدم المدينة، وقال في حديث له مع أهلها، أولئك الذين عاش العديدون منهم عهد رسول الله ﷺ ولا يزالون يتنفسون في الجو الإسلامي الذي أوجده في عاصمة الإسلام ويتنسمون رائحة الرسول العظيم «وأما أنا فمالت بي وملت بها-يقصد الدنيا- وأنا ابنها، فهي أمي وأنا ابنها، فإن لم تجدوني خيراً لكم»<sup>(٢)</sup>.

فهو يعلم، أنهم يعلمون، أنه ليس خيرهم، وربما وجد من يهمس بذلك إذا لم يقله

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٦٠٦.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ٦٠٧.

أمامه صراحة، غير أنه يشهد لنفسه بأنه خير لهم (لدنياهم) وأن عطاءه غير محدود بقانون أو نظام، للذين يمدون إليه أيديهم، ويوافقونه على أمرته ويقفون وراء عرشه. وقد كان من الحصافة وبعد النظر بحيث أنه لم يدعَ أمام الناس بأنه خيرهم، وكانت موافقه وتصريحاته ورسائله وخطبه تعبّر عن ذلك بكل وضوح وصراحة. إنه يقول لهم إنه إنسان أرضي دنيوي لا يريد أن يملك أي تصور صحيح عن الإسلام وقيم السماء العليا التي نزل بها الأمين جبرئيل إلى الأمين محمد ﷺ، وأنه لا يستطيع أن يتلزم حتى بالحدود التي يتزمها بقية المسلمين، فكيف يمكن أن يتلزم بخط النبي ﷺ نفسه، ذلك الذي التزمه الإمام ﷺ من بعده؟ إنه أمر بعيد عن التصور والامكان والواقع، وليس على أحد أن يفكر به أو يجعله بياله بأي حال من الأحوال. ومع ذلك فإنه يتصدى وبالتالي لكل من يقول أنه يتبع شرعية الإسلام ومبادئه وأصوله، في حكمه وحياته، ويتصدى لكل معارض بقوة السيف أو بالرشوة أو بالرد الملوء بالغالطات والأكاذيب والدجل.

#### ماذا الدفاع عن معاوية وأقطاب النظام الأموي؟

ومع ذلك فإننا نجد من ينبري للدفاع عن معاوية، الذي لم يكلف أحداً للدفاع عنه ويحاول ستر ما حاول هو كشفه!

أتري أنها مسألة عاطفية بحتة، متعلقة بمقتل عثمان، أن معاوية لجأ إلى سب الإمام ﷺ عليناً فوق منابر أقطار الخلافة؛ لأنّه كان يعتقد أن الإمام ﷺ مسؤول عن قتل عثمان؟!

لا نعتقد ذلك، ولا نعتقد أن معاوية نفسه يعتقد ذلك، فهو يعلم أنه نفسه أحد قتلة عثمان وأحد المسيسين الرئيسيين، لكنه لجأ إلى هذا الأسلوب المباشر في المواجهة، حتى



بعد غياب الخصم ووفاته، ليعلن أنه سيلجأ إلى هذا الأسلوب الشديد لكل من تسول له نفسه أن يعادى العائلة الأموية المالكة، وكانت جرأته التي بلغت حد الفظاظة، ملفتة للنظر حقاً، ومحذرة أولئك الذين لا يصلون إلى مستوى الإمام بأي حال من الأحوال، فإذا كان حاله هكذا مع أمير المؤمنين ﷺ، وهو يعرف موقعه من الرسول ﷺ ومن المسلمين ويعرف له صراحة بالتفوق والجدارة، فكيف سيكون مع أولئك الآخرين الذين قد يفكرون بمناؤة الدولة الأموية أو الخروج عليها؟ إنه تحذير لكل الآخرين بضرورة الاستسلام النهائي وإلى الأبد لمعاوية ودولته!

#### من شابه أباه فما ظلم

لقد قتل معاوية سنة ثلات وخمسين حجر بن عدي الكندي «وهو أول من قتل صبراً في الإسلام»<sup>(١)</sup>؛ لأنه تولى أبياً تراب، وهو أمير المؤمنين ﷺ، «والحق به من وافقه على قوله من أصحابه»<sup>(٢)</sup>، وكان قتل حجر إيداناً بحرب معلنة، مستمرة على كل من يولي أمير المؤمنين وآل ﷺ ويؤالي الإسلام ومبادئه الحقة.

وقد أدرك معاوية أن يزيد الذي كان يسفر عن سلوكه ونواياه وتصرفاته، وربما يواجه بعض (المتابع) و (الصعوبات) من أهل المدينة أو من بعض أهل الأقطار الإسلامية الأخرى. فقد روي «أن معاوية قال ليزيد: إن لك من أهل المدينة يوماً، فإن فعلوا فارهم بمسلم بن عقبة، فإنه رجل قد عرفت نصيحته!»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا كان فعلاً، أرسل يزيد مسلم بن عقبة إلى المدينة فاستباحها في واقعة الحرفة المشهورة، التي لا تكاد تذكر إلا كنقطة سوداء في تاريخ العرب ولا نقول المسلمين!

(١) مروج الذهب: ص ٣.

(٢) مروج الذهب: ص ٥.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٤٥٦.

وستتطرق إلى هذه الواقعة عند الحديث عن نتائج ثورة الحسين عليه السلام.

ولا يعتقدن أحد أن معاوية كان يقل عن يزيد دموية وتهوراً، فما فعله يزيد كان بوصاياته كما رأينا قبل قليل وكما سنت في عندما حذر من ثورة محتملة للحسين عليه السلام ضده. وكانت وصيته إلى بسر بن أبي أرطأة أحد قادته العسكريين حين أرسله إلى الحجاز واليمن «سر حتى تمر بالمدينة فاطرد الناس وأخف من مررت به وانهب أموال كل من أصبت له مالاً من لم يكن قد دخل في طاعتنا»<sup>(١)</sup>.

ويصف الطبرى وابن الأثير ما فعلته جيوش معاوية بقيادة بسر هذا وقاده الآخر سفيان بن عوف الغامدي حين أرسله إلى العراق وقد أوصاه أيضاً «أقتل كل من لقيته من ليس هو على مثل رأيك، واخرب كل ما مررت به من قرى».<sup>(٢)</sup>

وشتان بين هذه الوصايات القاسية، ووصايات الإمام الشهيرة لقواده والتي يأمرهم فيها الرفق حتى بالحيوان، ناهيك بالإنسان، بل وتبين لهم أدق التفاصيل في كيفية الرفق به. فهو عليه السلام يرى لكل شيء قيمة في ظل الإسلام وتصوراته حتى لو كان حيواناً أعمى ومنع العبث به أو الاستهانة به<sup>(٣)</sup>. وكانت وصاياته بضعاف الناس وفقرائهم تفيض حناناً ورقه، كما أنه حذر بشدة من سفك الدماء، فإن هذا أول شيء تحاسب عليه البشرية

(١) نهج البلاغة: ص ١١٨.

(٢) نهج البلاغة: ص ١١٨.

(٣) ولا نرى بأساساً من ايراد بعض وصايات عليه السلام لبعض من كان يستعمله على الصدقات فقال: «ولا تنفرن بهيمة ولا تفرعنها ولا توسعن صاحبها فيها. ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيناً وأميناً حفظاً، غير معنف ولا مجحف ولا ملغم ولا متعب. فإذا أخذها أمينك فأوزع إليها ألا يحول بين ناقة وبين فضيلها، ولا يمسر لبناها فيضر ذلك بولدها ولا يجهدنا ركوبها وليرعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها. وليرفعه على اللاذق، وليرستان بالنقب وليرودها ما تمر به من العذر، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق وليروحها في الساعات وليمهلها عند النطاف والأعشاب، ول يكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج». (نهج البلاغة: ٣٨١ - ٣٨٢ - ٤٣٦).



تلاقفوا...!

لقد كان من ذكرناهم نماذج بارزة (للقيادة) التي تجمعت حول معاوية، وضمت الأقارب الأمويين بالدرجة الأولى ومن يدينون بالولاء لسيد العرش الأموي ويتبني مواقفه وأساليبه، وأولئك الذين تخلقوا حوله طلباً للثروة والمنصب، حتى أنهم تساوموا بشكل مكشوف وعلني، طالبين حصصهم في هذه الدولة (الإسلامية) التي استأثر بها معاوية لنفسه وعائلته وأقاربه، وإذا ما أضيفت الحاشية المقربة التي تضم أبناء هؤلاء وأقاربهم وعوائلهم وأبناءهم، والذين نشروا في أحضان الترف والنعيم والبطالة، لرأينا أن مداً جديداً يوشك أن يكتسح الأمة الإسلامية، يتكون من هؤلاء المترفين الذين نشروا على قيم ومبادئ وحياة جديدة مغايرة تماماً للحياة الإسلامية الأصيلة.

وفيما بعد، كان يزيد يدرك كل الإدراك أن التمويه وأساليب الخداع والغش التي استعملها معاوية للتغطية على سلوكه وتستره ببعض مظاهر الدين ما كان ليستطيعه هو أو من يأتي بعده، لذلك فإنه أعلن الأمر صراحة عندما أفضى الأمر إليه، متحدثاً عن معاوية «وكان دون من كان قبله وخير من بعده»<sup>(٢)</sup>.

(١) ففي وصيته إلى مالك الأشتر حين ولاده على مصر قال ﷺ: «إِيَّاكَ وَالدَّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلَّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِلنِّقْمَةِ، وَلَا أَعْظَمَ لِتَبَعِّدِهِ، وَلَا أَخْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةِ، وَانْقِطَاعِ مُدَّةِ، مِنْ سَفْكِ الدَّمَاءِ بِغَيْرِ حَقْهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئُ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدَّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا تَنْقَوِينَ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمِ حَرَامٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضِيقُهُ وَيُوْهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ، وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمِدِ، لَأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ، وَإِنْ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطَكَ أَوْ سَيْفَكَ أَوْ يَدُكَ بِعُقُوبَةٍ، فَإِنَّ فِي الْوَكْرَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً، فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ تَحْوُةُ سُلْطَانَكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أُولَيَاءِ الْمَقْتُولِ حَتَّهُمْ» نهج البلاغة: ٤٣؛ ولا يخفى على القارئ ما في هذه الوصايا من لمسات إنسانية، هي لمسات الإسلام وتعاليمه الرحيمة.

(٢) مروج الذهب: المسعودي: ص ٨٠

لقد كانت قناعة هؤلاء أن الدين لم يكن سوى ومضة سريعة اختفت بمجرد أن أشرقت وأن لاأمل بوجود صفة مقربة من الإسلام تنظر بمقاييسه وقيمه وتصوراته، وإن الانحدار لابد أن يشمل الجميع، ليظل الإسلام مجرد أثر غابر، لم يمر بهذه الحياة إلا مروراً عابراً، وحليماً بعيد التحقيق على أرض الواقع. فإذا كان معاوية خير من بعده كما عبر عن ذلك يزيد، فإنه أراد بذلك التمهيد لقبوله هو، ذي التصرفات المكشوفة، والذي ما كان ليصل إلى مستوى معاوية المستتر المتخفي؛ لأنه لم يملك من الحصافة والدهاء وبعد النظر ما يمكنه من التظاهر بما كان يتظاهر به أبوه، أو يتعامل بحذر مثله أمام مختلف الواقع الحياتية المتنوعة، ولعل يزيد ي يريد أن يوحي هنا أنه هو أيضاً أفضل من سيجيء من بعده أيضاً. فهل كان كذلك فعلاً؟ بالنسبة للعائلة الأموية المفسخة التي تماضت في انحرافها وعبثها وابتعادها الواضح عن الإسلام، وخرقها العلني الواضح لكل ما جاء به من تشريعات وقيم ومثل؟!



## ٢ - خصائص المجتمع الإسلامي وبعض ملامحه

### عهد يزيد.. امتداد لعهد معاوية

لابد لنا - في البداية - من الإشارة إلى أن السنوات الثلاث التي حكم فيها يزيد، عقيب وفاة معاوية تشكل امتداداً زمنياً لعهد مؤسس الدولة الأموية الطويل نسبياً. ويكاد المجتمع الإسلامي أن يكون هو نفسه في نهاية عهده الأول وببداية عهده الثاني، فإذا ما تكلمنا عن الأمة الإسلامية في عهد معاوية فإننا نقصد بذلك العهدان كليهما، وكما كان المجتمع الإسلامي في عاصمة الإسلام الجديدة متاثراً بآيامه وأصاليله معاوية وتوجهاته الدنيوية البحتة، فإن يزيد نفسه كان نتاج تربية معاوية والنموذج المعد لحكم الدولة الإسلامية فيما بعد لتظل دولة إسلامية بالاسم وملكاً شخصياً معاوية وعائلته فعلاً.

و قبل الخوض بمبحث هذا الفصل نود أن نشير مسبقاً إلى أننا نتكلم هنا عن (أمة إسلامية) و (مجتمع إسلامي) لا عن مجتمع جاهلي قديم أو حديث أو أمة تتبنى خطط الطاغوت أو التصورات الأرضية البحتة والتي تخضع غالباً لمصالح الأقوياء والمتنفذين والمسيطرين فعلاً على زمام الأمور.

### إلى الجahلية من جديد

وعند دراسة خصائص هذا المجتمع، والحديث عن تطابقه مع الموصفات الإسلامية المطلوبة، ينبغي علينا وضع مقياس قائم على تصور إسلامي واضح وسليم.



فنحن لا نناقش خصائص مجتمع من المجتمعات الجاهلية القديمة - كما قلنا - ولا خصائص مجتمع دولة معاصرة قائمة على أسس مستحدثة، قد يراها (بعضنا) جديرة بأن تقوم حياتنا عليها، مبنية على تصورات (الذرائعين) أو (الاشتراكيين) أو غيرهم. كما أنها لا نناقش أمر دولة منفصلة عن الإسلام إلا في الأمور الطقوسية أو الشعائرية وحسب. وإنما نناقش أمر دولة يفترض أن هذا الدين هو المتحكم الرئيسي فيها والمسير الأول لكل شؤونها وأمورها وفعالياتها. وإن مبادئه وقيمه وتشريعاته ملزمة للحاكم مثلما هي ملزمة لكل فرد من أبناء الأمة، بل لعل التزام الحاكم بها ومدى قربه منها المقاييس الأول لصلاحيته كحاكم مؤهل على أساس الإسلام خليفة أو أميراً للمؤمنين.

#### **ماذا التساهل.. هل الأمر خاص لا يمس مصالح المسلمين؟**

لذلك فإن على الذين يتصدون لدراسة هذا الموضوع أن لا يتظاهروا بالتسامح المسبق والأريحية وعدم التصلب وادعاء التخلّي عن الجمود، والموضوعية والحياد وما أشبه من المبررات التي يضعها الباحثون قديماً وحديثاً عند التطرق إلى مسألة الحكم الأموي؛ لأن المسألة برمتها ليست مسألة خاصة بهم، كما أنها ليست مسألة خاصة بمعاوية وعائلته والملا المقربين منه، وإنما هي مسألة تخص الأمة كلها ومن حق كل فرد فيها أن يستعرض الأمر استعراضاً موضوعياً جاداً لا غلبة للعواطف فيه أو للأهواء أو النزعات الشخصية أو التعصب الأعمى الذي لا يقود إلا إلى الضلاله والخطأ.

#### **هل يحق للحاكم إبعاد الإسلام عن الحياة؟**

وإن أول سؤال نطرحه على هؤلاء الدارسين: من الذي يتمتع بحق إبعاد الأسس والمبادئ والتشريعات التي قامت عليها الدولة الإسلامية الأولى في عهد رسول الله ﷺ عن حياة المسلمين بعد حوالي نصف قرن فقط، وإرساء أسس جديدة لا علاقة لها

بتلك الأولى إلا من الناحية المظهرية الشكلية؟ وعلى أي أساس اكتسب هذا الحق؟ وهل يبرر مجرد الوثوب إلى السلطة والحكم واستلامها، قيام هذا الحاكم بنسخ ما كان قائماً قبله؟ هل هونبي جديده حتى يفعل ذلك؟ أم إنه مجرد طاغية جعل مهمته القضاء على مكتسبات الإسلام، بل على كل المكتسبات التي جاء بها كل الأنبياء وختمتهانبي الرحمة عليه السلام بدین الله القویم الذي لم يكن - بلا شك - مرسلاً للناس في زمان الرسالة وحسب، وإنما للناس كافة في كل زمان ومكان؟

أهذا ما نعلم فعلاً عن الإسلام؟ أم أن فينا من يعلم شيئاً آخر؟

#### مقاييسنا لكشف الانحراف

إن كثيراً من الباحثين لا يرون مبرراً لعرض دولة معاوية على دولة رسول الله عليه السلام لدراسة مدى صلاحيتها وتطابقها مع تلك الدولة الأولى النموذج، ويرون بما أنه لا امكانية لأحد امتلاك قدرات الرسول عليه السلام وأمكاناته الفريدة، فمن الطبيعي أن لا تقوم دولة كتلك التي أسسها وقادها الرسول عليه السلام وأرسى دعائمها وبينها، ويرون أن من الطبيعي أن تتنازل وتتأثر عمل تلك الدولة، وتبتعد عن النموذج الأول، كلما تعدد الخلفاء وبعدت الفترة الزمنية عن العهد الأول؛ فليس الأمر في عهد أبي بكر مثله في عهد الرسول عليه السلام وليس في عهد عمر مثله في عهد أبي بكر، وليس الأمر مع عثمان مثله في عهد عمر.

وهكذا فإننا لا ينبغي أن نتوقع أن يكون معاوية كعثمان أو يزيد كمعاوية..

وعلى هذا الأساس التنازلي، فإن هؤلاء الباحثين قد أوجدوا الأعذار المسيرة لانحراف مروان أو عبد الملك أو الوليد أو هشام أو غيرهم.

وهنا تكمن ملابسات وواقع تاريخية مهمة تتيح لهم أن يقولوا ما قالوه. إذ أن الأمر



كان هكذا فعلاً، فقد بدأت وتتأثر عمل الدولة الإسلامية تتنازل من ناحية المستوى (الكيفي) أو الأدائي العملي وفق الأسس الإسلامية الصحيحة.

### لماذا العد التنازلي؟

فلم يكن من جاء بعد الرسول ﷺ يحكم بنفس الأداء الرسالي الأول، ولم يكن عثمان حتى - كسلفيه -، ولم يكن معاوية مثل أسلافه ولا يزيد كمعاوية، غير أنها نتساءل: هل أن الرسول ﷺ قد خطط للدولة الإسلامية وهي نموذج كامل معد ومسدد بالإرادة الإلهية والوحي لكي تقوم في عهده فقط ثم تضمحل تدريجياً، ولا يظل منها إلا اسمها فقط بعد عدد من الحكام يأتون من بعده بشكل اعتباطي خاضع للظروف والأحداث والنزاعات الشخصية؟ أم أنه خطط لهذه الدولة لكي تنمو وتطور بعده وتتزود بالخبرات التي من شأنها أن تجعل منها الدولة العالمية الوحيدة المؤهلة لكي تسود وتحكم إلى ما لا نهاية ما دام الإسلام هو خاتم الديانات و محمد ﷺ هو خاتم الرسل؟

وإذاً فلا بد لنا من التفكير الجدي بهذه المسألة، لماذا بدأ العد التنازلي لضمور هذه الدولة بعد وفاة الرسول ﷺ؟ وهل كان السبب في ذلك يكمن في قصور هذا الدين وعدم اكتمال الرسالة؟ أو أنه يعود إلى مسألة المركز الأول - وهو مركز الخليفة - في هذه الدولة الإسلامية - منذ البداية.

لو أن من أثير حوله الخلاف - لمختلف الأسباب والدوافع - وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد أتى بعد وفاة ثلاثة من قبله - قد تبوا منصبه الذي أهل وأعد له منذ البداية. هل كانت الأمور ستستمر في هذا الهبوط إلى ذلك الحد القاتل الذي وصلت إليه في بداية الدولة الأموية وما بعدها؟

لو لم يأت في أعقاب الانحراف والفتن والخروج السافر المتعمد عن التشريعات



والمبادئ الإسلامية وفي أعقاب حكم آيل للسقوط، أما كانت وتائر عمل الدولة الإسلامية ستظل كما هي وستتصاعد وتتحسن من ناحية الأداء وبعض المظاهر الشكلية والإجرائية.

لقد أريد للقيادة المؤهلة أن تستكمل عرض الإسلام وبسطه على ساحة الحياة وإبرازه بشكل واضح انطلاقاً من شعورها العالي بالمسؤولية وتصورها وفهمها الإسلامي الصحيح في الحكم والعطاء وكل الدقائق والتفاصيل الأخرى.

### الأمة ليست قريشاً

هل مسألة الحكم الإسلامي مرهونة بقريش عموماً أو بالأنصار كونهم من أهل المدينة وأنهم من أنصار الرسول ﷺ الذين آزروه ونصروه وأعز الله بهم رسالته أو المهاجرين من أهل مكة فقط أو غيرهم؟ وهل هي مسألة لا يحق مناقشتها إلا من قبل أهل الحجاز ثم (أهل الشام) فيما بعد، أم أنها مسألة بنيت على أساس واضحة يعرفها الجميع وقد أوضحتنا في الفصل الأول من هذا الكتاب.

إنها بالتأكيد لا تخص مجموعة بعينها في زمن معين، وإنما تخص عموم المسلمين على امتداد الأزمان. فليس لجيل أن يفرض ويحكم فيها تصوراته وآرائه هو وإنما يضعها على البساط كمسألة إسلامية عامة، لا تزال نتائج التصرف السليبي فيها والآراء المتوارثة تواجهنا حتى اليوم، وتنعكس علينا هزائم وتراجعاً وتدحرجاً وضموراً، وتتيح لكل القوى المعادية طيلة ألف وأربعين عام أن تنال منا بشكل خاص ومتعمد.

وإذا ما تمت هزيمتنا وتراجعنا مع علمتنا وإدراكتنا أننا نمتلك ما نمتلك من دين عظيم مؤهل لقيادة البشرية لا قبلاً، بل اليوم وغداً وفي كل مكان أدركنا عمق الانتكاسة التي ن تعرض لها وعمق الجرح الذي أصابنا.



### لماذا نقلب صفحات التاريخ؟

قد يقول قائل: ولماذا تقليل صفحات التاريخ (القديمة) وتقليل (المراجع) معها؟ ونجيب: إننا ما دمنا نستعرض مسألة تاريخية مهمة، فإننا لابد أن نستعرض مسبباتها والأحداث المتعلقة بها. وهكذا فإننا لن نستطيع دراسة المجتمع في العصر الأموي بمعزل عن دراستنا للأحداث التي أدت إلى أن يكون هذا المجتمع كما كان عليه، ولن نستطيع أن ندرس معاوية ويزيد بمعزل عن سببها والظروف التي جاءت بهما إلى كرسي الخلافة والحكم.

ومن الطبيعي أننا لابد أن نتعرض لمسألة الخلافة منذ البداية. ومع أننا أكدنا في الفصل الأول أن هذه المسألة قد حسمت وبشأنها وأنها الآن لم تعد تشكل إلا أحد فصول الماضي، إلا أنها يجب أن نعرف هذا الفعل وأحداثه وملابساته ليتسنى لنا توخي الدقة التاريخية والموضوعية عند البحث بأمثال هذا الأمر؛ لأن الكثير من تصرفاتنا وعلاقاتنا مع بعضنا وحتى فهمنا للإسلام والحكم والخلافة وغيرها مرهون بتلك المسألة وذيوها حد الآن ومنها المسألة الطائفية والمذهبية المفتعلة والمبتكرة لتخرير الإسلام من الداخل، فليس عرض هذه المسألة هنا مما يقصد به إثارة الخلاف بأكثر مما يقصد به عرض الحقائق التاريخية وحسب، تلك الحقائق التي يغمض الكثيرون أعينهم عنها بحججة عدم جواز التعرض للشخصيات (المقدسة) بالنقد وبحججة عدم إثارة الضغائن والعداوات، فإذا ما أثيرت بهذا القصد فنحن مع هؤلاء لا نود فتح المزيد من جبهات الحرب والخصوصة مع بعضنا، غير أننا جميعاً - ولا بد أن هدفنا واحد - وهو معرفة الحقيقة والسير وفقها - توافقون لذلك، وإن كانت الحقيقة مرة أو قاسية.

**السلطة في الإسلام.. وسيلة لتحقيق عدالته**

لقد بدأ الإمام عليه السلام في نظر الكثيرين متلهفاً على كرسي الخلافة وعلى السلطة ومتشوقاً

لهم، وقد كانت بعض تصريحاته توحّي لهم بهذا أيضاً، غير أنهم متى ما نظروا إلى الأمور من الزاوية التي ينظر إليها - والتي ينبغي أن نظر نحن منها أيضاً. عندما ننظر إلى مدى شعوره العالى بالمسؤولية، وضرورة اضطلاعه بها وتنفيذ مهماته المعهود بها إليه وبالشكل الذي حدده الرسول الكريم ﷺ، ووفق عقليته وتصوره هو ﷺ، هذه العقلية وهذا التصور الذي يستوعب الإسلام بشكل واضح واستثنائي ملفت للنظر، أدركوا أن حرصه على المقام الذي أهل وأعدَ له منذ البداية، منذ أن احتضنه رسول الله ﷺ ورباه، ومنذ أن انضم إلى الإسلام قبيل بلوغه العاشرة من عمره، ومنذ أن نشأ وهو في أحضان الإسلام، لا يرى غيره أبداً ولا يتصرف إلا على أساسه، ناشئ عن شعوره الأكيد بمسؤولية القيادة التي عليه أن يكملها بعد انتهاء دور رسول الله ﷺ ووفاته وبعد أن امتلك التصور الأقرب والفهم الأقرب لتصور وفهم الرسول الكريم ﷺ. وكانت كل الدلائل والواقع تشير إلى امتلاك ذلك الذهن والتصور عن رسالة الإسلام العظيمة.

إن هذه المسألة، مسألة الخلافة، لو بحثت بشكل موضوعي حقاً، لا شأن للنزاعات أو المشاعر الشخصية بها، ونظر إليها لا على أنها مسألة فترة زمنية لمدة عشر أو عشرين سنة فحسب يجلس فيها هذا الخليفة أو ذاك على كرسي الحكم ويحكم وفق أدائه وهواء وتصوراته وفهمه عن الإسلام. ول يكن بعد ذلك الطوفان، لرأينا أننا نستطيع أن نتوصل إلى رأي حاسم موحد بشأنها.

ما فائدة أن يجلس على كرسي الخلافة شخص له تصور وفهم وسلوك ومزاج خاص، ثم يأتي بعده شخص آخر، يحمل تصوراً وفهمًا وسلوكاً ومزاجاً مغايراً، ثم يأتي بعدهما ثالث لا يماثلها، وهكذا؟

أليست هناك صيغة موحدة للحكم والعمل؟



أليس هناك تصور موحد؟

ألا يوجد تشريع واحد؟

### ماذا الاختلاف بين الحكماء؟

فلم هذا التغاير إذاً بين كل الذين حكموا الأمة الإسلامية على امتداد عهودها؟ لو كان الذين يحكمون المسلمين يحملون عقلية واحدة وتصوراً واحداً ونمطاً واحداً أو متقارباً من السلوك والشعور بالمسؤولية، يقوم على أساس الإسلام والإسلام وحده، ولا يشترط أو يبتعد عنه بأية حجة أو ذريعة، مثل الدهاء أو السياسة أو كسب الناس وتأليف قلوبهم أو استئصالهم أو توحيدهم أو غير ذلك، لرأينا نمطاً إسلامياً واحداً للحكم، نمطاً متظوراً يمكن أن يتعايش مع كل المجتمعات على مر الأزمان ليقودها على طريق الإسلام، ويتطور كل أساليب حياتها وفق متطلبات الظروف والمستجدات الحياتية وما تضنه من منجزات حضارية متعلقة بحاجة هذه المجتمعات ونموها.

كان ذلك ما يمكن أن تتحققه سلسلة الأئمة الكرام من آل بيت الرسول ﷺ، لو أنهم لم يمنعوا من حقهم الطبيعي ولم تسلب منهم تلك المكانة التي كانت تتبع لهم عرض الإسلام ونشره وإعلاء شأنه وتوسيع حدوده وترسيخه على نفس الأسس التي أقامه عليها رسول الله ﷺ.

### هل كان الإمام يطالب بحقه أم بحق الأمة؟

وهكذا رأينا السبب الذي دعا الإمام للمطالبة (بحقه)، لأنه كان بذلك يطالب (بحق) الأمة كلها في أن تحكم وفق نظرية الإسلام وتوجهاته الصحيحة وحدها وحسب. ولم يكن حق الأمة هذا مما يمكن التغريط بأي حال من الأحوال، وخصوصاً من قبل أكثرها علماً ووعياً وشعوراً بالمسؤولية، غير أن المطالبة بالحق الشرعي إذا ما سببت أذى



لعموم المسلمين وخرقاً كبيراً بينهم وفجوة لا يمكن سدها إلا بالدماء والأشلاء، دماء الأمة كلها وأسلائتها، فإنها تشكل هنا خطراً لا يمكن إثارته، ولا يمكن إلا السكوت معه، وقد سكت الإمام رسول الله متى؟ عندما كان شاباً تجيش في صدره قوة الشباب وحماسه وعنفوانه. كان أخرى به أن يثور ويعلنها حرباً منذ البداية لو كان مثل غيره لا ينظر إلا من زوايا ضيقة لا يرى معها الإسلام بوضوح، وكانت هذه شجاعة حقيقية إن سكت عن حقه المغتصب في سن لا يمكن معه غيره من السكوت والصمود أمام إغراءات السلطة والحكم، فلم يكن سكوته عن خوف، ولن يستطيع أحد منها بلغت عداوته له أن يدعى ذلك بأي حال من الأحوال.

لقد كان الإمام «يتمثل الرسالة، وكان هو الأمين الأول من قبل رسول الله عليه السلام على التجربة على استقامتها وصلابتها، وعدم تمييعها على الخط الطويل الذي سوف يعيشها المسلمون بعد النبي عليه السلام، فالعمل كان بروح الرسالة، ولم يكن بروحه هو، كان عدلاً بروح تلك الأهداف الكبيرة، ولم يكن عملاً بروح المصلحة الشخصية. لم يكن يريد أن يبني زعامة لنفسه، وإنما كان يريد أن يبني زعامة الإسلام وقيادة الإسلام في المجتمع الإسلامي، وبالتالي في مجمع البشرية على وجه الأرض»<sup>(١)</sup> قد بين هو نفسه عليه السلام السبب في تعريف الأمة بحقه بخلافة رسول الله عليه السلام «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن من مناسبة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لترد المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، فیأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك. اللهم إني أول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني إلا رسول الله عليه السلام بالصلاه، وقد علمت أنه لا يبغى أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين

(١) أهل البيت عليهم السلام تنويع أدوار ووحدة هدف: محمد باقر الصدر - محاضرات مطبوعة بالرونديو



البخيل، فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل يضلهم بجهله ولا الجافي يقطعهم بجفائه ولا الحائز للدول فيتخذ قوماً دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة»<sup>(١)</sup>

إن تصريحات الإمام عليه السلام العديدة بهذا الشأن، وموافقه جميعاً، تدل على حرصه على الإسلام ووحدة المسلمين وحسب، غير أن الإعلام الأموي الذي ركز على التقليل من شأن الإمام ع إلى حد سبه من على منابر المسلمين قرابة ألف شهر، بنفس القدر الذي ركز فيه على رفع شأن العائلة الأموية بنظر المسلمين ووضع الأحاديث الملفقة على لسان الرسول الكريم عليه السلام وتأويل النصوص القرآنية ورواية القصص المتنوعة، هذا الإعلام عمل على إبراز مسألة الخلافة مستندًا في ذلك إلى الواقع التي قامت فعلاً، وكأنها صراع على الملك بين أهل الحجاز وأهل الشام أو بينبني عبد مناف أنفسهم (آل هاشم وآل أمية) أو بين قريش نفسها، ثم بين علي ومعاوية، وأراد أن يبين أن معاوية لم يكن يقل عن علي، بل ربما يتتفوق عليه بنصرة الخليفة المقتول والمطالب بدمه.

وهنا لا نريد أن نستطرد في الحديث بعد أن تكلمنا عن هذا الموضوع، وقلنا ما لا بد من قوله وال الوقوف عند هذا الحد الذي تتطرق فيه إلى إعلام الدولة الأموية الذي تبناه معاوية بنفسه ورعاه شخصياً وأخذ زمامه بيده.

#### لماذا استمال معاوية مجتمع الشام وأعده لتنفيذ مشاريعه؟

ولا بد لنا من التأكيد على نقطة مهمة، عند الحديث عن خصائص المجتمع الإسلامي في عهد معاوية الذي افتتح به العهد الأموي الرسمي المعلن والطويل نسبياً - إذ إن الأمويين بدؤوا عهدهم، أو خططوا لذلك منذ عهد عثمان ولم يكونوا

---

(١) نهج البلاغة: ٣.

بعيدين عن السلطة كما رأينا - وهي: تركيز معاوية على مجتمع الشام بشكل استثنائي - كمجتمع صفة خاصة به - بحكم علاقته الوثيقة به قبل استلامه الحكم (كخليفة)، وتربيته على القيم والتصورات الخاصة التي أراد أن يحملها هذا المجتمع، ليكون مركزاً لضيّخها ونقلها فيما بعد إلى بقية المجتمعات الإسلامية في أقطار الإسلام الأخرى كقيم وتصورات أصلية متبناة من قبل القيادة (الإسلامية) للدولة نفسها والمتمثلة بمعاوية نفسه.

لقد نجح معاوية في توجيه المجتمع الشامي - وهو ليس مجتمعاً صغيراً، بل يحتل مساحة كبيرة في خارطة العالم الإسلامي آنذاك - كما أراد وخطط بالضبط، لسبب بسيط واضح، وهو أن هذا المجتمع قد عرف الإسلام من خلاله ومن خلال أخيه يزيد الذي كان عاملاً على الشام قبله وبعد مركز الخلافة النسبي عن الشام، وقرب هذه الأخيرة من مركز الامبراطورية البيزنطية وخضوعها لها أمداً طويلاً.

#### مملكة واسعة.. اقتطعت معاوية في عهود الخلفاء السابقين

فبعد الفتوحات الإسلامية العديدة، ومنها فتح الشام نفسها، وانشغال المسلمين بأمور الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرةً، وما رافقها من ملابسات، وامتداد رقعة العالم الإسلامي وجود الحزب الأموي أو الجبهة الأموية كقوة لها نفوذها وتأثيرها الاجتماعي والأدبي على فئات كبيرة من الناس وتأييد قريش لها، وارتفاع نغمة هذه الأخيرة ثانية وتعدد مراكز القوى فيها، كان لابد من امتصاص خطر بعض القوى التي قد تشكل خطراً لو ظلت سائبة ولم تأخذ دوراً في هذه الدولة الناشئة التي غاب عنها قائدها الأول عليه السلام. وقد رأينا كيف كان رد فعل عمر من أبي سفيان عندما أراد مبايعة الإمام ﷺ، وكيف أشار على أبي بكر أن يترك ما بيده أبي سفيان له، وهي أموال استحصلها الأخير لبيت المال، وذلك بقصد كسب وده أو ابعاد شره على الأقل. ويبدو



أن اللعبة أو المساومة لم تفت أبا سفيان، التاجر الذكي الحاذق الذي يحسب لكل شيء حسابه والذي ألف المساومة والمطاولة والذي يري من يتعامل معه أنه يقبض منه القليل منها منحه، فقد أراد حصة من هذه الغنيمة، ليس له وحده، فسمعته المكشوفة وماضيه المعروف لكل الناس، لم يكن يوهره لأي منصب في الدولة الإسلامية، وإنما لأولاده على الأقل! إذ لم يكن أحد يعرف عنهم ما عرفه عنه، وهو العدو الدائم للرسول ﷺ وللإسلام.

ليس لأحد أن يبرر وضع يزيد بن أبي سفيان واليًا على الشام من قبل أبي بكر ثم من قبل عمر وإقرار معاوية بعده من قبل عمر (الحازم الشديد) وعدم محاسبته دون عهده جميًعاً والذين كان يأخذهم على كل صغيرة وكبيرة. وقد وجد معاوية المبررات (المقنعة) لعمري دائمًا لكي يسامحه على الخروقات الكبيرة التي كان يقوم بها مثل مظاهر الفخامة والأبهة والاستئثار ببعض الأموال وصرفها بغير وجهها المطلوب، وكان إقرار عمر لمعاوية رغم خروجه المتعمد على بعض قواعد التصرف الإسلامي المطلوب وسكته عنه يتيح لعثمان فرصة التغاضي عنه نهائياً وعدم محاسبته على الإطلاق، وغض النظر لا عن الخروقات أو الخروج التمهيدي المتهيب، بل عن بعض التجاوزات الكبيرة التي أصبح يعلن عنها دون خوف أو وجل مما كانت أحد أسباب النكمة على عثمان نفسه كما رأينا؛ إذ إن معاوية شكل دولة مستقلة داخل الدولة الإسلامية ولم تكن تتبعها إلا بالاسم<sup>(١)</sup>.

(١) «مات عمر ومعاوية على دمشق والأردن، وعمير بن سعد على حمص وقنسرين، وإنما مصر قنسرين معاوية بن أبي سفيان لمن لحق به من أهل العراقين ومات يزيد بن أبي سفيان، فجعل عمر مكانه معاوية ونعته لأبي سفيان، فقال: من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين؟ قال: معاوية، قال: وصلتك رحم؛ فاجتمعت لمعاويةالأردن ودمشق، ومات عمر ومعاوية على دمشق والأردن.

لما ولـي عثمان أقر عمال عمر على الشام، فلما مات عبد الرحمن بن علقة الكتاني - وكان على فلسطين - ضم عمله إلى معاوية، ومرض عمير بن سعد في امارـة عثمان مرضًا طال به، فاستعفاه واستأذنه فإذاـن له، وضم عمله إلى معاوية، فاجتمع الشام على معاوية لستين من امارـة عثمان»



فعندهما عاتب الإمام عثمان في أمر معاوية وقال له: «ضعف ورفقت على أقربائك، قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً. فقال علي: لعمري إن رحهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم، قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولـى معاوية خلافته كلها؟ فقد ولـيـته. فقال علي: أنسـدـك الله هل تعلم أن معاوية كان أخـوـفـ من عمر من يـرـفـأـ غـلامـ عمرـ منهـ؟ قال: نـعـمـ. قال عليـ: فـإـنـ مـعـاوـيـةـ يـقـطـعـ الـأـمـورـ دـوـنـكـ وـأـنـتـ تـعـلـمـهـاـ،ـ فـيـقـولـ لـلـنـاسـ:ـ هـذـاـ أـمـرـ عـثـمـانـ،ـ فـيـلـغـكـ وـلـاـ تـغـيـرـ عـلـىـ مـعـاوـيـةـ»<sup>(١)</sup>.

وهـكـذاـ أـصـبـحـتـ الشـامـ إـقـطـاعـيـةـ لـمـعـاوـيـةـ وـآلـ أـبـيـ سـفـيـانـ تـجـاـوـرـ اـقـطـاعـيـةـ اـبـنـ عـمـهـمـ الـخـلـيـفـةـ الـمـسـتـضـعـفـ،ـ كـمـ أـسـمـاهـ بـعـدـ ذـلـكـ عـبـدـ الـمـلـكـ بـنـ مـرـوـانـ.

#### معاوية لم يكن موظفاً بل كان ملكاً

ولـمـ يـكـنـ دورـ مـعـاوـيـةـ دورـ المـوـظـفـ الـمـعـينـ الـذـيـ يـؤـدـيـ عـمـلـهـ وـيـتـلقـىـ عـلـيـهـ أـجـراـًـ.ـ إـذـاـ ماـ صـدـرـ إـلـيـهـ أـمـرـ رـئـيـسـهـ بـأـنـ يـتـرـكـ هـذـهـ الـوـظـيـفـةـ أـوـ يـتـقـلـ إـلـىـ وـظـيـفـةـ أـخـرـىـ فـإـنـهـ يـسـتـجـبـ لـذـلـكـ بـرـحـابـةـ صـدـرـ وـلـاـ يـرـىـ بـذـلـكـ أـيـ سـبـبـ لـلـمـضـايـقـةـ وـالـانـزـاعـاجـ.

إن مقاييسه الشخصية تجعله يضع نفسه فوق الجميع، حتى أولئك الذين كانوا يستخدمونه كأبي بكر وعمر نفسيهما، ولا بد أنه كان يرى نفسه متفوقاً بشكل كبير على عثمان، وإذا كان هؤلاء في قمة السلطة، فهل يسكت هذا الداهية الحاذق ولا يفكر في حصة دائمة من هذا الأمر، وبينما قرير العين في ظل من يراهم أقل كفاءة وشرفًا ومنزلة منه؟ لابد أن الأمر عكس ذلك بالضبط.

الطبرى: ج ٢ ص ٦١٩-٦١٨ وأصبحت مملكته تضم دمشق والأردن وفلسطين وحمص وقسرىن.

(١) الطبرى: ج ٢ ص ٦٥٢.



«فقد كنا، وأبوك فينا، نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازماً لنا مبروراً علينا».

وقد أفصحت رسالته التي كتبها إلى محمد بن أبي بكر عن مشاعره أفضح تعير، عندما كتب إليه هذا يوبخه على خروجه على الإمام. فقال معاوية في رسالته الجوابية: «فقد كنا، وأبوك فينا، نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازماً لنا مبروراً علينا، فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده، وأتم له ما وعده وأظهر دعوته، وأبلج حجته، وقبضه إليه صلوات الله عليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابته حقه وخالفه على أمره. على ذلك اتفقا واتسقا. ثم أنها دعوه إلى بيعتها فأبطأ عنها وتلكأ عليها، فهما به المهموم وأرادا به العظيم. ثم أنه بايع لها وسلم لها وأقاما لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضهما الله. ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديها وسار بسيرهما. أبوك مهد مهاده وبني ملكه وسادة، فإن يك ما نحن فيه صواباً فأبوك استبد به ونحن شركاؤه، ولو لا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب ولسلمنا إليه. ولكن رأينا أباك فعل ذلك من قبلنا، فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك، أو دع ذلك»<sup>(١)</sup>.

أي نفس تفصح عنه هذه الرسالة؟ إنه رأى أن الأمر منذ البداية أمر غنيمة أخذت من صاحبها غصباً، فرأى أن تكون له حصة فيها. خصوصاً وإن من حصلوا على الحصة الكبيرة لم يكونوا بنظره أعلى منه مقاماً أو أرفع شأناً. كان مثل الانحراف يريد أن يستفيد من السوابق الأولى لإبعاد أمير المؤمنين عليه السلام عن كرسى الخلافة، وقد رأى أماته سلماً فصعده، وطريقاً مهد له غيره فسلكه. فهل نعتقد أن معاوية الذي أقر عثمان تعينه ووسع حدود مملكته، يتذكر بهدوء موت هذا الخليفة الشيخ وخلو الساحة من منافسيه آخرين للإمام عليه السلام ليبتعد عن هذه الساحة نهائياً؟ هذا إذا لم يحاسبه الإمام ويطالبه

(١) مروج الذهب: ص ١٦.



بالأموال التي اختصها لنفسه وعائلته وأخذها دون وجه حق. وقد رأينا - فيما سبق - كيف أنه استثمر قتل عثمان بعد أن خذله وقعد عن نصرته في البداية، وكيف شمر عن ساعديه بعد ذلك بكل جد مطالبًا بدمه.

### ماذا لو هزمه الإمام؟

إن تمهيد معاوية للبقاء على كرسي الحكم، لم يكن ليتم بمجرد التمني أو عقد النية أو العزم على ذلك، ولا بد من خطوات إجرائية تمهيدية لا تراجع فيها في النهاية. ونعتقد أن معاوية لو لم يستتب له الأمر، وانتصر عليه الإمام عليه السلام لهرب في حماية دولة أجنبية، ولكان مع القياصرة في أغلب الظن، يمهد لهم الطريق لخروب يشنونها على الدولة الإسلامية ويكشف لهم عن عوراتها وجوانب الضعف فيها، ولكان قد ارتد إلى (دين) يحقق له بعض طموحاته وأمانيه.

وقد كانت الخيارات التي وضعها معاوية نصب عينيه لا تتضمن بأي حال من الأحوال الخضوع للإمام عليه السلام ومباعته.

### لابد من قوة عسكرية ضاربة.. أهل الشام

ولعلنا نتساءل: هل كان معاوية يستطيع مجاهدة الإمام عليه السلام بأقاربه من آل أمية وحدهم أو بقريش التي انهزمت أمامه في معركة الجمل؟ وكان معاوية يدرك أن لا بد له من قوة عسكرية تطيعه طاعة عمياء وتوئمن (بأن حقيقته) وصلاحيته مثلاً للخلافة، بل خليفة إن اقتضى الأمر. وكانت الشام تربة صالحة لبذوره، وقد أعدها بعناية فائقة وفق مخطط ماهر محكم. ولعل بعد الشام النسبي عن المدينة، مركز الدولة الإسلامية واختلاط أهلها بغير العرب، وجود الخليط غير العربي فيها، وتأخر وصول الدعوة إليها ووضع يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية على رأس السلطة فيها، شكل عاملًا مهمًا لأن



يرى أهل الشام الإسلام من خلال معاوية نفسه، الإسلام الأموي الذي لا يحمل من إسلام محمد ﷺ إلا اسمه وبعض مظاهره، أما ممارسته الواقعية، فهي تتجه إلى تركيز سلطة طاغوتية واحتكارها بيد العائلة الأموية، وعلى وجه الدقة بيد معاوية (المؤسس) بالذات أولاً تحت غطاء الشرعية الإسلامية!

إن التمهيد لتعزيز سلطة معاوية وتقويم شعبية بين أهل الشام، لابد أن يمهد له بجيش من المحدثين والقصاصين والأعون المختصين بيت الدعایات والأراجيف والأكاذيب على الطرف المقابل الذي يقف بمواجهةه ويقوده الإمام عاصفة إلى جيش من فقهاء الدولة المجندين (المشروعين) والمبررين لتصرفاته وتصرفات أعونه.

وقد رأينا كيف أن معاوية راح يمهد للدعایة عن نفسه، وكيف أبرز الأمر كله وكأنه أحد أقرب المقربين من رسول الله ﷺ وأنه أمين الله على وحيه، بل هو أحد الأمانة الثلاثة (جبرئيل ومحمد ﷺ ومعاوية)...! وكيف أن الله قد غفر له بدعة من الرسول ﷺ مما قد ذكرناه أثناء هذا الكتاب.

إن هذا التركيز على شخصيته، والذي امتد منذ ظهوره على مسرح الحكم في دمشق وحتى وفاته، كان يهدف إلى إضفاء طابع رفيع على الشخصية التي أراد لها أن تمتلك من البريق والاهمة والجلال ما يتتيح له أن يخلب به لب أولئك الشاميين المبهورين (الجهلة) إلا من (الثقافة الإسلامية المعاوية)، التي غرسها هو وسقاها ورعاها بمعرفته وفهمه وتصوراته الخاصة البعيدة عن المعرفة والفهم والتصورات الإسلامية الصحيحة التي جاء بها الرسول الكريم ﷺ. وقد رأينا كيف وظف بعض (المحدثين) واشتراهم وأفاد منهم خلال حربه مع الإمام عاصفة.

أما استقطابه (الدها) الذين مر ذكرهم، عمرو بن العاص، وزياد، والمغيرة

وأضراهم من ذوي الحيلة والمكر، فقد كان يتح له تحقيق أغراضه مع مجتمع الشام الذي رياه ورعاه هو بنفسه.

### رأوا الإسلام بعيوني معاوية

ولو فرضنا أن معاوية كان منذ مطلع عهده يحكم مجتمع المدينة أو مكة بدلاً من مجتمع الشام، فإنه ما كان ليجد في هؤلاء المحدثين والفقهاء ورواة الأخبار والدهاء والمكررة أية فائدة. إذ ما كانت تنطلي على هذا المجتمع الذي عاصر رسول الله ﷺ وعاش في ظله وفهم الإسلام عنه، ولعاد معاوية خاسراً بكل جيشه المسخر هذا، لكنه مع مجتمع الشام نجح إلى حد بعيد في التمهيد لإرساء تصوراته وآرائه والتمهيد لبقاءه وبقاء سلالته من بعده على سدة الحكم عندما استعان بهؤلاء المأجورين الذين كان لبعضهم بعض التأثير بحكم معاصرتهم لعهد الرسول ﷺ وكانت مجموعة المنافقين هؤلاء هي التي وصفها الإمام رحمه الله خير وصف بقوله: «رجل منافق مظهر للإيان، متصنع بالإسلام، لا يتأنش ولا يتحرج، يكذب على رسول الله صلوات الله عليه وسلم متعمداً، فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه، ولم يصدقوا قوله، ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله صلوات الله عليه وسلم رآه وسمع عنه،... فلأنخذون بقوله، وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده، فتقربوا إلى أئمة الضلالة، والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكامًا على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا، إلا من عصم الله، ولقد كذب على رسول الله صلوات الله عليه وسلم في عهده حتى قام خطيباً فقال: «من كذب على متعمداً فليتبواً مقعده من النار»<sup>(١)</sup>.

وقد رأينا كيف أنه أمدتهم بكل ما كانوا يطمحون إليه من مال وجاه في سبيل تجنيدهم لهذه الغاية. لقد كان معاوية مراقباً حذراً ومستطلعاً ماهراً لكل تحركات

---

(١) نهج البلاغة: ص ٣٢٥-٣٢٦.



الأعداء، فلم يكن يترجح أن يواجهه بعض هؤلاء بمثالبه ونقاشه، بل كان يضحك ويفتخر بسكته وحلمه عليهم، وربما كان يريد أن يعرف مدى ما أحرز من نجاح ويعرف نقاط الضعف عند أعدائه، وهل لا يزالون على ولائهم القديم للإمام عليه السلام وهل لا يزالون يعتقدون عليه هو شخصياً، ليعمل حسابه في المستقبل بعد جس نبض هؤلاء الأعداء؟ وكتب التاريخ حافلة بالنصوص التي تذكر لنا ذلك متعجبة من حلمه وسعة صدره ودهائه!

لم يكن معاوية بالإنسان البسيط الساذج الذي يأخذ الأمور على علاتها، ولم يكن بالإنسان المستقيم الذي لا يرى أمامه سوى شريعة الله، وإنما كان إنساناً دنيوياً بكل معنى الكلمة، لا يمت إلى قيم الإسلام إلا بالقدر الذي يحقق فيه مصالحة عن هذا الطريق.

#### **في عهد الدولة الأموية؛ لم يبق من الإسلام إلا اسمه**

وهكذا فإن هذا الإسلام الأموي الذي يتطابق مع نماذج (مستحدثة) مشابهة نشهدها الآن، لا يحمل من الإسلام إلا اسمه. وإن لم تبلغ الجرأة بمعاوية ليخرج عن الإسلام بشكل سافر كما يخرج عليه كثيرون اليوم بكل جرأة ووقاحة، مع أنهم يحكمون باسمه ويدّعون تمعتهم بسلطات إلهية مطلقة. فما ذلك إلا لخوفه من الاسفار عن وجهه بشكل تام، قد يثير حفيظة الناس كلهم، حتى أهل الشام أنفسهم، وهكذا كانت درجة الانحراف قليلة بالقياس إلى ما هي عليه اليوم، غير أنها واسعة جداً بالنسبة إلى حكومة الرسول صلوات الله عليه وآله وسالم وتکاد تقترب من الدرجة التي سبقتها في عهد عثمان.

لقد كان عهد عثمان تمهيداً لمعاوية، وكان عهد معاوية تمهيداً لزيد وما بعده.

وكان العهد الأموي برمه تمهيداً لكل ما نشهد من انحراف واسع، شمل كل أقطار الإسلام في مختلف الأزمنة.



## تمهيد للعد التنازلي وقبول أمثال يزيد حكامًا وقادة

## (مقولات مدرورة)

لقد جاء في آخر خطبة خطبها معاوية قوله: «إني ولি�كم أحد بعدي خير مني، وإنما وليلكم من هو شر مني، كما كان من وليلكم خيراً مني»<sup>(١)</sup> فهو هنا يمهّد ليزيد، فهو يقول. إن عليكم أن تقبلوا واقعكم، وعليكم أن لا تتخلوا عن سبّيجه من بعدي وإن كان شراً مني، وهكذا فإنه أعد حجة سيردادها (الخلفاء) من بعده إذا ما فكر أحد هم بالخروج على هؤلاء الخلفاء أو الاعتراض على أشكال سلوكهم.

وهكذا كانت خطبة يزيد بعد وفاة معاوية نسخة مكررة منها وقد جاء فيها: «إن معاوية بن أبي سفيان كان حبلاً من حبال الله، مده ما شاء أن يمدّه، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه، وكان دون من قبله وخيراً من يأتي بعده، ولا أزكيه وقد صار إلى ربه فإن يعف عنه فبرحمة وإن يعذبه فبذنبه، وقد وليت الأمر بعده، ولست أعتذر عن جهل ولا أني عن طلب، وعلى رسليكم، إذا كره الله شيئاً غيره، وإذا أراد شيئاً يسره»<sup>(٢)</sup>.

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٤.

(٢) وقد أورد ابن كثير الخطبة بشكل مختلف عن هذا حيث ورد فيها «أن معاوية كان عبداً من عبيد الله، أنعم الله عليه، ثم قبضه إليه، وهو خير من بعده ودون من قبله، ولا أزكيه على الله عز وجل، فإنه أعلم به. إن عفى عنه فبرحمة وإن عاقبه بذنبه. وقد وليت الأمر من بعده، ولست آسي على طلب ولا أعتذر من تفريط. وإذا أراد الله شيئاً كان... ثم قال: وإن معاوية كان يغزيكم في البحر وإنك لست حاملاً أحداً من المسلمين في البحر، وإن معاوية كان يشتيكم بأرض الروم ولست مشتياً أحداً بأرض الروم وإن معاوية يخرج لكم العطاء ثلاثة وأنا أجمعه لكم كله». البداية والنهاية: ج ٧ ص ١٤٦ فهو يعتبر الخلافة مجرد فضل يؤتى به من يشاء.

ثم هو هنا يحاول رشوة الناس وإبعادهم بالدعة والراحة وعدم غزو الأعداء أو التصدي لهم، وذلك لكي يقبلوه على علاته، ولا يتساءلوا عن جوانب سلوكه وتصرفاته المخزية المفضوحة.. وجهله الذي لم يتمكن من ستره وإخفائه.

(٣) العقد الفريد: ج ٥ ص ١١٦.



ولمعاوية نادرة طريفة هنا مع يزيد، ترويها لنا كتب التاريخ. فقد قال معاوية ليزيد: «كيف ترك فاعلاً إن وليت؟ قال: كنت والله يا أبة عاماً فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله يابني. والله لقد جهدت على سيرة عثمان بن عفان، فما أطقتها، فكيف بك وسيرة عمر؟!».<sup>(١)</sup>

لقد كان معاوية يدرك أنه يسير بزاوية انحراف، لابد أن تنفرج في النهاية عن المزيد. وقد سخر من يزيد حينما قال بأنه سيعمل بسيرة عمر - هذا إذا كانت الرواية صحيحة، ورأى أن يزيد ما كان ليستطيع أن يبلغ فابلغه هو، بل أنه سينحدر وسيحرف كثيراً. إن كل انحراف كان يمهد لأنحراف أوسع بعده، فكان الأمر كان متعمداً للخروج بشكل سافر عن الإسلام.

كان معاوية يمهد لتقدير هذا الانحراف، بل وتبنيه على أنه هو القاعدة. كما كان يمهد لاقتران الخلافة بشخصه وأشخاص أبنائه من بعده. وقد كان ذلك يبدو بشكل واضح، ولم يكن الإسلام صالح له إلا بالقدر الذي يحقق مصالح (سلالة الخلفاء) هذه التي امتدت بعدها سلالات وسلالات، نهت نفس المنهج واتبعت نفس الخطى.

وهكذا نشأت دولة طاغوتية فرعونية لا تمت للإسلام بصلة إلا كما تمت العديد من الدول التي تدين بالإسلام ديناً رسمياً، لكنها لا تجعل منه سوى ستار لأغراضها وبرايجها البعيدة عنه بعداً كلياً.

لقد عرف العلامة أبو جرير الطبراني الطاغوت بقوله «هو كل طغيان على الله، فبعد من دونه، أما بقهر منه لمن عبده، وأما بطاعة من عبده له، إنساناً كان ذلك المعبد أو

---

(١) البداية والنهاية: ج ٧ ص ٢٣٣.



شيطاناً أو وثناً أو صنناً أو كائناً ما كان من شيء<sup>(١)</sup>.

### الخزانة الذهبية والقفاز الفولاذي

وكانت الخزانة الأموية مفتوحة أمام أولئك الذين جعلوا من معاویة قضية تهم جماهير المسلمين في الشام، وكان السخاء يبدو هو الطابع الواضح لمن يريد أن يخوض الميدان في خدمة الدولة الأموية (المتساححة) في أمور الدين، والتي واجهت الحزم العلوي والدقة في صرف الأموال في عهد الإمام عليه السلام، وهو أمر سَهَّل مهمته معاویة إلى حد بعيد وأكَدَ (واقعيته) الأرضية البحتة ونظرته الدنيوية الضيقة التي لم ترتفع يوماً إلى آفاق السماء، حتى اعتمدَه أساساً لما سيأتي بعده من عهود.

ومتى ما أضفنا إلى ذلك سياسة القفاز الفولاذي المبطن بالحرير، التي اتبعها معاویة مع خصومه والتي لم يبذل أي جهد لإخفائها، وبرزت بشكلها الدموي المرعب في عهد يزيد، وخصوصاً في واقعتي الطف والحرقة، أدركنا أن معاویة كان يستعمل كل الأساليب المتاحة لفرض سيطرة الإسلام الأموي بدلاً عن الإسلام الإلهي المحمدي، وإتاحة الفرصة لظهور كسروية أو قيسارية أو هرقلية جديدة أمام الأمة، التي أريد لها أن تتنازل عن وجودها القائم على أساس الإسلام.

«لقد حول معاویة شكل الحكومة الإسلامية إلى حکومة شخصية استبدادية، جعلت مصالح الأمة كالمال، يرثه الأقرب فالأقرب إلى المالك، وإن كرهت الأمة كلها. فكان هذا أصل جميع مصائب الأمة الإسلامية»<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير أبي جرير الطبراني: م ٣ ص ١٩: ط ٣ - ١٩٦٨ - مكتبة البابي الحلبي بمصر.

(٢) تفسير المنار: الشيخ رشید رضا: ج ١٢ م ٩٩٥ ص ١٢.



### تنازل الأمة عن كيانها جعلها تتقبل معاوية وأمثاله

إن عمل معاوية هذا جرى بشكل علني صريح. وبعد أن كان يعلن أن الشام حصته، أصبح يرى أن كل شيء له، وقد استدرج الأمة إلى ذلك، حين عمل على سلخها من شخصيتها الإسلامية الواضحة، وأصبح الإسلام شبحًا باهتًا في تصورها وذاكرتها، بعد أن نجحت مؤامرتها الخبيثة لإرجاعها إلى الجاهلية التي لم تكن قد انزاحت بعد عن وجودها وحياتها. وتنازلت عن كيانتها الإسلامي الصافي. «عملية التنازل عن الوجود، كان يمثلها معاوية بن أبي سفيان، وجذور معاوية في تاريخ الإسلام، هذا الذي عبر عنه وقتئذ بأنه أصبح هرقلية وكسرؤية. الهرقلية والكسرؤية كان يمكنها عن تنازل الأمة عن وجودها، يعني تحولت التجربة الإسلامية من أمة تحمل رسالة إلى ملك وسلطان يحمل هذه الرسالة بمستوى وعيه لهذه الرسالة، وإخلاصه لهذه الرسالة سلباً وإنجاباً. هذه المؤامرة الكبيرة التي نجحت بعد هذا، والتي توجت بكل المأساة والمحن والكوارث التي كانت ولا تزال إلى يومنا هذا، هي نتيجة تنازل الأمة عن وجودها، نتيجة خداع الأمة وتجيئها أو الضغط عليها حتى تنازلت عن وجودها في عقد لا يقبل الفسخ»<sup>(١)</sup>.

### نتائج التنازل

وقد أدى تنازلها إلى تفتيتها وتشتيت شمل أبنائها من أبناء مجتمع واحد يجمعهم انتهاء واحد إلى مجتمعات متفرقة شامية وحجازية وعراقية ومصرية، قرشية وغير قرشية، عربية وغير عربية، لكل منها ملامح ومقومات خاصة، وبينها حواجز عديدة من العصبيات والميول والأهواء، ولا تقاد الرابطة الإسلامية تجمع بينها وتوحدها بقدر ما تجمع بينها القوة الغاشمة المتسسلطة والتي تلبس رداء الخلافة البراق، والحاكمة باسم الله حكمًا مطلقاً مستبداً تبدو فيه نزوات الحاكم ورغباته فقط، مستبعدة القوة العليا

(١) أهل البيت: السيد محمد باقر الصدر: ص ١٢.

التي تدعي أنها تحكم باسمها، وهي الله سبحانه وتعالى، والبرامج الحياتية المتكاملة التي أنزلها على رسوله الكريم، ممثلة بالإسلام، والتي لا ينبغي عليها أن تخرج عنها بأي حال من الأحوال تحت أية ذريعة أو حجة. وإنما تكون بذلك قد أبطلت كل مبررات وجودها وشرعيتها، غير أن تحدي هذه الدولة الأممية للتشريعات الإسلامية الأساسية مع أدائها وإصرارها على أنها تحكم باسم الإسلام وأنها الممثل الشرعي وال الخليفة المقبول للرسول ﷺ وأنها القيادة المؤهلة لحكم هذه الأرض بشكل أكبر نقض للإسلام وأكبر تحد بوجهه؛ لأنها في الوقت الذي تجرده فيه من عناصر القوة والبقاء والديمومة، فإنها تحرض على رفعه كقوة دعائية لا يزال لها بعض النفوذ المعنوي على النفوس. وبكلمة فإن الدولة الأممية أرادت أن تثبت أن دينها الذي أوجده بديلاً عن الإسلام هو المؤهل لقيادة الحياة، وإن الإسلام الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ يفتقر إلى المؤهلات العملية وإلى الواقعية التي زعمت أنها قد دعمت به الدين وقوته. مع أنها دقت بذلك إسفيناً لقتله وقبره.

#### الدولة الأممية مهدت للدول (العلمانية) <sup>(١)</sup> وسبقتها بأكثر من ألف عام

وقد سبقت الدول الأممية الدولة العلمانية الحديثة المبهورة بالأفكار المستحدثة التي جاءت رد فعل على تقاطع الدين المسيحي مع الحياة الواقعية وعدم قدرته على إدارتها، والتي استبعدت الدين عن الحياة وجعلت دوره هامشياً. وقللتها في ذلك دول (علمانية) جعلت دور الإسلام هامشياً أيضاً، وجعلت من ممارساته الطقوسية والشعائرية أمراً مقبولاً ما دام لا يتعارض مع (الحياة)، الحياة الأرضية البحتة، التي لا

(١) لا نقصد بها الدول التي ادعت اللجوء إلى (العلم) بدل (الدين) في أوروبا وغيرها وإنما الدول التي استبعدت الدين بذرائع مختلفة وادعت العلمنة لتبرير ذلك مع أنها لا تعرف العلم ولا هم يحزنون.



تنتظم على أساس استخلاف الإنسان على الأرض من قبل الله تعالى، أو على أساس قيام الخلافة أو الحكم على نهج رسول الله عليه السلام الذي أنزلت عليه خاتمة الديانات. وإنما على أساس مصالح القيادات الحاكمة التي لا ترى إلا ترسيخ مصالحها على المدى الذي يلوح أمامها، ولعل احتكاك معاوية بالدولة النصرانية المجاورة جعلته يرمي أسلوبها القائم على إعطاء ما لقىصر لقيصر وما لله لله، باعجاب وانبهار أكثر مما كان يبدو عليه وهو يرمي الإسلام (الدين الذي يفترض أن يكون متمنياً إليه، بل ويحكم باسمه). فهو إذا ما طبق كما جاء به الرسول الكريم عليه السلام لا يمكن أن يحقق امتيازات استثنائية له أو لأمثاله.

وطبيعي أن هذه الخطوة - خطوة استبعاد الدين الإسلامي بشكل فعلي عن الحياة، لا تتم بمجرد التبني من قبل أية قيادة مستترة بالإسلام، بل لابد من اتخاذ إجراءات عملية مناسبة، في مقدمتها ترويض كل أولئك الذين يعارضونها ويرون فيها خروجاً سافراً عن الإسلام، وإذا اقتضى الأمر فاستصالم و القضاء عليهم.

وعملية الترويض هذه، لابد لها من إجراءات معقدة تتم في وقت واحد وبشكل سريع أيضاً؛ إذ إن أول الحكماء الأمويين (معاوية) رأى أنه لابد أن ينجز هذه المهمة خلال حياته، وقبل أن ينتقل منها؛ لأنه يريد أن يوظف خبراته وخبرات أعضاء القيادة الأموية المتمثلة (بالدهاء) الذين تحدثنا عنهم والقادة العسكريين وأبناء العائلة الأموية وأحلافهم وأعوانهم وعساكرهم ومرتزقهم وجيوش المحدثين والقصاصين والمفسرين والسبابين والمرجفين وغيرهم.

**رصيد الأباء من (الدهاء) و (الحكمة).** لا يتمتع به الآباء فقد أدركوا معاوية أنه يتمتع بقدرات استثنائية لا يتمتع بها بزيد المنصرف إلى الله

والشراب والعبث. ومهمها حاول أن يستثير ابنه الخامل البطال ليتولى قسمًا من مسؤوليات الدولة في حياته، فإنه أدرك في النهاية أن لا فائدة من ذلك وأن عليه أن يمهد له الأمر لتنقله الأمة كما هو، وسيكون رداء الخلافة الذي سيلبسه والمؤسسة الأخطبوطية المعقدة التي سينشئها لحياته ودعمه هي الضمانة لبقاءه على كرسي الحكم وضمان بقاء وامتداد السلالة الأموية فيما بعد وسلطتها إلى أمد غير محدود، فربما سيكون يزيد بعد تخلفه الآن أكثر إدراكاً للمسؤولية عندما يتجاوز مرحلة الشباب الحافلة بالاندفاعات والتزوات.

على طريق الاعداد للحكم، تحسين الصورة، دعوة يزيد للصلوة...

وقد رأينا أن طبيعة وصايا معاوية ليزيد في هذا المجال لم تكن تهدف إلا لتحسين صورته في نظر الناس باعتباره قائدهم وخليفتهم المرتقب؛ فهو لم يحاول منعه عن الشراب مثلاً إلا لأن ذلك يفتح عليه عيون الناس ويدركون أي خليفة ماجن خليع يقف على رأس مسؤولي الدولة الإسلامية الكبيرة، لا لأن الخمر رجس من عمل الشيطان وأنه محرم عليه كمسلم ينبغي عليه الالتزام بدينه. وقد دعاه إلى إقامة الصلاة أمام الناس والظهور بالمحافظة عليها؛ لأن ذلك يعزز من مركزه ويقربه من الأمة متى ما علمت أنه ملتزم بها، ولم يؤكّد عليه لاقامتها لأنها فرض واجب من الله وأنه إذا ما أبطلها فكل عمل له باطل.

«وأحضر الصلاة. فإنك إذا فعلت ما أوصيتك به، عرف الناس لك حبك وعظمت مملكتك وعظمت في أعين الناس»<sup>(١)</sup>.

لقد أراد استثمار الاداءات الطقوسية الظاهرية وتوظيفها لأجل أن يتقرب ويقرب ابنه بها من الناس، ليزداد في أعينهم حباً، لا لأنها فريضة مكتوبة يعلن بها الإنسان ولاءه

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٣١.



وخصوصه المطلق لله. وقد لجأ إليها كأسلوب دعائي مألف يبين فيه أن الخليفة المرتقب ليس كما يصوره بعض الناس، وهو حتى وإن كان معروفاً بشذوذه ومجونه، فإن الأمل فيه يجب أن لا يفقد نهائياً؛ لأنه لا يزال يحضر الصلاة ويؤديها مع الناس، وهذه الخطوة لابد أن تتبعها خطوات أخرى. وإذاً فإن على الأمة أن ترى فيه أملها الوحيد المرتقب وخليفتها القادم ولا تفكر بالخروج عليه أو عصيان أوامرها<sup>(١)</sup>.

### الأطراف الأربع للاستخلاف

إن الإخلال بالصيغة الرباعية للاستخلاف - كما ذكرناها في الفصل الأول من هذا الكتاب، وكما أوضحتها الشهيد الصدر في كتابه (المدرسة القرآنية)، تشكل استبعاداً لكل هذه المعادلة السماوية من الأساس، بل إلغاء لوجودها، ولا بأس أن نعيد ما طرحته بهذا الخصوص لاستكمال الفائدة وتوضيح الصورة. (الاستخلاف هو العلاقة الاجتماعية من زاوية نظر القرآن الكريم، والاستخلاف عند التحليل نجد أنه ذو أربعة أطراف؛ لأن الاستخلاف يفترض مستخلفاً أيضاً. لابد من مستخلف ومستخلف عليه

(١) ولا نرى بأساً هنا من إبراد بعض وصايا أمير المؤمنين عليه السلام ونداءاته للحث على الصلاة والالتزام بها «صل الصلاة لوقتها المؤقت لها، ولا تتعجل وقها لفراغ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال». واعلم أن كل شيء من عملك تبع لصلاتك» من وصية له لمحمد بن أبي بكر حين ولاد مصر، نهج البلاغة: ص ٣٨٤ - ٣٨٥ «والله في الصلاة فإنما عمود دينكم. والله في بيته ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تنتظروا» من وصية له للحسن والحسين عليهما السلام عندما ضربه ابن ملجم، نهج البلاغة: ص ٤٢٢ ، «وليكن في خاصية ما تخلص به الله دينك: إقامة فرائضه التي هي له خاصة. فاعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووف ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثولم ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ ..»، نهج البلاغة: ص ٤٤٠ من وصيته عليه السلام - للأشر. «الفرائض أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة..» من خطبة له عليه السلام - الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٨٤ «الصلاحة قربان كل تقى» نهج البلاغة ص ٩٤ وقد وردت نصوص كثيرة بهذا المعنى، إلا أن الذي يدل على أهميتها حرص أمير المؤمنين بشكل فعلي وعلني على إقامة الصلاة في وقتها حتى زمن الحرب والاشتباك مع العدو، وكما فعل بعده الحسين عليه السلام في واقعة الطف كما سنبين ذلك في حينه بعون الله.

ومستخلف. فهناك إضافة إلى الإنسان وأخيه الإنسان والطبيعة، يوجد طرف رابع في طبيعة وتكون علاقة الاستخلاف، وهو المستخلف إذ لا استخلاف بدون مستخلف. فالمستخلف هو الله سبحانه وتعالى. والمستخلف هو الإنسان وأخوه الإنسان، أي الإنسانية ككل - الجماعة البشرية - والمستخلف عليه هو الأرض وما عليها ومن عليها. فالعلاقة الاجتماعية ضمن صيغة الاستخلاف تكون ذات أطراف أربعة، وهذه الصيغة ترتبط بوجهة نظر معينة نحو الحياة والكون بوجهة نظر قائمة بأنه لا سيد ولا مالك ولا إله للكون والحياة إلا الله سبحانه وتعالى، وإن دور الإنسان في ممارسة حياته إنما هو دور الاستخلاف والاستئام، وأي علاقة تنشأ بين الإنسان والطبيعة فهي في جوهرها ليست علاقة مالك بمملوك وإنما هي علاقة أمين علىأمانة استؤمن عليها. وأي علاقة تنشأ بين الإنسان وأخيه الإنسان مهمًا كان المركز الاجتماعي لهذا أو لذاك، فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الإنسان أو ذاك مؤدياً لواجبه، وليس علاقة سيادة أو الوهية أو مالكية<sup>(١)</sup>.

### محاولة إلغاء المستخلف

ومهما قيل من تبريرات لإلغاء النظرية الإسلامية الواقعية الجدية بخصوص الاستخلاف أو إلغاء البعد الرابع، وهو (المستخلف)، الله عز وجل، والتذرع بغلبة الظروف التي تمر (الدولة الإسلامية) وموجبات السياسة والحكم والعصبية<sup>(٢)</sup>، وجمع

(١) المدرسة القرآنية: ١٢٨-١٢٩.

(٢) كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته «الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة» ص ١٧٤ «إن صاحب الدولة إنما يتم أمره بقومه، فهم عصابته وظهراؤه على شأنه وفهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم يقلد أعمال ملكته ووزارة دولته وجيابية أمواله، لأنهم أعوانه على الغلب وشراكاؤه في الأمر..» ص ٢٠٢ «واعتبر في ذلك دولة بنى أمية كيف كانوا إنما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم ب الرجال العرب مثل عمر بن سعد بن أبي



شمل الأمة وعدم فسح المجال (للأعداء) والكفار! وغيرهم للتدخل في شؤون الدولة أو شن حرب عليها. ولاحظ كيفية تبرير ابن خلدون لوجود الدولة الأموية بالشكل المغاير لدولة رسول الله ﷺ واستئثارها بكل المكتسبات التي حققها المسلمون بدمائهم وتصحياتهم ووصفه أمر خروج معاوية على الإمام ﷺ بأنه مجرد فتنة وأن معاوية لم يكن خطئاً، وأنه من الأمور الطبيعية أن يكون شكل الحكومة الإسلامية بالشكل الذي كان عليه أيام معاوية كأنه سنة إلهية وأمر محتوم. «ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية، وهي مقتضى العصبية، كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإثمار باطل ولا استشعار حقد كما قد يتوهّم متوجهون وينزع إليه ملحد، وإنما اختلف اجتهدتهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه، وإن كان المصيب عليه، فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل، إنما قصد الحق وأخطأ، والكل كانوا في مقصدهم على حق، ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به، ولم يكن معاوية أن يدفع عن نفسه وقومه، فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتداء الحق من أتباعهم فاعصوصبوا عليه واستئتوا دونه، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم

وقادص وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان! والحجاج بن يوسف..» ص ٢٠٣ «إنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجهني الأموال ويعيث البعوث ويحمي الشغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة. فحقيقة السلطان أنه المالك للرعاية القائم في أمرورهم عليهم» ص ٢٠٨ «اشترط الشارع في الحاكم قلة الإفراط في الذكاء ومخذذه من قصة زياد بن (أبي سفيان)! لما عزله عمر عن العراق وقال له:... كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس.

فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكييس مثل زياد بن أبي سفيان! وعمرو بن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملامة..» ص ٢٠٩ . «إقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل إلا بالعصبية والشوكة والعصبية مقتضية بطبعها للملك فيحمل الملك وإن لم ينصب أمام» ص ٢١٣ .. فلاحظ هذا الكلام وأمثاله ولاحظ أننا نتكلم عن دولة إسلامية.

في الانفراد بالأمر لوقوع في افتراق الكلمة التي كان جَعَها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة.

وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسلیم الأمر إلى من سواهم فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه من أن ظنهم به كان صالحاً ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره، فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا الله معاوية من ذلك. وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكاً لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغى إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلّا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصود»<sup>(١)</sup>.

#### لغاء الشرعية الإسلامية لتمرير (الشرعية) الأموية

مهما قيل من تبريرات لإلغاء النظرية الإسلامية، فإنها تبدو هزيلة أمام منطق الإسلام لفرض وجوده الحي العملي المعاش، ولا يكاد أي منتسب لهذا الدين يجد مبرراً للغاء النظرية الإلهية واستبدالها بنظريات وأراء شخصية مهمتها تكريس الحكم لشخص واحد أو عائلة واحدة من هذه الأمة بحججة الظروف الاستثنائية والضرورة الالازمة كما رأينا قبل قليل من مفكر كبير مثل ابن خلدون تعتمد آراؤه وأفكاره لدى فئات عديدة من المسلمين وقد تؤخذ كأنها من المسلمات لدى البعض.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٧-٢٢٨: فلاحظ ما في هذا الكلام من مغالطات. وكان ابن خلدون يتتحدث عن دولة للفرس أو الروم. ولا ندرى كيف علم بنويا معاوية التي لم يحاول هو نفسه إخفاءها وأعلنها للناس صراحة. ولا ندرى أيضاً لم هذا الحماس في تبرير موافقه وأخطائه التي ألحقت أكبر نكسة بال المسلمين لا نزال نعيش آثارها إلى اليوم. هل كان ابن خلدون يدرك أنه يتتحدث عن دولة إسلامية ينبغي أن تكون مقتدية بدولة رسول الله ﷺ نفسه. ويتحدث عن خليفة يفترض منه أن يكون مقتدياً بالرسول الكريم ﷺ.



إن هذه الظروف والضرورات منها بلغت لا يمكن أن تبرر إلغاء الشرعية الإسلامية المنزلة؛ حيث إن من شأن ذلك نقض الأمانة التي تشكل الوجه التقليبي للخلافة، بوجه عام من قبل الإنسان، لتولي هذه المسؤولية التي عهد الله سبحانه وتعالى بها إليه وفق شروط معينة حددتها بشرع وقوانين سماوية اكتملت واتسقت وانتهت بالإسلام، لتكون خلافة الإنسان على الأرض والناس والطبيعة تقبل العمل بهذه الشريعة وتطبيقها كمسؤولية لا كمنحة أو هبة خاصة كما يحاول قطب النظام الأول معاوية أن يردهه وردهه من بعده آخرون حيث نسمع أقوالاً من قبيل: «هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر وقد ملك فرعون أهل مصر أربعين سنة وكذلك غيره من الكفار»<sup>(١)</sup> جاء ذلك في كلام لعائشة جواباً على من قال أمامها: ألا تعجبين لرجل من الطلاقه ينزع أصحاب رسول الله ﷺ في الخلافة؟ وقد قال معاوية لأهل الكوفة بعيد صلح الحسن «ما قاتلتكم تصوّموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأنّكم علىكم فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون»<sup>(٢)</sup>. فمعاوية هنا يعتبر الأمر وكأنه عطية أو هبة خاصة من الله.

وقول يزيد بعد موت معاوية: «إن معاوية كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه»<sup>(٣)</sup>.

### خلافة أم عبّث؟

كان معاوية أول من أعلن تخليه عن أي التزام إلهي بخصوص منصب الخلافة، فهي مجرد منحة أو نعمة أنعمها الله عليه دون الآخرين وبرغمهم، كما أنه قد أعلن أيضاً

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٣٤.

(٢) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٣٤.

(٣) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٣٧.



«أنا أول الملوك وآخر خليفة»<sup>(١)</sup> فكأنه هنا يقول: وداعاً للخلافة ووداعاً للإسلام، بدأ بي عهد الملكية المطلقة، ولست ملزماً بأي عقد إلهي. إنه بذلك كما أوضحتنا يمهد ليزيد وأولاد يزيد وأحفاده لكي يستلموا السلطة دون أن يضعوا في أذهانهم أي اعتبار لأي عقد ملزم لخليفة الله وخليفة رسوله، بل خاتم رسليه عليه السلام على هذه الأرض.

ولا يحسين أحد أن معاوية يبغيه بغير كلامه وأقواله هكذا جزاها، فهو ليس شخصاً عادياً غبياً بل أنه يتمتع بسميات كبيرة وقدرات استثنائية. غير أنه، إذا ما أردنا أن نقلل من شأن جرائمها وانحداره «ابتي بحب الدنيا»<sup>(٢)</sup> على حد تعبير الفضيل بن عياض.

فمعاوية هنا ينصب نفسه ( الخليفة ) ، لا وفق الشرط الإلهي والتصور الإسلامي وإنما وفق تصور شخصي ذاتي مبتكر قائم على مصلحته ومصلحة عائلته. وكان بذلك متخدلاً إلهه هوه ورغباته ونزعاته الخاصة نابذاً وتاركاً كل ما أنزل الله. كما أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة إشارة عجيبة دقيقة بأسلوب متسائل متنكر: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهًا هُوَاهُ أَفَإِنَّتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾<sup>(٣)</sup>.

لا مكان إلا للهوى والمصالح الشخصية ولا شك أن هذه المعايير والمقاييس والموازين قد وضعت وأنزلت بتنسيق تام دقيق لتنظيم حياة الإنسان على الأرض، وليس هناك إلا معنى واحد للخروج عليها، وهو اتباع الهوى الطاغي في كل شيء، ونسيان كل ما عداه، فهو وحده المتحكم والسيطر والموجه. وإذا ما بلغ هذه الحالة فإنه يخرج عن نطاق الإنسانية الملزمة المقيدة بالأنظمة والقوانين، الإنسانية المتأملة المتبدلة الوعائية المدركة، ويترسخ إلى درك الأنعام التي لا تفقه شيئاً ولا تعقل ولا تفكر ﴿أَمَّ

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٤.

(٢) في ظلال القرآن: م ٥، ص ٢٥٦٦.

(٣) الفرقان: ٤٣.



تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَصْلُ سَبِيلًا<sup>(١)</sup>؛ لأنَّ الأَنْعَامِ رِبَّا كَانَتْ تَعْمَلُ بِوَحْيِ الْغَرِيزَةِ الَّتِي تَجْعَلُهَا لَا تَخْطُئُ أَحَدًا، أَمَّا الإِنْسَانُ فِي خَطْبَتِهِ الْمَتَعْمَدُ وَوَضْعُهُ كُلُّ الْمَوَازِينِ وَالْمَقَايِيسِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَنْزَلَةُ الْوَاضِحةُ الْمَبِينَ جَانِبًا، فَإِنَّهُ يَضْلُلُ وَيَنْحَرِفُ وَيَضْعُ وَيَضْيَعُ غَيْرَهُ، فَكَانَ أَصْلُ سَبِيلِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ وَلَا تَعْقِلُ.

هذا هو حال الفرد عندما يحكم هواه ويجعله إلهه، وهذا هو حال المجتمع أيضًا عندما يحكم هذا الهوى، يصبح كقطيع من الأَنْعَامِ لَا يَعْرِفُ سَبِيلَهُ وَلَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِهِ أَوْ مَصْلَحَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ.

لقد كان التعبير القرآني عن (الهوى البشري) حينما يسيطر ويطغى، بأنَّه إله، تعبرًا دقِيقًا موحيًا للعديد من الإشارات الدقيقة الحاسمة، فهو عندما يتخلَّ عن إلهه الحقيقي، فلا بد له من إله آخر يبرر له تصرفاته واندفاعاته، ولا شك أنه لا يوجد لها من مبرر سوى الهوى الذي أراده أن يقوم مقام الإله الحقيقي موجهاً وقادهاً وحاكمًا مطلقاً لا تنفع معه الموازين والمعايير والمقاييس التي من المفترض أن يأخذ بها ويسير على أساسها «خُصُوصًا» إذا ما ادعى أنه مثل خالق تلك الموازين والمعايير والمقاييس والتشريعات وخليفة رسوله المنزل عليه اللهم. وإنَّ فَأَيْ مَبْرُرٍ سَيَجِدُهُ - كَمَا قَلَّنا - لِلْخُروجِ عَلَيْهَا وَاسْتِبْدَالِهَا بِأَخْرَى مِنْ وَضْعِهِ وَإِنْشَائِهِ؟

الهوى لا يَعْرِفُ مِنْطَقًا وَلَا حَجَةً وَلَا يَنْحِنِي أَمَامَ الْعُقْلِ وَالْبَرْهَانِ وَالْتَّجْرِبَةِ وَالدَّلِيلِ.

كَمَا أَنَّ هَذَا الْهَوَى لَمْ يَكُنْ مَقْرُورًا لَهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُسِيَّطُ عَلَى تَصْرُفَاتِ الإِنْسَانِ،



ولم تكن التشريعات والقيم الدينية المتمثلة بالإسلام هنا إلا كوابح ومصدات أمام هذا الهوى الذي إذا انطلق دون رقابة أو قيود، فإنه سيصطدم بهوى الآخرين ورغباتهم ومصالحهم، وستتولد عنه حالة دائمة من الصراع وعدم الانسجام، وتضارب المصالح والتصادم سيؤدي إلى الاقتتال، وسيجعل المحيط الاجتماعي غابة تنتشر فيها (الأنعم) القوية والضعيفة دون ضوابط أو نظام، وما دام هذا الهوى قد أصبح هو الأمر المطاع الموجه، فقد أصبح هو العبود الحقيقى من دون الله الإله الحق كما يقول السيد الشهيد، فإن القرآن «عبر حتى عن الهوى بأنه إله، حينما يتصاعد هذا الهوى تصاعداً مصطنعاً، فيصبح هو المثل الأعلى، وهو الغاية القصوى لهذا الفرد أو لذاك. فالمثال العليا بحسب التعبير القرآني هي آلة في الحقيقة؛ لأنها معبوده حقاً، وهي الآمرة الناهية حقاً وهي المحركة حقاً، فهي آلة في المفهوم الدينى والاجتماعي»<sup>(١)</sup>.

### من يصنع الفراعنة والطواويث

ثمة حقائق تاريخية عديدة، لا بد من الانتباه إليها، وهي أن الفراعنة والطواويث لم يولدوا، ولم يولد آباؤهم المؤسسوں لما الكهم فراعنة وطواويث. ربما كان الفرعون الأول مزارعاً هاماً أو مقاتلاً شجاعاً أو قائداً في حاشية فرعون سابق، وربما كان محبوياً وزعيماً جماهيرياً يكره الظلم ويتبني قضايا عادلة قبل استلامه السلطة، وربما كان يتبنى ديناً معيناً وأسلوباً خاصاً يخضع لكهانة معينة، يلتزم بطقوسها وتعاليمها. فتاريخ الأديان أقدم من تاريخ الملوك. غير أنه عندما أخذ بزمام الأمور، ورأى أن الأغلبية تسير وراءه وتنقاد له، استأثر واستبد، وحول أنظاره وأنظار الناس إلى نفسه، ورأى أن سلالته هي التي ينبغي أن تحكم وتسود، وتناسى كل ما كان ينادي به ويدعو إليه. وعندما ولد أبناءه فراعنة وطواويث جاهزين، لم يروا أنفسهم إلا في مركز الضوء والناس تتطلع

(١) المدرسة القرآنية: ١٤٧.



إليهم وتنقاد لمشيئتهم. اعتقدوا واعتقد هؤلاء الناس معهم، أن الأمور جرت هكذا منذ البداية، وأنها لابد أن تستمر على هذا الحال. لقد كانت العملية بجملتها عملية تمجيد حالة معينة، استساغها الحاكم المستبد وحولها أبناءه أو حوالها بعده إلى حالة صنمية مقدسة مرموقة بل ومعبودة.

أصبح الحاكم (ابن الله) تارة و (ظله على الأرض) تارة أخرى، وخليفته وريبيه وختاره وشريكه ومبعوث عنائه.

كان تمجيد الحالة يتم لكي لا تبرز حالة مضادة تعمل على إبعاد ومحو الحالة المتصنة أو المتحجرة على نمط معين للحكم والحياة، وبالتالي عدم السماح للخروج عليها بأية حال من الأحوال.

أصبح الحاكم الفرعون أو القيصر هو القطب الأول والمحور الرئيسي الذي ينبغي أن تتجه إليه الأفكار، والمعبد الوحيد الذي ينبغي أن تتجه إليه الناس بطاعتها وخصوصيتها.

لم تكن الفرعونية فرعونية منذ البداية، منذ عهد فرعون الأول. ولم تكن الكسرورية كسرورية ولا القيصرية قيصرية بالشكل الذي انتهت إليه.

وحتى لو نزلنا بالأمر إلى مستوى زعامة القبيلة، لرأينا أن الأمر لم يكن يتعدى ذلك، فزعيم القبيلة الأول، لابد أنه كان في بداياته من المضحين والمدافعين عن قبيلته، غير أنه عندما تمكن. وعندما وجد بعد فترة من الزمن أن هناك من يحتمل أن ينافسه على الرعامة، استعد لضم أن سلطانه على قبيلته وسلطان أبنائه وأحفاده من بعده.

لم يكن معاوية من هؤلاء في البداية. فلم يكن مقاتلاً شجاعاً ولا حاملاً لقضية عادلة، ولا زعيماً جماهيرياً محباً. غير أنه دبر قضية أبرزها فيها بعد على أنها عادلة، وهي

قضية مقتل عثمان الذي سعى هو إليه ودبره، ثم قام للمطالبة بدمه، فأصبح في نظر العديد من الذين نصبوا العداوة للإمام ﷺ منذ البداية وفي نظر الجهلة والمغرر بهم والخدوعين من أهل الشام ولیاً للدم وبطلاً من أبطال الحق والعدالة. وعندما تكن واستأثر بالسلطة كان هو محور اهتمام الأمة الوحيد، بيده الحل والعقد، بل مصير الأمة كلها وأموالها ودمائها.

### مقوله فرعون الدائمه : أنا ربكم الأعلى

إن فرعون وأصرابه، يتجاوزون على المثل الأعلى السماوي بعد أن أوهموا الناس في البداية أنهم مؤمنون مثلهم بهذا المثل إذا ما حصل إن كان هذا المثل هو المثل الأعلى السائد والمسيطر على الساحة، ثم يحاولون الوثوب عليه أو تناصيه أو تسخيره وتطويعه ليكون في خدمتهم إذا ما كان كهنة هذا الدين وأحباره قابلين للشراء والمساومة.

إنهم يحاولون الخلو مل المثل الأعلى السماوي إما بالتصدي لأتباعه منذ البداية ومحاربة الأنبياء والرسل بمختلف الذرائع والحجج التي ذكر لنا القرآن الكريم طرفاً منها، أو بمنازلة المؤمنين برسالاتهم وتصفيتهم واستئصالهم أو محاولة تطويعهم وكسبهم بمختلف الطرق التي يرونها مناسبة والتي يمتلكونها بحكم ما تتيحه لهم سلطاتهم المطلقة من أموال وأعون وغير ذلك.

إن القيصرية أو الهرقلية عندما اعتنقت المسيحية رسمياً، لم تنضم بالفعل تحت لواء المسيحية، بل حاولت أن تنضم المسيحية نحو لوائها هي، وعندما أوشكت الحالة أن تسبب مواجهة حقيقة، مسحت هذه المسيحية من على خارطة العالم الأرضي، وجعلت اختصاصها (ملكوت السماء). أما (ملكوت الأرض)، فأصبح من اختصاص القيصر يتحكم به كيفما شاء. وهكذا أعيدت كتابة الانجيل و (تصحيح) عباراته وتعديلها



لتلائم رغبة القيصر المسيحي، وصرح كاتبها بعد سنوات طويلة من ظهور السيد المسيح واحتفائه أن أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وقد فصلوا بين سلطان قيسar وسلطان الله، وأرادوا الله أن يتحكم في ملكته السماوي فقط ولا يتدخل بشؤون الأرض. وأرادوا له أن يكون قيصرًا في السماء، وإذا ما تجاوز صلاحياته وحاول التدخل بشؤون قيسar الأرض فإن قيسar الأرض من حقه أن يستخدم في هذه الحالة صلاحياته على أوسع نطاق ويظهر ملكته من كل من يحاول المساس بها أو التدخل بشؤونه.

ولا يدرى أحد كيف وصل الأمر إلى هذه الحالة بالضبط، غير أنها تعززت عندما ضعفت مملكة (قيصر) في مالك الغرب كلها، وأصبح الملوك والأباطرة الغربيون بمختلف ألقابهم وسمياتهم التي حملوها منقادين لحماس ديني موقت لنشر (دينهم) في أرجاء الأرض في حملات صليبية عالمية، قامت وراء طموحات قيسارية بحثة وأطامع استعمارية وتعصب عرقي للجنس الأبيض، وراح الكهنة ورجال الدين، يتصدرون زعامة الأمة المسيحية من جديد ثم امتد سلطانهم بعد ذلك، وبعد فشل الحملات التي دامت فترة طويلة، ليقوموا بالتدخل المباشر في شؤون الحكم والحياة. هذه الحياة التي لا يمتلكون أبسط المقومات لقيادتها، والتي تتعارض معطياتها وحقائقها مع المفاهيم الدينية الفزيلة التي يتبنونها. بعد أن تكشفت العديد من الحقائق العلمية أمام المسيحيين وهم يحتذرون عصورهم المظلمة، بفضل (أعدائهم) المسلمين ذوي الحضارة الفاعلة العريقة. عند ذاك التفت (قيصر) والتفت وراءه الناس ثانية للخلاص من قيسar السماء وإعادة تحجيمه ضمن الكنائس والأديرة، وظل قيسar يحتكر سلطان الأرض كله. فهو (قيصر) تارة وهو (فرعون) وهو (هرقل) وهو رئيس وهو ملك. وسيظل هكذا مهما كانت المسمايات، لكنه مع ذلك ظل يزين عرشه بالطقوس والثياب والزخارف ورجال الدين الذين ارتدوا هذه الثياب المزخرفة، ليظل هذا العرش (مقدساً) مهابةً جميلاً عظيماً

في أعين الرعية. أما قيصر السماء فما عليه إلا أن يستسلم لسلطته الزمنية ولا يحاول التدخل في شؤونه ثانية.

وكذلك فعل هرقل وفعل كسرى. وقبلهم جيئاً فعل فرعون ذلك، وكان هذا دأبه على مر العصور. (فرعون) اسمه ( الخليفة ) ولا يتاح هذا الخروج السافر لطواحيت المسلمين بأي حال من الأحوال، تحت أيه ذريعة من الذرائع. ولما كان لا بد منه، فإن طواحيت المسلمين وفراحتهم هؤلاء، لا يعلنون رغبتهم السافرة في الخروج على الإسلام لكنهم يعلنون أنهم ( كهنته ) ( وسدنته ) ورجاله، وأنهم المثلون ( الحقيقيون والواقعيون ) له، فهو ينبغي أن يفهم عنهم وعن ( علماء الدين ) المعينين من قبلهم والذين تحizوا - لختلف الأسباب - إلى سلطانهم وعروشهم.

إنهم يمدون ظلهم على الإسلام، ويحوطونه ويحوطون أهله، ويفسرون رسالته بما يضمن دوام سلطانهم وبقائهم على العروش، ( ينحون ) الله في الظاهر وأمام أنظار المسلمين، راكعين ساجدين، لكنهم يريدون لهذا الانحناء والركوع والسجود من بقية المسلمين أن يكون خلفهم هم وعن طريقهم وعلى طريقتهم الخاصة. إنهم يقدمون ( رشوة ) للشعب المسلم لضمアン ولائه وسكته عن أيه ممارسة غريبة أخرى، فالمهم أن لا ينقطعوا عن أداء ( المراسيم ) العلنية المطلوبة التي ( يحدرون ) بها الناس ويضمنون سكوتهم عن بقية الممارسات الأخرى. وقد رأينا وصية معاوية السابقة لولده يزيد لكي يحضر الصلاة، فإنه يضمن بذلك أن يعرف الناس حقه - على حد تعبيره - ويعلمون أنه لا يخالف أوامر الله ونواهيه، لتعظيم مملكته ويعظم في أعين الناس<sup>(١)</sup>.

---

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٣٣.



### انحرف على أن لا يعلم بأمرك أحد

فالصلاوة أمر لا يمكن لأبسط مسلم عادي أن لا يؤديه، فكيف بخليفة المسلمين وقائدهم سلطانهم المرتقب؛ فقد رأى معاوية أن الناس لا يمكن أن تتساهم مع أي إنسان خصوصاً إذا ما كان ( الخليفة ) إذا ما تجاهل الصلاة وتركها، مع أنه رأى أنهم يمكن أن يسكتوا عن بعض التجاوزات الأخرى، إنه أراد أن يزيث يزيد في أعين الناس ليتظاهر أمامهم بالصلاحة ليعظم في أعينهم وتعظم مملكته، وإذا ما أرفق ذلك بستر جوانب سلوكه الأخرى المشينة المتهتكة. فهو يوصيه أيضاً عندما شعر بفارطه في الشهوات ومجاهرته بها: «فأحب أن يعظه برفق، فقال له: يابني ما أدرك على أن تصلك إلى حاجتك من غير تهتك يذهب بمرؤتك وقدرك ويشمت بك عدوك ويسيء بك صديفك»<sup>(١)</sup> إنه لم ينكر عليه إقباله على الملذات، ولكنه أمره أن لا يتجلبه طالما أنه معد لاستلام كرسي الخلافة بعد أبيه. ولنلاحظ صياغة العبارات جيداً.

وحتى الوليد بن يزيد المتهتك، الذي جاء إلى السلطة وقد وجد الأمور مستتبة له بعد عدة (خلفاء) عملوا قبله على تطويق الأمة وإخضاعها وإذلالها، والذي أعلن عن تهتكه على رؤوس الأشهاد، لم يستطع التظاهر بالاستغناء عن هذه (الزينة) التي يزين بها عرشه ويقرب بها إلى الناس - وهي الصلاة - لأنه رأى أنها آخر خيط من الشرعية يمكن أن يربطه بالحكومين ليكون رئيساً لهم وسلطاناً عليهم باسم الإسلام. فقد حسب أنهم لا يريدون منه إلا الأداء الظاهري لهذه الفريضة. وإن لم يستطع بعد ليلة استمتع فيها بجواريه وحمره، أن يخرج للصلاحة عندما « جاء المؤذنون يؤذنونه بالصلاحة - فأخر جها - إحدى جواريه - وهي سكري جنبة متماثلة فصلت بالناس»<sup>(٢)</sup>. وقد

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٣١.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٩١.



حسب أنه قد أدى المهمة، وكفى الله المؤمنين القتال. ولا ندرى كيف كان يفكر ساعتها وبأية طريقة عندما أرسل جاريه السكرى الجبنة لتصلي بالناس؟

### الطقوس الظاهرية. لتحسين الصورة

لقد أرادوا للإسلام أن لا تظل منه سوى طقوسه الظاهرية - ما دامت لا تضرهم ولا تقف أمام مصالحهم، أما ما عداها فهو من مسؤوليتهم ومهامهم الشخصية البحتة يتحكمون بها كيف شاؤوا وأنني شاؤوا! وهكذا جعلوا حتى الصلاة حلقة أو قلادة يزين بها الطاغية عرشه ليبدو في أجمل صورة أمام المسلمين المؤمنين بهذه الشريعة المقدسة.

كانت مهمة الأمويين تحجيم الإسلام وتجمده، بل وتحجيمه إذا جاز التعبير - مadam أمراً لا بد منه - ليظل يؤدى كطقوس في أروقة المساجد والمعابد، وليظل الكتاب العظيم يتلى في هذه المساجد المزخرفة الفخمة الجميلة التي بنوها لترzin ملوكهم أيضاً وللتدليل أمام الأمة المسلمة على أنهم يكتون للإسلام أكبر حب وتقدير. وها هم يقومون بالاتفاق على عمارة هذه المساجد بل والاكثر منها وإفساح المجال للقراء للجلوس فيها والصلاحة وتلاوة الذكر والقصص والأحاديث الموضوعة والمكذوبة (وغير الضارة) كتلك التي لا تؤدي إلى تفرق المسلمين بزعمهم، بالضبط كما يفعل كثيرون من نظرائهم اليوم لنفس السبب ولنفس الدوافع.

لقد أباح الأمويون للناس تعلم المباح من الأمور ولم يسمحوا لهم بتعلم المحظورات والمحرمات - كما ورد بأحد أحاديث الإمام الصادق عليه السلام، لأنهم لو سمحوا لهم بذلك لاجتبوا هذه المحظورات ولدعوا أول ما دعوا خلفاءهم لاجتنابها.

أريد للإسلام في ظلهم أن يظل مظهراً يزين به الخلفاء عروشهم وأريد للقرآن أن يرتل بصوت جميل ما داموا يستفيدون من بعض آياته لتدعم حكمهم بعد تأويلها



وتغيرها بشكل محرف. أما تطبيق أحكامه والأخذ به فهذا هو الأمر المستبعد، وما على أحد من المسلمين أن يفكر بذلك.

### الرسول ﷺ : أول من حذر الوقوع في براش الانحراف

إن الإسلام بذلك يفقد كل معنى ومحنوي له في ظل نمط من الحكماء كهؤلاء، وقد عبر الرسول الكريم ﷺ أبلغ تعبير عن هذه الحالة التي لا يكون للإسلام فيها إلا وجود اسمي، فقد روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيابا. ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة، مؤمن ومنافق وفاجر».

وكذلك حذر منه أمير المؤمنين عليه السلام

ولذلك فإن الإمام عليه السلام، عندما أدرك مدى تسع الانحراف ورأى مدى اتساع درجته، شخص الحال التي سيصل إليها المسلمون في ظل نمط من الحكماء كمعاوية ومن رباهم وأعدهم ومهد لهم. ولم تكن أقواله رجماً بالغيب بقدر ما كانت علمًا عن ذي تعلم وتعبيرًا عن البصيرة الصافية التي تدرك أبعاد التخليل التدربيجي عن جوهر الإسلام والتمسك الظاهري ببعض الممارسات المعلنة فقط. قال عليه السلام: « يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من القرآن إلا رسمه ومن الإسلام إلا اسمه، مساجدهم يومئذ عاصمة من البني، خراب من الهدى، سكانها وعمارها شر أهل الأرض، منهم تخرب الفتنة، وإليهم تأوي الخطيئة، يردون من شذ عنها فيها، ويسوقون من تأخر عنها إليها. يقول الله تعالى: فيبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة أتركت الحلائم فيها حيران وقد فعل»<sup>(١)</sup>.

---

(١) نهج البلاغة: ص ٧٤٤.



### سنن تاريجية - انحراف بسيط في البداية سيمهد لأنحراف واسع في النهاية

لقد كان تشخيص الإمام رحمه الله لهذه الحال بهذه الصورة الدقيقة تعبر عن استيعابه التام للسفن الإلهية التي بينها في كتابه المجيد. إنه رأى - وهو ابن القرآن وربه وشريكه وحامله - أن الحال متى ما وصلت إلى هذا الحد، فإن المسلمين - أو أغلبهم لن يعودوا المسلمين إلا بالاسم، بل إنهم سيكونون من أشد أعداء الإسلام؛ لأنهم حملته بالاسم والدعاة الفعلين إلى تهديمه بما يرتكبون من مخالفات وتجاوزات واضحة.

ويرى الإمام أن التمادي بالبعد عن الإسلام سيقود إلى الجهل ثم إلى الفتنة بعد ذلك، وسيكون هؤلاء كالقطعان السائبة التي لا تعرف هدفها ولا تدرك إلى أين يقودها طريقها، وسيكونون منبعاً للفتن ومؤوى للخطايا، وعندما: ما جدو أن يقرؤوا القرآن وهم لا يفقهون معانيه ومضامينه وأحكامه ويؤولونها وفقاً لأهوائهم ومصالحهم؟

### الإسلام المحمدي العلوي الضمانة الوحيدة للتخلص من الانحراف

إن الحصانة الوحيدة للمجتمع المسلم من الانحراف والوقوع في الخطأ هو الإسلام نفسه، ويدرك كل طواغيت العالم أن عليهم إذا ما أرادوا السيطرة على هذا المجتمع وفرض سلطانهم عليه وحكمه حكماً طاغوتياً مستبداً، أن يجردوه من هذا الإسلام الذي سيكون بلا شك أكبر عقبة في طريقهم.

وتجريد المجتمع الإسلامي من دينه العزيز الأثير الذي تعرفوا عليه قبل مدة قصيرة -ونحن نتكلم عن مطلع الحكم الأموي- ورأوا فيه خلاصهم من كل شرور المجتمعات الجاهلية، ليست مهمة سهلة التحقيق بمجرد التمني. ولا بد لها من خطة محكمة تقوم على تنفيذها مؤسسات متخصصة تتمتع بقدر كبير من المؤهلات والامكانات، كما أنها لا تتم بشكل مباشر مقصود ومعلن، بل إن شعارها الظاهري لابد أن يكون هو الحفاظ



على الإسلام نفسه ووحدة المسلمين وجماعتهم ومصلحتهم خلف من (بياعه) المسلمين خليفة. وليس على هذا، إذا ضمن ولاء الناس له وانقيادهم وراءه أن يتحفظ في سلوكه بعد ذلك إلى الحد الذي كان عليه من جاؤوا قبله. وليس عليه أن يحكم بالإسلام، حتى وإن اكتسب (شرعية) حكمه من هذا الإسلام نفسه. فقد أصبحت البيعة ملزمة لا يمكن الخروج عليها تحت أية ذريعة من الذرائع أو ظرف من الظروف وانتهى الأمر بعد أن طوق الناس بها، وما دام الخليفة يتبعه بأنه سيحكم بحكم الله ورسوله. وإذا ما خرج على أحكام الإسلام فهذا أمر يخصه وحده وعليه جراوئه، حتى إذا كان فاسقاً «فلا يجوز خلعه لأحد بسبب ذلك من الفتنة وقع المهرج كما وقع زمن الحرة»<sup>(١)</sup> واحتربوا أحاديث على لسان ابن عمر وغيره بهذا الخصوص نسبوها إلى الرسول الكريم ﷺ. فقد رروا أنه «لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم شهد ثم قال: أما بعد فإننا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الغادر ينصب له لواء يوم القيمة يقال هذه غدرة فلان، وإن من أعظم الغدر، إلا أن يكون الأشراك بالله، أن يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته».

ورروا عن ابن عمر أنه روى عن لسان رسول الله ﷺ أنه قال: «من نزع يدأ من طاعة فإنه يأتي يوم القيمة لا حجة له، ومن مات مفارق الجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية»<sup>(٢)</sup>.

ورروا أحاديث مشابهة على لسان آخرين عن ضرورة الحفاظ على وحدة الأمة وضرورة ضرب من يخرج على إجماعها بالسيف كائناً من كان.

### **منهج في التزوير لتعزيز دولة الظلم**

**وبغض النظر عن صحة تلك الأحاديث ورواتها وإسنادها فهي أحاديث موضوعة**

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٣٥.

(٢) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٣٦.

بلا شك، صرف عليها الكثير من الأموال والجهد، فإن مناقشتها - لو صحت - بمزيد من الوعي والفهم تدين الحاكم المستخلف نفسه. فهل يعقل أن رسول الله ﷺ كان يمهد لحكم يزيد وأمثال يزيد؟ بحيث إن الأحاديث المروية عنه ﷺ بدت مصممة لجمع الأمة حول حكام أمثاله. ما معنى أن يباعي رجل رجلا على بيع الله ورسوله ثم ينقض هذا الأخير العهد؟ إن البيعة لو صحت مشروطة ببيع الله ورسوله، فلو نقضها من بيع له لم تصح على من باعي، ثم كيف تمت هذه البيعة تحت أية ظروف؟

هل كان ابن عمر مستطيناً أن يكذب ما روی عنه. هذا إذا لم يكن ما روی هنا قد وضع بعد وفاته. أو لم يكن قد طوّع وأسكت بمختلف الطرق والأسباب.

صحيح أن معاوية ويزيد وغيرهما لم يصرحوا بالشرك، ولم يقولوا صراحة، كما قال فرعون، نحن آلة من دون الله، ولكن ألا تدل أعمالهم وما أحدهم من خروج فاضح عن الإسلام عندما وضعوا شرائع وسننًا وأحكاماً وتعليمات لم ينزل الله بها من سلطان، على أنهم قد أشركوا به فعلا؟ وهل الشرك هو مجرد عبادة أصنام أو آلة متخلية فقط مع الله؟

#### ما هو الانحراف؟

إن الانحراف هو الابتعاد عن خط الإسلام، منها أردنا أن نعطي مسميات أخرى لهذا الانحراف، كما أن أول خطوة للابتعاد عن الإسلام، منها بدت قصيرة وغير مهمة، تمهد لخطوات أبعد. حتى ليكون خطأ التماس عند نهايتها - بالتالي. إذا ما ابتعدت الثقة عن نقطة الشروع أو نقطة الالتقاء الأولى - قد اتخاذ كل منها مساراً مختلفاً.

ولذلك فإن هذه الخطوة الأولى تبدو خطيرة إلى حد بعيد، وإن كان هذا الخطر لا يبدو واضحاً للوهلة الأولى.



إن الابتعاد عن أي تشريع أو مبدأ إسلامي مهما كان ضئيلاً، يعني الاعتقاد بأن هذا التشريع لا ينسجم مع حياة الإنسان أو واقعه، ووضع بديل له يعني رفضه واستبعاده نهائياً وإigham الإنسان نفسه لإيجاد تشريع أو تصرف بديل يعني الاعتراف ضمناً بعدم قدرة الإسلام على استيعاب الحياة وتوجيهها ولملئها وقيادتها.

إن الإسلام دين الله الكامل الأخير الذي أنزله على خير أمنائه على خلقه، محمد ﷺ ليبلغه إلى الناس كافة في كل زمان ومكان. وهي حقيقة لا يجادل بها أي مسلم يفهم حقيقة هذه الرسالة وتكاملها وانسجامها مع الفطرة البشرية وطبيعة الكون، وفيهم لغة القرآن ومنطقه، ويؤمن برسالة محمد ﷺ.

### الله وحده هو المشرع

ولم يأذن الله سبحانه بأي تشريع - حتى وإن كان باسم الدين - يضعه أي فرد من خلقه؟ ويتساءل القرآن الكريم مستنكراً: **﴿أَمْ لُهُمْ شُرَكَاءُ شَرَّعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذِنْ بِهِ اللَّهُ﴾**<sup>(١)</sup>.

فالتشريع أمر ليس لأحد من البشر - مهما كان مركزه - أن يقوم به نيابة عن مبدع الكون وخالقه ومدبره، وهو أمر لا يتيح لأحد من البشر صلاحية التصرف فيه.

إن من يقوم بهذه المهمة - مهمة التشريع - يضع نفسه في مقامه - جل وعلا - على أن أكبر جريمة يؤخذ عليها، هي نسبة ما يقوم به البشر لله - سبحانه - كذباً وافتراء. إن من يقوم بذلك يعلم - أنه لا قدرة له على القيام بأي تشريع نيابة عن الله - وخصوصاً إذا ما كان في مركز يدعى فيه خلافة رسول الله ﷺ نفسه. وليس أمامه من سبيل سوى تزوير بعض أقواله ﷺ أو وضع أقوال أخرى على لسان محدثين مأجورين أو تأويل ما



أنزل الله بكتابه المجيد. وهذا هو الأمر الذي قام به معاوية علانية. إضافة لما قام به من أمور أخرى في مجالات عديدة. وهذا ما تماهى به إلى أبعد حد من جاء من (الخلفاء) الأمويين والعباسيين وغيرهم.

وإن لم يعترف معاوية بأنه أول من قام بذلك، وألقى مسؤولية الانحراف على عاتق من سبقه من الخلفاء، إلا أن ما قام به - بشكل عملي وفعلي واضح - دلل على استهتاره واستهانته بالإسلام بصورة معلنة مكشوفة. ورغم أنه بذل بعض الجهد لإخفائها وإبرازها بشكل آخر، إلا أن من جاؤوا بعده، لم يكلفوا أنفسهم هذا الجهد.

### شعارات كاذبة

إن رفع الشعارات التي يبدو التكلف والافتعال فيها واضحاً مثل تلك التي تدعو إلى عدم نزع يد الطاعة والحفظ على وحدة المسلمين وإجماعهم وغيرها - والتي ذكرنا قسماً منها - سيتيح لهؤلاء الحكماء (المباعين) القيام بالمزيد من الممارسات القمعية لإسكات أي صوت معارض متبعه لهذا التوجه الماكر الخبيث الذي يريد العبث بمكتسبات المسلمين والهبة الإلهية التي أعطتهم تشرعياً كاملاً ينظم حياتهم على أساسه. إن أقل مساس به يعني المساس بمصالح المسلمين لا على مدى الفترة الزمنية المعاصرة وإنما حتى على المديات اللاحقة. فما يقوم به ( الخليفة ) على أساس مبرر من قبل فقهاء الدولة ومحدثيها ومفسريها وقصاصيها سيصبح سنة سيئة يتحمل مع مأجوريه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيمة.

ومن هنا كان تحذير الرسول ﷺ الشديد بتجنب سن هذه السنة السيئة. إذ مَنْ يمتلك صلاحية التغيير وإحداث ما يتعارض من السنن الإلهية والشرائع السماوية؟

إن من يتربع على القمة جدير بأن يكون في مستواها. وإذا ما استن سنّة، وقد جعل



من نفسه مثلاً أعلى بديلاً للمثل الأعلى الأبدي، فإن كثيرين من تبهرهم شخصيات القمة هذه بفعل التضليل والإعلام المأجور قد يستعيضون بها عن السنة الإلهية، فيصبح ما يبيحه هو المباح وما ينهى عنه هو المحظور حتى وإن كان ما يبيحه حراماً وما يحضره واجباً.

وقد استشرت هذه الشعارات بشكل حرق (فوايد) كبيرة تفوق تلك الخسائر التي صرفت لنشرها على شكل أحاديث مفتراة وأيات قرآنية مؤولة ومفسرة بشكل مغاير لما يراد منها.

وقدرأينا كيف (استشرها) معاوية في البداية، واستشرها يزيد في واقعي الطف والحرقة على وجه الخصوص للتعتيم على جريمتيه الكبيرتين في هاتين الواقعتين، وجعل علماء المسلمين) و (بعض الصحابة) ينظرون لمن دونهم من الناس ويررون أحاديث مكذوبة عن الرسول ﷺ ويصورون القمع الوحشي الذي قام به (الخليفة) وكأنه الأمر الوحد الذي كان لابد من القيام به، وكأنه أحد حقوقه المشروعة المتناوبة له من الله عز وجل، وأحد واجباته وتكليفه الشرعية لرد (الضالين) و (المفرقين) إلى حضيرة الإسلام وجمع الأمة المسلمة. «كما وقع زمن الحرقة، فإنه بعث إليهم من يردهم إلى الطاعة، وأنظرهم ثلاثة أيام. فلما رجعوا قاتلهم وغير ذلك. وقد كان في قتال الحرقة كفاية! ولكن تجاوز الحد ببابحة المدينة ثلاثة أيام. فوقع بسبب ذلك شر عظيم»<sup>(١)</sup>.

**هل المشكلة هي لعن يزيد من عدم لعنه أم أن المشكلة انتهاك مقدرات الأمة؟**  
«وقد استدل كثيرون بذلك على جواز لعن يزيد. ومنع ذلك آخرون وضعفوا فيه أيضاً لئلا يجعل لعنه وسيلة إلى أبيه أو أحد من الصحابة، وحملوا ما صدر عنه من سوء

---

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٣٥.

التصرفات على أنه تأول وخطأ، وقالوا إنه كان مع ذلك إماماً فاسقاً والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قولى العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة ووقوع المحرج وسفك الدم الحرام ونهب الأموال و فعل الفواحش مع النساء وغيرهن وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا.

وأما ما يذكره بعض الناس من أن يزيد لما بلغه خبر أهل المدينة وما جرى عليهم عند الحرة من مسلم بن عقبة وجيشه فرح بذلك فرحاً شديداً، فإنه كان يرى أنه الإمام وقد خرجوا عن طاعته وأمرروا عليهم غيره، فله قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ولزوم الجماعة، كما أنذرهم بذلك على لسان النعيمان بن بشير ومسلم بن عقبة كما تقدم، وقد جاء في الصحيح «من جاءكم وأمركم جميعاً يزيد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان».<sup>(١)</sup>

وانظر إلى هؤلاء الذين خافوا على معاوية والصحابة إذا ما لعن يزيد. ونظروا إلى جرائمها وكأنها كانت مجرد خلافات في الرأي حول أمور يومية عادية. وإن ما صدر عنه كان لمجرد أنه تأول وقد أخطأ، ولا بد أن له لأجراً أيضاً، مع أنه فاسق، وهو أمر لم يستطعوا كتمانه. ومع ذلك فقد أفتوا بعدم جواز عزله، وألقوا تبعة هذه الفتوى على رسول الله ﷺ وجاؤوا بمبررات لا يقبلها العقل، كما أنهم لم يستهجنوا فرح يزيد لما بلغه خبر أهل المدينة الذين قال بشأنهم رسول الله ﷺ: (وهذا أمر لم يستطعوا إخفاءه أيضاً): «من أخاف أهل المدينة أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وقال: من أخاف أهل هذا الحي من الأنصار فقد أخاف ما بين هذين ووضع يديه على جبينه»<sup>(٢)</sup> لأنه كان (يرى) أنه الإمام وقد خرجوا عن طاعته. أما ما يرون هم وفيهم صحابة

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٢٧.

(٢) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٢٦.



عديدون من صحابة رسول الله ﷺ فلا تهم معرفته، فقد أنذرهم وكفى. أما ما فعل بهم فهو أمر مباح له؛ لأنه إمام مجتهد فرأى رأياً كان فيه صلاح الأمة والحفاظ على وحدة المسلمين، وحتى هذا الحديث الذي رووه عن رسول الله ﷺ فيبدو الافتعال والوضع فيه واضحاً. يبدو أنه قد وضع لهذه المناسبة (المناسبة) التي سبقتها وهي (واقعة الطف). ثم من قال إن الحسين ﷺ وأهل المدينة من بعده جاؤوا ي يريدون أن يفرقوا بين المسلمين؟ أليست هي الأجهزة الدعائية الأمية نفسها؟

**روايات مسلية.. يزيد يكشف من آثار الرسول ﷺ ما لم يكتشف جميع الصحابة**

كما وضعوا على لسان الرسول العظيم ﷺ مزيداً من الروايات التي توحي بالزيف مما أرادوا تأكيده بضرورة تعظيم من يتقلد أمر الأمة. هذا الذي بلغ تعظيم الله سبحانه له أنه حرمه على النار. ففي رواية أخرى إن يزيد، لما قال له أبوه: «سلني حاجتك». قال له يزيد: اعتقدني من النار، أعتق الله رقبتك منها. قال: وكيف؟ قال: لأنني وجدت في الآثار أنه من تقلد أمر الأمة ثلاثة أيام حرمه الله على النار، فاعهد إلى بالأمر من بعدك ففعل<sup>(١)</sup> وأنقذه من النار، كما أنقذ نفسه أيضاً حين تقلد أمر الأمة - ولو على رغمها. ولا ندرى كيف أتيحت ليزيد فرصة معرفة ما لم يعرفه معاوية نفسه رغم علمه الواسع ورغم أنه أحد الأمانة الثلاثة؟! ترى ما هي الآثار النبوية التي درسها يزيد وعلمتها من دون الأمة فتفقه فيها ورأى نتيجتها الواضحة أمامه. هل بلغ حرصه على الجنة أنه تنازل لقبول الخلافة ومستواه أعلى من أن يتنازل إليها؟

لقد كانت هذه الرواية الم موضوعة الأخرى معدّة لتقابل الرواية الصحيحة عن الرسول الكريم ﷺ بشأن الإمامين الحسن والحسين ﷺ وأنهما سيدا شباب أهل الجنة.

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٣٠.

إن ما انطل على أهل الشام بشأن معاوية، كان لابد أن ينطلي عليهم ببساطة بشأن .  
يزيد.

### روايات وروایات مضادة

إننا نلاحظ دأب معاوية على نشر روايات مقابلة أو مضادة لتلك التي وردت بشأن الإمام وأئمته، تتحدث عن فضائل مزعومة أخرى لمعاوية ويزيد وآل أمية. وإن لم يستطع المسلمون كافة أن يهضموا هذه الروايات الم موضوعة، فإننا لا نعتقد أن أهل الشام وفلسطين والأردن يرفضون قبولها، بل أنهم، وقد تلقوا الإسلام من وجهة نظر معاوية وعلى يده، وكانت (تراثه الإسلامي) الموجهة لهم خير عون له في إخضاعهم وتوجيههم وفق رغباته وطموحاته. فهم لم يمتلكوا قابلية تدقيق وتحقيق هذه الروايات الرسمية (الموثوقة) والصادرة من أعلى جهاز في الدولة. ولعلهم كانوا بحاجة إليها، بل متلهفون لسماع المزيد منها، لتبرير انقيادهم المطلق وراء الخليفة الأموي الذي عرّفهم على الإسلام ورسمه لهم وعرضه عليهم بالشكل الذي يريد.

### (الخليفة) أولاً

كان التأكيد على شخصية (الخليفة الحاكم) وإظهاره كمثل أعلى بديل أو مثل مثله الأعلى الحقيقي، هو بداية الظهور المعلن (لطوعigkeit الإسلام) وفراعنته. إن محاولة وضع ثقة الأمة الإسلامية بحاكمها، لم تتم من خلال تصرفات هذا الحاكم وانطباقها على الإسلام وتواافقها معه بشكل حقيقي واقعي. وهذا ما ينبغي أن يكون، وإنما بإيجاد وخلق قناعات بهذا الحاكم، مستمدة من المصدر الأول للإسلام، وهو الكتاب الكريم والسنة المطهرة. وهذه المصادر متمثلة بالتأويل الخاطئ والكاذب لكتاب الله أولاً، وتلفيق أحاديث مزورة عن النبي ﷺ، كما رأينا في مجموعة الأحاديث الكثيرة الم موضوعة



في حق معاوية.

إننا لو كنا نملك العقلية التي امتلكها أهل الشام ومجاوريهم وأحلافهم، وسمينا الأحاديث الموضوعة بحق معاوية، ثم تلك التي ترى ضرورة إطاعة حكام كيزيز وأشباهه، لرأينا أن لا مجال لهم إلا السير وراء هذين الخليفتين المسلمين، بل المؤمنين مطمئنين مستريحين إلى البال والخاطر.

إن محاولة إفراغ الإسلام من محتواه، ليس عملية اعتباطية تمت عن طريق الصدفة وما كان الهدف منها هو مقتضيات (الضرورة) وحسب، كما حاول بعض المؤرخين أن يفهموا ذلك ويفهموه لآخرين، بل كانت عملية مقصودة منظمة مدبرة، تصاعدت خطواتها وإيقاعاتها، بمجرد تنفيذ الخطوات الأولى منها. ويروح أولئك الكتاب اليهودون الأمر علينا، كما هونه من قبلهم على أسلافنا، بأن الإسلام لم ينته كقوة فاعلة مسيطرة في عهدبني أمية ولم تتقلص مسیرته. لكننا نتساءل: ألم يكن ما جرى عليه في ذلك العهد، يستهدف وضعه في طريق النهاية والاضمحلال، من خلال إذاته بقيم ومارسات ومثل جاهلية متكررة ومستمد أكثرها من القيم السائدة في الحجاز وحواليه قبل الإسلام، وكذلك من مالك وأقطار لم يدخلها الإسلام بعد؟ ويشيرون إلى أن تقادم عهد الرسول ﷺ وعدم وجود شخصية بديلة عمل على الوصول إلى هذه الحال، وهي شهادة أريد منها القول: إن الذين جاؤوا إلى الخلافة بعد رسول الله ﷺ لم يكونوا يصلوا إلى ما وصل إليه الرسول ﷺ. وهذه حقيقة أكيدة. ولكن ألم يكن منهم من كان مؤهلاً لقيادة الأمة بالقدر الذي يتتيح لها أن تسير على نفس النهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ؟ وقد استبعد في أكثر المراحل التي كانت الأمة بحاجة إلى قيادته، واستسلم المسؤلية في الوقت الذي طمحت إليها أنظار عديدة لم يكن أصحابها يصلوا إلى مستوى أبداً، ووضعت في طريقه عقبات عديدة واتحدت قوى عديدة لمناؤاته وإعلان الحرب عليه؟



كما أن الجيل الأول الذي عاصر الرسول ﷺ وارتفع بفعل علاقته الوثيقة به ومعاشرته التامة والفعالية له، أما كان يتمنى له أن ينشئ أجيالاً على نفس القدر من القوة والحماس والحب والأخلاص لله ولرسوله ﷺ ودينه؟

### إحياء غريب. عمل الصحابة الأوائل كان تطوعياً

ألم يكن بإمكاننا مجتمع - فيما بعد - أن نستشعر العوامل التي عملت على (تطوع) الكثيرين من أبناء الإسلام في عهد الرسول ﷺ من الصحابة الأوائل ونقوم بما قاموا به، لا على مستوى حالات فردية محدودة منقطعة، وإنما على مستوى اجتماعي شامل؟

لماذا ينبغي أن نعتقد أن أمور الإسلام ومبادئه وانسجامه مع الحياة، لابد أن يسجل عداً تنازلياً بمرور الزمن؟ ترى لو كان هذا العد التنازلي يسير بالسرعة التي سار عليها في المدة الواقعة بين عهد رسول الله ﷺ وعهد يزيد، أين كنا سنصير الآن؟ لابد أنها الآن في الخضيض، ولا بد أن الإسلام قد نسي الآن نهائياً ولم يعد يذكر إلا كأثر من آثار الماضي. وهذا ما أريد له فعلاً، غير أن القوة الكامنة فيه تجعله أقوى من مؤامرات أعدائه وكيدهم ودهائهم.

هل خطط الله ورسوله ﷺ للإسلام والمسلمين أن يكونوا في نهاية الأمر في الخضيض؟ في انحدار وانحطاط مستمر؟ وإن علينا أن لا نذكر تلك القمم الأولى إلا كمثل عليا انتهت ولم يعد من سبيل للتفكير بتحقيقها أو الوصول إلى مستواها؟ وإن علينا أن نكون واقعين! فلا نطمئن إلى ما لم يطمئن إليه المسلمون في عهد معاوية ويزيد. وعهدهم أقرب إلى عهد الرسول ﷺ من عهدهنا! وهم أقرب إليه منا!! وهل نحن أفضل منها؟! وهل الإسلام الآن كما كان قبلًا؟!



### أحقاً أنك لا تعرف الحقائق أيها الكاتب الإسلامي الكبير؟

ولنرجع إلى كاتبنا الإسلامي الكبير محمد قطب الذي لم ينزعج مما عمله بنو أمية، ولا يرى أنه أمر كان يقصد به - بفعل مدبر ومتعمد - القضاء على الإسلام، وإن ما فعلوه لم يعمل سوى أن أخْرَه قليلاً! يقول الكاتب الإسلامي الكبير: «إن هناك - كما أشرنا مراراً من قبل - وهما يحسم عن قصد وغير قصد مفاده أن الانحراف الذي وقع في عهدبني أمية - فضلاً عما بعده - قد قضى على هذا الدين! وهو وهم يكذبه الواقع! وأبسط ما يقوله الواقع إن هذا الدين ما زال باقياً إلى هذه اللحظة بدليل الصحوة الإسلامية، بعد وقع انحرافات لبني أمية بأربعة عشر قرناً على وجه التقرير. وشهادة الواقع تكفي.

ولكن الذي نريده هنا هو محاولة تحديد حجم ذلك الانحراف بالقياس إلى ما بقي سليماً من الصورة. لقد حدث دون شك هبوط عن الذروة التي كانت على عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، وهذا الهبوط عن تلك الذروة هو ذاته أحد أسباب ذلك الوهم الذي يتجسد في أذهان بعض الناس من أن الإسلام قد انتهى منذ ذلك الحين، فتحب أن نقرر بادئ ذي بدء - إن تلك الذروة بكل روعتها لم يكن يفترض أن تقوم في الأرض كثيراً بعد رسول الله ﷺ؛ لأن وجوده بشخصه عليه الصلاة والسلام كان عاملاً مهماً فيها. كما أن أثر النشأة الجديدة كان عاملاً مهماً فيها كذلك، وهو عاملان بطبيعتهما لا يتكرران ولا يدونان. ونحب أن نقرر كذلك أن الجيل الذي ارتفع إلى تلك الذروة قد ارتفع إليها طوعاً لا تكليفًا وإن الله لم يفرض على البشر أن يرتفعوا إلى تلك القمم الشاهقة فرضاً، وإن كان قد حبب إليهم ذلك. وكلنا لا يحاسب أحداً بمقتضى ذلك التطوع النبيل، ولا يحاسب بنوي أمية ولا بني العباس ولا آل عثمان ولا غيرهم بتلك القمم الشاهقة التي وصل إليها أفراد المجتمع المسلم في عهد الذروة،

وكان على رأسهم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم وإنما نحاسبهم بما فرض الله عليهم فرضاً وجعل النكول عنه ذنباً يسألون عنه أمام الله يوم القيمة، فيغفر سبحانه له من يشاء ويؤاخذ من يشاء<sup>(١)</sup> - انتهى كلام الكاتب الكبير.

ونعيد ما سبق أن قلناه أيضاً: ألم يكن الانحراف الأموي يمهد لانحراف أوسع؟ كما سبق أن مهد له الانحراف الذي كان قبله مع أنه لم يكن واضحاً في البداية؟

### دولة الإسلام أصبحت حلمأً

لماذا أصبحت الذروة مجرد حلم في خيال المسلمين ولم تعد حالة ممكنة؟

وأي دين هذا الذي بقي الآن بعد محاولة استئصال ما بقي من رجال الذروة هؤلاء بشتى الطرق والأساليب؟ كيف يبدو للمسلمين في أقطارهم؟ هل يبدو لهم في صورة واحدة وزي واحد؟ أم أنه له صورة مختلفة في كل قطر وفي كل مصر يرسمها له الخلفاء الجدد وأمراء المؤمنين العصريون؟

هل (الميكل) المتبقى لهذا الدين هو ما ينبغي أن نقنع به، بل ونفرح، ما دمنا مسجلين في دوائر الأحوال المدنية، نحمل شهادات بذلك مصدقة من الدول الإسلامية التي ننتمي إليها ونحكمها قادتنا؟

لقد مهد الانحراف الأموي الخطير والواسع، الطريق أمام انحرافات هائلة لم ندرك مداها وخطورتها؛ لأننا نشأنا وعشنا فيها.

هل أنزل الله - جل وعلا - خاتم الديانات وأكملاها - بعد انقطاع سلسلة الأنبياء والرسل، وهو يريد له أن يضمحل ويتلاشى، ولا يبقى منه سوى الاسم بعد وفاة الرسول ﷺ بسنوات قليلة؟ هل لهذا أنزله وفرض أحكامه، لتتدوّق البشرية حالاته

(١) كيف نكتب التاريخ: محمد قطب: ص ١١٦-١١٧.



لفترة قصيرة، ثم لتتدوّق المراة بعد ذلك إلى الأبد؟ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؟

إننا لا نريد محاسبةبني أمية وبني العباس وأضرابهم لأنهم لم يؤدوا الأعمال التطوعية التي أداها من قبلهم. ولكننا إذا ما حاسبناهم، ووصفنا أعمالهم وعرضناها على بقية المسلمين هل سيكون حسابنا لهم حساب الناس العاديين الذين لم يتحملوا سوى مسؤولية أنفسهم ولم يكن لهم أي تأثير في مسيرة المجتمع الإسلامي برمتها؟ أم حساب أناس تسنموا الذرورة التي لم يكونوا مؤهلين لاحتلالها في يوم من الأيام، وتحملوا مسؤولية قيادة وحكم الأمة الإسلامية رغم أنوف أبنائهما؟ أي مسؤوليات قائدتها الأول نفسه، رسول الله ﷺ؟

### لابد من استعراض الأخطاء

لابد لنا من تحديد المسؤوليات والأخطاء. ولسنا نحاسب هنا، بل المحاسب هو الله سبحانه، كما نقر بذلك مع مؤرخنا الكبير، غير أننا نتساءل: لماذا لا ينبغي استعراض ما مرّ بأمتنا من أحداث وواقع؟ ولماذا لا ينبغي تشخيص المسؤولين عن أسباب الانحراف الذي وقعت فيه؟ ولماذا الصحوة الإسلامية إذا ما كنا نقر الانحراف الأول ونتقبله باعتبار أن شره قد زال وأن علينا أن لا نذكر موتانا إلا بالخير؟ ولماذا الفرح بهذه الصحوة التي كان يمكن أن تتم منذ زمن بعيد؟ وما معنى هذه الصحوة؟ أليس لإعادة الأمور إلى نصابها وإعادة الإسلام إلى أصله وصورته الحقيقية؟ أليس كاتبنا من أنصار الصحوة الإسلامية ودعاتها؟

هل كان يقر معاوية أو يزيد وأفعاهم لو كان يعيشان الآن، ويقفان على رأس السلطة القائمة مثلين للإسلام، أما كان سيتصدى لها ويقف في مقدمة الرافضين لها لخروجهما الواضح عن الإسلام؟

لماذا لا نحاسب بني أمية وغيرهم بعد الرسول ﷺ وعليه السلام ولماذا لا تعرض تصرفاتهم على القرآن الكريم والسنة المطهرة لنرى مدى تطابقها معهما، ما داموا قد أخذوا على عاتقهم استلام مركز القيادة نيابة عن الرسول ﷺ، (خلفاء) له؟ ترى من يحاسب على الانحراف إن لم يحاسب قادته؟ أم إننا نتغاضى عن محاسبتهم لأنهم قادة وخلفاء وأولوا أمر قد بايعناهم وأصبحت بيعتنا لهمأمانة في أعناقنا وقضى الأمر وكأنه قدر محتوم؟

ولماذا يظن ظان أن نظرة الرسول ﷺ ومن بعده الإمام رض نظرات غير واقعية وخيالية و (مثالية - غير قابلة للتطبيق، على نمط المدينة الفاضلة)، مع أن الإسلام أنزل كدين عملي واقعي ليطبق ويحسّن، لا لينبذ ويحمل ويوضع على الرفوف بعد نصف قرن فقط من رحيل الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه؟

#### هل كانت معركة بين فتئتين من المسلمين؟

كان كل ذلك لأن المتصدين للإمام رض - الذي تبني الإسلام والتزم خطاه بشكل تام، رأوا أن معركتهم معه لا يمكن أن (تفوز) ما لم يحاربوا العدوين معاً، الإمام رض والإسلام؛ ولأن هؤلاء المتصدين للإمام كانوا كثيرين وكانوا عقبة في سبيل تطبيق المبادئ الإسلامية. جعلوا الأمة تعتقد أن الإسلام لا يمكن أن يطبق وفق نظرة علي بن أبي طالب؛ لأنه - وهذه حجتهم - قد جوبه وحورب بشدة عندما حاول إقامة دولته الإسلامية على نفس النمط الذي أقامها به الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه. ناسين أو متناسين أنهم هم من أعلنوا العداوة والحرب للأسباب التي ذكرناها في غضون هذا الكتاب. وهم نفسهم الذين انهزموا أمام رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه الذي لم يجرؤ على الاختلاف فيه اثنان بعد إكمال الدين واتمام النعمة. فأعادوا الكراهة على خليفته بعد أن فشلوا معه.



وإن حاول معاوية إخفاء هذه الحقيقة، فإن يزيد الأقل حذراً والأكثر استرسالاً في الجرائم المعلنة لم يستطع أن يخفي مشاعره عندما عبر عنها بعد واقعة الحرة المشؤومة التي أحققت أكبر الأذى بال المسلمين عليهما الله فهم لم ينس هزيمة المشركين وفي مقدمتهم آل أبي سفيان في بدر أمام الرسول عليهما الله، ولم ينس الحقد المتأجج في نفسه ونفوس الآخرين من آل أمية على الرسول وآل الرسول وأصحاب الرسول وأنصار الرسول. فكانت أبيات ابن الزبوري التي رددها فرحاً تعبير عن هذا الحقد المريض على الإسلام ورسوله وتعبير عن الرفض التام والواضح للإسلام والإنكار المعلن للوحى<sup>(١)</sup>.

تربيع معاوية على دست الزعامة الإسلامية بعد ثلاثين عاماً من وفاة رسول الله عليهما الله وتربيع يزيد على هذا الدست بعد عشرين عاماً من ذلك، أي بعد نصف قرن فقط من وفاة الرسول الكريم عليهما الله. فإذا كان هذا النصف قرن من الزمن، قد وصل بالإسلام إلى الحال المترددة التي وصل إليها، فكيف سيكون الحال بعد أربعة عشر قرناً من الزمن؟ لو كان العد تنازلياً لكننا قد رجعنا الآن إلى عهد نوح، ولشهدنا لا جاهلية واحدة، بل جاهليات متعددة، يتستر بعضها بثوب الإسلام، وتلبس رداءه وتدعى تمثيله؟ وهذا ما

(١) فقد روي أن يزيد أنشد بعد سماعه أخبار واقعة الحرة وباحة المدينة ثلاثة أيام من قبل مسرف ابن عقبة ودعوة الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد بن معاوية ويحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء.

ليت أشياخي ببدر شهدوا  
حين حللت بفناهم برकها  
قتلنا الضعف من أشرافهم  
لعبت هاشم بالملك فلا

جزع الخزرج من وقع الأسل  
 واستجر القتل في عبد الأشل  
 وعدلنا ميل بدر فاعتدل  
 ملك جاء ولا وحي نزل.  
 وقد علق ابن كثير في (البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٢٧) على هذه الأبيات قائلاً «فهذا إن قال يزيد ابن معاوية فلعنه الله وعليه لعنة اللاعنين وإن لم يكن قاله، فلعنة الله على من وضعه عليه ليشنع به عليه». أترى أن ما فعله يزيد فعلاً -ويذكره ابن كثير نفسه- لا يعتبر جريمة حقاً. وإن الجريمة لفظه هذه الأبيات فقط؟

نشهده فعلاً. جاهليات عصرية تمتلك كفاءات لم تكن تملكها تلك الجahليات القديمة ذات الأسلوب المباشر في الشرك. فهل علينا أن نقول الآن أنه ليس من حق الأمة الإسلامية أن تراقب سلوك حاكميها وترصد其 وتقومه وتعرضه على الإسلام لترى مدى مطابقته له؟ أم إننا ينبغي أن نعلن استسلامنا وسكتونا وخضوعنا المطلق ما دمنا قد بايعنا و(انتخبنا) الآن، وترك الأمر لله بعد ذلك يحاسب في الآخرة، فيغفر سبحانه له من يشاء ويؤاخذ من يشاء على حد تعبير كتابنا الكبير، وتستمر الأمة في الوقوع فريسة بيد حاكمها المحظوظ الذي اختص لوحده بهذه المنحة الإلهية. ولتذهب الأمة كلها إلى الجحيم؟

### بدائل مزورة لنسخ الإسلام

إن العمليات المنظمة الدؤوبة لإفراغ الأمة الإسلامية من مقومات وجودها الأساسية وهي الإسلام، باليجاد بدائل سلوكية وعقائدية مسوخة، تختلف عن تلك التي جاء بها الإسلام، اعتمدها الأمويون في حملتهم المكررة لتزعيم المسلمين على حساب مصالحهم الحقيقية وعلى حساب الإسلام نفسه. ولو أنهم جاؤوا وحاولوا الوصول وفق المقاييس الإسلامية التي ينبغي العمل بها، لما طمع أحدهم حتى بتولي أمر الخراج في بلدة صغيرة، وما كان يتمنى لهم البقاء والحكم لو لم يعملا على إيجاد مقاييس ومثل جديدة تعيش معها الأمة الإسلامية المغلوبة والمخدوعة، و(تسسجم) معها على رغبها.

وكان الخطأ الأموي الخطأ الحادثة المحكمة التي تمت على يد مؤسس الدولة الأموية (الداهية)، أداة بيد كل من جاء لحرب الإسلام وتخريبيه بعد ذلك. حتى أن من حاولوا أن يشنوا عليه الحرب مؤخرًا بادعاء الوصاية على المسلمين، لم يعمدوا إلى الأسلوب المباشر في الحرب الذي يعمد إليه الأعداء المكشوفون عادة، بل اعتمدوا الأسلوب الأموي الماكر الذي جأ إلى حرب الإسلام من الداخل بعد التسلل إلى صفوف المسلمين



وإضعافه واضعاف الوازع الديني في النفوس بجملته وتشجع الممارسات التي تتقاطع مع الإسلام وأحكامه والتي رفضها الإسلام وحث على الابتعاد عنها.

كيف تستطيع الأمة أن تهضم استيلاء (الخليفة) على أموالها ومقدراتها، وتلاعبه بها على هواه، وكيف تسيغ إقباله على الفساد والشراب واللهو، وتركه أمورها بيد حاشيته وقواده ونسائه ومقربيه، إن لم تكن قد ابتعدت عن مقوم وجودها كامة إسلامية، وهو دينها الذي بدأت تتخلى عنه بفعل الضغوط الأممية المستمرة. وقد أريد لسلوك هذا الحاكم أن ينسحب على الحاشية أولاً والطبقة الحاكمة وذويها وحواشيها ثم على جماهير الأمة الإسلامية في مركز الخلافة وبعد ذلك إلى أقطار العالم الإسلامي، لتنتشر فيها كل ألوان الرذيلة والفساد.

وهكذا روت لنا كتب التاريخ أنه قد «غلب على أصحاب يزيد وعماله، ما كان يفعله من الفسق. وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب»<sup>(١)</sup>.

إن مركز الخلافة هذا كان ينبغي أن يكون مركزاً للإشعاع الإسلامي لا بؤرة لضخ الممارسات الفاسدة من قبل (الخليفة) وأعوانه، ثم أهل حاضرته ومركز (خلافته) إلى بقية أقطار العالم الإسلامي.

### إذا كان رب الدار بالدف ضارباً

فإذا كان الخليفة القائد على هذا المستوى من الانحدار والانحطاط، فكيف سيكون حال رجل الشارع البسيط الذي أريد له أن يتخد من هذا الخليفة مثلاً أعلى؟ لقد أظهر الناس شرب الشراب، وظهر الغناء واستعملت الملاهي، أي إن الفساد

(١) مروج الذهب: ص .٨٢

كان معلناً متفاخراً به ليس في الشام وحدها، وإنما في أقدس بقاعتين من العالم الإسلامي، كعبة الله وعاصمة رسول الله ﷺ - مع أنه ظهر بشكل أخف في عهد عثمان ومعاوية. كان ذلك أذناً للجميع بالانحراف وشهادة موقعة من قبل (ال الخليفة) يتبع بموجبها للجميع أن يرفضوا الإسلام بكل بساطة جملة وتفصيلاً. وقد أصبح عملهم هذا سنة لكل الناس لا في زمنهم وحسب، وإنما في الأزمنة التي تلتهم، حيث لم يتحرج ولم يخجل أي ( الخليفة) أموي أو غيره من إعلان ما لم يعلنه يزيد، و (أبدعوا) في اظهار المزيد من مهاراتهم في مجال الانحراف والانحدار.

ولنأخذ مثلاً بسيطاً لما وصل إليه حال المجتمع المسلم. سليل مجتمع الرسول ﷺ في ظل (ال الخليفة المسلم) - الفاسق الذي لا يجوز خلعه والخروج عليه بموجب فتاوى فقهاء الدولة المأجورين. (كان الوليد بن يزيد صاحب شراب وهو وطرف وسماع للغناء وهو أول من حمل المغنيين من البلدان إليه، وجالس الملتهين وأظهر الشراب والملاهي والعزف وفي أيامه كان ابن سريح المغني ومعبد والغريض وابن عائشة وابن محرز وطويق ودحمان، وغلبت عليه شهوة الغناء وعلى الخاص والعام).

وكان يزيد بن عبد الملك أبوه قد قال لغنيه ابن عائشة أو لساقيه: اسكننا بالسماء الرابعة وقصة رمي الوليد المصحف بالشباب معروفة جيداً. ومسألة الحاده المعلن معروفة أيضاً<sup>(١)</sup>.

(١) مروج الذهب: المسعودي ٢٥٩ - ٢٦٣ وقد «قرأ الوليد بن يزيد بن عبد الملك ﷺ وأستفتحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَارٍ عَنِيدٍ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءِ صَدِيدٍ» [إبراهيم] فدعا بالمصحف فنصبه غرضاً للنشاب وأقبل يرميه وهو يقول:

أتوعد كل جبار عنيد      فها أنذاك جبار عنيد  
إذا ما جئت ربك يوم حشر      فقل يا رب مزقني الوليد  
وذكر محمد بن يزيد المبرد النحوي «أن الوليد أخذ في شعر له ذكر فيه النبي ﷺ وأن الوحي لم يأته



### انتهاكات مفضوحة، ومزاعم مكشوفة

ولا بد أن يزيد وفق نظرية معاوية التي ذكرناها هنا والتي يشير فيها إشارات موحية مضللة إلى أن الخلف لا يمكن أن يصل إلى مستوى السلف، وأن من جاؤوا قبلًا هم أفضل من سيجيئون بعدهم. «إني وليتكم ولن يليكم أحد بعدي خير مني، وإنما يليكم من هو شر مني كما كان من ولتكم خيراً مني»<sup>(١)</sup>.

إن يزيد وفق هذه (النظرية) التي تبناها هو فيما بعد - كما ذكرنا أيضًا - لا بد أن يكون أفضل من جاء بعده! ولو نظرنا بمقاييس معاوية هذا للرأينا أن عبد الملك والوليد وهشام ويزيد والوليد ابنه وغيرهم وغيرهم، إنما كانوا يتصرفون وفق (سنة) طبيعية (وقانون) مقر معترف به، وضعه (ال الخليفة) الأموي الأول وقبلت به الأمة، وأن هؤلاء (الخلفاء) لم يفعلوا شيئاً، وأنهم إنما تصرفوا وفق النظرية والقيم الأموية المتبناة التي تبيح الخروج عن الإسلام، وتجعل من ذلك أمراً مشروعاً. وأن هذا الخروج المعتمد أو السلوك التنازلي قد أصبح تقليداً متبعاً وسنة أموية، حتى أن كل (خليفة) منهم لم يكلف نفسه حتى بأن يكون مثل من سبقة. لقد وجد هؤلاء من (بيبح) لهم تصرفاتهم المحظورة وانحرافاتهم الخطأة. وبها أنهم كانوا يرون أن آباءهم الذين وضعوا لهم هذا (المنهج) وهذا (المذهب) في الانحراف أفضل منهم، فإنهم كانوا - بلا شك - يتصرفون وفق

عن ربه كذلك. أخزاه الله من ذلك الشعر:

تلعّب بالخلافة هاشمي  
فقل الله يمنعني طعامي      بلا وحي أنته ولا كتاب  
فلم يمهل بعد قوله هذا إلا أياماً حتى قتل». ربما لم يفهم يزيد كيف صار الأمر إليه وأصبح هو خليفة الوحي وحامل الكتاب، فحسب أن الأمر برمتة لعبه وأن لا وحي هناك ولا كتاب، وإلا لما صار هو مثل الوحي وخليفة رسول الله ﷺ. ولم يستطع إلا أن يعرب عن مشاعره التي كتمها بعض من جاء قبله.

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٢.

قناعات بمنهج ومذهب الآباء ولا يرون أنهم انحرفوأ أو أخطئوا ولعلهم سيقولون كما قال المعاندون المنحرفون الأولون: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَا هُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ هُمْ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ هُمْ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَا عَلَىٰ أَثَارِهِمْ مُهَتَّدُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَالْقُلُّوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَالْقُلُّوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

وإن رأى هؤلاء الأبناء أنفسهم متمتعين بامتيازات استثنائية هائلة أتاها لهم أولئك الآباء الذين لم يورثوهم أسباب الترف والنعم وحسب، وإنما الملك والزعامة والواجهة والسلط على أموال الناس ورقابهم ومقدراتهم. أصبحوا مقتنيين بأولئك الآباء على أنهم (المثل الأعلى) العالي لا المنخفض الحي السيئ الذي تحكم به الرغبات

(١) الزخرف: ٢٢.

(٢) البقرة: ١٧..

(٣) يونس: ٧٨.

(٤) البقرة: ١٧..

(٥) المائدة: ٤٠.



والشهوات البهيمية المتدنية. ولن يتاح لأحد اقناعهم بالتنازل - بسهولة - عن هذا (المثل الأعلى) المنخفض الذي وجدوه قائماً قبلهم ومهد لهم كل شيء وأتاح لهم كل هذه الامتيازات.

### السلطان الفرعوني سبب كل الرذائل

في الآيات السابقة وغيرها «يستعرض القرآن الكريم السبب الأول لتبني المجتمع هذا المثل الأعلى المنخفض، هؤلاء بحكم الالفة والعاده، وبحكم التمتع والفراغ وجدوا سنة قائمة، وجدوا وضعًا قائماً، فلم يسمحوا لأنفسهم بأن يتجاوزوه، جسدوه كمثل أعلى وعارضوا به دعوات الأنبياء على مر التاريخ؛ هذا هو السبب الأول لتبني هذا المثل الأعلى المنخفض، والسبب الثاني لتبني هذا المثل الأعلى المنخفض هو السلطان الفرعوني على مر التاريخ. الفرعون على مر التاريخ حينما يحتلون مراكزهم يجدون في أي تطلع إلى المستقبل وفي أي تجاوز للواقع الذي سيطروا عليه، يجدون في ذلك زعزعة لوجودهم وهزاً لمراكزهم.

من هنا، من مصلحة فرعون على مر التاريخ أن يغمض عيون الناس على هذا الواقع، أن يحول هذا الواقع الذي يعيش الناس إلى مطلق، إلى إله، إلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه؛ يحاول أن يحيى وأن يضع كل الأمة في إطار نظرته هو، في إطار وجوده هو، لكن لا يمكن لهذه الأمة أن تفتش عن مثل أعلى ينقلها من الحاضر إلى المستقبل، من واقعه إلى طموح آخر أكبر من هذا الواقع؛ هنا السبب الاجتماعي لا نفسي. السبب خارجي لا داخلي. وهذا أيضاً ما عرضه القرآن الكريم:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَئِيْهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾<sup>(١)</sup>.



﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾<sup>(١)</sup>

هنا فرعون يقول ما أريك إلا ما أرى ويريد أن يضع الناس الذين يعبدونه في إطار رؤيته، في إطار نظرته، يحول هذه النظرة وهذا الواقع إلى مطلق لا يمكن تجاوزه، هنا الذي يجعل المجتمع يتبنى مثلًا أعلى مستمدًا من الواقع، هو التسلط الفرعوني، الذي يرى في تجاوز هذا المثل الأعلى خطراً عليه وعلى وجوده<sup>(٢)</sup>.

لقد حاول معاوية مجدداً ثبيت الواقع الذي سيطر عليه، وحاول منع الناس من تجاوزه أو تخطيه. فحينما ساهم إلى حد بعيد في وضع الأمة في مأزق الفتنة والخروب، والتصدي لإمام الأمة<sup>ﷺ</sup> وجد أن ما يساعده على ذلك تشجيع حالة التسرب من الإسلام والالتزام الحقيقى به، وإيجاد حالة من الفوضى العقائدية والتباين المفاهيم وتشابكها وتعددتها، ليبرر كل تصرف له بأنه تأويل وأنه قد يصيب مرة ويخطئ أخرى - كما يفعل غيره أيضاً، وربما حاول إبراز سلوك الإمام<sup>ﷺ</sup> وخصوصاً أمام المغرر بهم من أهل الشام بأنه خطأ دائمي بحق المسلمين وراح يزرع الحقد الأعمى عليه في نفوسهم إلى حد قيامهم بسبه استجابة لتوجيهاته ورغباته.

أراد معاوية أن يجد مبرراً لكل تصرف منحرف من قبل (الحاكم). وعزز ذلك نظرته وتساقطه بشأن يزيد وهو (مثل أعلى) مرتب، وكذلك بشأن حاشية يزيد، وما أحاط به نفسه هو من الأبهة والفخفة والحاشية المتنعة والأمراء ورؤساء الجنود والقبائل الذين حظوا بامتيازات ورواتب وعطاءات أكثر من الآخرين. وقد روينا لنا أقصى غريبة عن حياتهم وبذخهم وترفهم.

إنه بمحاولة توطيد الحكم وتمهيد ليزيد بحالته التي هو عليها دون تحسين سلوكه

(١) غافر . ٢٩

(٢) المدرسة القرآنية: ص ١٥١-١٥٢ .



ودون بذل سوى محاولات ضئيلة بهذا الاتجاه لتحسين صورته، أراد إعداد حالة جامدة ومتكررة وملوقة لدى المجتمع الإسلامي، يدعمها بكل امكانات الدولة الإسلامية التي يرأسها بمختلف الأساليب التي تتيحها له (عقريته) الفريدة و (دهاؤه) المعروف. تظل الحالة المتكررة هي حالة الثبات المطلوب ايجاده لدى هذه الأمة.

ولم يلزم معاوية نفسه و(خلفاءه) وقواده وأمراءه بأية التزامات أخلاقية معينة، بل أعد الأمة المسلمة لتقبلهم - كما هم - وبما هم عليه من انحراف وفساد وحتى بمستوياتهم المتدنية؛ لأنه أدرك أن الذين سيأتون بعده لابد أن ينهاروا ويسقطوا إذا ما انتبهت الأمة إلى النهاذج الفريدة المتمثلة بالرسول الكريم ﷺ وآله. وإذا ما أثاروا وتفرزها ونفورها من سلوكهم الطائش الأرعن غير المحفوظ.

#### **نموذج فرعوني جاهز، ( صالح ) لكل زمان ومكان**

إن النموذج الأموي المستبد للحكم، أصبح نموذجاً جاهزاً للعباسيين، فحكموا على غراره ووفق أسسه ومعاييره، مدعين الحق الإلهي والعائلي، حكماً استبداًياً لا يقل سوءاً عن النموذج الأموي الأول، دون اعتراض من الأمة المسلمة، بعد أن مهدوا لذلك بحملات وتصفيات دموية شرسة ذبحوا في بدايتها (خصوصهم) الأمويين، ثم التفتوا إلى كل جهة (يشمون) منها رائحة العداوة والمعارضة لحكمهم، فحاولوا استئصالها. وكان في مقدمة هؤلاء (الأعداء) أو الذين يفترض أن يكونوا من أعدائهم أئمة آل البيت ﷺ. رأى بنو العباس في النموذج الأموي نموذجاً مقبولاً وصالحاً وقابلًا للتطبيق. رغم أنه كان عدواً بحكم التنافس على الحكم، وهي مسألة لا تقلل من شأن الناحية الغنية التي عليهم الإفادة منها إلى أقصى حد ممكن وقد رأينا «أن المنصور كان في أكثر أموره وتدبيره وسياسته متبعاً لهشام بن عبد الملك لكثره ما كشفه عدد أخبار هشام

وقد رفضوا بدورهم النموذج الحقيقى للحكومة الإسلامية كما شهدتها عهد رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين ؓ. فكانوا معولاً آخر من المعاول العديدة التي حاولت تحطيم النموذج الصحيح، وجعله يبدو صعب المنال أمام الأمة وأن لا أمل بارتقابه أو التطلع إليه. وحاولوا إخفاء خلف العدد (المراكم) من (الخلفاء العمليين) الذين يصلحون وحدهم لقيادة الأمة. ان توجهاتهم كانت - أيضاً - تسير نحو الاستحواذ على الملك وحصره في أبنائهم كما فعل الأمويون من قبلهم.

#### تالله ما فعلت علوج أمية

إنهم يدركون أنهم إذا ما تناقشوا مع (المعارضة) - التي كانوا يعتقدون أيضاً أنها ستتبع من أبناء عمومتهم العلوين بقيادة آل البيت ؓ على أساس مبدئي عقائدي، فإنهم لن يستطيعوا أن يصدموه ولن يستطيعوا أن يثبتوا لهم حقاً، ومن هنا كانت الدرائع والأساليب الأموية خير معين لهم، إلا أنهم استعملوها بأسلوبهم الخاص استعمالاً مغايراً من حيث الشكل متبايناً من حيث المضمون.

فهم أقرب إلى الرسول ﷺ من آل أمية الذين ادعوا قرابته الوثيقة وارتباطهم الشديد به، وربما ادعوا أنهم أقرب إليهم من الإمام ؓ نفسه، كما حاول معاوية أن يوحى بذلك لأهل الشام خاصة، وقد تذரعوا بقربهم منه ومن آل علي ؓ - العلوين - وطالبوها بالخلافة باسمهم أول الأمر وحاولوا انتزاعها من الأمويين بهذه الذريعة. وقد روی لنا أن محمد بن عبد الله بن الحسن كتب إلى المنصور بهذا المعنى قائلاً: « وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وخر جنم إليه بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، وإن أبانا علياً ؓ كان الإمام فكيف

(١) مروج الذهب: المسعودي: ص ٢٥٠



ورثتم ولاده وقد علمتم أنه لم يطلب هذا الأمر أحدٌ بمثل نسبنا ولا شرفنا، وأنا لسنا من أبناء الظُّلَماء، ولا من أبناء الظُّلَماء<sup>(١)</sup>.

وكان مما تذرعوا به لنيل الحكم قتل يزيد للحسين<ص>: «استغل بنو العباس مقتل الحسين<ص> فدعوا لبني هاشم ثم لأنفسهم خاصة»<sup>(٢)</sup> وقد «احتاج العباسيون على الأمويين بقتل الحسين ومسلم وإبراهيم بن محمد وزيد بن علي ويجي بن زيد.. الخ»<sup>(٣)</sup> وهكذا أعادوا ما فعله معاوية حينها طالب بدم عثمان - باعتباره ابن عمه وولي دمه - مع أنه سعى ودبر لقتله - كما رأينا. وقد احتج هؤلاء بشارات الحسين<ص> وأآل أبي طالب، ثم عندما استلموا السلطة تنكروا لأولئك الذين جعلوهم ذريعة للوصول إلى هذه السلطة.

لقد سعى الجميع لتشويت الوضع وتجميده على الأسس التي وضعوها، ملكية وراثية مستبدة، مطلقة وغير مقيدة. قول (الخليفة) هو القانون وعمله هو (السنة) وأحكامه هي الضرورة!

**تأويل أحاديث.. قريش للخلافة.. ولا يهم أن يكون الخليفة من أي البطون**  
لقد استغل معاوية ما فعله من جاء قبله وسعيهم لحصر الخلافة في قريش وقول الخليفة الأول للأنصار: «لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش»<sup>(٤)</sup>. وعندما استخلف الشیخان أرادت قريش وممثلها عبد الرحمن بن عوف أن تجعل من سيرتهما بعد وفاتها سنة لمن يأتي بعدهما وشرطًاً أساسياً لقبوله ك الخليفة على المسلمين. ولا نظن ذلك ينطلق من

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٠٨.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٢٤.

(٣) مروج الذهب: ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٤) العقد الفريد: ج ٥ ص ١١.

نظرة الحرص على الإسلام. فإن سيرتها كإنسانين عاديين - وهو ما اعترفا به بأكثر من مناسبة - غير ملزمة بأي حال من الأحوال إلا إذا كانت مطابقة تماماً لسيرة الرسول ﷺ وإنما إذا امتلكا درجة من الوعي تتيح لهما فهم كل أحكام الإسلام وتشريعاته وأسسه بحيث تغيبهما عن الاستعانة بالآخرين في هذا المجال، وهو أمر لم يدعياه لنفسيهما، بل على النقيض من ذلك: اعترفا بقصورهما في العديد من المجالات.

### فعل الشيوخ ليس سنة «أعمل بمبلغ علمي وطاقتني»

وقد رفض الإمام رض طلب عبد الرحمن بن عوف رفضاً باتاً عندما عرض عليه الخلافة مشروطة بهذا الشرط وقال له: «أعمل بمبلغ علمي وطاقتني»<sup>(١)</sup> بينما استجاب عثمان لطلبه. وقد روى لنا الطبرى<sup>(٢)</sup> أن عبد الرحمن بن عوف قال له: «هل أنت يا علي مباعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتى، فالتفت إلى عثمان، فقال: هل أنت مباعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم».

وقد أعاد عليهم الكرة ثانية في المسجد الكبير أمام المسلمين فأعادا عليه نفس الجواب. إن عليها أدرك أنه إذا ما قبل بشرط عبد الرحمن، فإنه يعترف للشيوخين بحق التشريع مع أن ذلك أمر لا يمكن أن يكون متاحاً إلا لمن أرسل الرسالة وهو الله سبحانه وتعالى ورسوله صلوات الله عليه المسدد بوحيه وعزائم أمره وعصيمته. ولم تكن إباحة هذه الفرصة للرسول صلوات الله عليه وخلفائه من آله صلوات الله عليه اعتباطاً وبشكل كيفي، وإنما على أساس كتاب الله وأحكامه ووحيه. إن فعل الرسول وأقواله وتقريراته وكذلك خلفاؤه من أهل بيته هي ما ينبغي العمل به من قبل المسلمين، لا استثناء لأحد منهم، فما دام الشيوخان لم

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٠.

(٢) الطبرى: ج ٢ ص ٥٨٦ والكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٤٦٤.



يستطيعا تجسيد كل معطيات الرسالة في كافة المجالات وقد اعترفا بقصورهما واحتمال وقوعهما في الأخطاء كغيرهما، وما داما لم يبلغوا الحد الذي يصلهما إلى العصمة التي يمكن تغييرها بالمقاييس الإسلامية بأنها «الانفعال الكامل بالرسالة والتتجسيد الكامل لكل معطيات تلك الرسالة في النطاقات الروحية والفكرية والعملية»<sup>(١)</sup>. فإنه - وقد تمعن بتلك العصمة- لا يستطيع أن يسير خلف من يحمل خطؤه ويجعل من عمله سنة وشرعية.

ندم متاخر «فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء». وقد ندما هما شخصياً على الكثير من المواقف التي وقفاهما في حياتهما وعلى الأخطاء التي صدرت عنهم.

فقد ورد عن أبي بكر قوله: «فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء، وإن كانوا أغلقوه على الحرب»<sup>(٢)</sup>.

وورد عن عمر أنه لما ثقل وضع خده على الأرض وقال: «ويل لعمر ولأم عمر إن لم يعف الله عنه»<sup>(٣)</sup>.

وقوله: «ولو ددت أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لا لي ولا عليّ»<sup>(٤)</sup>.

وكان يعلم قدرة الإمام عليه السلام على تجسيد الرسالة في كل المجالات الروحية والعملية. وقد أعطى السبب في اقصائه عن مركز القيادة بعد وفاة رسول الله، وقال ابن عباس: «ما يمنع قومكم وأنتم أهل البيت خاصة؟ إنكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا: إن

(١) أهل البيت: ص ٧٤.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٩.

(٣) العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٥.

(٤) العقد الفريد: ج ٥ ص ٣١.



فضلوا بالخلافة مع النبوة لم يبقوا لنا شيئاً، وإن أفضل النصيبين بأيديكم، بل ما أخاها إلا مجتمعة لكم، وإن نزلت على رغم قريش»<sup>(١)</sup>.

وربما أراد أن يستدرك الأمر عند وفاته، وقد صرَّح قبيل ذلك قائلاً: «قد كنت أجمعت بعد مقالتي بكم أن أولى رجالكم أرجو أن يحملكم على الحق، وأشار إلى علي»<sup>(٢)</sup>.

وإذاً، فإن هذين الرجلين مهما بلغ مركزهما وهما يعترفان للإمام بالفضل والسبق والكفاءة - مع أن هذا أمر مشهود به ومعترف من قبل الجميع حتى أعداء الإمام أنفسهم - ويُشيدان بانفعاله الكامل بالرسالة واندماجه بها، لا يمكن أن يطالبانه بالعمل بعملاهما. وهم لم يفعلَا ذلك قطعاً؛ لأنهما يدركان أنها لا يمكن أن يكونا نموذجين كاملين مثله.

إن من دعا إلى الحكم بعمل الشيوخين، لم يكن يريد مصلحة الإسلام بلا شك - بل أراد ترسيخ نمط من الحكم لا يلتزم بدقة بالنمط الأول الذي أوجده رسول الله ﷺ، ويسمح لنوع من (الاجتهاد) الكيفي المبني على القياس في أغلب الأحيان ويتيح مجالاً لخروج أكثر عن التعليمات والتشريعات الإسلامية صرامة وجدية.

وياليت من قبل العمل بستتها وعملها قد عمل بذلك فعلاً والتزمه لكان ذلك المحمد قبولاً إلا أن من قبل ذلك، يبدو أنه تعمد أن يخرج حتى عن الحدود الدنيا المطلوبة.

وقد استفاد معاوية من كل ذلك ووظفه لخدمته. فما دام الأمر لابد أن يكون في قريش (أما في أيها فهذا لا يهم في نظره)، فإنه أصبح بذلك يمتلك المؤهل الأول والشهادة المعترف بها من قبل الجميع وهو انحدار النسب من بنى عبد مناف، وأصبح

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٣.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ٣١.



يلوح للناس دائمًا بقرباته من النبي ﷺ ثم بمصاہرته عليه السلام، إذ إنه زوج أم حبیبة.

وقد رأينا في بعض رسائله التي أرسلها للإمام علیه السلام وأراد لها أن تنتشر بين الناس، تلویحه بالقرابة والنسب إلى غير ذلك ونشره الحديث الموضوع عن الرسول عليه السلام: «دعوا لي أصهاري...!!» وأغلب الظن أنه أراد بذلك أن تقرأ هذه الرسائل على أهل الشام، ليبين لهم علاقته (الحميمة) بالإمام وأنه لا يفرق عنه إلا من حيث سابقة الإمام علیه السلام في الإسلام. وهو أمر جعله معاوية في نظر الشاميين غير ذي أهمية، ما دام أن معاوية في نظرهم لا يقل عن عثمان نفسه وما دام يمتلك المؤهلات الكافية الأخرى مثل النسب والدهاء والقدرة على السياسة والحكم وإدارة الدولة وأنه من أصهار النبي عليه السلام.

**العالم الرباني.. ورث علم الرسول عليه السلام «يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علمًا».**

لقد رفض الإمام علیه السلام أن يتلزم نهج الخلفتين السابقتين وقال: «اعمل بمبغض علمي وطاقتني»؛ لأنه كان أعرف بنفسه من الجميع وكان يدرك عمق صلته بالإسلام وقوته انفعاله بمعطياته المختلفة، فهو أول الأئمة الذين «عقلوا الدين عقل وعایة ورعاية لا عقل سمع ورواية»<sup>(١)</sup> كما عبر هو عن نفسه «يرفع لي -يقصد الرسول عليه السلام- في كل يوم من أخلاقه علمًا ويأمرني بالاقداء به. أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة»<sup>(٢)</sup> وقد قال له رسول الله عليه السلام «إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى، إلا أنك لستبني ولكنك وزير وإنك لعلى خير»<sup>(٣)</sup>.

إن تلك البصيرة المفتوحة، رفضت أسلوب توزيع المناصب الذي جرى بعد رسول الله عليه السلام بالشكل الذي تمت فيه، ليحجز منصب الخلافة لقريش لمجرد أنها قريش. فقد

(١) نهج البلاغة: ص ٥٠٩.

(٢) نهج البلاغة: ص ٤٣٧.

(٣) نهج البلاغة: ص ٦٧٧.

صرح: «أن ولی محمد ﷺ من أطاع الله وأن بعده لحمته، وإن عدو محمد من عصى الله وإن قربت قرابته»<sup>(١)</sup> وقد سخر ﷺ عندما انتهت إليه أخبار السقيفة وقول قريش للأنصار بأنها شجرة الرسول ﷺ، فقال ﷺ «احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الشمرة»<sup>(٢)</sup>.

لقد حاول معاوية - كما قلنا - استئثار هذا الأمر وهو أنه من قريش شجرة الرسول ﷺ التي ينبغي أن تختص وحدها بخلافته، أما من يكون هذا الخليفة، فهو لا يهم ما دام قد خرج منذ البداية عنمن كان ينبغي له أن يكون خليفة. وقد عمل على ترسينغ أمر آخر واستئثاره وهو اختصاص الخلافة بسلالته والعمل على أن لا تخرج منها بأي حال من الأحوال بعد أن أصبح هو ( الخليفة) وعرض على هذا المنصب بالنواجد. وقد أوجد حالة جديدة لم يكن أحد قبله يجرؤ عليها وهو تمهيد الأمر لأولاده من بعده. وقد اعتذر عمر عندما أشير عليه أن يولي ابنه قائلًا: «حسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد من أمة محمد ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

### ما دامت قد وصلت إلى معاوية.. فما المانع أن تصل إلى يزيد؟

إن المعلومات المتوفرة لدى معاوية تجعله يدرك بلا شك الدور الذي أعد له الإمام ﷺ من قبل رسول الله ﷺ لاحتلال المركز القيادي الأول في الدولة الإسلامية بعد غيابه ﷺ، وقد اطلعنا على الرسالة التي بعث بها إلى محمد بن أبي بكر والتي يعترف بها بحقيقة الإمام بهذا المركز، كما كان يدرك أيضاً الدور الذي أعد له أئمة آل البيت ﷺ كقادة للأمة؛ وذلك لما تواتر إلى سمعه من أقوال وأحاديث صحيحة بهذاخصوص لم تكن لتخفي عليه وهو المراقب اليقظ. وكان بعمله على منافسة الإمام ﷺ على هذا

(١) نهج البلاغة: ص ٦٧٧.

(٢) نهج البلاغة: ص ٩٨.

(٣) العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٥.



الدور، إنما كان يعمل على انتزاع هذه القيادة من الأئمة عليهم السلام إلى الأبد، ويلغي بذلك قيادة رسول الله صلوات الله عليه وسلم نفسها، أي قيادة الإسلام ويجعلها في سلاله بديلة هي سلالته هو، مادام قد نجح في بث مفاهيمه الجديدة بمختلف الأساليب ونجح - نفسه - في الوصول إلى المركز الأول في الدولة بدليلاً عن الرسول صلوات الله عليه وسلم. لقد وجد أن ما طمح إليه غيره ليس مستحيلاً عليه، وإن ما وصل إليه ليس مستحيلاً على أولاده من بعده. وهكذا صرَّح أن يزيد أحق بالأمر من غيره. من أبناء (المنافسين) الآخرين، وقال: «إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، فابني أحب إلي من أبنائهم»<sup>(١)</sup>. فلم يكن يرى أن أحداً يمكن أن يفضل ابنه بشيء حتى وإن كان من آل بيت النبي صلوات الله عليه وسلم أنفسهم، فما دام هو قد نافس علياً، وانتزع الخلافة من الحسن، وأخضع الأئمة كلها لحكمه وسلطانه، فما الذي يمكن يزيد من أن يكون خليفة بعده؟

وقد أراد تصوير أمر تسلسل الخلافة لدى الأئمة وكأنه استئثار للسلطة من قبلهم، وأنهم خصّوا بذلك لأسباب القرابة وحسب، فحاول بدوره أن يقطع هذه السلسلة، ويستأثر بالسلطة له ولسلسلة مزيفة أخرى من السلاله الأموية البعيدة عن الإسلام.

وكان موقف الأئمة الأوائل، أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام واحداً من مسألة الخلافة والصراع عليها مع معاوية ويزيد، رغم أنه اتخاذ أشكالاً مختلفة في الظاهر، واستتكلم عنها بعد توضيح وكشف الجوانب التاريخية المتعلقة بصلاح الحسن عليه السلام وثورة الحسين عليه السلام. وقد رأينا كيف عالج أمير المؤمنين عليه السلام هذه المسألة قبل معاوية ومنذ البداية.

لقد كان معاوية يمهد لخلافة يزيد قبل وفاته بمنتهى طولية، وكان يلتجأ إلى شتى الأساليب المتاحة لديه والتي كان يراها هو مناسبة بها فيها أسلوب الإرهاب والقمع

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ١١١.



والعطاء الكيفي وبذل المناصب وغيرها - كما سنبين ذلك بعون الله تعالى.

ولم تكن المسألة أمراً هيناً وسهلاً حتى يتماهل معاوية أو يتکاسل في بذل أقصى جهوده وإمكاناته، فقد كان الأمر أمر ملك واسع عريض يستأثر به هو وعائلته إلى الأبد، وما كان معاوية الذي عرف كل مباحث الدنيا ولذائذها ليترك هذه الدنيا تسليباً من أبنائه وهو الذي نظر إليها نظرة أرضية متدينة واطئة طيلة حياته الحافلة.

**ال الخليفة أفضل من الرسول بدعة أموية جديدة ( الخليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله عليهم).**

وبعد ذلك حاول بنو أمية ادعاء العصمة لأنفسهم، وحاول بعض أعوانهم أن يدعى لها، مفضلاً إياهم على الملائكة والرسل، وفي هذا محاولة واضحة لإسكات كل صوت قد يرتفع بالاعتراض على بعض تصرفاتهم واستهجانها. معتقدين أن ذلك سيجعلهم مساوين لآل الرسول ﷺ، وحسبوا أن مجرد ادعاء ذلك سيجعل الناس مقتنعين بذلك.

فقد كان الحجاج يخاطب عبد الملك بن مروان الذي ولـي الحكم بعد يزيد بفترة قصيرة جداً بمثل هذا الأسلوب. «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين المؤيد بالولاية الموصوم من خطل القول وزلل العقل بكفالة الله الواجبة لذوي أمره»<sup>(١)</sup>.

«ما قامت السماوات والأرض إلا بها (الخلافة)، وأن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين، وذلك أن الله خلق آدم بيده وأسجد له الملائكة

---

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٦٤.



وأسكنته جنته ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفة وجعل الملائكة رسلاً إليه<sup>(١)</sup>. «إن خليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله إليهم»<sup>(٢)</sup>.

لقد كان الحجاج، هذا العبد الذليل للدولة الأموية والعامل المخلص لها، والذي كان يتمتع ببعض القدرات والامكانيات الأدبية والخطابية، يتملق رئيسه، بهذا الشكل المنحدر، رغم أنه يشغل منصباً رفيعاً، فكيف كان سيفعل من كان دونه وكان محتاجاً حقاً إلى ما يقدم إليه على الموائد السخية لهذه الدولة...

#### الحجاج يرسل لتهنئة عبد الملك على عطاسه

إنه يتنازل إلى أبعد درك هابط من الذلة، حينما يكتب إليه: «... بلغني ما كان عطاس أمير المؤمنين ومن تسميت أصحابه له ورده عليهم. فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً»<sup>(٣)</sup>.

إن نعت الخليفة من قبل أعونه ومرديه ووصفه بالمعصوم وأمير المؤمنين وخليفة رب العالمين والمؤيد بالولاية والمفضل على الأنبياء والرسول والملائكة والذي هو أكرم عند الله حتى من الرسول نفسه! وقبول الخليفة لهذه الصفات وكأنها أمر مقرر واقعي وصحيح، يدل على منتهى الاستهانة والازدراء بالرسالة العظيمة التي جاء بها الرسول الكريم ﷺ، فكأن الخليفة هنا قد تلقى أمر استخلافه من الله مباشرة، وأنه كان خليفة الله بعهد مباشر، لا خليفة رسول الله كما ينبغي أن يكون فعلاً. ومع ذلك فإن هذا التهادي الذي ولده الأمر الواقع المعاش وهو وجود عبد الملك وأضرابه على رأس السلطة حاكماً مستبداً عاماً بأمره وهواء، قد سوغ له أن يعتقد أو يجعل الناس يعتقدون بأنه يتمتع

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٨٤.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٨٥.

(٣) العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٨٦.



بموقع ممتاز قريب من الله لا يتمتع به رسول الله نفسه.

فلا عجب أن أعلن الوليد بعد ذلك كما أعلن يزيد قبلاً انكاره للخالق والرسالة على السواء.

### نزاع غير متكافئ

لم يكن (النزاع) بين علي عليه السلام ومعاوية الذي برر خروجه وانحرافه الواسع بالانحرافات السابقة التي غيرت مفهوم الخلافة وأساسها وشكلها الحقيقي وتماديها في العطاء الكيفي، وعملت على إنشاء مراكز قوة ثرية ومتسلطة ومقربة من السلطة. لم يكن نزاعاً عادياً بين شخصين متكافئين وفق كل المقاييس والمعايير السماوية والإنسانية. وكانت (الارستقراطية) القرشية المنتعشة بفعل الامتيازات العديدة الممنوحة لها قد وضعته أمامها مثلاً لكل المصالح التي أوشكت أن تسرب من بين يديها وتذهب في غمرة ارتفاع المد الإسلامي في عهد الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه، وكذلك في عهد أمير المؤمنين عليه السلام.

وإذ إنها استعادت بعض أملها بعد وفاة الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه بإبعاد القيادة الحقيقة المؤهلة لإكمال المسيرة، فإن هذه الآمال اتسعت في عهد عثمان إلى أبعد حد عندما وجدت أنها تحقق الآن مكاسب أكثر مما حققته قبلًا. وقد رأينا الأموال الهائلة التي (حصل) عليها بعض المسلمين أمثال طلحة والزبير وعمرو بن العاص ومروان ومعاوية وغيرهم والمواقع المهمة التي احتلوها في الدولة الإسلامية التي قادها عثمان. وأنها استطاعت الإفادة من (الدين) واستثماره بشكل قد تكون قد ندمت معه على أنها حاربته قبلًا.

وعندما أوشكت هذه المطامع أن تتلاشى معها كل المكاسب التي حصلوا عليها لاحتمال عودة القيادة المؤهلة لأداء دورها التاريخي لتصحيح المسار والأخذ بيد الأمة نحو طريقها وأهدافها الصحيحة، كان هذا الاحتمال أكبر عامل لاستفزاز هذه القوى،



ودفعها للقيام بحملة شرسة مضادة للإمام، مستثمرة كل إمكاناتها ومكانتها وسمعتها للوقوف بوجهه وإعلان الحرب عليه منذ اللحظة الأولى لاستلامه مهام القيادة، كما فعلت معه قبل ذلك وكرست كل جهودها لصرف الخلافة عنه خلال حكم الخلفاء الذين سبقوه.

### كرهوا عليا ﷺ فمالوا إلى معاوية

وكان معاوية باندفاعه المتطرف ضد الإمام وبعد اختفاء منافسيين محتملين مثل طلحة والزبير وشراء شخصيات (مرموقة) ومعروفة ومؤثرة مثل عمرو بن العاص وزياد والمغيرة وغيرهم، يمثل الشخصية (الشعبية) المحبوبة إلى أهل الشام وقريش وغيرهم من رأوا في الإمام خصماً حقيقياً لهم وعاملوا للقضاء على مصالحهم ومكاسبهم. بفعل التأثيرات التي ذكرناها في غضون هذا الكتاب، والزعيم الأول للحملة المضادة للإمام والتي حشدت لها كل القوى التي لم تستطع احتمال الإسلام وسياساته و(قيوده الصارمة) ودعوته الواضحة للمساوة والعدالة بين كل الناس في العطاء والجاه والمكانة وكل شيء.

### «لو كان لي المال لسويت بينهم» أمير المؤمنين ﷺ

لقد قال الإمام ﷺ عندما عותب على التسوية في العطاء بين الناس: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟! لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله، إلا وأن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله. ولم يضع أمرؤ ماله في غير حقه ولا

عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودهم».<sup>(١)</sup>

---

(١) نهج البلاغة: ص ٢٩٤.



«فَمَا آخَذَ مِنْ مَالِ اللَّهِ فَهُوَ لِي» (معاوية)

وإذا كان معاوية يعرف حزم الإمام في هذه المسألة المهمة، وهي مسألة المساواة في العطاء حتى أنه ساوي نفسه مع الآخرين، فإنه رد عليها باعلان رسمي واضح «وعنده وجوه الناس قائلاً: الأرض لله وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزًا لي»<sup>(١)</sup>.

إن نظرية معاوية هذه وإعطاءه لنفسه الحق المطلق في العطاء، ما دام هو ( الخليفة لله) نظرة هرقلية أو قيسارية بحثة تلبس ثوباً جديداً، وقد جعلت من معاوية سلطان الأرض الذي يحكم كيفما يشاء وبأي أسلوب، وكأنه مخول من الله ليعمل ما يشاء وفق رغباته وهو اه.

إن تصريحه هذا يشكل استهانة تامة بالخالق وإنكاراً لدوره وشرعيته ودينه واستهتاراً لأعماه ولم يجعله يرى أي شيء أمامه، لا الخالق، ولا الأمة التي حكمها بالعنف والارهاب.

ولو قيل: إننا نشك بصحة صدور هذا القول عن معاوية وهو الداهية الأريب.

لقلنا: إن واقع حال معاوية وتصرفاته الفعلية، تدل على أنه لا يتحرّج من التصريح بأمثال هذه الأقوال علينا وعلى رؤوس الأشهاد وأمام الأمة كلها؛ فهو قد جسده عملاً حقيقياً وفعلاً، فلِمَ يستحي من قول ما يقوم بفعله؟

إن دخوله (رسمياً) في الإسلام، أتاح له أن يرفع الشعارات الإسلامية نفسها واستخدامها في حربه الشرسة ضد الإسلام والمسلمين مثلين بقائهم الحقيقي الإمام  . فهي كانت حرباً سببها احتمال انهيار مصالح الطبقة الجديدة التي قضى

(١) مروج الذهب: ص ٥٣



عليها الإسلام وأوشكت أن تعود أقوى مما كانت. والتي أصبح القضاء عليها ثانية من قبل الإمام عليه السلام أمراً وارداً، بعد أن أعلن عن عزمه على محاربة كل عوامل الانحراف.

### ماذا جنت الأمة من غلبة معاوية؟

وإلا فأي عذر أو توجه إسلامي صحيح أو حتى منحرف بنسبة قليلة يتبع لهم إيجاد الأعذار لشن الحرب على الإمام والخروج عليه؟ ثم أي شيء حققه هؤلاء لصالح الأمة الإسلامية سوى توظيف نتائج حربهم واستثمارها لصالحهم وإقامة نظام حكم استبدادي وراثي بعد مقتل الإمام عليه السلام؟ هل تكفينا بعض المظاهر والشعارات المرفوعة من قبلهم لنفرح ونقول إن الإسلام كان بخير وأنه لم يتصدع وأن الأمة لم تنكمش وتبتعد عن دينها الذي أخذ يتسع وينتشر بدليل أن الفتوحات ما زالت قائمة؟

إننا نعيid ما سبق أن قلناه، ونتساءل: هل كان الحال سيكون كما هو، لو أن المسيرة قدأتي لها أن تستمر تحت ظل القيادة الأصلية المعدة المؤهلة؟ وهل كانت الأمور ستبدو بشكلها الذي بدت عليه، لو أن الإمام عليه السلام كان يمسك بزمام المبادرة ولم يتصد له أولئك المعادون الحاقدون على الإسلام؟

### أسف على الجهاد الصائغ

#### ما ذنب المسلمين حتى تثار الزوبعة؟

ونعود إلى كاتبنا الإسلامي الكبير محمد قطب، لقد كنت آمل أن يكون موقف الكاتب الكبير أكثر وضوحاً ودقة وواقعية وابتعاداً عن التفاؤل المضلل الذي لن يؤدي إلا إلى المزيد من الأخطاء والانتكاسات وهو يتناول تاريخ حقبة دقيقة من تاريخنا الإسلامي كان لها أكبر الأثر في النتائج السلبية التي شهدتها ويشهدها المسلمون على مر العصور واختلاف الأمكنة.

يقول الأستاذ محمد قطب: «إن قوماً من المسلمين تهولهم الزوجة التي غشيت المجتمع المسلم بالنزاع بين علي ومعاوية وبمقتل عثمان من قبل، فيحسبون أن الإسلام قد توقف أو انتهى عند هذه النقطة. ولكن الواقع أوقع من الظن.

الزوجة حقيقة لا شك فيها والمد الإسلامي بعدها حقيقة لا شك فيها كذلك! فما بالنا نقف عند الزوجة ولا نلتفت إلى المد؟! إنها معجزة هذا الدين أن يستوعب الصدمة المدمرة، ثم يقوم معاف يستأنف نشاطه كأنه لم يصبه شيء»<sup>(١)</sup>.

### ألم تعرقل هذه الزوجة المد الإسلامي؟

ونتساءل: ألم تعمل هذه الزوجة على عرقلة المد الإسلامي بشكله الصحيح؟ لا المد الأفقي الفارغ من كل محتوى والذي قد لا يعني عند الكثيرين إلا ما عنده بعض الغزاوة المعروفين على مر التاريخ. أما كانت مسيرة الإسلام لولا تلك الزوجة قد انطلقت بشكل صحيح لتحتوي كل أمم العالم وشعوبه، خصوصاً وإن هذا الدين يمتلك معجزته الذاتية القوية، وحجهة الباهرة الغالية التي تمكّنه من تخطي كل الحواجز وال النفاذ إلى كل بقاع الأرض؟ إذا ما أتيحت له (الأدوات) المخلصة الكفوءة الحريصة المتّسّكة المستمرة في جهادها غير التكاسلية والتي لا تريد (الفتوحات) حباً بالغنائم وحب التوسيع وحسب؟

ما كان سيحدث لو أن الولاية العادلة لم تنقطع بوفاة أمير المؤمنين رض أما كان أولئك الذين وصلوا أطراف الأرض وفتحوها، قد أضافوا إليها أطراضاً أخرى وجعلوها ضمن أقطارهم الإسلامية وشعوبها ضمن شعوبهم الإسلامي ولم تكن عدوة للإسلام كما هو حالها إلى اليوم؟ أما كانوا سينهلون من النبع الصافي العذب للإسلام بدلاً من

(١) كيف نكتب التاريخ: ص ٩٨



أوشاب وأكدار وأقدار الأطهاع والانحراف والتزوير والتلفيق الذي قام به أولئك الذين تسلطوا على رقاب المسلمين ووضعوا (فلسفات وقيمةً جديدة) لتبصير وجودهم وأنظمة حكمهم الاستبدادية الفردية؟ ثم هل كانت أمور حكم البلاد الإسلامية ستظل بيد السلالات الفاسدة الكسولة التي حكمت باسم الإسلام، لتصل أمور المسلمين إلى الحال السيء الذي وصلته طيلة مئات عديدة من السنين وإلى الآن؟

فلمَّا السكوت والسماح لهذا الخطأ القاتل بالمرور دون أن تتناول أبعاده وجوانبه باعتبار أن الزوجة مرت وأن الله سلم وأنه حفظ دينه من الضياع والانهيار ونشره في كل بقاع الأرض. والدليل على ذلك وجود المسلمين في كل مكان، ولا داعي بعد هذه (المكاسب الكبيرة) التي حققها حكام الإسلام لإثارة الموجع والخلافات وتقليلها كما يقول المعاصرون. رغم أنهم يعترفون بعد كل ذلك بالخسائر الكبيرة والويلات والحروب التي جرتها أطهاع أولئك الحكام وحربهم وخلافاتهم مع بعضهم؛ مما انعكس آثاراً سلبية لا تزال آثارها الدمرة تغلف العديد من جوانب حياتنا وواقعنا.

### هل كان كل ذلك الدمار مجرد فتنـة؟

إننا ينبغي أن نشخص الطرف المخطئ المنحرف، ثم نكف عن تسمية الأحداث الهائلة التي شهدتها الأمة الإسلامية المظلومة وعانت منها والتي أحدها بشكل أساسى خروج معاوية وجمعه على الإمام عليه السلام بـ (الفتنـة) التي وقعت بين (فتـين من المسلمين)، (اجتهـدا) وكان (كل منها مصـباً)، وهذا الدمار الهائل لم يكن من فعل أحد. فقد وقى الله المسلمين الشر فيما بعد، واستقامت الأمور والحمد لله على هذه الحال السعيدة التي نجد أنفسنا عليها الآن بعد انكشف الغمة في ظل أنظمة إسلامية صحيحة مائة في المائة وكل حكامها مصـيبـون يعملون (باجـتهـادـهم)!!



## انقلاب على الإسلام

لقد حدث انقلاب هائل على الإسلام، نتيجة هذا الخروج السافر المتعمد من قبل معاوية وخلفائه - كما رأينا - في منهج الحكم وشؤونه وفي كل شيء، وهذا أول تشويه متعمد معلن حصل في التاريخ الإسلامي، ولم يكن تشويهً بسيطًا يمكن علاجه أو إصلاحه أو احتفاؤه بعملية تجميلية بسيطة، بل إنه اتسع وامتد ليشمل كل رقعة في بقاع المسلمين وكل جانب من جوانب حياتهم التي أريد لها أن تتعايش وتنسجم وتخضع لأسلوب الحاكم وفلسفته. (فال الخليفة) ليس موظفًا بسيطًا لا أثر له في حياة الناس، وقد جاء إلى الحكم نتيجة كفاءته العالية ومميزاته النادرة ووفق رغبة الأمة وإرادتها، بل إنه الرعيم الذي يفترض أن يكون القائد والإمام والقدوة والرمز. وبكلمة: المؤهل لحمل رسالة النبي الكريم ﷺ خليفة له وتجسيدها سلوكياً وعملياً في كل الأوقات والمناسبات وال المجالات.

### أطروحة أموية لا داعي للمواصفات الصارمة .. فليكن الخليفة فاسقاً وجاهلاً

وإذ إن مواصفات خليفة رسول الله ﷺ كما أرادها هو عليه السلام لا تناح لجميع (الخلفاء) وإن قسماً منهم لم يكلف نفسه حتى بالالتزام المظيري بالجوانب الأخلاقية والسلوكية التي جاء بها الإسلام، فقد راح كثير من (العلماء) المسلمين، وربما كان ذلك بوعي وإيعاز من (الخلفاء) أنفسهم، يحددون الصفات، أو الحد الأدنى من الصفات التي ينبغي أن تتجل ويتخلق بها هؤلاء (الخلفاء)، وهل أنتم ينبغي أن يكونوا أعلم أهل زمانهم أو أتقاهم أو أعدهم. وأفتى هؤلاء بأنه لا يشترط أن يكونوا كذلك، وأنه لا يجوز عزهم حتى وإن كانوا فاسقين، وأن للعلم والعدالة والفقه والزهد رجالها المتخصصين يزيرون دولهم، وما عليهم إلا أن يكونوا قيمين عليهم وعلى الجميع، ولا بأس بأن يستعينوا بآرائهم وفتاواهم ولكنهم غير ملزمين بالأخذ بها. وهذه الأخيرة - وإن لم يقلها بعضهم



صراحة إلا أن واقع حاهم وسكتهم عن كل انحراف عَبَرَ عنها أبلغ تعبير.

وقد بينا (الأحاديث) والقصص التي رويت عن الرسول ﷺ عن طريق ابن عمر وغيره بخصوص عدم جواز الخروج عن الخليفة الفاسق أو عزله «لأجل ما يثور بسبب ذلك من الفتنة ووقوع المرج..».<sup>(١)</sup>

### أطروحة أموية أخرى الخليفة غير محاسب حتى أمام الله

فأي دين هذا الذي لا يحيى محاسبة الخليفة الفاسق المتاجر بالمعاصي، ويحيى كل خروج معلن أو غير معلن - من قبله - عنه وعن أحكماته وحدوده وقيمه الحياتية والأخلاقية؟ هل هو الإسلام الذي جعل الأمر كيُفياً بيد الخليفة يتصرف كيف يشاء ما دامت الأرض لله وهو (خليفة الله) كما عبر عن ذلك معاوية صراحة؟ هل لم تكن للإسلام تشرعات محددة وخاصة تشمل كل أمور الحياة منها كانت صغيرة أو قليلة الأهمية بنظر البعض؟ أليس حلال محمد ﷺ حلال إلى يوم القيمة وحرامه حرام إلى يوم القيمة؟ وما المبرر وراء تغيير التشرعات الإسلامية والبعث بها وحفظها بعيداً عن الاستعمال وعن حياة الناس؟

وهل وجدت تشرعات خاصة بالحكام والخلفاء والملوك وتشريعات خاصة لعلوم الناس؟ وهل أتيح لهؤلاء (الخلفاء) ما لم يبح لهم في المسلمين؟

وعلى أي أساس (تأول) معاوية، فغير وبدل بهذا الشكل المنكر الخطير، وقيام من جاء بعده بنفس هذه المهمة المدمرة بشكل أكثر خطراً؟ كيف أتيحت له هذه العقلية النافذة ليضع أحکاماً من عنده بدائلة عن الأحكام الإلهية وتغييرها ونسخها إلى الأبد، وتبدل سنة الرسول ﷺ بل واستبعادها إلى الأبد؟ أليس هذا هو ما فعله بالضبط

---

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٣٥.

عندما استبعد الإسلام واحتفظ ببعض مظاهره وشكلياته لتبرير شرعية بقائه وجوده (خليفة) وحاكمًا؟

صحح أنه لم يصرح أحد—إلا من ذكرنا—أنه لا يريد الإسلام وأنه لا ينسجم مع خططه ولا يتحقق طموحاته، ولكن ألا تدل أفعالهم أنهم رفضوا الإسلام فعلاً وأنهم جردوه من محتواه ومن قيمه الأساسية ليظل سلعة يتاجرون بها في أسواق الحكم والسياسة والتسلط؟

إن عمل معاوية كان بالاتجاه ترسيخ وجود مؤسسة حاكمة، يدرك أنها ما دامت غير مؤهلة أمم المسلمين، لاستلام السلطة وفق أحكام الشريعة المعروفة، فإن عليه أن يبدل هذه الأحكام أو تفسير بعضها لصالح هذا الوجود المفتعل الطارئ لجعله مقبولاً وشرعياً وأنه الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الدول ويحكم بموجبه الحاكمون، (خلفاء) وغير خلفاء، من خلال تركيز الأضواء على شخصية الحاكم كسلطان مطلق مخول بسلطات استثنائية، ويتمتع بحقوق لا حدود لها — وكما عبر معاوية عن ذلك صراحة كما ذكرنا، عندما قال بأن الأرض لله وهو خليفة الله يعطي من يشاء ويمتنع من يشاء. وأنه لم يقاتل الناس ليصوموا أو ليصلوا أو ليحجوا أو ليذكروا وإنما ليتأمر عليهم وينشر عليهم سلطانه، وكما عبر قائد يزيد مسلم بن عقبة لأهل المدينة عندما أراد بيعتهم على أنهم خول ليزيد يتحكم في أرواحهم وأموالهم وأعراضهم كما يشاء.

إن معاوية بذلك يعلن أنه غير مقيد بقانون أو تشريع معين، وبصريح العبارة ليس مقيداً بالتشريعات التي جاء بها محمد ﷺ، وأنه غير ملزم بالسير وفقها وتنفيذها. وأنه غير معني إلا بتبني ملكه على الأساس الذي يراه هو. وقد وجد لكل حالة ما يبررها قانونياً أمم المجتمع المسلم، كالحفاظ على وحدة المسلمين ومنع وقوع الفتنة والهرج، وعدم جواز نزع البيعة حتى من (الإمام الفاسق) الخ !!



## لابد من تشخيص الداء

إن ثبيت الوضع وتحميده على الأسس التي أقامها معاوية، كانت كفيلة بإبعاد الإسلام نهائياً عن الساحة وطرده من الحياة وتهميشه أو تحييده على الأقل، وجعل الوضع الجديد الذي تكرس له الفئة الحاكمة الجديدة، هو المقبول، بل والمطلوب. ومن خلال جعل الحكم وراثياً، أريد لهذه الحالة التكرارية التي تعمل بنفس الأسلوب أن تكون هي الحالة المقبولة أيضاً.

ونعيد ما قلناه في موضع سابق، إن لو تسأله سائل: ما الضرر في تكريس الحكم في عائلة واحدة؟ أليس الأمر يحدث في أنحاء متعددة الآن؟

ونؤكد. أننا نتحدث عن قيم إسلامية بحثة، وليس عن صراع بين ملكتين أو جمهوريتين في عهد جاهلي حديث القيم والمفاهيم.

إن التبرير الذي حاول معاوية إقامة كيان دولته عليه هو تبرير (إسلامي)، أو هكذا أراده أن يبدو أمام الجميع.. كما أن ترشيحه يزيد للحكم أراده أن يبدو وكأنه الأمر الوحيد الذي فيه مصلحة الأمة الإسلامية والذي يحقق وحدة المسلمين. فلم يخرج المسألة إخراجاً مكشوفاً بل جعلها تبدو مسألة إسلامية بحثة؛ وإذا إن الإسلام قد غدر واستغل هذا الاستغلال الشنيع، وإذا أنه دين المسلمين والأمر الوحيد الكفيل بتحقيق مصالحهم، فمن حق المسلمين أن يناقشوا أمر كل من تعرض له وحاول تزويره وتحريفه واستغلاله والعبث به، وطبيعة الأحداث التي تم فيها كل ذلك، ليحاولوا تقويم وتعديل وتصحيح ما زور وحرف.

إن تشخيص الداء لابد أن يضعنا أمام حقائق ينبغي أن لا نخجل من عرضها أمام أنظار أبناء الإسلام وأمام الآخرين على السواء. فنحن الآن على أي حال لستا طرفاً



مباشراً لأي انحراف سابق لسبب بسيط، وهي أننا لم نكن موجودين في ذلك الوقت. غير أن تبنينا موافق الأشخاص أو القوى (المتصارعة) في ذلك الوقت يجعلنا شركاء متعاطفين، بل فعليين من أولئك تتخذ نفس مواقفهم وتتبني آراءهم بوعي أو بدون وعي أحياناً.

إننا قد نتبني موافق مسبقة جاهزة مطروحة، ونتلقاها بحكم نشأتنا، وبحكم البيئة التي وجدنا أنفسنا نعيش فيها، وسلسلة الآباء الذين ربّي بعضهم بعضاً.

ولا بد لنا، لكي نخرج أنفسنا من قيود التصورات المسبقة المتبناة والقائمة على أسس عاطفية متحيزة، أن نقيم تصوراتنا وموافقتنا وأرائنا على الحقائق والواقع والمصالح الحقيقية لعموم الأمة الإسلامية الآن، بعد أن انكسرت تلك الأحداث. وبعد أن بقينا لفترة طويلة، ونحن لا نجد ما يدعونا إلى الجلوس سوية لمناقشة همومنا ومشاكلنا وحياتنا. لكي لا ندع لأعدائنا الذين تركوا أسلحتهم التقليدية وتسلحوا بأسلحة حديثة فرصة ضخ المزيد من سمومهم ونظرياتهم وأفكارهم البراقة الخادعة في صميم حياتنا الداخلية حينما يبدون في نهاية المطاف حريصين علينا أكثر من حرصنا على بعضنا. بل أكثر من حرص خالقنا الرحيم - جل وعلا - علينا !!

#### بعد الزمن لا يمنعنا من دراسة الأحداث

إن المسافة الزمنية البعيدة التي تفصل بيننا وبين الأحداث السالفة الذكر، لابد وأن تجعلنا ننظر إليها بهدوء أكثر ونناقشها بمزيد من الوضوح والحرية، بعد أن كشفت لنا نتائجها أيضاً، ولا بد أن هذه النتائج لم تتحقق مشاهدتها لأولئك الذين كانوا طرفاً في صنعها. ولو أن بعضهم كان يعلم أن الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه بعد ذلك، فربما لم يشتراك فيها على الإطلاق، ولما كان قد اتخاذ موقف الذي اتخذه منذ البداية، وربما اتخاذ



المواقف المغايرة التي كان يحاربها.

إن صحة الموقف وسلامته لا تتحكم فيها التفكيرات المجردة أو تصورات المرء المشارك فيها وقت الحدث، وإنما قد تؤكدها نتائج هذا الحدث فيما بعد. ولكن أنني للإنسان أن يعلم ذلك وهو غيب من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله؟

ولو تساءلنا، على ضوء النتائج التي اتضحت لنا بعد كل هذه المدة الطويلة: لمصلحة من كان ذلك الخروج المتعمد من قبل معاوية على الإمام علي عليه السلام وعلى الإسلام؟

هل كان لمصلحة عموم المسلمين، أم أنه كرس لمصلحة البيت الأموي بشكل خاص؟ وماذا جنى المسلمون من ذلك؟ وما هي المكتسبات الكبيرة التي حصلوا عليها؟ وعلى أقل الاحتمالات: ماذا كنا سنخسر لو لم يكن معاوية زعيماً للأمة الإسلامية ولم يكن يزيد من بعده ومروان وعبد الملك والوليد ويزيد وهشام وأضرابهم؟ هل قام دين محمد لأجل هذه الحفنة من الفراعنة، لكي يتمتعوا بكل اللذائذ الحية وألوان الترف والمباهج غير المتاحة، بشكل فاق حتى ذلك الأسلوب السافر الذي كان سائداً في الجاهلية الغارقة في أحوال الرذائل والدناس؟

هل قضى الإسلام على الجاهلية القديمة التقليدية البسيطة المكشوفة، ليكون وسيلة خلق وإيجاد جاهليات مركبة تتخذ منه ستاراً لها رسانتها وغضاء شرعاً تظهر به أمام الناس مع أنها أبعد ما تكون عنه وعن قيمه وشرعته؟

### **الفتوحات الإسلامية.. مكاسب للمسلمين أم لحكامهم**

وهناك مسألة مهمة ينبغي التعرض لها هنا، ونحن نتكلّم عن بعض ملامح المجتمع الإسلامي في بداية العصر الأموي، وهي مسألة الفتوحات الإسلامية التي ضمت شعوباً كثيرة إلى حضيرة الإسلام وعادت على الدولة الإسلامية بواردات وكنوز هائلة

من البلدان المفتوحة. وهي مسألة احتج بها العديدون من يؤيدون النهج الأموي في الحكم والحياة.

وتساءل: من كان ينبغي أن توزع غنائم الفتوح وكنوز البلدان؟ وهل كان ينبغي أن تتأثر بها قلة محظوظة مقربة إلى الحكم لتتكدس في جيوبهم وخزائنهم؟ وهل أن كل ما أخذ كان يتم بطريقة صحيحة؟ وهل حققت الفتوحات أهداف الإسلام أم أهداف الحاكمين؟ وهل لم تزد على مجرد إضافة بقعة إلى الرقعة التي يحكمها (الخليفة) ويستثمر مواردها وكنوزها لنفسه وأعوانه، ثم يتفضل على جماهير المسلمين بفضولات ما أخذ وسرق من الشعوب المقهورة؟

لقد أقر (الخليفة) الأموي الأول سياسة التصرف الكيفي بالأموال من قبله هو ( Khalifa ) خمول من قبل الله عز وجل تخوياً مباشراً، وليس ك الخليفة لرسول الله عليه السلام يتقييد بما جاء به وأقره من تشريعات في مجال المال وفي غيره من المجالات الأخرى. وقد دل واقع الحال الذي تصرف به معاوية أنه لم يكن يعي أهمية لما جاءت به تشريعات الإسلام. ولم يجد أن تصرفه هذا كان خطأً إلا بعد فوات الأوان، أي عند موته بالضبط، مع أن ما قام به لم يكن حلاً لتراثه ذمته وتبشير انتهاكاته وإنهاء حساباته إلى الأبد، فإن «معاوية لما احتضر أوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال»<sup>(١)</sup>.

### أموال أسطورية

ولم يقل لنا أحدكم كان النصف الثاني المتبقى. وعلى أي أساس أو مبرر رد النصف الأول. وهل كان هذا النصف الذي رد إلى بيت المال يجسم المسألة ويحدد الحساب نهائياً؟ وهل حل بذلك ما أوجده من ارتباك في نظام الاقتصاد الإسلامي؟ وهل جعل

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٤.



حاشيته وأعوانه وقواده ومريديه يردون نصف أموالهم كما فعل هو، أم أنهم لا يزالون بحاجة إليها لأنهم لا يزالون أحياء؟

لقد رأينا كيف أنه منح مصر طعمة لعمرو بن العاص يتصرف بها كيف يشاء، عندما ساومه بشكل علني وعرض عليه أن يقف بجانبه بهذا الشمن المغربي. ولا تعوزنا الأمثلة على تصرف معاوية الكيفي بأموال المسلمين، وقد تكلمت عنها كتب التاريخ بإسهاب وتفصيل.

### أين قارون منهم؟!

ورغم هذا التبادي في التصرف الكيفي بأموال المسلمين، فإن معاوية قد ييدو متحفظاً ومتقشفاً إذا ما قيس بمن جاء بعده من (الخلفاء) أمثال هشام والوليد وأضرابهم. فقد روي أن هشاماً «خرج حاجاً فحمل ثياب طهره على ستمائة جمل»<sup>(١)</sup>. وروي أنه كان «يستجيد الخيل، وأقام الحلبة، فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس»<sup>(٢)</sup>.

لم يكن معاوية نفسه ليتظاهر بهذا الترف، ولعل الحوادث التي عاشها لم تتح له ذلك، ولم يكن هشام يبلغ هذا المبلغ من الترف المفرط لو لم يكن قد استأثر بأموال المسلمين. وقد يكون وزن الذهب الذي ملكه أكثر من وزن الثياب التي حملها على الجمال الستمائة وقد يكون أكثر من وزن الجمال أنفسها. فهل هذا وأمثاله من كان ينبغي أن يكون (خليفة) شرعاً لرسول الله ﷺ يستأمنه الله على خلافة أمته وأرضه؟ وأية مقاييس أو شريعة إسلامية واضحة سار عليها هؤلاء (الخلفاء)، لكي نقول إنهم أدوا

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٨٠ .

(٢) مروج الذهب: ص ٢٤٩ .

واجباتهم؟ وأي اجتهاد أباح لهم التصرف بأموال الأمة ومقدراتها بهذا الشكل العبلي الكيفي؟

### شدّتهم الأرض فلم ينظروا إلى السماء

لقد تجاهلت (القيادة الإسلامية) السماء في هذه الحالة، ولم تعد تتطلع إليها، وعملت على إيقاف طاقة المجتمع المسلم لتحويلها من طاقة مبدعة، محركة، متجدة إلى حالة سلبية متأخرة لا تمتلك أي قابلية على الإبداع والحركة والتأثير، وتحولت الدولة إلى مستغل كبير يستأثر بأموال وجهود الآخرين ويوظفها لمصلحته ويضعها في جيوب القلة المناصرة له والتي يستند كرسي الحكم بحماس الشريك المستفيد. وتحول (ال الخليفة) إلى متصرف كيفي ومحكم أعلى بكل شيء وانقلب إلى لص وقاطع طريق مسلح لا يملك أحد الوقوف بوجهه أو محاسبته ناهيك قطع يده.

### لا تلاعب بالتشريعات الإلهية

إن المسلمين - من وجهة نظر الإسلام - لا ينظرون إلى الأرض باعتبارها جزءاً منفصلاً عن السماء، بل إنهم يعتمدون صلاحيتهم كخلفاء على الأرض من السماء نفسها، ويعملون على التطور والإبداع انطلاقاً من شعورهم بمسؤولية هذه الخلافة المقيدة بتعاليم السماء وشروطها وقوانينها وقيمها. اخوة تحت مظلتها، لا يتتجاوزون بعضهم على بعض ولا على تلك القوانين التي استظلوا بها تحت أي ظرف ولأي سبب. سواسية لا طواغيت ولا أرباباً من دون الله.

ولا كما صور معاوية الأمر، حكماً كفياً غير مقيد. (فخلافته) لرسول الله عليه السلام نفسه - كما نادى بذلك العديد من أتباعه ومرديه والمخدوعين به - تفرض عليه العمل بما جاء به الرسول عليه السلام وعمل به، وأي خروج متعمد - بأية دعوى أو ذريعة - يعني الخروج



السافر على مقومات هذه الخلافة نفسها. وما كان لرسول الله عليه‌الله نفسيه - وحاشاه ذلك - أن يأتي بشرعية أو قوانين من عنده، أو يجافي بعض ما أمره الله سبحانه أن يظهره للناس.

ونلمس من الخطاب الإلهي والتحذير الشديد من الخروج ولو بشكل جزئي عن الأقوال والتعاليم والتشريعات الإلهية، مغبة قيام الناس بإيكال مهمة التصرف بالتشريعات الإلهية لأنفسهم؛ لأن المجتمعات البشرية ستكون مليئة بالنقائض ومزدحمة بالتشريعات المتضاربة التي ستجعل منها عدوة لبعضها، منقادة للمشروعين (الحكام) الذين ينطلقون حتىًّا من تصورات ونزعات خاصة لا يقيدها قانون أو نظام أو مبدأ مقر من قبل الجميع. وسيكون ذلك مدعاة لفوضى متزايدة على مر السنين وصراعات بين (المشروعين) الذين سيدّعون العصمة والكمال والفهم، وبين الشعوب والأمم التي يتسلط عليها أولئك المشروعون المohoibون..!! وهذا ما حصل فعلاً ويحصل الآن. وقد يكون علة دمار وخراب هذه الشعوب المصطهدة المستضعفة.

إن الجريمة تتضاعف عندما يمنح بعضهم لنفسه صلاحية التشريع باسم الإسلام. هذه الرسالة السماوية المتكاملة التي ما كانت لتغفل عن تنظيم هذه الحياة بشكل متوازن دقيق لا يتيح بروز أية زوائد ضارة في جسم المجتمع أو أية قوى طاغوتية متسلطة مستغلة. بل تمهد لظهور حياة منسجمة، يعمل فيها الجميع وفق نسق واحد وتصور واحد واتجاه واحد كأخوة حقيقيين تجمعهم وحدة المشاعر والمصالح لا متنافسين متعادلين «فالمل慕ون الذين يهارسون إعمار الأرض بوصفها جزءاً من السماء التي يتطلعون إليها ويساهمون في تنمية الثروة باعتبارهم خلفاء عليها، وبعد ما يكونون عن الزهد السلبي الذي يقعده الإنسان عن دوره في الخلافة، وأقرب ما يكونون إلى الزهد الإيجابي الذي يجعل منهم سادة للدنيا لا عبيداً لها، ويخوضهم ضد التحول إلى طواغيت لاستغلال الآخرين ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّا هُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَةَ وَأَمْرُوا

**بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴿١١﴾ .<sup>(٢)</sup>

### سلب الخلافة، سطو غير عادل على مكاسب المسلمين

إن مجرد تصدي معاوية لحكم المسلمين، يعني السطو المعمد على مكاسب كل أولئك الذين شيدوا صروح الإسلام بدمائهم وتضحياتهم وأموالهم وعرقهم. فما كان أولئك، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ نفسه، ليستجيبوا لهذه الرسالة استجابة تامة، ويقيموا حكم الله في الأرض، ويقدموا على كل ما أقدموا عليه، لتكون محصلة المكاسب التي انتزعواها من أنىاب الشرك والطاغوت لقمة ساعفة بضم معاوية ويزيد من بعده وبيد أضرابها وأشباهها من آل أمية وغيرهم.

هل كان الذين استشهدوا في بدر وأحد وغيرها من معارك الإسلام الخالدة، وكذلك الذين هاجروا والذين نصروا وكل المجاهدين، وقد بذلوا ما بذلوه في سبيل تكريس حكومة الله على الأرض ليجعلوا ذلك مكسباً شخصياً معاوية ويزيد وغيرهما يتصرفون به كيف يشاءون، وعلى هوامهم دون واعز أو مانع أو كابح؟

وهل كان هؤلاء الذين نصروا الله في أفعالهم وأقوالهم حتى يتم لهم النصر الحاسم بذلك الشكل الذي تم ليتولوا خلافة الأرض وعمارتها وسياسة الناس وتصريف شؤونهم على أساس الشريعة الإلهية وحدها؟ هل أنهم أدوا ما كان واجباً عليهم أن يؤدوه بعد أن تم لهم النصر؟

هل أقاموا الصلاة وأتموها وأعطوها حقها، وأدوا الزكاة ولم يتلاعبوا بها. وتوجهوا إلى الله وحده يستقبلون كعبته المشرفة بوجوههم وقلوبهم. وأمرروا بالمعروف وعملوا

(١) الحج - ٤١.

(٢) منابع القدرة في الدولة الإسلامية: ص ٢٠٧.



به، بعد أن امتلكوا القدرة على العمل به، ونهوا عن المنكر ولم يرتكبوه. هل أدوا كل ذلك لتكون المحصلة في النهاية دولة من دول الطاغيت التي تكررت وشاهدها العالم بأشكال مختلفة؟

### معاوية وريث رسول الله؟

هل كانت الدولة الأموية الوليد الطبيعي لدولة رسول الله عليه السلام وأمير المؤمنين؟

لقد كان لهذا النصر الذي أحرزه المسلمون أسبابه وشروطه وتكليفه، ولو كانوا قد أخلوا بشرط من هذه الشروط، لكان نصرهم قد انقلب إلى هزيمة واضمحلال. فلم يكن الله ليمنح أعداءه نصره، وإنما لأوليائه الذين يسعون لنصره وانتهاج طريقه ... وهذا النصر مشروط كما أوضح القرآن الكريم بآيات بينات لا لبس فيها ولا مجال للتأويل أو التحريف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُبَتِّلُ أَقْدَامَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌ عَزِيزٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

### هل نصروا الله فنصرهم؟

فهل كان النصر الذي تحقق لل المسلمين على يد رسول الله عليه السلام وصحابه، مكرساً ليسقط عليهم معاوية ويزيد ويجنيان ثماره؟ وهل حقق هؤلاء مقوماته وعملوا على ادامته واستمراريته؟ وهل لم يكونوا في مقدمة الذين حاربوا الإسلام وقاوموه، هم وآباءهم من

(١) محمد .٤٧

(٢) غافر .٤

(٣) الحج .٢٢



قبل؟

وهل استطاعوا المحافظة على الأمانة الكبيرة التي انتزعا أمر الوصاية عليها بالقوة؟

إن الأمة، قد استكانت لهم، واستجابت استجابة خانعة ذليلة لنزواتهم ورغباتهم وقوانينهم الجائرة دون أن تقف منهم موقفاً حاسماً باتجاه التغيير والإصلاح ودون أن تتفوه بكلمة أو ترفع أصبعاً في وجوههم. فإن النصر الذي حققته بدمها وعرقها وتضحياتها طيلة عشرات السنين، قد ذهب هباء، وما كان لتسתר بعد أن تراجعت هذا التراجع المهين عن موقفها المتحفز لتحقيق قيم السماء وأسباب القيمة والخلافة الصحيحة على الأرض والناس والتي أوضحت الشريعة الإسلامية كل جوانبها ومقوماتها وأوضحت كل تفصيات العمل الحياتي المرتبط بها مما يؤدي إلى تحقيق العادة والخير على هذه الأرض.

ولم يحافظ الأمويون الذين كانوا في طليعة القوى المعادية للإسلام بعد ظهوره - كما أعلمنا وقائع التاريخ - والذين ظلوا على عدائهم له حتى بعد (انضمامهم) إلى صفوف أبنائه وسلطتهم عليهم والاستئثار بمركز الخلافة الذي اغتصبوه بالقوة، على هذا المركز، وعلى الخيرات التي سرقوها.

**لماذا زال الملك عنهم؟**

وكانوا بخروجهم عن الإسلام يمهدون لخروجهم من (الخلافة) والسلطة التي أدعوها لأنفسهم وظلوا متشبثين بها طوال ألف شهر. لقد كانت تلك سنة إلهية، لم يدركوا أبعادها ولم يفهموها طيلة حكمهم. ولم يكونوا يدركون أنهم في الوقت الذي كانوا يعملون فيه على حسر الإسلام وإبعاده عن الحياة، فإنهم كانوا يعملون أيضاً على إزالة البراقع وأغطية الشرعية التي تستروا بها أمام الأمة.



وقد «سئل بعض شيوخ بنى أمية عقب زوال الملك عنهم إلى بنى العباس عن سبب ذلك، فقال: إنا شغلنا بلداتنا عن فقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا، وتنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عننا..»<sup>(١)</sup>.

وقد كان أحد ملوك النوبة قد قال لهم بعد أن استنكر أعمالهم واستمع إلى وصفهم لحالمهم: «..أنتم قوم قد استحللتكم ما حرم الله، وركبتم ما نهاكم عنه وظلمتم من ملكتم، فسلبكم الله العز، وألبسكم الذل بذنبكم، والله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها»<sup>(٢)</sup>.

إنها سنة إلهية، مدونة في أسفار الرسالات وفي أسفار الحياة، ولا بد للجميع أن يفهموها وأن لا يتعدوا وراء ما انقاد إليه بنو أمية وغيرهم، فأصبحوا عبرة لغيرهم، بعد أن يفهموا هذه السنة المبينة، والذين بدوا وكأن مهمتهم الأساسية التي عملوا لها طيلة حياتهم، هي محاربة الإسلام وتدميره ومخالفته.

#### عطاء كيسي وتلاعب بأموال المسلمين

لقد هون كثيرون من شأن مسألة (العطاء الكيسي) والتلاعب بأموال المسلمين، التي تمادى بها معاوية وأخرجها عن كل الحدود المعمول بها من قبل، وقالوا إنها لم تكن سوى جانب واحد وحسب من الجوانب التي ربما قد يكون قد أخطأ فيها، وربما يكون قد اجتهد وتأول كما اجتهد وتأول قبله الخلفاء السابقون. حيث منح أبو بكر أقارب الرسول ﷺ وأزواجه أعطيات إضافية ومنح عمر بعض الصحابة وأغلبهم من قريش أعطيات إضافية، ومنح عثمان أقاربه وولاته أعطيات فاقت تلك التي منحها الشیخان

(١) مروج الذهب: ص ٢٧٥.

(٢) العقد الفريد: ج ٥٤ ص ٢٠٤ وقد رویت في مروج الذهب: ص ٣٤٨: «أن ملك النوبة قال لعبد الله بن مروان (الحرمار): أنتم قوم استحللتكم ما حرم وركبتم ما عنه نهيتم، فظلمنا فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنبكم. والله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها منكم».

بشكل لا يقاس وتجاوزت كل حد. وإن من فتح الباب لمعاوية هو من جاء قبله. فلماذا نلقى اللوم عليه وحده ولا نلوم أولئك السابقين؟ ولا نقول إنه تأول فأخطأ كما تأول أولئك فأخطأوا؟

ومع أن قداسة الشيوخين بلغت من بعض النفوس حداً أصبحت معه لا تجرؤ على مناقشة تصرفاتها، إلا أن ما قاما به - في هذا المجال وهو ضئيل إذا ما قيس بما فعله - عثمان ثم معاوية بعد ذلك، لا يبرر تمادي الآخرين المفرط وخصوصاً معاوية الذي بدا وكأنه لا يضع أمامه أي اعتبار، وبذا كأنه قد خرج عن عمد ومع سبق الاصرار عن كل ما وضعه الإسلام من تعاليم وتشريعات.

### انفراج زاوية الانحراف

إن الخروج البسيط الذي أقدم عليه المتقدمون على معاوية بشأن العطاء، والذي لم يكدر يلاحظ أول الأمر، جعل معاوية أكثر جرأة على التمادي بشكل منقطع النظير. كما جعل ذلك العديدين من أمثاله فيما بعد يستسهلون الاقدام عليها باعتبارها سابقة عمولاً بها. ولم يجعل معاوية بنظرهم خطئاً؛ لأنه مهد الطريق أمامهم، وربما أضافوا هم من الشرعية ما لم يكلف نفسه به. وربما لم يروا بها قام فيه ما يمكن أن يقلل قيمته في نظرهم كصحابي! وصهر رسول الله ﷺ وكاتب للوحي وأمين الله ومهدية. الخ..!!

وحاول بعض فقهاء الدولة المأجورين - فيما بعد - التقليل إلى أقصى حد مما قام به «عن الفضيل بن عياش أنه كان يقول: معاوية من الصحابة من العلماء الكبار، ولكن ابتي بحب الدنيا»<sup>(١)</sup>. فهي مسألة بسيطة، مجرد ابتلاء بحب الدين، لم يجر المأسى على الأمة كلها، وهذا لا يغض من قيمته كعالم كبير (ولم يعمل بعلمه بالطبع، وهذا لا يهم أيضاً) ولا يقلل من آثار أفعاله الشنيعة في الإسلام والمسلمين وقد تسلط عليهم جميعاً وأصبح

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٢.



المتصرف الوحيد بأمورهم وحياتهم ومقدراتهم.

وقد غضب آخرون لمجرد أن قام أحد الناس بالمقارنة بينه وبين عمر بن عبد العزيز، الذي لم يكن بقيةبني أمية يقادون به بأي حال من الأحوال، فقد «سئل المعارض ابن عمران أيهما أفضل؟ معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فغضب، وقال للسائل: أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين؟ معاوية صاحبه وصهره وكاتبه، وأمين على وحي الله وقد قال عليهما السلام: «دعوا لي أصحابي وأصحابي، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»<sup>(١)</sup>. هذا لمجرد أن أحدهم تجرأ وسأل أيهما أفضل.. ولم يسب ولم يتعرض وكانت تلك الغضبة المضرة من المعارض بن عمران بوجه السائل عن (أمين الله على وحيه) معاوية. فهل لم يكن علي عليهما السلام من أصحاب الرسول؟ وهل لم يكن زوج البتو؟

وهل لم يكن أولهم إسلاماً، وأقدمهم إيماناً؟

ترى ما هو موقف المعارض من أقدم على سبه ألف شهر من على منابر المسلمين؟ وهل كان سيقدم على إشهار حديث الرسول عليهما السلام - الموضوع بلا شك - بوجه من يقدم على سب أخ الرسول عليهما السلام نفسه؟ أم أنه حديث خاص بمعاوية؟

إن كره أولئك الذين وقفوا موقف معاوية المعادي نفسه من الإمام علي عليهما السلام لم يكن دون مبرر من قبلهم. فلا بد لتمريره من تبريره. ولا بد من تحسين وتضخيم الطرف المعادي الذي تحذبوا له أولاً، وهو معاوية. ثم يبرر سلوكه وموافقه. ولما كان هؤلاء من المحسوبين على العلماء فإن كثيراً من الناس ينخدعون بهم ويتبنون مواقفهم بعفوية وتلقائية المتلقي عن العلماء التقا. وكما قلنا في هذا الفصل، لعل للمواقف المسقبقة المتبناة

---

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٩.

من قبل الآباء أثراً كبيراً في ذلك.

هل من المعقول أنه لا يزال أناساً لحد الآن يقفون حائرين بين علي ومعاوية، رغم الحوادث التي تكشفت لهم والواقع التي ليس بصحتها شأ? ورغم الدمار الذي ألحقة معاوية بالإسلام. ورحم الله سليمان بن عيينة الذي قال: «ما كانت في علي خصلة تقصير به عن الخلافة ولم يكن في معاوية خصلة ينazu بها علیها»<sup>(١)</sup>.

### محاولات لتدمير الإسلام

لقد كان معاوية، بانتهاكه المعلن لأسلوب التعامل المالي وتوزيع الثروة في الإسلام وأسلوب العطاء وأسسه وجعل المسألة أمراً كيـفـياً، يحاول أن يغير الإسلام برمته. ولو قد تمعنا بالأمر لرأينا أن الإسلام لم يكن بالنظام الأخلاقي المجرد الذي يتم ببعض المظاهر السلوكية المظورية رغم أنه يوليه اهتماماً ملحوظاً، وإنما هو نظام كامل أُنزل لينظم حياة البشر وكل فعالياته على أساس واحد ونظرة واحدة. فالمسألة الأخلاقية في الإسلام لم تكن لتقام إلا على أساس الأداء الكامل لل تعاليم الإسلامية وعدم إهمال بعضها بأية ذريعة أو حجة. وما نحسب أن أحداً من المسلمين يرى الإسلام يدعوه إلى (الزهد) والرهبة كحالة سلبية مقوّطة، بل إن الزهد في الإسلام يعني ترك ما في أيدي الناس وإعطاء كل ذي حق حقه وعدم التجاوز على الآخرين والاستئثار وجمع الأموال بكافة الطرق المتاحة حتى غير المشروعة. إن الإسلام علم أن للناس مطالب حياتية ملحة و حاجات أساسية لا بد لهم منها. غير أنه أراد تنظيم كل ذلك.

### الخليفة. وكيل أم مالك؟

إن النظام المالي في الإسلام ليس بالأمر الهامشي الذي لا علاقة له بالجميع، بل هو

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٣٢.



من صميم التوجه الأخلاقي لل المسلمين. كما أن إعداد الناس لتقبل الإسلام لا يعني دعوتهم بجانب واحد من جوانبه وتجاوز الجوانب الأخرى. إنه يعني تنظيم حياتهم على كل أسلبه، وضمان عدم تجاوزهم على بعضهم في كل الأمور، بل على كل شيء قد استختلف عليه البشر على هذه الأرض بما فيها الأرض نفسها وما حملت في بطنهما وعلى ظهرها. إن الإسلام يضمن أن يستفيد الجميع دون أن يتتجاوز بعضهم على بعض في كل الأمور ومنها أمور المال والثروة، ويضمن عدم ظهور طبقات تحكم بمصائر الناس وحياتهم وجهدهم وعرقهم. «فالخلافة تضفي طابع الوكالة على الملكية الخاصة، وتجعل من المالك أميناً على الثروة، ووكيلاً عليها من قبل الله تعالى الذي يملك الكون وجميع ما يضم من ثروات. وهذا التصور الإسلامي الخاص لجواهر الملكية متى تركز وسيطر على ذهنية المالك المسلم، أصبح قوة موجهة في مجال السلوك، وقداً صار ما يفرض على المالك التزام التعليمات والحدود المرسومة من قبل الله عز وجل، كما يلتزم الوكيل وال الخليفة دائمًا بإرادة الموكل والمتخلف. وطبيعة الخلافة تفرض على الإنسان أن يتلقى تعليماته بشأن الثروة المستخلف علىها من منحه تلك الخلافة. قال الله تعالى: ﴿آمُنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَيْرٌ﴾<sup>(١)</sup> كما أن من نتائج هذه الخلافة أن يكون الإنسان مسؤولاً بين يدي من استخلفه خاضعاً لرقابته في كل تصرفاته وأعماله، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِتَنْتَظِرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup><sup>(٣)</sup>.

(١) الحديد .٧.

(٢) يونس .١٤.

(٣) اقتصادنا: محمد باقر الصدر ج ٢ ص ١٨٨-١٨٩ مؤسسة الكتاب الإسلامي—باريس .١٩٨٣



## الإسلام.. دين متكامل

لقد أراد الإسلام لدولته أن تتحقق كل ما يضمن التوازن الاجتماعي بين أبناء الإسلام والمنضويين تحت لوائه على أساس مستديمة ومستقرة. وأراد للجانب السلوكي للفرد المسلم أن يظهر لا بأشكال أخلاقية مظهرية وإنما من خلال استجابة تامة لكل ما جاء به من قيم وتشريعات. ولو أن الإسلام لم يمتلك ما يؤهله لقيادة المجتمع، وأكده على جانب واحد أو جوانب محددة لكان حال الديانات المحرفة الأخرى التي انحسرت عن الحياة. ولما استمر بروزه على هذه الساحة إلى الآن، ولما رأينا استجاباته لكل متغيرات الحياة. وطرحه الحلول المناسبة لكل مشاكلها ومستجداتها. ولما وجدنا ذلك النظام المتكامل والتصور الشامل الذي طرح علينا من خلال القرآن الكريم والسيرة المطهرة ولما رأينا ذلك الإشعاع الذي لاح عند قيام حكومة الرسول ﷺ التي أثبتت جدارتها وقوتها لإقامة وتحقيق كل ما دعت إليه بكفاءة منقطعة النظير. وأمدت أجياً عديدة بعدها - بفعل ذلك الزخم الأول - بقوة جعلتها تملك استجابة واعية لكل ما جاء به الإسلام، رغم الانحراف الذي ظهرت بوادره قبل معاویة والعبث الهائل به من قبل الدولة الأموية ومن جاء بعدها من (الدول الإسلامية).

## لا يحق لأحد أن يخترق أي جانب من جوانب النظام الإسلامي

إن الجانب المالي لم يكن بالجانب الهامشي والمنقطع عن الجوانب الأخرى التي أرادها الإسلام أن تتكامل وتتحدد لظهور صورة واضحة للإسلام، ولم يكن جانباً يمكن فصله عن غيره. وإن الحياة يمكن أن تسير بشكل طبيعي، رغم العبث به والتلاعب بأحكامه، ولا يمكن تحقيق الالتزام بهذه الأحكام ما لم تضمن الالتزام والاستجابة التامة لأحكام الإسلام كلها، بل لعل الاستجابة لأحكام الإسلام في مجال التنظيم الاقتصادي والاستعداد للالتزام بها وتطبيقها، قد تتحقق بعد الاستجابة لكل أحكامه الأخرى في



مجال الأخلاق والسلوك والعبادات، وحتى العبادة اقتربن مفهومها في الإسلام بتطبيق كل ما أمر الله بتطبيقه والانتهاء عما نهى عنه. فليس في الإسلام مجرد أداء طقوسي منقطع عن الأداء الحيوي اليومي.

وإذا جاء أحد بعد ذلك ليقول إن معاوية لم يخترق الإسلام ولم ينحرف إلا في جانب واحد هو الجانب الاقتصادي أو في جانبين فقط هما الاقتصادي والمالي. وأن لا يأس عليه في ذلك ما دام ملتزماً بالفرائض الأخرى مثل الصلاة والصوم وحج البيت والسعى لبناء المساجد وتوسيعها وزخرفتها، فكانه بذلك يريد أن يوقع شهادة تبرئة أو شهادة اجتياز لاختبار في مجال معين من مجالات الدراسة أو الحياة. وكان ذلك (المختبر) قد نجح أمام أساتذة في مدرسة من المدارس وأنه نجح في معظم المواد ولم يفشل إلا في مادة واحدة أو مادتين، ولربما لم يعد فاشلاً تماماً في هذه الحالة.

وقد غاب عنهم فهم الأداء المتكامل للإسلام - وربما فهموه وأنكروه - ذلك الأداء الحيوي المتكامل لا الأداء المظهي السلوكي العادي أو الأداء الطقوسي المجرد البعض للصلوة والصيام والحج وغيرها. ولا نعتقد أن معاوية كان من الغباء بحيث لم يكن يدرك ذلك، غير أنه لم يسمع أو (يضع) من الأحاديث إلا تلك التي أراد استغلالها للترويج لشرعية وجوده في السلطة وحسب.

ولا نعتقد أن هؤلاء المدافعين لا يعتقدون أن النظام المالي في الإسلام ليس من البساطة بحيث يتصوره البعض أنه مجرد توجه أخلاقي بحت للبحث على بعض ممارسات الخير والإحسان والظهور بمظهر ودي تجاه الآخرين وأنه مجرد عمل تطوعي، وأن معظم حكامه ليست إلزامية وإنما نابعة من شعور الشخص نفسه ومدى استجابته العاطفية والأخلاقية لعوامل الخير والبر، وحتى الاستجابة العاطفية لم يرد لها الإسلام أن تكون مبنية على تصورات خاصة وإنما مبنية على شعور الفرد بالانتماء التام للإسلام

والمجتمع القائم عليه والمتسمi إليه أيضًا، وعلى الاستجابة التامة لكل حاجات هذا المجتمع وضمان سلامته وانتظام علاقات أبنائه على أساس قيمه وأخلاقه وتصوراته التي لا تفرط بأي جانب من جوانب النشاط الإنساني، ولا ترك أيًّا منها دون توظيف ايجابي لها، ولا ترك مسألة أو مشكلة قد يواجهها المسلم دون حلول مناسبة معقولة منسجمة مع الواقع ومع متغيرات الحياة. ولم تكن هذه القيم اعتباطية، خاضعة لرغبات أو نزوات أو مطامح شخص معين، أو قابلة للتحريف أو التبديل. ويمكن تلمسها ورؤيتها، رغم محاولات العبث الواضحة بها منذ وقت مبكر بعد وفاة الرسول ﷺ.

### احتياط الثروة. تمهيد لدولة المستكبرين والطغاة

إن تحريف النظام الاقتصادي المالي القائم على أساس الإسلام، لا يعني مجرد محاولة غير مؤذية للعبث، وإن عواقبها يمكن تداركها باصلاحات أو تعديلات فيما بعد، وإنما التمهيد لخلق نظام طبقي طاغوي لا يتحكم فيه مجرد فرد طاغية وإنما طبقة طاغوتية، يمهد الشراء والمال المتكدس لبروزها وصعودها وتوليها شؤون الطبقات الأخرى التي لابد أن تكون أغلبها مستضعفه مستغله، ولا بد أن تكون تبعيتها للأولى بحكم فقرها وحاجتها، وبروز حالات سلبية عديدة فيها كالجهل والمرض وما يحيانه وراءهما من ويلات وآمال.

«وردت في القرآن الكريم مفاهيم اجتماعية كثيرة. وقد نقلنا في مباحث المجتمع ٥٠ كلمة من مفردات القرآن حول المجتمع. ومع ملاحظة الآيات الاجتماعية في القرآن التي تشمل على هذه المفردات يستشعر نوع انقسام في المجتمع إلى قطبين. فقد ورد فيه نوع من هذا الانقسام على أساس الاقتصاد، أي على أساس التنعم والحرمان الاقتصادي، حيث عبر عن أحد القطبين بالملأ (أي امتلاء العين بالفخفة والكببة) والمتكبرين والمسرفين والمترفين، وعن القطب الآخر بالمستضعفين (الذين أصيروا بالذلة



والاستضعف) والناس (الشعوب) والذرية (الصغار الذين يحتقرون ولا يملؤون عيناً في قبال الملاء) والأراذل والأرذلون (الأوباش) [وهذا التعبير لم يقله القرآن عن نفسه، بل نقله عن لسان المخالفين]. وجعل هذين القطبين متقابلين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أقر بنوع من الانقسام على أساس المفاهيم المعنوية، فجعل أحدهما الكفار والمشركين والمنافقين والفاسقين والمفسدين، والآخر المؤمنين والموحدين والمتقين والصالحين والمصلحين والمجاهدين والشهداء.

وإذا دققنا النظر في محتوى الآيات القرآنية التي تعرضت لهذين التقسيمين وجدنا نوعاً من التطابق بين القطبين الأولين، المادي والمعنوي، وكذا بين القطبين الثانيين. أي أن الكافرين والمشركين والمنافقين والفاسقين هم الملاء والمستكرون والمسررون والمرفون والطواحيت، لا غيرهم ولا المشكّل منهم ومن غيرهم. وأن المؤمنين والموحدين والصالحين والمجاهدين هم المستضعفون والفقراء والمساكين والعبيد والمظلومون والمحرومون، لا غيرهم ولا المشكّل منهم ومن غيرهم. إذن فالمجتمع ينقسم إلى قطبين فقط. القطب الشري الظالم المستعمر، ويشكّله الكافرون، والقطب المستضعف ويشكّله المؤمنون. وبذلك يتبيّن أن انقسام المجتمع إلى مستضعف ومستضعف هو الذي أوجد الكافر والمؤمن. فاستضعف الآخرين منشأ الشرك والكفر والنفاق والفسق والفساد، والاستضعف بالآخرين منشأ الإيمان والتوحيد والصلاح والإصلاح والتقوى.

ولكي يتضح هذا التطابق تكفي مراجعة الآيات من آية ٥٩ الأعراف التي تبدأ بآية ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ إلى آية ١٣٧ التي تنتهي بآية ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ ومجموعها أربعون آية وقد ورد في هذه الآيات قصص الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام باختصار، وفي جميعها (ما عدا قصة لوط) يشاهد أن الطبقية التي آمنت بالأنبياء هم المستضعفون، والطبقية



التي خالفت وكفرت هم الملا و المتكبرون . وهذا التطابق لا يمكن تغييره وتوجيهه إلا على أساس الوجдан الطبيعي الذي هو لازم للهادىة التاريخية و متلزم لها . إذن فالواقع أن مواجهة الكفر والإيمان من وجهة نظر القرآن انعكاس من مواجهة المستضعفين والمستضعفين .

وقد صرَّحَ القرآنُ الكَرِيمُ بِأَنَّ الشَّرَاءَ وَالْمُلْكِيَّةَ، وَبِتَعْبِيرِ الْقُرْآنِ (الْغُنْيِ) أَسَاسُ الطُّغْيَانِ وَالتَّمْرِدِ، أَيْ إِنَّهُ يَنْاقِضُ التَّواضِعَ وَالسَّلْمَ، وَقَدْ دَعَا الْأَنْبِيَاءَ إِلَيْهِمَا . قَالَ تَعَالَى :

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغِيْ ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾<sup>(١)</sup> وَنَجَدَ الْقُرْآنَ أَيْضًا يَذَكُّرُ قَصَّةَ قَارُونَ تَأكِيدًا عَلَى الْأَثْرِ السَّيِّئِ الَّذِي تَرَكَهُ الْمُلْكِيَّةُ فِي الْإِنْسَانِ . فَقَارُونَ كَانَ مِنَ الْأَسْبَاطِ وَلَمْ يَكُنْ قَبْطِيًّا، بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى<sup>ؑ</sup> وَمِنْ تَلْكَ الطَّبَقَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ عَلَى يَدِ فَرَعَوْنَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُدَا الْفَرَدُ الْمُسْتَضْعَفُ حِينَمَا أَصْبَحَ مَالَكًا عَظِيمًا لِأَسْبَابٍ خَاصَّةٍ تَمَرَّدٌ وَطَغْيَانٌ عَلَى قَوْمِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> . أَلَا يَظْهَرُ مِنْ هَذَا أَنَّ نَضَالَ الْأَنْبِيَاءِ ضِدَّ الْطُّغْيَانِ إِنَّمَا كَانَ فِي الْوَاقِعِ ضِدَّ الْمُلْكِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّنِ؟ وَقَدْ صَرَّحَ الْقُرْآنُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ بِأَنَّ زُعمَاءَ مُخَالِفِي الْأَنْبِيَاءِ كَانُوا مِنَ الْمُتَرْفِينَ أَيِّ الْغَارِقِينَ فِي النَّعِيمِ . وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْأَمْرُ فِي سُورَةِ سَبْعَةِ كَأْصَلٍ وَقَانُونِ عَامٍ . قَالَ تَعَالَى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُشْرِفُوهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> كُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مواجهةَ الْأَنْبِيَاءِ وَمُخَالَفِيهِمْ وَمُواجهَةَ الإِيمَانِ وَالْكُفُرِ كَانَ انعكاسًا لِمُواجهَةِ الطَّبَقَتَيْنِ الْاجْتِمَاعِيَّيْنِ : الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْمُسْتَعْضُفِينَ<sup>(٤)</sup> .

(١) العلق: ٦-٧.

(٢) القصص: ٧٦.

(٣) سبأ: ٣٤.

(٤) المجتمع والتاريخ: الشهيد مرتضى المطهرى ط ١/١٩٧٩-١٣٠٢ طهران: ص ١٢٨-١٣١.



### إلى الفرعونية من جديد

كان الحكم الأموي في محاولة منه لتشييت وجوده ككيان مسيطر على الأمة الإسلامية، يعمل على استقطاب أعداد كبيرة من يرى أن لهم نفوذاً ومركزًا ومكانة في المجتمع من رؤساء القبائل والقادة العسكريين و(الصحابة) والمحدثين والفقهاء والقصاصين والشعراء وغيرهم بمنحهم ثروات أسطورية والتغاضي عما في أيديهم من كسب غير مشروع. وكان بذلك يمهد لظهور طبقة متنفذة متسلطة حاكمة أو مقربة من الحكم لا تطاها سلطة (القانون) وتتمتع بامتيازات استثنائية. وكان بذلك يستدرج الأمة كلها للوقوع في مأزق الطبقية الذي وقعت فيه أمم عديدة وكان سبباً لدمارها وانحطاطها وبؤس الأكثريّة من أبنائها، والذي حاول الإسلام تخليص الأمة المسلمة منه بوضع قانونه العادل في العطاء والتعامل وفي كل مجال حيّاتي آخر، وكانت جنائية كبيرة على الأمة الإسلامية، وضفت أساساً لحكم طبقي فرعوني تستعبد فيه الأقلية الأكثريّة، وقد تكررت صوره وأشكاله حتى بعد زوال الحكم الأموي، حيث رأى الحاكمون أنه الطريق الأفضل لتشييت سلطتهم وبقاء أبنائهم من بعدهم في سلسلة متصلة من الحكم الوراثي لم يختلف عن أي حكم طاغوتي آخر إلا بتبيّنه بعض شعارات الإسلام وطقوسه بعيداً عن روحه ومبادئه وقيمته.

### جنائية على كل الأجيال

لم تكن الجنائية بذلك على الجيل الذي حكمه معاوية ومن جاء بعده من الحكام الأمويين وحسب، وإنما على كل الأجيال وإلى يومنا هذا، بل وعلى البشرية كلها. إذ لو استمرت مسيرة الإسلام بشكل صحيح دون معاوية ومن هم على شاكلته من الحكام الآخرين، لكان للإسلام شأن آخر، ولكن مسيرته قد امتدت ل تستقطب البشرية كلها على أساسه، غير أن الذي حصل أن تلك المسيرة قد لقيت عقبات عديدة كان

السبب فيها عدم انتظامها وتصدي أنس غير جديرين لقيادتها والأخذ بيد أبنائها. وهو موضوع جدير بالدراسة بعيداً عن النظارات المسبقة المتبناة وبعيداً عن السطحية والاعجاب المنفعل بمن أريد أن تنتشر فوق رؤوسهم حالات من النور ويظهروا أمام أبناء الأمة بمظهر المصلحين والمنقذين والمعظماء. مع أنهم لم يفعلوا إلا أن خربوا ما حاول الإسلام أن يبنيه. إن أي فعل منهم ينبغي أن لا يمر دون النظر بالأسباب الكامنة وراءه وينبغي أن تكون دراساتنا التاريخية مبنية على ما أوضحته القرآن الكريم من السنن والقوانين.

### أراد الله.. وأرادوا

### أوقفوا مسيرة الإسلام

لقد أراد الإسلام للحياة أن تتنظم على أساسه، ولم يرد للإنسان أن يهمل أيّاً من احتياجاته ومطالبه. لكن على أساس موزون لا يفرط بنفسه هو ولا يمس بالآخرين ولا يلحق بهم حيفاً أو غبناً أو أذى، ووضع لذلك قواعد عملية تنظم كل الفعاليات، غير أنه أراد للإنسان أن يتبعها عن قناعة بها ورضا، ومن هنا كان تغلب الجانب الأخلاقي الظاهري الذي أراد أن يؤهلنا لتقبل كل تعاليم الإسلام، لا كأوامر ملقاة إلينا من قوى لا ندرك كنهها، ولا بد من تنفيذها، بل كأمور تحزيننا إليها عن وعي وأحببناها وتبنينا العمل بها وفضلناها على ما سواها. وقد أراد الإسلام أن يجعل الضوابط التي تمنعنا من الانحراف ذاتية نابعة عن قناعاتنا التامة به وشعورنا بالانتهاء الحقيقي إليه والقرب القوي منه ومن الرسول ﷺ أيضاً ومن الله سبحانه وتعالى كذلك بل وحبنا للرسالة والرسول والرسل. لا تهددنا سلطة أرضية أو يلاحظنا جهاز للشرطة أو القضاء. وقد أرادنا أن نواجهه (القاضي) الحقيقي دائمًا. القاضي العادل الرحيم العليم ونجعله نصب أعيننا وأمامنا دائمًا. وهذى هي عظمة الإسلام وقوة الإسلام فهو واقعي



وعملٍ، ولم يطرح قوانينه وتعاليمه بشكل لا ينسجم مع فعاليات الإنسان الطبيعية بل بشكل ينظمها ويقترب بها من المثل الأعلى الحي الوحد، وهو الخالق الأوحد. كما أنه قريب من النفوس، وما يطلبه ممكناً للأداء والتنفيذ، بل أنه محبب إليها متى ما أدركته وأدركت جدواه وفائدته وفهمته جيداً. وكانت هذه مهمة كل أبنائه من العلماء الربانيين والمتعلمين، على مر الزمن، أن يجعلوه قريباً من النفوس وبعيداً عن الانحراف، وألا يسمحوا لأية طبقة طفيلية بالنمو على حساب الأمة لتكون هي المتسلطة والمالكة الآمرة الطاغية.

لقد كانت الأمة مدعوة في كل زمان للانتباه إلى كل من يحاول تجريدها من إسلامها واستبداله بإسلام مسخ لا يحمل من الإسلام إلا اسمه. وكان الصراع قوياً بين الطبقات التي بدأت تتسلط وتقوى وتنمو وتدافع عن (مكاسبها) بكل شراسة، وبين الطبقة المستضعفة التي لم تعد من أبنائها من يقوم ب مهمتها التصدية لتلك الطبقة الأولى التي بدأت تبسيط نفوذها بشكل فعلي في زمن معاوية، وإن كانت قد وجدت لها محط قدم قبيل ذلك وبشكل ملحوظ في زمن عثمان.

#### **دولة الإسلام قامت على الاستجابة لحاجات الناس ومطالبهم**

إن دولة الإسلام ليست طوباوية ولا مدينة فاضلة تخيلها فيلسوف وتمني أن يعيش فيها الناس، وإنما هي دولة قائمة على الاستجابة الحقيقة لحاجات الناس ومطالبهم دون تفريط أو إخلال بين حقوقهم وواجباتهم وتقيم موازنة عادلة بين هذه الحقوق والواجبات على أساس عملي قائم من صميم الحياة؛ لأن الذي أوجدها وأرادها هو خالق الحياة نفسها وواهبها.

لذلك فإن ما يمكن أن يغفل عنه من يتصدى لمهمة التشريع للآخرين، لا يمكن

أن يغفل عنه خالقهم ومربيهم. وقد أعد لكل صغيرة وكبيرة حسابها، ولم تكن قوانينه وأحكامه مجرد توجيه أخلاقي بحت، وإنما ربط هذا التوجيه الأخلاقي بمجمل الالتزام بكل القوانين والأحكام، الاقتصادية والاجتماعية وغيرها وجعل هذا الالتزام ودرجته مقاييساً لاستجابة الفرد لله سبحانه وخلقه وإسلامه وعبادته، فال العبادة في الإسلام لا تعني مجرد أداء الفرائض، وإنما الالتزام بكل ما جاء به الإسلام وعدم إهمال أي جانب منه أو تغليب جانب على آخر.

### تكامل بين الجوانب.. لا يمكن فصل بعضها عن بعض

وكان النظام الاقتصادي الإسلامي أحد تلك الجوانب المهمة التي لا يمكن فصلها عن الفعاليات العبادية الأخرى. وقد جعل من مسؤوليات الدولة والفرد كلية تطبق أحكام هذا النظام وعدم الاخلاط بها أو إهمالها أو استبدالها، وربما كان جانب كبير من مسؤولية استخلاف الإنسان - التي نظمها الإسلام وأوضح بنودها — معنية بهذا النظام وأحكامه وتفاصيله.

ولا يحسن أحد أن النظام الاقتصادي الإسلامي مجرد تعليمات تحث على البر والاحسان والصدقة، بل إنه نظام تكفل بتحقيق أعلى قدر من المساواة بين الناس قائم على بحمل الدين الإسلامي ذي المبادئ والأحكام والقيم المنسجمة المتحدة والقادرة على التحكم في الحياة وجعلها تسير في اطارها وفي حدودها. وهكذا (نعرف أن الاقتصاد الإسلامي بوصفه جزءاً من تنظيم اجتماعي شامل للحياة، يجب أن يتدرج ضمن الإطار العام لذلك التنظيم، وهو الدين، فالدين هو الإطار العام لاقتصادنا المذهبي).

وظيفة الدين - بوصفه إطاراً للتنظيم الاجتماعي والاقتصادي في الإسلام - أن يوفّق بين الدوافع الذاتية والمصالح الخاصة من ناحية، والمصالح الحقيقة العامة



للمجتمع الإنساني - من وجهة نظر الإسلام - من ناحية أخرى.

«الاقتصاد الإسلامي، اقتصاد واقعي في غايتها؛ لأنَّه يستهدف في أنظمته وقوانينه الغايات التي تنسجم مع واقع الإنسانية، بطبعتها ونوازعها وخصائصها العامة. ويحاول دائمًا أن لا يرهق الإنسانية في حسابه التشريعي ولا يخلق بها في أجواء خيالية عالية فوق طاقاتها وإمكاناتها. وإنما يقيم مخططه الاقتصادي دائمًا على أساس النظرة الواقعية للإنسان، ويتخلى الغايات الواقعية التي تتفق مع تلك النظرة.

وهو واقعي في طريقته أيضًا فكما يستهدف غايات واقعية مكنته التحقيق، كذلك يضمن تحقيق هذه الغايات ضمانًاً واقعياً مادياً، ولا يكتفي بضمانات النصوح والتوجيه التي يقدمها الوعاظ والمرشدون؛ لأنَّه يريد أن يخرج تلك الأهداف إلى حيز التنفيذ، فلا يقنع بإيكالها إلى رحمة الصدف والتقادير، فحين يستهدف مثلاً إيجاد التكامل العام في المجتمع، لا يتولَّ إليه بأساليب لتوجيه واستشارة العواطف فحسب، وإنما يسنده بضمان تشريعي، يجعله ضروري التحقيق على كل حال.

والصفة الثانية للاقتصاد الإسلامي، وهي الصفة الأخلاقية، تعني - من ناحية الغاية - أنَّ الإسلام لا يستمد غاياته التي يسعى إلى تحقيقها في حياة المجتمع الاقتصادية من ظروف مادية وشروط طبيعية مستقلة عن الإنسان نفسه. وإنما ينظر إلى تلك الغايات بوصفها معبرة عن قيم عملية ضرورية التحقيق من ناحية خلقية.

وتعني الصفة الأخلاقية - من ناحية الطريقة أنَّ الإسلام يهتم بالعامل النفسي خلال الطريقة التي يضعها لتحقيق أهدافه وغاياته»<sup>(١)</sup>.

إنَّ محاولة إلغاء هذا النظام أو استبداله تعني إلغاء الإسلام نفسه أو استبداله بدين

---

(١) اقتصادنا: ج ١ : ٣٠٠ - ٢٧٧ - ٢٩٩ - ٢٧٦.



جديد لا يحمل إلا اسمه؛ لأنَّه يعني تحريره من مقوم هام من مقومات وجوده، يضمن تحقيق أهدافه العامة المترابطة والمنسجمة والهادفة إلى وضع جميع الناس على طريقه.

### عطاء كيافي غير منضبط بتشريعات الإسلام

وهذا هو بالضبط ما سعى إليه النظام الأموي بقيادة معاوية منذ البداية، فقد حاول استبدال النظام المالي الإسلامي والمرتبط بكل توجهات الإسلام وأخلاقياته بنظام للضربيه والعطاء الكيافي، مستهدفاً تحقيق أكبر قدر من (الكسب) للدولة، وموزعاً هذا القدر توزيعاً يضمن تكدس الأموال في جيوب نسبة ضئيلة من أبناء الأمة، لتبرز بعد ذلك طبقة مختلفة في معيشتها وسلوكها وتصرفاتها عن مجمع أبناء الأمة. طبقة تجد لها على الدوام (حقوقاً) مكتسبة بحكم خدمتها للدولة وقربها منها. وقد بدأت تترهل وتتضخم وتت忤ذ شكلاً خاصاً وآداباً خاصة في السلوك والتعامل والحياة يتقطع مع أسلوب الشعب المسلم الذي بدأ يشكل طبقة مستضعفه مسحوقة. كما بدأت تبتعد بشكل عملي عن الإسلام وأخلاقه وقيمه ولم تعد تمتلك سوى الانتماء العلني إليه، والذي حققت بواسطته وعن طريق الدولة (مكاسب) عديدة على حساب الأغلبية المسحوقة.

### نعطي من يخدمنا

إنَّ النظام الأموي بوضعه القوة والثروة في أيدي (صفوة مختارة) جعلها صفة حاكمة -يكون قد كرس لإيجاد طبقة طاغية أرستقراطية - حسب التعابير الأجنبية- تتأثر بالحكم وما يتحققه من مكاسب وامتيازات، وبذلك يسحب البساط من تحت الأمة ويجردها من سيادتها وقوتها و يجعلها فريسة لهذه الطبقة الطفيلية الطارئة المقربة من الحكم والساندة له بحكم ارتباط وتشابك المصالح وبحكم المصير الواحد، ليضمن عدم



وقوفه وحده (أو العائلة الأموية) وحدها بمواجهة الأمة باعتباره عنصراً طارئاً غريباً عن الإسلام، وقد سيطر على كل مقدراتها وثرواتها وحدّ من حقوقها وحرفيتها، فوضع إلى جانب العائلة الأموية طوائف كبيرة من الحاشية والقادة العسكريين و(الصحابة) و(العلماء) والمفسرين وقادة القبائل والقصاصين والشعراء و(الفقهاء) المأجورين وغيرهم لتعزيز مواقفه أمام الأمة وإبرازها على أنها الموقف الصحيح ليكون في موضع السيطرة الدائمة ولتكريس نظام يقترب من الأنظمة الطاغوتية المألوفة، مستغلاً المال الذي جاه وحصله بمختلف الطرق والأساليب لتعزيز نفوذه وقوته واجبار الأمة على معايشة وتقبل هذا النمط الجديد البديل للنمط الأصلي الذي أرسّت دعائمه ووضعت أسسه قيادة الرسول ﷺ والذي يعتمد الأمة كلها ويشركها في كل فعاليات ومسؤوليات الدولة ونشاطاتها كصاحبة شأن وصاحبة مصلحة حقيقة وذات علاقة ومسؤولية مباشرة في كل أمر من أمور الدولة الإسلامية، لا كرعاية خاضعة لشخص حاكم معين أو جماهير مسحوقة مركونة في زوايا مهمّلة وبعيدة عن اهتمامات الدولة.

وقد كان إغراق هذه الطبقة المحسوبة على النظام والمقربة منه بالأموال ومظاهر القوة والنفوذ بشكل كيفي وحسب مزاج (الخليفة) وعلى هواه، أول مظاهر الانتقال بالدولة الإسلامية من دولة إسلامية حقيقة لها شكلها الخاص إلى دولة طاغوتية هرقلية أو فرعونية أو كسروية، لها نفس مظاهر وشكل تلك الدول، وإن بقيت تحمل اسم الدولة الإسلامية وتتبني بعض شعاراتها المعلنة؛ لأن الإسلام لا يزال هو الغطاء (الشعري) الذي تتسّرّ به والمبرر الذي أعلنته - بزعمها - لوجودها واستمرارها.

وقد بدأت الفروق الطبقية تبرز بشكل حاد وواضح في هذه الدولة (الإسلامية) البديلة عن دولة رسول الله ﷺ وال الخليفة لها !!



### هيا إلى خدمة الدولة ما دامت تدفع لنا

وقد حاول فقهاء الدولة وبعض المحسوبين على الصحابة والعلماء والمفسرين وواضعـي الأحاديث وغيرـهم تطـويـع الدين وإبرازـه كـأداة بـيـدهـا ووضـعوا أحـادـيث مـلـفـقة نـسـبـوها إـلـى الرـسـول ﷺ، وـتـشـبـثـوا بـبعـض التـصـرـفـات السـابـقـة لـالـخـلـفـاء السـابـقـين وـخـصـوصـاً فيـمـجالـالـعـطـاءـ وـتوـسـعـواـ فـيـهاـ وـجـعـلـوهـاـ سـنـةـ وـأـمـرـاًـ مـلـزـماًـ باـعـتـارـ أـوـلـئـكـ الـخـلـفـاءـ قـدـ اـجـتـهـدواـ (وـهـمـ مـقـبـلـونـ عـنـ فـنـاتـ كـبـيرـةـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ)ـ وـأـنـهـمـ الـآنـ يـجـتـهـدونـ مـثـلـهـمـ.ـ وـلـاـ بـأـسـ إـذـاـ تـمـادـواـ،ـ فـوـقـتـهـمـ غـيرـ وـقـتـ أـوـلـئـكـ وـظـرـوـفـهـمـ غـيرـ تـلـكـ الـظـرـوفـ).ـ وـبـرـرـواـ كـلـ خـرـوجـ عنـ الـإـسـلـامـ وـعـنـ الـتـعـالـيمـ الـأـسـاسـيـةـ لـهـ بـأـنـهـ اـجـتـهـادـ.ـ وـأـنـ (ـالـخـلـيـفـةـ إـذـاـ مـاـ اـجـتـهـدـ فـأـخـطـأـ،ـ رـبـهـاـ لـمـ يـكـنـ غـرـضـهـ تـعـمـدـ هـذـاـ الـخـطـأـ،ـ لـيـظـلـ هـذـاـ الـخـطـأـ بـالـتـالـيـ يـمـهـدـ طـرـيـقـ لـمـ يـأـتـيـ بـعـدـهـ لـلـتـهـادـيـ فـيـ الـأـخـطـاءـ وـارـتـكـابـ الـزـيـدـ مـنـهـاـ دـوـنـ حـرـجـ وـدـوـنـ (ـفـقـهـاءـ وـعـلـمـاءـ)ـ يـبـرـرـونـ أـخـطـاءـهـ وـيـجـدـونـ لـهـاـ أـسـبـابـاًـ مـشـرـوـعـةـ.ـ !ـ

### لتـكـنـ الدـوـلـةـ فـيـ أـيـدـيـنـاـ إـلـىـ الأـبـدـ

والنقطة الثانية التي حول بها معاوية مجرـى الدولة الإسلامية ومسارـها الصحيح، هو تـكـرـيـسـهـ لـورـاثـةـ العـرـشـ منـ قـبـلـ أـبـنـائـهـ،ـ فـلاـ شـكـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ يـسـعـيـ لـكـيـ يـتـولـيـ يـزـيدـ الـحـكـمـ وـلـيـحـدـثـ بـعـدـهـ الطـوفـانـ وـلـيـوـاجـهـ ماـ يـوـاجـهـ مـنـ مشـاـكـلـ وـصـعـوبـاتـ.

وـإـنـاـ أـرـادـ أـنـ يـمـهـدـ الـأـمـرـ لـيـزـيدـ وـأـبـنـائـهـ مـنـ بـعـدـهـ لـيـتـولـواـ أـمـرـ الـأـمـةـ وـقـيـادـتـهـاـ بـيـسـرـ وـسـهـولـهـ دـوـنـ صـعـوبـاتـ أوـ مـقاـوـمـةـ.

أـمـاـ النـقـطـةـ الـثـالـثـةـ،ـ فـهـيـ تـحـوـيـلـ الـأـمـةـ بـأـجـمـعـهـاـ إـلـىـ أـدـاـةـ بـيـدـ هـذـاـ الـحـكـمـ،ـ وـلـاـ بـدـ أـنـ يـبـدـأـ ذـلـكـ مـنـ مـكـانـ بـعـيـنـهـ يـكـونـ نـوـاـةـ لـذـلـكـ أـوـ بـؤـرـةـ لـتـحـقـيقـ ذـلـكـ،ـ وـلـاـ بـدـ أـنـ تـكـوـنـ هـذـهـ النـوـاـةـ فـيـ أـكـثـرـ الـبـيـئـاتـ صـلـاحـيـةـ لـتـقـبـلـ الـأـفـكـارـ الـغـرـبـيـةـ عـنـ الـإـسـلـامـ،ـ كـشـعـبـ أـوـ مجـتمـعـ



بعينه ثم ينسحب الأمر على باقي شعوب الأمة الإسلامية. وهكذا عمل معاوية لجعل شعب الشام نواة للأمة التي أراد التسلط عليها وقيادتها، وعمل على تربيته تربيةً أمويةً (معاوية<sup>(١)</sup>) خالصةً تدين بالولاء له شخصياً ولعائلته وتحيز إلهي تحيزاً تاماًً وبدون تحفظ أو روّية.

### ماذا استهدف معاوية الكوفة؟

ولا بد أن معاوية كان يعلم أن الإمام<sup>عليه السلام</sup> بانتقاله من المدينة، وقد أصبحت بؤرة للفتن والخلافات، وجعله الكوفة مقراً للخلافة، أراد أن ينشئ طليعة إسلامية جديدة لمجتمع إسلامي سليم مبرأً من العيوب والمساوئ التي علقت به في ظل مسيرة متعرجة وغير منتظمة بعد وفاة الرسول<sup>صلوات الله عليه وسلم</sup>، يريدها هو - ويعدها على غرار الطليعة التي رباهما وأعدها رسول الله<sup>صلوات الله عليه وسلم</sup> في مكة والمدينة رغم معرفته الصعوبات التي قد يلاقها في هذا المجال. ولم يكن معاوية بالذى تفوته مقاصد الإمام<sup>عليه السلام</sup> التي لم يكن يخفيها، والتي لم تكن مما يراد إخفاؤه على أي حال، وقد كان يعلم أن قيادة الإمام<sup>عليه السلام</sup> وتوجيهاته، تمثل امتداداً واقعياً لقيادة وتوجّهات رسول الله<sup>صلوات الله عليه وسلم</sup> نفسه، وكان يدرك مدى الخطير الذي يمكن أن يلحقه شخصياً إذا ما استطاع الإمام إنجاز مهمته وتربية جيل رسالي جديد، يكمل مسيرة الجيل الأول من الصحابة الذي رباه وأعده رسول الله<sup>صلوات الله عليه وسلم</sup>، ثم ترك بعد وفاته<sup>صلوات الله عليه وسلم</sup> نهباً للتيارات والأطعاف والعصبيات والتزاعات، وقد ترك معظم أبناء ذلك الجيل الساحة بوفاتهم، وعادت بعض النزعات والتطلغات الجاهلية للبروز على السطح، عَمِّق منها وزادها ظهور طبقة ثرية مترفة بربت على حساب المسلمين أنفسهم ومنهم من الجيل المحسوب على الصحابة أنفسهم.

وطبيعي أن يسعى معاوية لعرقلة مهمة الإمام<sup>عليه السلام</sup> وإيقافها وبذل كل ما في جعبته

(١) نسبة إلى معاوية نفسه.



لها الغرض وهكذا عمل في بداية انشقاقه وخروجه على الإمام ﷺ بعد إجماع المسلمين على مبaitته، على إقامة كيان مناوى للدولة الإسلامية التي أراد الإمام أن يعيدها إلى الخط الذي كانت عليه زمن الرسول ﷺ.

وكان الإدارa الأموية (المتساهلة) بأمور المال وإنفاقه وبذله، وغير المدققة بالأمور الأخلاقية والسلوكية، والتي تعايشت مع أهل الشام وجعلت لها محط قدم بينهم حتى قبل ظهور الإسلام، جعلتهم ينظرون إلى الإسلام بمنظارها قد حققت نجاحاً كبيراً معهم، وكان ذلك عاملاً على جعلها تحقق (نجاحات) كبيرة في نزاعها مع الإمام خصوصاً بعد تبنيها قضية رائجة جديدة هي مقتل عثمان، بعد أن مهدت لذلك بعض القوى الخليفة الأخرى، ومطالبة الإمام بتسليم الثوار، ثم توجيه الاتهام له ﷺ نفسه بأنه ساعد وشجع أولئك الثوار على قتل عثمان.

وكان استقلال معاوية بالشام، واحتفاظه بها لنفسه، وتحيز أهلها المطلق إلى جانبه وتبيّن لهم أفكاره ونظراته، - كما ذكرنا في هذا الفصل - جعله في مركز يتمكن معه من اعلن نواياه ضد الإمام وخروجه خروجاً سافراً مدعماً بقوة عسكرية كبيرة عن القيادة الإسلامية العليا المتمثلة بالإمام ﷺ.

وما أتاح له كسب المزيد من المواقف (الرابحة) بقاوئه في الشام معلناً من هناك مناوايته للإمام، وإرساله فرقاً صغيرة تشن حرب عصابات خاطفة على كل من يشم منهم رائحة الولاء للدولة الإسلامية بقيادة الإمام، تقوم بعمليات مدمرة لا تفرق فيها بين طفل أو شجرة أو حيوان. لا تلزمها ضوابط أو قوانين، بينما كان الإمام بحكم شعوره بالمسؤولية تجاه الأمة كلها وحرصه على كل فرد من أبنائها، يرى ضرورة إعادة هذا الجزء الخارج عليه، وهو الشام إلى حضيرة المجتمع المسلم، ويحشد الجيش من بين الذين اختارهم طليعة جديدة، وكان على هؤلاء أن يتركوا موطنهم وحياتهم العادمة



المأولة ليذهبوا عدة أشهر إلى الشام محاربين شاكين السلاح بوجه عدوهم وقد لا يعود بعضهم إلى أهله ويقتل في ساحة المعركة.

### أوجه الصراع ومقارقاته

إن الصعوبات التي واجهها الإمام عليه السلام من معاوية والتي عملت على شق المجتمع الإسلامي إلى جزئين وجد في كل منها جهاز سياسي وإداري لا يعترف بالآخر. وكانت الظروف التاريخية التي تمر بها الأمة الإسلامية تجعل موقف معاوية قوياً أو على حد تعبير الشهيد الصدر تجعل «معاوية أحسن موقفاً وأثبت قدمًا وأقدر على الاستمرار في خطه من إمام الإسلام»<sup>(١)</sup> ونوجز هذه الأسباب بما ذكره الشهيد: «فأولاً كان معاوية يستقل بإقليم من أقاليم الدولة الإسلامية، ولم يكن لعلي أي رصيد أو قاعدة شعبية في ذلك الإقليم؛ لأن هذا الإقليم قد دخل في الإسلام بعد وفاة رسول الله صلوات الله عليه وسلم وانعزل على عن خط العمل. وكان هذا الإقليم قد دخل ودشن حياته الإسلامية بولاية يزيد أخي معاوية ثم بعد بولاهية معاوية وعاش الإسلام من منظار آل أبي سفيان. [أما] معاوية فكان يملك رصيداً قوياً وقواعد قوية في المجتمع الذي تزعمه الإمام عليه السلام لأن معاوية كان يحمل شعار الخليفة المقتول والمطالبة بدمه.

وثانياً:... أمير المؤمنين - بوصفه الحاكم الشرعي والمسؤول عن الأمة الإسلامية كان يريد أن يقضي على الانشقاق بشخصية هؤلاء المنحرفين واجبارهم بالقوة على انضمامهم إلى الخط الشرعي. وكان هذا يستدعي الدخول في الحرب التي تفرض على علي عليه السلام الطلب من العراقي أن يخرج من العراق، تاركاً أمنه واستقراره ومعيشته ورثاءه ليحارب أناساً شاميين لم يلتقي معهم بعداوة سابقة، وإنما فقط بفكرة أن هؤلاء انحرفو، فكان موقف علي عليه السلام يتطلب ويفترض ويطرح قضية الهجوم على أناس لا

(١) أهل البيت: مطبوع بالرونديو، السيد محمد باقر الصدر.

يمكون في غالبيتهم - الوعي في حين أن معاوية بن أبي سفيان يكتفي بأن يحافظ على وجوده في الشام، ولم يفكّر (بوجود أمير المؤمنين) أن يهاجم أمير المؤمنين وأن يحارب العراق ويضمّ العراق. وإنما كان يفكّر فقط في أن يحتفظ بهذا الثغر حتى تتهيأ له الفرص والمناسبات والظروف الموضوعية، بعد ذلك يتآمر على الزعامة المطلقة.

وثالثاً: كان معاوية يعيش في بلد لم يكن قد نشأت فيه، زعامات سياسية طاحنة إلى الحكم والسلطان ولم يكن فيه أناس ذوي سابقة في الإسلام، من يرى لنفسه الحق أن يساهم في التخطيط وفي التقدير وفي حساب الحاكم وفي رسم الخطط. أما على  فكان يعيش في مدينة الرسول  . وكان يواجه كثيراً من يرون أن من حقهم أن يساهموا في التخطيط وأن يشتراكوا في رسم الخطط. يواجه أشخاصاً كانوا يرونونه نداً لهم، غاية الأمر أنه ند أفضل، لكنهم صحابة كما أنه هو صحابي عاش مع النبي  وعاشوا مع النبي  .

إن خلافة علي كانت بعد وفاة النبي  بعشرين سنة، وهذا معناه أن ذلك الامتياز الخاص الذي كان يتمتع به أمير المؤمنين  في عهد الرسول  كالنجم لا يطاول. قد انتهى مفهومه وتضاءل أثره في نفوس المسلمين، الناس عاشوا عشرين سنة يرون علياً مأموراً، يرونوه منقاداً، يرونوه جندياً بين يدي أمير. هذا الاحساس النفسي خلال عشرين سنة أذهب تلك الآثار التي خلفها عهد النبوة.

رابعاً: كانت توجد هناك الأطعاف السياسية والأحزاب السياسية التي تكونت في عهد ابن الخطاب واستفحلت بعده نتيجة الشورى. وكانت حالة الاستسلام في المجتمع الشامي بالنسبة إلى معاوية لا يوجد ما يناظرها بالنسبة إلى الإمام  في مجتمع المدينة وال伊拉克.



خامساً: الإمام كان يتبنى قضية هي في صالح الأضعف من أفراد المجتمع، وكان معاوية يتبنى قضية هي في صالح الأقوى من أفراد المجتمع.

تصوروا مجتمعاً إسلامياً وهو يعم بالتقسيمات القبلية بمعنى أن القبيلة كانت تخضع إدارياً وسياسياً لزعامة تلك القبيلة التي تشكل همزة وصل بين القبيلة وبين الحاكم الذي يسهل عليه أن يرشي رؤساء هذه القبائل. وهذا ما كان يفعله غير عليؑ من الحكام وكان عاملًا من عوامل القوى بالنسبة إلى معاوية. معاوية لم يكن شخصاً مكشوفاً، بل كان شخصاً عنوانه الاجتماعي أنه حريص على كرامة الإسلام وأنه الشخص الذي استطاع أن يدخل في قلب الخليفة الخشن (عمر) الذي يعاتب ويعاقب، الذي كان يضرب ابنه بحد الخمر حتى يموت، هذا الخليفة لم يضرب معاوية ولم يعاقبه. معاوية كان نتيجة من قبل الحكام والخلفاء والمنحرفين، وكان يتمتع بسمعة طيبة وبمفهوم طيب. هنا دخل الصراع لأول مرة شعار الأخذ لدم عثمان. وكان يبدو شعاراً له وجهة شرعية.

[كما أنتا] يجب أن نقدر موقف هؤلاء الذين ضحوا وبذلوا وقدموا، ثم أصبحوا يشككون؛ لأن من مصلحتهم أن يشككوا وأصبح الإمام يدفعهم فلا يندفعون، يحركهم فلا يتحركون؛ لأن من مصلحتهم أن يعطوا للمعركة مفهوماً جديداً وهو أن القصة قصة زعامة علي أو معاوية. وهذا التغير الذي أوحى مصلحة هؤلاء وهؤلاء هو الذي كان يشكل عقبة دون أن يتحرك هؤلاء من جديد إلى خط الجهاد<sup>(١)</sup>.

#### بين العدالة والتلويع بالمنافع والرشوات

وكان الحزم الذي أخذ به الإمامؑ نفسه والرجوع إلى البدايات الصحيحة الأولى

---

(١) أهل البيت: السيد محمد باقر الصدر: ص ١٠٤ - ١١١.

في توزيع الأموال على المسلمين، وعدالته الصارمة سبباً ليتخلّى كل أولئك الذين تخروا عن نظرة الإسلام المبدئية أو الذين لم يكونوا ينظرون بها أصلًا، فقد كانت المعركة تتخذ أبعاداً جديدة، دخلت فيها عناصر لم يكن يحسب أنها ستدخل فيها، لو لم يقصد معاوية تصديقاً مسلحاً لحكومة الإمام ﷺ. وكانت تقوم بين عموم المسلمين المستضعفين، الذين يقعون فريسة لمن هم أقوى منهم وأعلى في مراكز السلم الاجتماعي الجديد الذي بدأ يظهر بعد اختفائه أيام الرسول ﷺ وبين هذه الطبقات الجديدة التي حاولت أن تبرز مجدداً مستغلة مراكزها القبلية و(سابقتها) في الدين. لتخرج على حكومة الإمام بمختلف الذرائع والحجج (الشرعية)، مستغلة السوابق التي تم فيها إقصاء أمير المؤمنين ﷺ وإبعاده عن مركزه الحقيقي. وكان تلك السوابق أصبحت سنة وعهداً من رسول الله ﷺ نفسه لا تصرفات شخصية من أناس عاديين تولوا مركز الخلافة بفعل عوامل عديدة. حتى وصل الأمر بمعاوية أن عرض نفسه لأهل الشام بعد انفراطه بالحكم لا ك الخليفة لرسول الله ﷺ وإنما كان كإنسان نافع لهم مضر بأعدائهم، ولا يهم بعد ذلك إن كان خيراً من غيره أو أقل منه. «قال معاوية: يا أيها الناس، ما أنا بخيركم وإن منكم من هو خير مني، ولكن عسى أن تكون أنفعكم ولایة وأنكأكم في عدوكم وأدرّكم حلباً»<sup>(١)</sup>.

«وكان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد، ويلطف به حتى استوثق به أكثر الناس»<sup>(٢)</sup>.

(١) البداية والنهاية: ١٣٥-٨.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٥٥ وذكر ابن عبد ربه الأندلسي أنه كان «.. يعطي الأقارب ويداري الأبعد حتى استوثق له أكثر الناس» العقد الفريد: ج ٥ ص ١١٠.



### تخطيط قديم لتربيّة أهل الشام على أساليب معاوية وتصوراته

لقد أراد معاوية أن يضع مجتمع الشام بمواجهة المجتمع الإسلامي كله، وحاول أن يوحى لمجتمع الشام هذا بأنه هو المجتمع الأمثل والأفضل ما دام يتبنى قضية عادلة هي قضية مقتل عثمان، وجعله يتمتع بامتيازات وقدرات مضافة ليلتقي حول أكثر وأوسع إليه بأنه هو المجتمع المؤهل لقيادة الأمة الإسلامية، وأنه - أي معاوية - لم يكن يعمل إلا بما يراه له أهل الشام، وما ذلك إلا لأنّه وجد فيه تربة صالحة لتحقيق مؤامراته ضد الإسلام، وأراد استغلاله إلى النهاية لتفيد أغراضه ومطامحه وجر بقية أبناء الأمة إلى ما جر إليه هذا المجتمع. وحاول بمكر منقطع النظير أن يوحى لهذا المجتمع بأن الصراع لم يكن بينه هو (معاوية) وبين الإمام، وإنما كان بين مجتمع الشام ومجتمع الحجاز وال العراق وغيرهما من أقطار الإسلام.

وكان رسائله للإمام عليه السلام ومخاطبته لأهل الشام وغيرهم، تدل على أنه يعول عليهم بالدرجة الأولى لتنفيذ خططه ومشاريعه. فقد جاء في رسالة بعثها للإمام عليه السلام قوله: «وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين، وإنما كان الحجازيون هم الحكم على الناس والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكم على الناس أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، [لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام]»<sup>(١)</sup>.

وقال معاوية لجماعة من الموالين لأمير المؤمنين: «إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام

(١) وقد ترسخ هذا المفهوم عند أهل الشام، حتى اعتقدوا أنهم الأحق بمركز الخلافة، حتى قال بعضهم لبعض عند وفاة معاوية بن يزيد «إن الملك كان فيما أهل الشام فانتقل منها إلى الحجاز ولا نرضي بذلك» العقد الفريد: ج ٥ ص ٧٦.

الذابين عن بيضته التاركين لمحارمه ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المتهاكين لمحارم الله وال محلين ما حرم الله والمحرمين ما أحل الله<sup>(١)</sup>.

وقد ذهب معاوية إلى أبعد من ذلك، فدفع أناساً ليرووا حديثاً عن رسول الله<sup>عليه السلام</sup> أنه قال: «إن أهل الشام هم الطائفة المنصورة على من خالفها»<sup>(٢)</sup>.

### الشام: ثقة مطلقة بمعاوية

وقد بلغت ثقة أهل الشام بمعاوية حدّاً بعيداً، جعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه باستجابة تامة دون تحيص، ومتى ما علمنا أنه عمل على تركيز روح الجهل وخصوصاً في أمور الدين - التي كانت سائدة فعلاً لأنهم دخلوا في الإسلام بعد وفاة رسول الله<sup>عليه السلام</sup> كما رأينا، وأنهم إنما نظروا بمنظاره ووفق العقلية التي أرادهم أن يفكروا بها، فإننا نستطيع أن نقول إن أهل الشام كانوا ناجة معاوية ومن صنع يديه، وكانوا نسيجاً خاصاً يختلف عن غيره. لم يكن بينهم (دخول) يكره معاوية أو لا يميل إليه. ونستطيع القول أيضاً إن الشام كانت أموية خالصة تنتهي إلى آل أمية وإلى معاوية انتهاء خاصاً حميّاً.

ولم يكن معاوية بحاجة إلى دهاء كبير وسياسة ماكرة إلى حد بعيد لكي يوجههم كما يريد، وكان أي شخص في موقعه يستطيع تحقيق ما حققه من نجاح معهم؛ لأن فراغ هؤلاء وقلة ترابطهم القبلي وضعف اتصالهم بعرب الجزيرة الذين تلقوا الإسلام بوقت مبكر، وقربهم من موقع الامبراطورية القيصرية وجود مصالح وعلاقات مشتركة معهم، وعدم دخولهم الإسلام إلا في وقت متاخر جعل هويتهم وانتهاءهم غير واضحين.

(١) مروج الذهب: ص ٥٠.

(٢) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٢٩.



وكان معاوية، هذا الذي تعززت تجارة ذويه مع أهل الشام قبل الإسلام، وال فترة الطويلة التي حكمها كعامل لمن سبقه من الخلفاء مضافة لفترة (الخلافة)، هذه الفترة التي تقاد بمجموعها، تمت قرابة نصف قرن (الولاية والخلافة)، طبعت أهل الشام بطابعه ووسمتهم بميسمه. وما عزز مركزه قبل استلامه السلطة المطلقة (كخليفة)، أنه كان فعلاً حاكماً شبيه مطلق (عامل) في زمن الخلفاء السابقين وخصوصاً عثمان، ابن عميه، مما جعل أهل الشام على يقين بجدارته وكفاءته. بل وجذارة ورفعه العائلة الأموية كلها.

وإذا ما أضفنا الأحاديث المفتراة والقصص الموضوعة والتي ذكرنا قسماً منها بخصوص معاوية، ومبنيه في العطاء وتساهله المفرط في الأموال العامة والرشاوي المبالغ فيها، واستعانته بجيش محترف من المحدثين والقصاصين و(الصحابة) والوعاظ والقادة العسكريين وغيرهم، أدركنا الجهد الذي كرسه في سبيل جعل الشام مملكته الخالصة الخاصة به دون أقطار الإسلام الأخرى، وكيف أنه نجح بجعل أهلها أهله وذويه وخاصته وحالصته.

لقد كان جهل أهل الشام المفرط بالإسلام عاملاً مساعداً لتنفيذ مآربه واستخدامهم لهذه الغاية وجعلهم ينحازون إليه انجيازاً تاماً.

#### نماذج من المضحكات المبكيات

وقد سمعنا قصة أبي العباس السفاح مع أشياخ من أهل أرباب النعم والرياسة من سائر أجناد الشام عندما حلفوا له: «أنهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بنى أمية»<sup>(١)</sup>.

---

(١) مروج الذهب: ص ٤١.



«ثم تدبر تفرقهم في أحوالهم ومذاهبهم، فانظر إلى اجتماع ملئهم، أن رسول الله ﷺ أقام يدعو الخلق إلى الله الثنين وعشرين سنة، وهو ينزل عليه الوحي ويمليه على أصحابه فيكتبوه ويذونونه ويلتقطونه لفظة لفظة، وكان معاوية في هذه المدة بحث علم الله، ثم كتب له ﷺ قبل وفاته شهور، فأشادوا بذكره ورفعوا من منزلته بأن جعلوه كاتباً للوحى وعظموه بهذه وأضافوه إليها وسلبواها عن غيره وأسقطوا ذكر سواه»<sup>(١)</sup> (وتروى عنهم قصص غريبة ثبت جهلهم برسول الله ﷺ نفسه، وقول أحدهم لآخر وقد سمعه يصلى على محمد ﷺ، ما تقول في محمد هذا؟ أربنا هو؟)<sup>(٢)</sup>.

وقول أحدهم عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: ما أراه إلا لصاً من لصوص الفتنة»<sup>(٣)</sup>.

وقول أحدهم «وهو حاج وقد ذكر له البيت: إذا أتيته من يكلمني منه»<sup>(٤)</sup>.

وقول أحدهم عندما سئل عن مذهبـه «إنه مرجئي قدرـي ناصـبي رافـضـي»<sup>(٥)</sup>.

وقد أفصـح أحدـ أهـل الشـام عن استـجابـتهم المـطلـقة لـمـعـاوـيـة وـآلـه وـتحـيزـهم التـامـ إـلـيـهـمـ، عـنـدـمـاـ قـالـ، مـعـقـبـاـ عـلـىـ نقـاشـ بـخـصـوصـ تعـيـنـ يـزـيدـ خـلـفـاـ لـهـ: «ما نـدـرـيـ ما تـقـولـ هـذـهـ المـعـدـيـةـ الـعـرـاقـيـةـ، وـإـنـمـاـ عـنـدـنـاـ سـمـعـ وـطـاعـةـ وـضـرـبـ وـازـدـلـافـ»<sup>(٦)</sup>.

وقال آخر عند حضور إحدى الجلسات لمناقشة بيعة يزيد، وهو يزيد بن المقفع

(١) مروج الذهب: ص ٤١.

(٢) مروج الذهب: ص ٤١.

(٣) مروج الذهب: ص ٤١.

(٤) مروج الذهب: ص ٤١.

(٥) مروج الذهب: ص ٤١.

(٦) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٣٥٥.



فقال: «أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية. فإن هلك فهذا. وأشار إلى يزيد. فمن أبي فهذا. وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: إجلس فإنك سيد الخطباء»<sup>(١)</sup>.

«وقد بلغ من أمرهم في طاعته أنه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأغاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها ورکنوا إلى قول عمرو بن العاص أن علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا العن على سنة ينشأ عليها الصغير ويحلّك عليها الكبير»<sup>(٢)</sup>.

### مجتمع غريب

وبغض النظر عن هذه الأخبار والقصص التي تحفل بها كتب التاريخ، فمما لا شك فيه أن معاوية نجح إلى حد بعيد في استقطاب أهل الشام وجعلهم ينظرون إليه كممثل حقيقي بل وحيد للإسلام، وكان حالم غريباً حقاً بجهلهم الإسلام وتصورهم المشوش عنه، فكانوا بذلك كعضو أو -جسم غريب زرع في جسد الأمة الإسلامية، فلا هو يتسمى إلى الإسلام انتهاء خالصاً مبنياً على فهم حقيقي له، ولا هو مجتمع جاهلي خالص معروف الاتجاهات والأهداف، وكان عدم مبالاته الغربية بضميم النشاطات والفعاليات الإسلامية ووقفه على الحياد أمام كل عبث بمبادئ الإسلام تثير أي امرئ غيور حريص على هذا الدين الذي بدأت تعبيت فيه رياح الأطعاع والأحزاب والعصبيات والأحقاد.

كان مجتمعاً قد استماله معاوية واشتراه وجعل منه مجرد قطيع لا يعرف أهدافه الحقيقة من الحياة على ضوء الإسلام، ولا يعرف من هذا الدين إلا أداء بعض الطقوس التي تتيح له الادعاء بأنه يتسمى إلى الإسلام.

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ١١٢ .

(٢) مروج الذهب: ص ٣٩ .



لقد أفرغه من شعوره بالمسؤولية، وجعل منه مجتمعاً لا يهتم أفراده إلا بأمورهم الحياتية البسيطة ولا يميزون بين الحق والباطل والحلال والحرام؛ لأنَّه لم يرده أن يتعلم حقاً ويفقهه حقاً في الدين حتى يعرف ما ينبغي له أن يعرفه.

### أساليب جاهلية تواجهة الإسلام ثانية

لقد كان معاوية يقف (كمعارض) صاحب حق وقضية في وجه الإمام، وإذا ما أضيف إليه مجموعة الطامعين في الخلافة والحكم ووجهاء قريش والعمال والمنتفعين السابقين الذين يخشون من تجريدهم من امتيازاتهم وأموالهم التي حصلوا عليها دون وجه حق، والمتلقين والمتعلمين ورواة الأخبار والمفسرين والقصاصين و(الصحابة)، وبعض وجوه قريش التي رأت في الإمام عدواً تقليدياً لها والخوارج وأضرابهم والقوى والأحزاب السياسية. رأينا كم كان ذلك العصر حافلاً بعناصر الفتنة والخلاف، تلك الفتنة التي تزامنت مع بداية استلام الإمام مسؤولية الخلافة.

و قبل اغتياله ﷺ وكانت الشام وما حولها مهددة لمعاوية، حاول هذا استئصاله كل من لمس لديه استعداداً لمناؤة الإمام وحربه، ثم استغل الثروات التي تركت في يديه لاستئصال وجوه الناس والأشراف ورؤساء القبائل والقادة العسكريين وغيرهم ومهد بمختلف الوسائل لتركيز الحكم في ذريته والتمهيد لخلافة يزيد في مبدأ الأمر. كما عمل على إثارة بعض العصبيات القبلية خلق مراكز قوى متنافسة فيها بينما غير أنها تدين بالولاء له شخصياً.

إن توزيع مراكز القوى بين القبائل، بعد انتزاعها من الإسلام كمركز قوة وحيد، عمل على بعث وإحياء النظارات الجاهلية العصبية التي حاول الإسلام إماتتها ومحوها؛ لأنَّ من شأنها أن تضع المسلمين في خضم النزاعات والفتنة والحرروب. وقد دعا



الإمام عليه السلام كما دعا رسول الله عليه السلام إلى الحذر من الواقع في هذا الأمر الذي وقع فيه من كان قبلهم، فلم يجنوا منهم غير المصائب والويلات والفرقة.

لقد عالج معاوية أمر الأحوال التي اضطربت في عهد الإمام علي عليه السلام وكان هو شخصياً أحد مسبباتها ومحركيها، معالجات لم يكن أحد يستطيع أن يصفها أنها تنطلق من منطلق إسلامي بحت بأي حال من الأحوال. وقد رأينا الأسلوب والعقلية التي عالج بها أمور دولته بعد وفاة الإمام علي عليه السلام وقبل ذلك أيضاً.

إننا نستطيع القول إن معظم أولئك الذين وجدوا لأنفسهم عذراً في الخروج على الإمام قد سكتوا أمام جور معاوية واستسلموا له بل وساعدوه على إرساء دعائم دولته، بفضل ما قدم لهم من أموال ومناصب، وما استعمله من وسائل عنيفة مع المعارضين الحقيقيين لإسكاتهم وردع غيرهم عن سلوك طريق المعارضة والخصومة.

لقد كانت مهمة معاوية بإبعاد المسلمين عن الإسلام، وإرساء نظام طاغوتي هجين ليس له من الإسلام إلا اسمه، نظام له قواعده وأسسها الأرضية البحتة، وقائم على تجارب أنظمة طاغوتية قديمة أتيح لبعضها استغلال الدين لصالحها كما استغل هو الإسلام.

وقد كانت الحواضر الإسلامية بسبيلها أن تكون مثل الشام في أواخر عهد معاوية وببداية عهد يزيد. فحكم يزيد القصير ليس إلا امتداداً لحكم معاوية الطويل. ونعيد هنا ما ذكره المسعودي بشأن الفساد الذي عمها في تلك الفترة «قد غالب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي وأظهر الناس الشراب»<sup>(١)</sup>.

---

(١) مروج الذهب: ص ٨٢



ولم يكن الأمر بالهين أن يصل حال مدن كالمدينة ومكة إلى الحال الذي وصلت إليه في عهد يزيد، ولا بد أنها قد استدرجت قبل ذلك إلى هذا الحال. وقد روى لنا المؤرخون أن بوادر ذلك بدأت تظهر منذ عهد عثمان وقد استفحلت في عهد معاوية الذي غض النظر عن كل ممارسة من هذا النوع فيها بعد عن الإسلام بل رويت لنا أقاوص عن ولعه بها أصبح يزيد مولعاً به. غير أنه كان يتستر ولا يظهر ما أظهره يزيد فيما بعد. ولابد أنه كان أمراً محسوباً ومحظطاً له بعناية أن يترك الناس الدين ويهملوه ولا يجعلوا له الأولوية من اهتماماتهم ولا يعودون يهتمون إلا بشؤونهم الحياتية المعيشية البسيطة التي أفل أسلافهم أن يمارسوها قبل أن يمن الله عليهم بنعمة الإسلام.

### نموذج مزور مقابل نموذج أصيل

كان الإمام عليه السلام يحاول من موقع مسؤوليته كقائد للأمة كلها أن ينقذها مما يمكن أن يبعث وينحرف بها عن الطريق الصحيح، ولم يكن ينطلق في وصفه أهل الشام من موقف متحيز ضدتهم أو من باب الحقد على هؤلاء الذين انقادوا لمعاوية كما تقاد الأغنام، فهو يعرف حال الجهل الذي كانوا عليه، كما أنه أبعد ما يكون عن الشطط والتجني على الآخرين دون وجه حق.

وقد أزعجه أن يوجه أحد أتباعه السباب إليهم ورأى أن ذلك مجرد حالة سلبية تعمل على توسيع شقة الخلاف، وارسال عوامل القطيعة والشقاق.

فهو بكلامه عن أهل الشام وعن الغوغاء وغير المتعلمين، إنما كان يشخص حالات اجتماعية يتحكم بها مدىقرب أو الابتعاد عن الإسلام. وكان بتضخيمه حال مجتمع الشام، يحد المجتمعات الإسلامية الأخرى لكي لا تحذو حذو النموذج الأموي المتخلّف؛ فهو يضع أمامها هذا النموذج مكتشوفاً سافراً ويبين أسباب تخلفه



ووقوعه فريسة سهلة بين يدي معاوية، وبين كيف أنه لا يเทاين مع النموذج الإسلامي الذي حاول رسول الله عليه السلام إيجاده، بل وأوجده فعلاً متمثلاً بالطائع الإسلامية الأولى التي تصدت للشرك والكفر والطغيان بصلابة وإيمان وقدمت التضحيات المائلة من أجل إعلاء دين الله ونشر كلمته على الأرض.

إن النموذج الأموي الذي وضع قبالة النموذج الإسلامي الأصيل، كان يقصد منه التصدي لكل نموذج مشابه لذلك النموذج الأول، الذي حاولت الدعاية الأموية تصويره بأنه (مثالي) غير ممكن التطبيق ولا يمكن أن ينجح مع الحياة ومتغيراتها وتطوراتها وطبيعتها التي تقتضي تمعن الحاكمين - كما هو الحال في السابق - بمزيد من الدهاء والخيلاة والمكر والسياسة.

وكانت السياسة الأموية تكرس لإيجاد طبقات متعددة في هذا المجتمع وإيجاد شرائح اجتماعية لها مصالح متعددة ومتناقضية في أغلب الأحيان، فعملت على إحياء التزعة القبلية وسلطة شيوخ القبائل وإبراز مفهوم العصبية القبلية من خلال تركيزها على (العرب) بشكل واضح وعلى السيادة القرشية وحقها في تبوء المراكز الأولى في السيادة، وعلى البيت الأموي بالخصوص كممثل (للسادة العرب) المؤهلين وحدهم لحكم الأمة الإسلامية، مما أوجد وبالتالي حالة خلاف وتناقض وشعور بالتبعاد بين بعض الشعوب التي دخلت الإسلام وكان لها ثقل كبير في المجتمع الإسلامي المتسع المنتشر وبين أولئك الذين تبنوا التزعة العربية بشكل صارخ، مما انعكس كحالة سلبية توسيع على مر الزمن. وقد حاول أعداء الإسلام النفاذ منها لضربه وتقويضه.

#### **الإمام يراقب الحالة الأموية الشاذة ويعرف بنفسه**

كان الإمام يراقب تلك الحالة الشاذة التي بدأت تبرز في الشام والتي أرادت أن

توسع وتنشر وتكون هي الحالة القياسية السائدة، وتلك هي - كما قلنا - النموذج الأموي للإسلام الذي عمل معاوية على نحته وإبرازه على أنه النموذج الأجمل المطلوب؛ لأنَّه وحده الذي يمكن إقامة دولة معقولة وواقعية على أساسه، دولة لا تمت - دون شك - إلى الإسلام بأي سبب وأية وسيلة. وفي هذا ما فيه من نسخ كامل للإسلام واستبداله بوليد غريب لم تعرفه كل الجاهليات والحضارات الإنسانية طوال تاريخها. وهذا ما كان رسول الله ﷺ يتغوفف منه. فقد قال ﷺ خبراً أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمَرْفُوُعُ بِمَا قَدْ يَقُولُ به بعض المحسوبين على الإسلام من تحريف وتزوير، ينطلي وتحفي أهدافه على جماهير واسعة من الأمة؛ لأنَّه لا يصدر عن مؤمنين بهذا الدين أو مشركيين معروفين بشركمهم، وإنما عن أناس تستروا بالدين، وجعلوا من أنفسهم قِيمين عليه وناظرين باسمه «فإنه لا سواء إمام الهدى وإمام الردى وولي النبي وعدو النبي». ولقد قال لي رسول الله ﷺ: إنَّمَا أَخَافُ عَلَى أَمْتِي مُؤْمِنًا وَلَا مُشْرِكًا أَمَا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَا الْمُشْرِكُ فَيَقْعُدُهُ اللَّهُ بِشَرِّهِ، ولكني أَخَافُ عَلَيْكُم كُلَّ مُنَافِقٍ جَنَانَ عَالَمِ اللِّسَانِ، يقول ما تعرفون وي فعل ما تنكرنون»<sup>(١)</sup>.

وهذا ما وقع فعلاً في ظلّ (دولة إسلامية أموية) جديدة، عدوة للدولة الإسلامية الأصيلة التي قادها رسول الله ﷺ، وقد تستترت بنفس الشعارات الإسلامية المعنة. وقد كان تشخيصها كعدو، ومحاربتها على هذا الأساس، أمر يستدعي الكثير من الفهم والإدراك والقوة. والأمران الأولان لم يعوا الإمام على أي حال، ولم تكن تعوزه بصيرة النافذة التي كانت أقرب ما تكون إلى بصيرة رسول الله ﷺ نفسه. أليس هو ﷺ القائل له: «إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست ببني ولكنك وزير، وإنك

(١) نهج البلاغة: ص ٥٤٥.

لعل خير<sup>(١)</sup>.

وقد رسم هو ﷺ صورة لنفسه، لا يملك من يتذرّب شخصيّته الكبيرة إلّا أن يرى  
وضوحها وسطوعها بشكّل ملفت للنظر حقاً وفريداً لا مثيل له، ويرى أنه ﷺ لم يكن  
يبالغ وإنما يعرض أمّام المسلمين الشخصية التي أعدّها رسول الله ﷺ لقيادة المسلمين  
من بعده، فكأنه - كان يرى لزاماً عليه أن يعرف الأمة على شخصيّته التي حاولت قوى  
عديدة سحبها من دائرة الضوء عندما منع من ممارسة القيادة الفعلية للمسلمين.

«إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ مِثْلُ السَّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا»<sup>(٢)</sup>.

«وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَةٍ، مَا لَبَسْتُ وَلَا لَبَسَ عَلَيَّ»<sup>(۳)</sup>.

«وَإِنِّي لَعَلَىٰ بَيْتَهُ مِنْ رَبِّي، وَمَنْهَاجٌ مِنْ نَبِيٍّ، وَإِنِّي لَعَلَىٰ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْقَطْعَةُ لَفْطًا»<sup>(٤)</sup>.

وربما لم يمتلك أحد منا القدرة على رسم شخصيته كما رسمها هو ﷺ ومن قبله رسول الله ﷺ، ولم يقدر أحد على فهم هذه الشخصية، إلا بمقدار قربه من الإسلام وفهمه له.

«أنتي أشكو اليوم حيف رعيتي كأنني المقود وهم القاده»

لقد أعز الإمام الجنديين يحملون فكرته ويندفعون بنفس حماسه لتصفيه خصوم الإسلام، دون أن يتلكؤوا ويجادلوا ويناقشوا ويطرحو المزيد من التساؤلات حول جدوى الحرب مع معاوية والظاهرة الأموية التي أصبحت ملادةً للمتкаسلين

(١) نهج البلاغة: ص ٤٠٩.

(٢) نهج البلاغة: ص ٣٠٧.

(٣) نوح البلاغة: ص ٢٤٠.

#### (٤) نوح السلاعة.

والمتهانين والضعفاء وأعداء الإسلام. وبرروا قعودهم عن نصرة الإمام بمختلف التبريرات التي عرضنا قسماً منها والتي يعود أغلبها إلى سأله من القتال والمسير المتكرر إلى الشام وغيره، وكانت الأموال الأموية عاملًا على تغيير أفكار العديد من يجعلهم يرون في الدين الأموي، الدين الأصلاح الملائم والعملي، وأن أتباع معاوية مسلمون مثلهم وأن لا جدوى من الحرب، وكانت مهزلة التحكيم خاتمة المصائب التي أودت بوحدة المسلمين واجتماعهم. بينما اندفع أصحاب معاوية خلفه دون رؤية أو تفكير أو سؤال ومن دون إثارة أي خلاف، مقتنيين به قناعة تامة مسلمين إليه أمرهم ورقبتهم. وهذا ما جعل الإمام ع يشكو شكوى مرة من هذا الوضع، فهو لم يستطع أن يجبر الناس بالقوة والحيف وأساليب القمع والرشوة. فممثل الإسلام الحقيقي لم يتوجه غير أساليب الإسلام، ولم تكن هذه وحدتها أمام الإغراءات الأموية وأساليب الأموية قادرة في المرحلة التي استدرجت فيها الأمة إلى الانحراف على الصمود بوجه تلك الأساليب الماكنة الخبيثة بعيدة عن الإسلام وقيمه. «إِنْ كَانَتِ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُوا حَيْفَ رُعَايَهَا، وَإِنَّمَا الْيَوْمَ لَا شُكُو حَيْفَ رَعِيَّتِي، كَانَنِي الْمَقْوُدُ وَهُمُ الْقَادُّ، أَوِ الْمَوْزُوعُ وَهُمُ الْوَرَعُةُ»<sup>(١)</sup>.

كانت مهمة الإمام ع تمثل بابحاج وإعداد وتربيه جيل جديد يؤمن بأهداف الرسالة الإسلامية ويحمل تصوراً إسلامياً صحيحاً لا يغفله غبار الشك أو غيش الخلاف والجدل العقيم والتردد.

وقد وجدنا أن أقوال الإمام كانت تتحى بهذا الاتجاه بأكثر من مناسبة، وكان تقرير أصحابه وتوجيههم أحياناً لا يستهدف سوى تنبيههم إلى خطئهم بعد تشخيصها أو لا ثم عبورها وتجاوزها فيما بعد. كان يريد لتلك الطبيعة المسلمة الجديدة أن تستسهل ترك

(١) نهج البلاغة: ص ٧١٩.



ديارها وأهلها وكل عزيز عليها للدفاع عن الإسلام. وكان يريد لها أن تبرز وتتجدد وتظهر لا في زمانه هو فقط، بل حتى في الأزمان اللاحقة، منها تطاولت هذه السنين وابعدت، ليكون مقياس الانتهاء إلى الإسلام هو الانشداد إليه والرغبة في التضحية من أجله، سواء أتيحت تلك الفرصة للتضحية أم لم تتح. ولا يهم متى يكون ذلك.

### معارك الإسلام واحدة في كل زمان ومكان

«لما أظفره الله بأصحاب الجمل، قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك. فقال ﷺ: أهوى أخيك معنا؟ فقال: نعم. قال: فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسکرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان»<sup>(١)</sup>.

وقد أراد بذلك أن يبين أن جنده ليسوا هؤلاء الذين يراهم أمامه يقاتلون دفاعاً عن الإسلام فقط، بل أن كل من يسير على النهج الصواب ويتبنى المواقف الإسلامية الصحيحة التي تبناها منها تباعدت الأيام والسنين هم من جنده أيضاً. أراد إيجاد حالة ارتباط دائمة بين الناس والإسلام، وأن يرجعوا الموقف التي مر بها أسلافهم ويقيموها تقوياً عادلاً مصنفاً ويتبني تلك التي عملت على عز الإسلام وإعلائه، كما أراد ﷺ أن يشير التساؤلات حول جدواي التصرفات الأممية ويبين لنا كيف سيتهيأ المطاف بال المسلمين آخر الأمر في ظل دولة جائرة كهذه إذا ما سادت وحكمت، ولم تكن أقواله تنبؤات عما سيكون عليه حال المجتمع الإسلامي بقدر ما كانت تفسيراً صحيحاً للسنن الإلهية التي استوعبها الإمام استيعاباً شاملًا ووعى كل ما جاء به القرآن في هذا الصدد، فهو ابن القرآن وربيب الوحي ..

---

(١) نهج البلاغة: ص ٩٨.



### كشف الأخطاء لا يتم بالسباب وإنما بوصف الأعمال

وهكذا انطلق لتعرية النظام الأموي وكشفه لا بنفس الأسلوب الذي كان يستعمله هذا النظام ويلجأ إليه، وإنما بتشخيص العيوب والأمراض التي حاول هذا النظام نشرها في جسد الأمة الإسلامية، ليتم بهذه التشخيص تخلص الأمة منها فيما بعد، حتى دون وجود الإمام نفسه واختفائءه من الساحة، وربما بعد سنوات طويلة من رحيله. وبهذا الشعور وهذا الفهم فإنه عندما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام قال لهم: «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالي كان أصوب في القول وأبلغ في العذر. وقلتم مكان سبكم إياهم، اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيتنا وبينهم واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن البغي والعدوان من هيج به»<sup>(١)</sup>.

فهو هنا يدعو لتشخيص الداء ليتسنى إعطاء الدواء المناسب؛ أراد نشوء حالة من النقد الاجياني يرتفع بمستوى كل شخص في هذه الأمة، ليشعر أنه منها حقاً وأنه مسؤول مسؤولية مباشرة عنها وأنه راع فيها. ورغم ما فعله أهل الشام معه، فإن الإمام - كان يعرف أنهم ما كانوا ليفعلوا ما فعلوه لولا جهلهم وتأثرهم بقيادة معاوية المنحرفة، وربما كان قلبه يت Fletcher أسى وحزناً عليهم؛ لأنهم ينساقون هذا الانسياق الأعمى وراء معاوية وألاعيبه وأفانيه.

### احذروا معاوية.. لو ظهر في غير زمان الإمام لدمر الإسلام إلى الأبد

وهكذا أشار إلى معاوية إشارات صريحة، محذراً الناس منه، وكان بذلك يريد تحذير الناس من كل نموذج آخر مشابه قد يظهر على الساحة فيما بعد أيضاً ويضل الناس ويلعب بعقولهم ومشاعرهم لما في ذلك من خطر ماحق؛ لأن معاوية - كما قلنا - يتستر

(١) نهج البلاغة: ص ٤٦٤.



بإسلام نفسه الذي تدين به الأمة وتقديسه.

وقد شاء الله أن يبتلي الإمام بمعاوية، ويبتلي معاوية بالإمام ليكون أحد هما حجة على الآخر - على حد تعبير الإمام في إحدى رسائله إليه -.

ترى لو ظهر معاوية في زمن غير زمن الإمام، وحارب شخصاً غيره، كيف كانت ستكون مجرى الحوادث حينذاك؟ لا شك أن معاوية كان سيحقق نصراً ساحقاً، لا على ساحة المعارك وفي نطاق الحروب والسيوف، وإنما على المستوى (العقائدي)؛ إذ إن معاوية، لو كان الذي نازله غير الإمام، ربما استطاع تصوير القضية كلها لصالحه بشكل جذاب مقنع مغرياً، وتصوير قضية خصميه (لو كان غير الإمام) تصويراً يدعوه للاشمئزاز والقرف منه. وقد أراد فعلاً أن يصور قضية خصميه الإمام كذلك، لكنه لم ينجح إلا مع أهل الشام ولم يدم ذلك إلا خلال مراحل الحكم الأموي وحسب.

وقد استطاع الإمام - على عكس ما أراد معاوية - أن يصور بشاعته وبشاشة تصرفاته وقبحها. ولم يستطع معاوية رغم كل الجهد التي بذلها أن يطمس فضائل عدوه حتى بين أهل الشام أنفسهم أحياناً، ولم يستطع أن يخفى جرائمها هو وخروجه السافر على العديد من أحكام الإسلام وتشريعته، وأن يلقى عليها ظلاً إلى الأبد، فقد انتبهت الأمة، وربما كانت قد سكتت مغلوبة - إلى أضاليله وخدعه، وربما كان ذلك بفعل توجيهات الإمام وعمله على تربية الأمة كلها وإيجاد حالة من الوعي والقدرة على النقد والمراقبة والتوجيه والرصد مما يساعد على ايجاد حالة أخرى من التقويم المستمر لكل انحراف من الحاكم أو من فئات معينة من الأمة، حتى في المراحل اللاحقة التي قد يختفي فيها (الخصوم) الحاليون ويظهر قادة جدد.

وكان أحري بال المسلمين - إلى يومنا هذا - أن يغتبطوا فعلاً لظهور معاوية وخروجه



في عصر الإمام عليه السلام نفسه، فما كان غير الإمام - برصيده الهائل عند الأمة - مؤهلاً للتصدي له وإيقافه، ولو أن معاوية ظهر في عهد غير عهده لاستأصل الإسلام نهائياً ولقضى عليه. ولكن ظهوره في زمن الإمام عليه السلام جعله يصطدم بصخرة صلدة ولا ينجح بتنفيذ كل مخططاته وماربه إلا بشكل محدود، وإلى حين.

وكان (نجاحه) الظاهري بعد اغتيال الإمام، مقدمة لفشل سياساته وخططاته على المدى البعيد، وكان تمهيداً لأنهيار وسقوط النظام برمته بعد ذلك.

لقد كانت الدولة الأموية نموذجاً سيئاً جعل الأمة كلها تتطلع بنظرات السخط وعدم الرضا عليها وإن سكتت مغلوبة على مارستها، ليكون هذا النموذج فيما بعد إذا ما ظهر بأي شكل مدعوة لسخط آخر، ومعرضاً للسقوط والانهيار أيضاً.

وقد أثار ظهور هذه الدولة احتتمال ظهور دول فرعونية طاغوتية محتملة في أزمنة وأمكنة أخرى تستغل الإسلام وشعاراته وطقوسه. وهذا ما جعل الأمة تراقب بوادر ذلك وتنظر بعين الخدر إلى كل نموذج آخر مشابه لمعاوية فلا يمكن من تمرير كل خططه وألاعيبه كما مررها ذاك.

لو كان معاوية قد ظهر في عهد غير عهد الإمام، ولم يتصد له شخص كالإمام ويكشفه أمام الأمة كلها، لكان قد روج لأفكاره وقيمه المغايرة تماماً لأفكار وقيم الإسلام، ولعمل بنجاح دون أي عائق دون وجود خصم مؤهل يمتلك رصيداً هائلاً لدى الأمة لتأسيس نظام طاغوتي جديد، تضليل أماته كل الأنظمة الطاغوتية الأخرى ولأعلن خروجه السافر عن الإسلام ولحاربه علانية بنفس الطريقة التي حاربه فيها مع أبيه قبل أن يجبرا على اعتناقها خوفاً من القتل والاستئصال.

ورغم كل الغيط الذي جرّعه معاوية للإمام عليه السلام، فإننا نحسب أن الإمام كان سعيداً



أيضاً لظهور معاوية في عهده، مع كل ما لاح لنا من المراة الظاهرة في أقواله ورسائله عندما يذكره أو يكتب إليه؛ لأنَّه علم أنَّ طاقة الشر المائلة المعتملة في نفسه والامكانيات التي سخرها والاستعدادات والقدرات الاستثنائية التي تمتَّع بها، لم يكن يستطيع ردعها وكشفها إلا هو ﷺ، فلم يكن أبلغ حجة على معاوية من الإمام.

كيف يستطيع معاوية أن يجد الأعذار أمام الأمة كلها ليحارب عليهاً ويقف في وجهه؟

لقد تأول القرآن ووقع في مستنقع العصيان السافر لله وعمل على تزوير دينه وأحكامه واستغل بقية من عصبية كادت تنقرض وأجج نارها مرة أخرى، عالماً أنَّ كلَّ ما كان يفعله إنما لصالحته الشخصية هو.

هل كان الإمام ﷺ يملك أن يقف مكتوف الأيدي أمام خارج عن الإسلام كمعاوية؟ وهل كان مستطيناً أن يجامله ويقرره على ولاية الشام أو يتقاسم معه الحكم، وعنه ما عنده من اليقين والحق؟

### موقف الإمام ﷺ من معاوية

إنَّ ما يعلمه الإمام يجعله لا يتردد بالتخاذل الموقف الذي وقفه من معاوية، وبدعوته الآخرين لاتخاذ نفس هذا الموقف منه، فإنه يدعو الناس في كل زمان للوقوف بوجه أمثاله من المنحرفين دون تردد، فمنهج الإسلام واحد وطريقه واحد.

وعن ذلك عبر الإمام ﷺ في رسالة له كتبها إلى معاوية نفسه قائلاً: «وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي، فجعل أحدهنا حجة على الآخر فعدوت على طلب الدنيا بتاويل القرآن، فطلبتني بما لم تجنب يدي ولا لسانني وعصيت أنت وأهل الشام، وألب عالمكم جاهلكم،



وَقَائِمُكُمْ قَاعِدُكُمْ»<sup>(١)</sup>.

وقد صور الإمام معاوية تصويراً دقيقاً في رسائله وخطبه، وظيفي أن يعمد إلى ذلك مع خصم ليكشف حقيقة هذا الخصم، ويلقي الحجة عليه وعلى من ناصره في خلافه وخروجه على القيادة الشرعية الممثلة به.

غير أنها لابد أن نلتفت إلى أمر آخر، وهو: أن الإمام قد أدرك بصيرته الثاقبة وعلمه الكبير أن معاوية سيكون نموذجاً للطاغيت والفراعنة المتلبسين بالإسلام على مر الزمن، وسيكون مثلاً أعلى لهم. وهكذا أراد أن يكشف زيف هذه الشخصية أمام الناس حتى لا ينبهروا بها أو يخدعوا ببريقها إذا ما حدث أن تكررت وظهرت بشكل آخر وباسم آخر، وقام فرعون أو فراعنه آخرون ينهجون نهجه، ولا ينساقون وراءهم، بل يدققون بتلك الأشكال الممسوحة القائمة خلف بريق ظاهري خادع.

فمعاوية نموذج ظهر في عهد الإمام، وكان بحسه الصافي يدرك أن ظاهرة معاوية ستتكرر أمام غياب القيادة الحقيقية عن الساحة. وقد أراد الإمام، إذا ما تكررت أن لا تستقطب الأمة كلها حولها، كما يستقطب ضوء النار بعض الحشرات فتحرقها وبالتالي وتعود النتيجة وبالاً على الجميع.

لولم يكشف الإمام معاوية، لكان هذا صنماً كبيراً معبداً من دون الله، ولحاول أن تغطي شخصيته حتى شخصية رسول الله ﷺ نفسه ولحاول محوها وتشويها.

وقد رأينا كيف نظر الحجاج إلى شخصية عبد الملك بعد ذلك، وقد أراد الحجاج الناس أن ينظروا إليه، كما ينظر هو إلى خليفته وفرعونه ومعبداته.

ولم يكن أحد يمتلك المؤهلات التي امتلكها الإمام لكي يستطيع التصدي

(١) نهج البلاغة: ص ٦٢٧.



للمؤامرات الكبيرة وكشف شخصيات (المعارضين) وفي مقدمتهم معاوية، وتعريتها أمام الناس على مر الأزمان. وهكذا، فلربما اعتبرنا من حسن الحظ والطالع أن يظهر معاوية في زمن الإمام. فمعاوية طاقة هائلة وعقبالية كبيرة من عقريات الشر والجموح والتمرد، كانت خلاصة عقريات الشر وسياسات الفراعنة السابقين.

**كيف وصفه : إذا أردت أن تعرفه فاقرأ وصف الإمام له ( .. فإنما هو الشيطان )**  
وما كان معاوية عقبة في طريق الإمام ﷺ وحسب، وإنما كان عقبة في طريق الإسلام نفسه. إن أمره عجيب حقاً، فكأن هذه العقبة قد وضعت في طريق الإسلام، لتخترق منزلته في النفوس، وكيف ستتصمد أمام المكائد والدسائس.

فلنلاحظ معاوية، كما لاحظه الإمام ﷺ ووصفه هو شخصياً في بعض كتبه وأشار إليه أثناء خطبه أو كلامه :

«إنما هو الشيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماليه، ليقتتحم غفلته ويستلب غرته»<sup>(١)</sup>.

«ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة والحريرة المتبعة، مع تضييق الحقائق واطراح الوثائق التي هي لله طلبة وعلى عباده حجة»<sup>(٢)</sup>.

«وقد دعوتنا إلى القرآن، ولست من أهله»<sup>(٣)</sup>.

«أمرى ظاهر عنه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفة الحليم بخلطته»<sup>(٤)</sup>.

(١) نهج البلاغة: ص ٥٨٥.

(٢) نهج البلاغة: ص ٥٧٧.

(٣) نهج البلاغة: ٥٩٥ (ومروج الذهب: ١٧) و ٥٢٦.

(٤) نهج البلاغة: ص ٥٨٠ (ومروج الذهب ١٧) و ٥٢٦.

«وأرديت جيلاً من الناس كثيراً خدعهم بغيك وألقيتهم في موج بحرك، تغشهم الظلمات وتتلطم بهم الشبهات حملتهم على الصعب وعدلت بهم عن القصد»<sup>(١)</sup>.

«ما أنت والفضل والمفضول والسائل والمسوس؟ وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم. هيئات لقد حن قدح ليس منها وطبق يحكم فيها من عليه الحكم لها».

«الآتَرَبَعُ أَيْهَا إِلَّا نَسَانٌ عَلَى ظَلَعَكَ وَتَعْرُفُ قَصْوَرَ ذَرَاعَكَ وَتَتَأْخِرُ حِيثُ أَخْرَكَ الْقَدْرَ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ غَلَبةُ الْمَغْلُوبِ وَلَا لَكَ ظَفَرُ الظَّافِرِ وَأَنْكَ لِذَهَابِ فِي التَّيْهِ رَوَاغٌ عَنِ الْقَدْرِ»<sup>(٢)</sup>.

«فَلَسْتَ بِأَمْضِي عَلَى الشُّكِّ مِنِي عَلَى الْيَقِينِ. لَيْسَ أُمِيَّةُ كَهَاشِمٍ وَلَا حَرْبُ كَعْدِ الْمَطْلَبِ وَلَا أَبُو سَفِيَّانَ كَأَبِي طَالِبٍ وَلَا الْمَهَاجِرَ كَالْمَطْلِيقِ وَلَا الصَّرِيحَ كَاللَّصِيقِ وَلَا الْمَحْقِ كَالْمَبْطُلِ وَلَا الْمُؤْمِنَ كَالْمَدْغُلِ وَلَبَيْسَ الْخَلْفِ خَلْفَ يَتَّبِعُ سَلْفًا هُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمِ»<sup>(٣)</sup>.

«فَإِنَّكَ مُتَرْفٌ قَدْ أَخْذَ الشَّيْطَانَ مِنْكَ مَا أَخْذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمْلَهُ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرِي الرُّوحِ وَالدَّمِ. وَمَتَى كَتَمْتَ يَا مَعَاوِيَةَ سَاسَةَ الرُّعْيَةِ وَوَلَادَةَ أَمْرِ الْأَمَّةِ، بَغَيْرِ قَدْمٍ سَابِقٍ وَلَا شَرْفٍ بَاسِقٍ؟»<sup>(٤)</sup>.

معاوية - كما عرفناه - وكما اعترف هو أيضاً بعض جوانب انحرافه وخطئه، لم يكن مختلفاً عن الصورة التي رسمها له الإمام، بل لعل هذه الصورة هي أصدق الصور وأدقها تعبيراً ووضوحاً. وما كان الإمام متجليناً عليه بهذا الوصف، كعدو للإسلام شاخص أمامه، بل ربما كان يصف بعض الأعداء المرتقبين الذين يتمتعون بمهارات

(١) نهج البلاغة: ص ٥٧٢ (ومروج الذهب: ص ١٧) و ٥٢٦.

(٢) نهج البلاغة: ص ٥٤٦ (ومروج الذهب: ص ١٧) و ٥٢٦.

(٣) نهج البلاغة: ص ٥٤٧ (ومروج الذهب: ص ١٧) و ٥٢٦.

(٤) نهج البلاغة: ص ٥٣٣ (ومروج الذهب: ص ١٧) و ٥٢٦.



متشابهه ويؤثرون في الناس، والذين قد يظهرون في كل زمان ومكان. علينا أن نستعد لهم ونواجههم، وهم يلبسون أثواب معاوية ويتسترون بما تستر به.

مواصفات معاوية كانت ستبرز في كل فرعون وطاغوت من فراعنة وطواجبيت هذه الأمة، الذين يدعون الغيرة على الإسلام والوصاية على المسلمين.

وعندما تصدى الإمام عليه السلام لاستئصال فرعون محتمل كمعاوية ومنعه من الوثوب إلى منبر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وخلافته، ورسم لنا صورته ووضعها أمامنا، فإنه طلب منا أن نستعد لفراعنة زماننا المحتملين الذين سيظهرون لنا كما ظهر معاوية بالشام، ثم استولى على كل بلاد الدولة الإسلامية، لمنع ظهوره متى ما رأينا أول بوادر غدره وعيته وألاعيبه وسياسته.

#### «أول من يغير سنتي رجل من بني أمية»

ورحم الله أبا ذر، فقد نقل عن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قوله: «أول من يغير سنتي رجل من بني أمية»<sup>(١)</sup>.

ومن عسى أن يكون هذا غير معاوية، الذي استغل الانحراف الواقع في عهد سلفه من بني أمية أيضاً، ليقوم بأكبر عملية تزوير وتشويه للإسلام مستهدفاً القضاء عليه ومحوه من الوجود. فقد ابتي به الإسلام وابتلي به الإمام والناس الذين عاشوا في عهد الإمام.

غير أن مهمة معاوية ما كان لها أن تنجح إلى الأبد ومع الأمة كلها، فالإمام رغم ما لاقاه من مصاعب قد نجح بلفت نظرها إلى ما انزلق إليه من تأثروا به، وجعلها تدرك حتى بعد رحيله عليه السلام أنها إذا ما كانت في مرحلة من مراحل حياتها قد تنازلت وضعفت

---

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٣٤.



واستسلمت لبعض الطواغيت أمثال معاوية وأضرابه من بنى أمية أو بنى العباس أو غيرهم، فإنها لم تمت ولم تفقد كل قوتها، وإن جذوة الإسلام وصحوة الإسلام لا تزال تنير طريقها وقد تحفظها للنهوض ومواصلة نفس المسيرة التي سارها صحب رسول

الله عليه السلام .

وحتى هذا الحديث يتأوله البعض، فيقولون إنه بحق يزيد. ونقول: بأنه حتى لو كان بحق يزيد، فمن الذي أوجد يزيد ومهد له وأقام عرشه وبنائه؟ وبماذا كان يزيد يفرق عن معاوية؟ سوى أنه طائش نزق لم يتورع عن إظهار ما حاول معاوية إخفاء؟ أليست دولة يزيد امتداداً لدولة معاوية؟ أليست وليداً لها ونسخة منها؟

#### معاوية : الإعداد للدين الجديد

في مقابل رأي الأمة الحقيقي بمعاوية، والذي عبر عنه الإمام بصراحة ووضوح، والذي لم تختلف عليه في مختلف أقطارها وأمصارها، اللهم إلا في الشام وحالياها، طرح معاوية الأحاديث التي لفقها له محدثو الدولة وفقهاها والصحابة المزورون، وذكروا فيها عن رسول الله مناقب معاوية ما كانت لتاح للرسول عليه السلام نفسه.

لقد أصبحت وسائل الإعلام بيده في النهاية، كما أصبح كل شيء كذلك بيده، فما الذي يمنعه من تحسين صورته في أعين المسلمين، بل ما الذي يمنعه من محاولة محو الصورة السابقة وإلصاق صور جديدة تطالعهم كل يوم، يرون فيها عاهلهم المجل الأثير القريب من رسول الله ومن الله تعالى نفسه! وقد عمل على هواه - على تهديم الشريعة وتشوييه صورتها بتفويض إلهي مطلق ادعاه لنفسه باسم الإسلام، ما كان ليتاح للفراعنة القدماء السذج الذين لم يبلغوا ما بلغه من دهاء ولم يلتجئوا إلا إلى الأساليب المباشرة في الظلم والجحود.



### فقدت الأمة هويتها الإسلامية عندما استسلمت معاوية

كان من الطبيعي، بعد أن استلمت الأمة لهذا النمط من الحكم، أن تفقد هويتها وكيانها كأمة إسلامية، وتظهر بشكل آخر مرقع لا يتمتع بأي قدر من الأصالة أو وحدة الشكل ولا بأية قدرة على الديمومة والبقاء والاستمرار؛ إذ إن مهمه هذا النمط من الحكم تحويل الأمة عن مسيرتها، ومسخ رسالتها وتغييرها بل ومحوها ليتسنى لهم تحقيق أطماعهم وطموحاتهم الشخصية. وإذا لا يعلن هؤلاء عن أغراضهم صراحة ويخفوا خططاتهم وراء أعدار وأسباب وهيبة، فإنما لكي يساعدهم ذلك على تمرير هذه المخططات على الأمة وتنفيذها بيسر وسهولة. فالإعلان الصريح لابد أن يحمل في طياته استفزازاً مباشرأً للأمة، لن يستطيعوا معه استدرجها إلى ألاعيبهم التي لا يقصدون منها سوى تكريس منافعهم وتحويل أبنائها إلى عبيد مستضعفين لا يرون أمامهم دون الله إلا أسيادهم الحاليين، وإلا تنفيذ رغباتهم ونزاواتهم.

لذلك فإن توقعات الرسول الكريم ﷺ كانت حقيقة، عندما رأى بصيرته الثاقبة الأمة وقد تخلت عن رسالتها بعد ذلك، أمة ضعيفة، مهملة، لا تعرف من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه، ولا تهتم إلا ببعض المظاهر التي تقنع بها نفسها على أساس أنها أمة إسلامية ولا يعود الدين يعني لديها إلا شعائر وطقوس ألغفتها بحكم العادة.

وقد أخبرنا أبو سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيّاً. ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ للإمام عليه السلام: «يا علي إن القوم سيفتنون بأموالهم، ويؤمنون بدینهم على ربيهم، ويؤمنون رحمته ويؤمنون سلطنته، ويستحلون حرامه بال شبّهات الكاذبة والأهواء

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٣٣.



الساهية، فيستحلون الخمر بالنبيذ والسحّت بالهدية والربا بالبيع»<sup>(١)</sup>.

وجاءت تصورات الإمام ﷺ عن انهيارات الأمة في ظل أنظمة يتحكم فيها طواغيت حاذقون مهرة (دهاة) أمثال معاوية، مطابقة لتصورات الرسول الكريم ﷺ.

#### لابد للمقدمات من تنتائج

فلا بد أن النتائج لها مقدمات، وهذه المقدمات بربت متمثلة بتلك الشرائح الطفيفية الملتصقة بالإسلام ظلماً وكذباً، ولبست رداءه، وحاولت سلب هذا الرداء في النهاية بعد أن ادعت أنها المالكة الحقيقية له، لذلك فإنه ليس رجماً بالغيب أن يتوصل أمرؤ كعيل ﷺ الذي يمتلك بصيرة واعية وعلماً واسعاً وحسناً من هفاً، هو حسن الإسلام ذاته، ويمتلك شعوراً بالمسؤولية لا يتفوق عليه إلا الشعور الذي امتلكه رسول الله ﷺ، إلى قراءة المستقبل وكأنه ينظر إليه ويشاهده عياناً ويشخص البدايات التي ستتشكل نقاط الشروع لهذا الانحراف الواسع المرتقب، بعد أن مهدت له انحرافات غير ملحوظة في بداية الأمر.

إن التصدي لمراكز المسؤولية من قبل من ينبغي أن يكونوا أبعد الناس عنها، أمر رأى الإمام ﷺ أنه خطير جدًا ولا يدعو للارتفاع؛ إذ إن معنى ذلك أن يجر هؤلاء الناس إلى ممارساتهم غير المبالغية وعيثهم وبعدهم عن الإسلام خصوصاً وأن سوابقتهم معروفة لدى الأمة، وإذا ما قبلتهم حكامًا عليها، فإن ذلك ليس له إلا معنى واحد، وهو تخليها عن رسالتها «ولكني آسي أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً وال fasiqين حرباً، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حياً في الإسلام، وأن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام

---

(١) نهج البلاغة: ص ٣٣٧.



الرضائخ<sup>(١)</sup>.

### الشام: نقطة الشروع لتعزيز الانحراف

لقد رأى أن الشام ستكون هي نقطة الشروع بالانحراف الواسع، بل أن الشام قد بدأت تكون كذلك، فلا عجب إن راح الإمام يشخص الحالة المرضية التي وقعوا فيها، وجعلتهم بعيدين عن الإسلام، وذلك بفعل العوامل المتعددة التي ذكرنا قسماً منها في هذا الفصل، ومنها رؤية أهل الشام للإسلام بالعين الأموية التي لم ترد له أن يعرف إلا من خلال مصالحها ووفق (اجتهاداتها) هي، ولبعد الشام النسبي عن حاضرة الإسلام الأولى في عهد رسول الله ﷺ وعدم دخولها في الإسلام إلا في وقت متاخر، مع أن ذلك تم من خلال يزيد بن أبي سفيان الذي استلم معاوية منه قيادة الشام فيما بعد، بعيد وفاته. وعدم متابعة الشام أو عاملها معاوية متابعة حقيقة من قبل الخلفاء الذين سبقوه، مما مكنته من الاستئثار بها واستخلاصها لنفسه خاصة، ساعده على ذلك وقوع بعض الأحداث والفتن التي كان هو المهد للعديد منها وطرفًا رئيسياً فيها في عهد عثمان وفي عهد الإمام ع.

### قرיש والأحزاب

وكان الإمام ع يرى لزاماً عليه بعد أن شخص أسباب الانحراف وبوادره أن يوقفه منذ البداية وقبل استفحاله، وهكذا سعى في عهد عثمان لمنعه من تولية العمال الفاسدين أمثال معاوية، والذين كانوا سبباً لتنمية الأمة على عثمان وثورتها عليه.

وفي بداية مبايعة الإمام ع بالخلافة، كان أول ما فعله هو إعلانه عزل هؤلاء العمال وفي مقدمتهم معاوية نفسه، وقد رأينا الأسباب العديدة التي دعته إلى ذلك

---

(١) نهج البلاغة: ص ٣٣٧.



وتكلمنا عنها بإسهاب في غضون هذا الكتاب. وقد أراد الإمام أن يزيل السبب المباشر للانحراف ويمحو تلك النقطة السوداء منذ البداية ويواجه مسيرتها المنحرفة بمسيرة مضادة صحيحة، هي مسيرة الإسلام ممثلة بقيادته وبالطليعة من جنده الذين عمل على إعدادهم وتربيتهم منذ البداية ومنذ انتقاله من المدينة حيث الأحزاب وقريش وحقدها عليه وعلى آلها، بل وآل هاشم على العموم. وكان الإمام يدرك سبب ذلك تمام الادراك ويعايشه معايشة حقيقة، وهو يرى قريشاً تدب حوله بالشر والكره والقطيعة والتحزب. وقد قال فيما قاله عنهم: «ما لي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين ولا قاتلتهم مفتونين، وإنى لصاحبهم بالأمس، كما أنا صاحبهم اليوم، والله ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيزنا»<sup>(١)</sup>.

وقد قال لعقيل أخيه بشأنهم «فدع عنك قريشاً وتركتا لهم في الضلال وتجواهم في الشقاق ومجاههم في التيه، فإنهم قد أجمعوا على حربكم كإجماعهم على حرب رسول الله عليه السلام، فجزت قريشاً يعني الجوازي، فقد قطعوا رحمي وسلبوني سلطاناً ابن أمري»<sup>(٢)</sup>. وقال عنهم: «اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم قد قطعوا رحمي، وأكفلوا إنائي وأجمعوا على منازعي حقاً كنت أولى به من غيري، وقالوا: لا، إن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تمنعه، فاصبر مغموماً أو مت متأسفاً...»<sup>(٣)</sup>.

لقد كانت قريش أقرب إلى معاوية من علي، وقد اختارت أن تقف إلى جانبه في النهاية في حربه الظالمة ضد الإمام، للأسباب التي ذكرها<sup>(٤)</sup> والتي عرفناها من خلال تتبعنا لحوادث التاريخ الإسلامي في مطلع الرسالة. وأصبح القرشي بتحيزه إلى معاوية

(١) نهج البلاغة: ص ١٣٥.

(٢) نهج البلاغة: ص ٥٧٦.

(٣) نهج البلاغة: ص ٤٨.



كالشامي الذي يتحدر بأصوله من أولئك الذين رباهم على حبه والميل إليه وتبني مواقفه.

وقدرأينا أن معاوية أيضاً قد ركز على عداوته لأهل العراق منذ البداية، كأعداء محتملين في المستقبل، وأعداء حالين فعلاً، بدأت بوادر عداوتهم له فعلاً بمسيرهم خلف الإمام وتحت قيادته. ولعل حملته على الإمام لم ترافقها حملة شرسة أخرى بلغت تلك التي شنها على أهل العراق، وقد استمر موقفه من العراقيين حتى بعد وفاة الإمام عليه السلام ووقوع العراق في قبضته، واستمرت النظرة المعادية للعراقيين حتى بعد وفاة معاوية نفسه وخلال فترة الحكم الأموي برمه.

أما الإمام، فقد كان يريد بتقريمه العراقيين ولو مه أيامهم وشجب بعض أنباط سلوكهم وتحريضهم على عدوهم، وهم غالبية جنده، أن يزرع فيهم حالة متقدمة من الوعي والنقد الذاتي لأنفسهم، بعد أن أراهم من هو عدوهم الحقيقي، وكيف خرق الإسلام وتجاوز عليه وخرج عليه خروجاً سافراً.

لقد أراد تربيتهم، وإعداد طلائع جديدة منهم تتولى إكمال المسيرة خلف الأئمة من آله فيما بعد على خطه. وكان معاوية يعرف أنهم العدو المرتقب والمتوقع، ويعرف أنهم - على علاتهم ومع وجود عناصر ضعيفة ومتآمرة، ومع وجود عوامل النقص بمجتمعهم الوعي المتسائل المتحفظ الحذر المتقلب ذي الاتهامات القبلية المتعددة، سيستقررون في النهاية ويقررون الجهة التي سيتعاونون معها ويحاربون تحت لوائها، ولا شك أنها ستكون جهة علي وآل عليه السلام في النهاية.

### أهل الشام. كيف وصفهم الإمام عليه السلام

بعد أن وصف الإمام عليه السلام معاوية ذاك الوصف الدقيق، ووصف حال أهل الشام،



أيضاً، وهم (الخميره) التي كونها معاوية وحاول زرعها في جسم الأمة الإسلامية لتكون هذه الأمة كلها على غرارها فيما بعد، وكما أوضحتنا فإن الإمام لم ينطلق في وصفهم من كره خاص لهم وإنما لتقويم حاهم.

فأهل الشام كما وصفهم الإمام: «العمي القلوب الصم الأسماع الكمه الأ بصار، الذين يتمسون الحق بالباطل ويطعون المخلوق في معصية الخالق، ويختلون الدنيا درها بالدين ويشترون عاجلها بأجل الأبرار والمتقين»<sup>(١)</sup>.

«فهات رجالا من أهل الشام يقبل في الشورى أو تحل له الخلافة»<sup>(٢)</sup>.

وكتب إلى معاوية بشأنهم وبشأن من انحرف معهم: «وأرديت جيلا من الناس كثيراً، خدعتهم بغيك، وألقيتهم في موج بحرك، تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجازوا عن وجهتهم، ونكصوا على أعقابهم، وتولوا على أدبارهم، وعولوا على أحسابهم»<sup>(٣)</sup>.

«وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة»<sup>(٤)</sup>.

«جفاة طعام، وعيدين أقزام، جمعوا من كل أوب، وتلقطوا من كل شوب، من ينبغي أن يفقهه ويؤدب ويعلم ويدرب وولي عليه ويؤخذ على يديه، ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا من الذين تباؤوا الدار. ألا وأن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما تكرهون»<sup>(٥)</sup>.

(١) نهج البلاغة: ص ٥٧٣.

(٢) العقد الفريد: ج ٥ ص ٧٧.

(٣) نهج البلاغة: ص ٥٧٣.

(٤) نهج البلاغة: ص ٥٣٣.

(٥) نهج البلاغة: ص ٥٠٧.



وقد بين ﷺ سبب نجاح معاوية معهم وتمكنه منهم. «طبيب دوار بطبعه، قد أحكم مراهمه وأحلى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عمي، وأذان صم، وألسنة بكم متبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة، لم يستطعوها بأصواته الحكمة، ولم يقدروا بزناد العلوم الثاقبة، فهم في ذلك كالأنعام السائمة، والصخور القاسية»<sup>(١)</sup>.

**معالم الفتن «إن أخوف الفتن عليكم فتنة بنى أمية»**

وعندما يصف الإمام الحال التي ستؤول إليها الأمة بعد أن تتخلى عن مسؤوليتها بفعل القيادة الخارجية عن الإسلام، وبفعل مثابرة معاوية لإيصالها إلى ذلك، فإنه يصف حالة كل مجتمع إسلامي يتخل عن الإسلام ويترامي في وهة الكسل والركود والتواكل التي تسيطر نتيجة ارتكاب كل ما ينهي عنه الإسلام وتبني قيم ومارسات غريبة عنه، لتصبح هي القيم والمارسات السائدة والمسيطرة.

وقد كان المجتمع الإسلامي برمتها مهدداً بانتشار هذه الحالة التي لم تكن قليلة الانتشار على أي حال، لذلك فإن الإمام عندما شخصها هنا، فإنه لم يكن بموقف المحاسب المقرع، وإنما بموقف المحذر المنبه الذي رأى أمامه خطراً داهماً، فحاول أن يحذب الأمة كلها هذا الخطر.

«واعلموا - رحمة الله - إنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطدحون على الأدهان فتاهم عارم وشائبهم آثم، وعالهم منافق، وقارئهم ماذق. لا يعظم صغيرهم كبيرهم ولا يعول غنيهم فقيرهم»<sup>(٢)</sup>.

(١) نهج البلاغة: ص ١٥٦.

(٢) نهج البلاغة: ص ٥٠٣.

وهذا الذي يتحدث عنه الإمام حال خطرة من شأنها أن تكون سبباً للقضاء على هذا الدين وإزالته عملياً من على ساحة الحياة وإن كانت بعض مظاهره ما زالت تلوح هنا وهناك. فكيف لو استمرت هذه الحال. وكيف لو استتببت الأمور لمعاوية وأشباهه ونجح في مسعاه دون معارضة ودون أن يجد أحداً يلتف نظر الأمة إلى انحرافه وخطره وهذا الخطر هو ما كان الإمام عليه السلام يحذر الأمة منه دائمًا بكل وضوح وجلاء «ألا إن أخوف الفتنة عليكم فتنة بنى أمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة، عمت خطتها، وحضرت بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ البلاء من عمي عنها. وایم الله لتجدن بنى أمية لكم أرباب سوء بعدي كالناب الضروس لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم أو غير ضار لهم. ولا يزال بلاؤهم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه والصاحب من مستصحبه. ترد عليكم فتنته شوهاء مخشية وقطعاً جاهلية ليس فيها منار هدى ولا علم يرى. نحن أهل البيت منها بمنجاة ولنا فيها بدعة»<sup>(١)</sup>.

#### بصيرة وعلم : تشخيص حال الأمة في ظل الأمويين

لقد شخص الإمام حال الأمة تشخيصاً دقيقاً، ورأى بعين بصيرته الثاقبة الحال التي ستكون عليها في ظل بنى أمية، هؤلاء الذين أرادوا أن يتجاوزوا على ربهم الحق، ويكونوا أرباب سوء، لا يتذكرون أحداً يعيش إلا في ظلهم ولا يستنشق إلا الهواء الذي يلفظوه. فمن لم يكن معهم فهو عليهم. وكانت الفتنة التي طلع بها بنو أمية على المسلمين فتنة سوداء شوهاء جاهلية، لا حكم فيها إلا لهوى ومصالح الأقلية الحاكمة التي استأثرت بكل شيء وتسلطت على الرقاب وحكمت حكماً كفياً لم ترع فيه حداً من حدود الله، ولم تحكم فيه الإسلام من قريب أو بعيد. فنظرتها أرضية متدينية بحتة لا

(١) نهج البلاغة: ص ٢٣٥.



تطلع إلى السماء أبداً ولا تستلهم قيمها بأية حال من الأحوال.

وكم رأى الإمام عليه السلام التالية التي آتاهها حال أهل الشام في ظل معاوية، مع أنه لم يكن (رسمياً) مطلق اليد وليس سوى عامل لمن سبقه من الخلفاء، فإنه رأى حال الأمة كلها فيما بعد إذا ما انفردت هذه العائلة بالحكم وسيطرت عليه سيطرة تامة. هذه العائلة (الطموحة) (الجريئة) على الله ورسوله جرأة كبيرة لا يجدها وارع من خوف من نار أو طمع في جنة، وإذا ما أطلقت يد أبنائها بمقدرات الأمة واستأثروا بالخلافة وامتلكوها نهائياً.

وقد شخص الإمام الحال التي سيصير إليها المجتمع الإسلامي بأكمله، بعد أن رأى بدايات ذلك وهو لا يزال على قيد الحياة. وقد كان الحال فيما بعد - فعلاً - كما صوره الإمام وشخصه، فلقد كان علمه «تعلم، من ذي علم، علمه الله نبيه فعلمنيه ودعاني بأن يعيه صدري وتضطمس عليه جوانحي»<sup>(١)</sup> كما عبر عن ذلك بنفسه عليه السلام عندما قال له بعض أصحابه بأنه أعطي علم الغيب، فنفي ذلك، إلا أنه أشار إلى السبب الذي جعله يمتلك ذلك العلم الغزير الذي لم يملكه أحد بعد رسول الله عليه السلام.

وعن ذلك قال عليه السلام أيضاً: «والله ما أسمعهم الرسول شيئاً إلا وها أنا ذا اليوم مسمعكموه وما أسماعكم اليوم بدون أسمائهم بالأمس»<sup>(٢)</sup>.

### سنن الهيبة : ظلم الراعي والرعية يهلك الحrust والنسل

ومن هذا العلم، وبهذه البصيرة والوعي، شخص عليه السلام طبيعة السنن الإلهية ووعاها... السنن التي تحكم بطبيعة المجتمع وتركيبه وفق المسيرة التي يسيرها أبناؤه،

(١) نهج البلاغة: ص ٢٩٨.

(٢) نهج البلاغة: ص ٢٠٩.

قرباً أو بعدها عن الإسلام. ووفق مبدأ العدالة والاستقامة المبنيين على المنهج الإسلامي الصحيح لا على منهج مزور يدعى الإسلام. والقواعد التي يضعها الإمام لضمان استقامة المجتمع وتوازنه وديمومته وحيويته مبنية على نفس القواعد التي يضعها القرآن الكريم والرسول الراكم ﷺ، وإذا ما نظرنا إلى جميعها، نرى وحدة في التصور والوصف. وقد رأينا حال المجتمعات التي خالفت رسالتها ووقفت ضد رسالات السماء، وكيف أنها ارتفعت عندما اقتربت من تلك الرسالات وهوت عندما حاربتها وزورتها ووقفت ضدها. وتکاد تشخيصات الإمام ﷺ تكون من الأمور البديهية التي يقرها كل إنسان، غير أن الذين لا يسلّمون بصحتها ويغمضون أعينهم عنها، يناقشون بنفس المنطق الذي ناقش به من أصر على الانحراف عنها وإنكارها؛ بنفس منطق الطواغيت الذي يدعى الواقعية والحرص على وحدة الأمة التي يحكمها كل واحد منهم، وتحقيق أكبر قدر من المنافع لها. مع أنها لا تستثنى طاغية واحداً عمل على تحقيق ما ادعاه. ولا نجد من حق منهم لأمتهم ما دعا إليه بأقواله. فمن من الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والهرقلة حق لأمتهم العدالة والخير والنفع؟

قال ﷺ واصفاً دولتي العدل والظلم، وما الذي يبقي الأولى وينهي الثانية: «فليست تصلاح الرعية إلا بصلاح الولاية، ولا تصلاح الولاية إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عم الحق بينهم، وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل وجرت على إذلالها السنن، فصلاح بذلك الزمان وطماع فيبقاء الدولة، وينتسب مطامع الأعداء. وإذا غابت الرعية واليها وأجحف الوالي برعيته اختللت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور وكثير الأدغال في الدين وتركت محاج السنن، فعمل بالهوى وعطلت الأحكام، وكثرت على النفوس، فلا يتتوحش بعظيم حق عطل ولا لعظيم باطل فعل. فهنالك تذلل الأبرار وتعز الأشرار وتعظم تبعات الله عند



العباد. فعليكم بالتناصح في ذلك وحن التعاون عليه»<sup>(١)</sup>.

إنه ﷺ يدعو الوالي ورعيته إلى تجنب مواقف الصراع، ومتى تبرز هذه المواقف؟ عندما لا يتتمي الوالي إلى رعيته، وعندما تشعر هذه أنه ليس منها وأنه يريد امتصاص دمائها. إن حالة من الحرب والمنافسة على مختلف الجبهات تدور بينهما، حرب قد تكون خفية غير معنونة، لكنها قائمة، تبدو بعض مظاهرها من خلال ممارسات عديدة.

وقد أوضح ﷺ حق الراعي وحق الرعية في مواضع أخرى من كلامه وضع فيها منهاجاً مفصلاً لحكومة عادلة قائمة على أساس الإسلام، تحمل معها عوامل ديمومتها وبقائها ونجاحها.

### كيف يرى الإمام ﷺ الأمة في ظل معاوية؟

فكيف رأى الإمام ﷺ المجتمع الإسلامي بعده، في ظل حكومات يتزعمها معاوية وأشباهه من السلالة الأموية المترفة التي اغتصبت كرسى الخلافة ووثبت على مركز السلطة. كيف رأى (الخليفة)، وكيف رأى الأمة في ظل هذا (ال الخليفة).

«أما أنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البالعوم مندحق البطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد فاقتلوه، ولن تقتلوه. إلا وأنه سيأمركم بسبى وبالبراءة مني، فأما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تبرؤوا مني، فإني ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة»<sup>(٢)</sup>.

وكان (الخليفة الجديد) يسعى حقاً لتشويه صورة الخلافة الحقة، كما نزل بها القرآن الكريم وأوصى بها الرسول ﷺ. فكان واجب الأمة حيال انحرافه أن لا تدعه على منبر

(١) نهج البلاغة: ص ٤٧٧.

(٢) نهج البلاغة: ص ١٥٩.

الخلافة بل وأن تقتله. غير أنها إذ ضعفت واستسلمت فإنها لن تتمكن من إكمال هذه المهمة، وسيمضي هو إلى النهاية في انحرافه، وربما كان هذا ما عناه أمير المؤمنين ﷺ، فاقتلوه، ولن تقتلوه. حدد واجب الأمة وعلم أنها لن تكون قادرة على تنفيذ هذا الواجب.

كان سعي معاوية لتشويه صورة الخلافة، يتمثل في جانب منه تشويه صورة الخليفة الحقيقى أمير المؤمنين ﷺ، وقد جعل هذه مهمة أساسية له، إذ ماذا يمكن أن يقول للأمة إذا ما حاسبته أو تسأله على الأقل: لماذا إعلان الحرب على عليؑ وهو من هو، والأمة كلها تعرفه وتعرف مناقبه؟ غير أنه إذا ما جند جيشاً من المرتزقة من الذين يمتهنون الحديث والتفسير ويدعون صحبة رسول الله ﷺ لطمس تلك المناقب، فإن مهمته تبدو يسيرة بنظره. وكانت مهمة معاوية مزدوجة، تشويه صورة أمير المؤمنين ﷺ بصورة الإسلام على السواء. وكما حاول أن يبين أنه أصلح للأمة من عليؑ، فإنه حاول أن يبين أن نهجه أصلح من نهج الإسلام وأفضل للأمة، وأنه النهج العملي الذي سوف يصمد إلى الأبد مقابل ذلك النهج الذي لم تشهده الأمة وتعيشه إلا في حياة رسول الله ﷺ وحياة أمير المؤمنين ﷺ ثم ابتعدت عنه بتأثير التيارات والأحزاب والقوى المتصارعة الطامنة من قريش وغيرها التي برزت على الساحة بعيد رحيل رسول الله ﷺ.

**يعرف علياً، ومع ذلك يأمر بسبه والنيل منه**

لم يكن معاوية يجهل من هو عليؑ ولم يكن يجهل منزلته ومقامه من رسول الله ﷺ ومن المسلمين، وكان يعلم أنه إن يسب علياً من على منابر المسلمين، فإنه إنما يسب الله ورسوله، كما أخبرته بذلك أم سلمة زوج الرسول ﷺ في كتاب وجهته إليه بعد استئثاره جيوش السبابيين لتقوم بمهمتها رسمياً بظل وتحت حماية الدولة ورعايتها «إنكم تلعنون



الله ورسوله على منابركم، وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبه، وإننيأشهد  
أن الله أحبه ورسوله<sup>(١)</sup>.

وإذ علم الإمام<sup>ع</sup> أن معاوية سيتصدى بكل أساليب القمع المعروفة لمن يمتنعون عن سبه، فإنه أراد حقن دمائهم وضمان سلامتهم ونجاتهم، عندما دعاهم إلى الاستجابة إلى ذلك متى ما أكرهوا، لكنه دعاهم إلى التمسك بنهجه الذي هو نهج رسول الله<sup>ص</sup> نفسه ونهج الإسلام وعدم البراءة منه؛ لأنهم بذلك يتخلون عن الإسلام نفسه وفي ذلك ما فيه من خروج متعمد وردة واضحة أراد أن يتجنب المسلمين مغبتها. فقد ولد على الفطرة مسلماً فلم يسجد لصنم حجري أو بشري ولم ينحرن لغير الله أو يعلن خصوصه لغيره، وقد سبق إلى الإيهان والهجرة، وظل على نفس قوة تمسكه بالإسلام وارتباطه به.

#### أهل بيته<sup>ص</sup> : ضمانة لعدم انحراف الأمة

لقد أراد أن يشخص أمام الأمة - حتى بعد رحيله، رمزاً للاستقامة ومقاتلاً يحمي الإسلام بسيفه وروحه، ومحباً شغوفاً برسول الله<sup>ص</sup>، متفانياً في ذات الله. أن نتمسك به ليتجسد لنا مثلاً حياً واقعاً للمسلم الذي يدرك مسؤولياته ويعرف على أساس هذه المسؤوليات وعلى أساس الفهم الوعي الصحيح للإسلام. كما أرادنا أن نسير على آثار آله في المستقبل من بعده، فمن هجومهم هو منهجه نفسه. وإن بدا في الظاهر نوع من الاختلاف الظاهري في بعض طرق الأداء مما مستكلم عنه في حينه ونوضح وحدة الموقف لجميع الأئمة<sup>ع</sup> وتطابقه مع موقف الرسول<sup>ص</sup> نفسه وموقف أمير المؤمنين<sup>ع</sup>.

وهكذا دعا إلى التمسك بآل بيته<sup>ص</sup> وأشار بذلك إلى أن المسلمين إذا ما التزموا بنهجهم، فإنهم بذلك يملكون الطريق الوحيد الصحيح الذي يضمن سلامتهم

---

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ١٠٨.

وعدم انحرافهم أو وقوعهم في مهاوي الضلاله. «انظروا أهل بيتكم، فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم فلن يخرجوك من هدى، ولن يعيدهوك في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فامضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا. لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى أحداً يشبههم»<sup>(١)</sup> فهم الضمانة الوحيدة لإيصال الأمة إلى خط الإسلام الصحيح وانتهاجه. فكأنه ﷺ هنا يعد الأمة لفهم دور الأئمة ﷺ فيها بعد، ويشير إلى أن هذا الدور قد يختلف من حيث المظهر تبعاً للظروف والأحداث التي تمر بها الأمة، غير أنه لا يختلف في المضمون أو الجوهر؛ لأنَّه يستهدف غاية واحدة، وهي الأخذ بيد هذه الأمة وقيادتها في كل ظرف. إنه يدعوها لفهم موقف كل إمام وثباته وعدم تغييره كما يهوى أعداؤهم الذين هم أعداؤها وعليها اتخاذ مواقفها تبعاً لهذا الفهم. وسوف ترى عند ذاك إلى أين ينوي الأعداء جرها، وإلى أين يقودها هؤلاء الأئمة الذين لا يشبههم أحد حتى من الصحابة أنفسهم الذين عرفتهم الإمام ﷺ وعاش معهم.

**كيف يرى الإمام ﷺ المجتمع الإسلامي في ظل حكام الانحراف؟**  
ونعود إلى تصور الإمام ﷺ للمجتمع الإسلامي بعده، وفي ظل نظام منحرف كالنظام الأموي.

«والله لا يزالون، حتى لا يدعوا الله محراً إلا استحلوه ولا عقداً إلا أحلوه، وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله ظلمهم ونبأ به سوء وعيهم، وحتى يقوم الباكيان يبكيان. باك يبكي لدينه، وباك يبكي لدنياه، وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه، وحتى أعظمكم فيها غناً أحسنكم بالله ظناً»<sup>(٢)</sup>.

(١) نهج البلاغة: ص ٢٤.

(٢) نهج البلاغة: ص ٢٤١ - ٢٤٢.



«فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخْذَ الْبَاطِلَ مَا أَخْذَهُ، وَرَكِبَ الْجَهَلَ مَرَاكِبَهُ، وَعَظَمَتِ الْطَّاغِيَّةُ، وَقَالَتِ الدَّاعِيَّةُ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبْعِ الْعَقُورِ، وَهَدَرَ فَنِيقَ الْبَاطِلَ بَعْدَ كَظُومِهِ، وَتَوَاهَى النَّاسُ عَلَى الْفَجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ وَتَحَابَوْا عَلَى الْكَذِبِ وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصَّدَقِ. إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غِيَظًا وَالْمَطْرُ قِيَظًا وَتَفَيَّضَ اللَّئَامُ فِي ضَيْأً، وَتَفَيَّضَ الْكَرَامُ غِيَضاً، وَكَانَ أَهْلَ ذَلِكَ الرَّزْمَانَ ذَئَابًا وَسَلَاطِينَهُ سَبَاعًا وَأَوْسَاطَهُ أَكَالًا وَفَقَارَوْهُ أَمْوَاتًا، وَغَارَ الصَّدَقَ، وَفَاضَ الْكَذِبَ وَاسْتَعْمَلَتِ الْمَوْدَةُ بِالسَّانِ وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ وَصَارَ الْفَسْوَقُ نَسْبًا وَالْعَفَافُ عَجَبًا، وَلَبِسَ الْإِسْلَامُ لَبِسَ الْفَرْوَ مَقْلُوبًا»<sup>(١)</sup>.

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ عَضُوضٌ، يَعْضُ الْمَوْسِرَ فِيهِ عَلَى مَا فِي يَدِيهِ وَلَمْ يُؤْمِرْ بِذَلِكَ. قَالَ اللَّهُ سَبَحَانَهُ ﴿وَلَا تَنْسُوْا الْفَضْلَ بَيْنُكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> تَنْهَى فِيهِ الْأَشْرَارُ وَتَسْتَذَلُّ الْأَخْيَارُ وَيَبْاعُ الْمَضْطَرُونَ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ بَيعِ الْمَضْطَرِينَ»<sup>(٣)</sup>.

«أَصْبَحَنَا فِي زَمَانٍ قَدْ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدَرَ كِيسًاً، وَنَسَبَهُمْ أَهْلَ الْجَهَلِ فِيهِ إِلَى حَسْنِ الْحِيلَةِ»<sup>(٤)</sup>.

«وَإِيَاكَ أَنْ تَغْرِيَ بِمَا تَرَى مِنْ أَخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا وَتَكَالِبُهُمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَأَ اللَّهُ عَنْهَا وَنَعْتَ لَكَ نَفْسَهَا وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيْهَا، فَإِنَّمَا أَهْلَهَا كَلَابُ عَاوِيَّةٍ وَسَبَاعٍ ضَارِيَّةٍ يَهْرُبُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَأْكُلُ عَزِيزَهَا ذَلِيلَهَا وَيَقْهَرُ كَبِيرَهَا. نَعَمْ مَعْقَلَةُ وَآخَرِيَّ مَهْمَلَةٍ، قَدْ أَضْلَلَتْ عَقْوَهَا وَرَكَبَتْ مَجْهُوَلَهَا، سَرَوْحُ عَاهَةٍ بَوَادٍ وَعَثَ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يَقِيمُهَا وَلَا مَقِيمٍ يَسْمِيهَا. سَلَكَتْ بَهْمَ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعُمَى وَأَخْذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ

(١) نهج البلاغة: ص ٢٥٩.

(٢) البقرة: ٢٣٧.

(٣) نهج البلاغة: ص ٧٦٥.

(٤) نهج البلاغة: ص ١٤٥.



منار الهدى، فتاهوا في حيرتها وغرقوا في نعمتها واتخذوها ربا، فلعبت بهم ولعبوا بها ونسوا ما وراءها»<sup>(١)</sup>.

«يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من القرآن إلا رسمه ومن الإسلام إلا اسمه، مساجدهم يومئذ عامرة من البني، خراب من الهدى، سكانها وعمارها شر أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة وإليهم تأوي الخطيئة، يردون من شذ عنها فيها، ويسوقون من تأخر عنها إليها»<sup>(٢)</sup>.

#### لقد رأى الإمام عليه السلام المقدمات، فرأى النتائج.

رأى طبقة جديدة متربة تظهر على حساب الأغلبية من الشعب المسلم. في (دولة الإسلام) نفسها بعد رسول الله عليه السلام رأى تمييزاً في العطاء أخذ يتسع حتى أصبح مرهوناً برغبة الخليفة ومزاجه. وذلك ما بدا واضحاً لجميع الأمة في عهد عثمان. ولم يكن لهذه الطبقة من سابقة أو تمييز سوى علاقتها الحميمة بال الخليفة.

ولو أن هذه الطبقة الشريعة المترفة عمّلت على أساس سابقتها في الإسلام أو عطائها في سبيله وخدمتها له، لما وضعت إلا في آخر السلم، ولما وجدت من أبناء الأمة من يمنحها ثقته. إلا أنها ظهرت فعلاً رغم قناعة الأمة بالإسلام ومحبتها لرسول الإسلام عليه السلام ورغم تسلحها بكم هائل من مبادئه وقيمه. فكيف وقد بعد العهد برسول الله عليه السلام وظهرت أجيال جديدة أخذت تتلقاه عن الآباء، وبدأت تظهر بينهم قيم جديدة ومفاهيم جديدة وآراء وأفكار جديدة، أجيال أخذت تؤثر فيها الأحزاب والعصبيات والمطامع والعداوات؟

(١) نهج البلاغة: ص ٥٦٥.

(٢) نهج البلاغة: ص ٧٤٤.



ونظرة سريعة على تاريخنا ترينا أن الانحراف قد بدأ بزاوية لا تكاد تلحظ، إلا أنه اتسع فيما بعد وصعب إيقافه، وتورطت الأمة كلها مع مسببه الذين أخذوا يتكاثرون ويزدادون سلطة وثراء.

### الترف مقدمة للظلم والكفر

مجتمع الترف مقدمة لمجتمع الظلم والكفر، واستعدادات الفسق والخروج المعمد على المجتمع المسلم تكون لدى المترفين أولاً. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك إشارات عديدة أعلن فيها بوضوح أن المترفين يكونون دائمًا في مقدمة المتصدرين والمعارضين لأي إصلاح في الأمة، وأنهم في مقدمة الذين يسعون في خراب الأرض منطلقين في حرصهم على مصالحهم ورفاههم. كما أنهم في مقدمة الكافرين بالرسالات السماوية وأول المكذبين بها. إنهم بلهائهم وجرهم خلف ترفهم ومصالحهم ينهجون منهجم الظلم، وقد يبررون هذا الظلم بأنهم إنما ينهجون منهج الآباء (الذين تلقوا عنهم كل شيء ولا بد أنهم أكثر حكمة وفهمًا ومعرفة).

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ هُمْ لِكَ قَرِيَّةً أَمْرَنَا مُتَرْفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾<sup>(١)</sup>

﴿مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرْفُوهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتِرْفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءَ الْآخِرَةِ وَأَتَرْ فَنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾<sup>(٤)</sup>

(١) الاسراء . ١٦.

(٢) سبا . ٣٤

(٣) هود . ١١٦

(٤) المؤمنون . ٣٣

إن إشاعة النموذج المترف وزرעה في المجتمعات الإسلامية وبشكل مكثف في (عاصمة الخلافة) الشام كان يراد منه إشاعة الفوضى الاجتماعية وزرعها. فحياة المترفين القائمة وخروجهما على الإسلام لا ينسجم وادعاء (القيادة) إنها خير من يمثل الإسلام ويقوم على أمور المسلمين بالعدالة والقسطاس ووفق أحكام الإسلام وقوانينه وشرائعه. أنه يولد رد فعل عنيف لدى الأمة تجاه دين الله الذي يدعو إلى المساواة والاعتدال وعدم الاستهانة بالآخرين والتتجاوز على حقوقهم. وترى الأمة أنها تتحمل تبعة كبيرة بسكتها عن الأنظمة الفاسدة التي تديرها وتتلاعب بمقدراتها.

إن خلق هذا النموذج المترف المتكبر المسرف في قلب المجتمع الإسلامي بداية لتقسيم طبقي يقف على الجانب الآخر منه النموذج المستضعف الفقير المغلوب. إنه تقسيم جديد في ظل الإسلام للقضاء على الإسلام وللعودة إلى الأنظمة الطاغوتية السابقة.

وعلى ضوء الآيات الواردة في القرآن الكريم التي أكدت صحتها الواقع التاريخية السابقة، نرى - كما أورد الشهيد المطهرى - إن طبقة المترفين والمتكبرين من الملأ لا بد أن تكون هي نفسها في النهاية طبقة الكفار والمرتكبين والمنافقين والفاسين والمفسدين. إنها الطبقة الفاسدة التي تستقطب إليها كل من يعزز مركزها وسلطتها وتستبعد الطبقة الواسعة التي تقف بمقابلها وتحاول تسخيرها لتحقيق كل أطماعها وأهدافها «إن الكافرين والمرتكبين والمنافقين والفاسين هم الملأ والمستكبرون والمسررون والمرتفون والطواويث، لا غيرهم ولا المشكّل منهم ومن غيرهم»<sup>(١)</sup> كما «جعل المجتمع ينقسم إلى مستضعف ومستضعف هو الذي أوجد الكافر والمؤمن - على حد تعبير الشهيد - مما أوضحه القرآن الكريم بجلاء»، ويدل على أن مواجهة الأنبياء ومخالفتهم

(١) المجتمع والتاريخ: ص ١٣٠.



ومواجهة الإيمان والكفر، كان انعكاساً لمواجهة الطبقتين الاجتماعيتين - المستضعفين والمُستضعفين»<sup>(١)</sup>.

ووضع طبقة كهذه في المجتمع الإسلامي كفيل بهدمه والقضاء عليه، وعلى كل المكتسبات التي حققها في ظل الإسلام.

وإذ إن البشرية لن ينفع لها أن تشهد ديناً آخر بعد ظهور آخر الأديان وأكمالها، ولن ينفع لدين آخر تصحيح المسيرة المنحرفة، فإن ما فعله الأمويون يشكل نكسة خطيرة وتراجعاً كبيراً عن الإسلام وضربة كبيرة لكل الأديان التي أنزلت على البشرية طيلة عهودها وسلباً لكل المكتسبات التي حصلت عليها واستهانة بكل الشهداء والمضحيين الذين وقفوا إلى جانب الأنبياء وسخرية واضحة من هؤلاء الأنبياء وأديانهم ورفضاً سافراً للإسلام برمته واستهانة بالمرسل والرسول ﷺ على السواء. كيف يمكن أن يفسر لنا أحد ما قام به معاوية ومن جاء بعده؟ وهل أن ما قام به كان لمصلحة الإسلام حقاً؟ وهل يمكن الاستهانة بالعقل البشري إلى الحد الذي يمكن القول فيه أن (الخلفاء) الأمويين كانوا الممثلين الحقيقيين لرسول الله ﷺ والمجسدين الحقيقيين للإسلام وقيمه ومثله.

إن العقل البشري ليس بالسذاجة التي يتصورها المروجون للنمط الأموي في الحكم والحياة.. بحيث يقبل التبريرات التي يطرحها هؤلاء، لكن دعهم يقولون إن هذا النمط المغایر للإسلام هو أفضل من النمط الإسلامي، وليس هو النمط المحسن، إذ هل يمكن أن يقنع من آمن برسول الله ﷺ أن الرسالة التي أنزلت عليه كانت ناقصة، وأنها كانت بحاجة إلى أناس أمثال معاوية وأشباهه ليكملاها ويجعلوها عملية بعد أن كانت ناقصة؟ وإن النمط الأموي هو أكثر عملية وفاعلية من النمط الحمدي الذي

(١) المجتمع والتاريخ: ١٣١.



عاشت الأمة في ظله طيلة حياة الرسول ﷺ؟

### المترفون: بداية لهلاك الأمة

إن الذين يهونون من شأن مسألة ظهور الطبقة المترفة في المجتمع الإسلامي في وقت مبكر، لا يريدون أن يفهموا حقيقة السنن الطبيعية التي تجعل من هذه الطبقة أساساً للفساد وتحطيم المجتمع برمته. إن وجودهم وسكون الأمة عنه مسؤولية تتحملها الأمة كلها، وتحمل تبعاتها ونتائجها. وهو مرهون بموقفها منهم. فإذا ما سكتت دمرت تدميراً، وإذا ما وقفت بوجههم استطاعت أن تحمي نفسها من الانهيار والسقوط.

وهذه المهمة، مهمة إيقاف المترفين عند حدتهم واستئصال الترف من المجتمع، كانت شيئاً أساسياً عمل رسول الله ﷺ على القيام به. وقد أدرك طبيعة مهمته المشركون المترفون المسلطون من قريش فشنوا الحرب عليه؛ لأن في سيادة دينه القضاء على مصالحهم ونفوذهم، وهو ما لم يقبلوا التنازل عنه.

وقد استسلموا مرغمين أمام قوة الإسلام ونفوذ رسول الله ﷺ لدى الأمة الإسلامية التي أحبته وتفانت في مودته والخلاص له. غير أنهم - وأغلبهم من قريش - تحينوا الفرص للنيل من الإسلام، وقد أرعبهم أن يستمر خط الرسول ﷺ ونمطه في العمل إلى النهاية، وعلموا أن وصيه وخليفته متى ما استلم القيادة الفعلية، فإنه سيسيير فيهم بسيرته، ولعله - وهو في مقتبل الشباب بعد وفاة الرسول ﷺ - سيفوت الفرصة عليهم إلى الأبد، ويعد جيلاً من الأمة مشيناً بمبادئ الرسالة الإسلامية، لا يساوم أو يضعف أو يستسلم، أو يتبع أية فرصة لظهور طبقات متغيرة على حساب الأغلبية من أبناء الإسلام.



وهكذا أزمعت قريش أن تناوئ الإمام منذ البداية، وإن لم تجرؤ على إعلان كرهها للإمام الذي نال منها وقاتلها بشكل فريد بل وأذلها وأجبرها للانضواء تحت راية الإسلام، فإنها حشدت كل قواها لإبعاده عن مركز السلطة والنفوذ، ورأت أنها تستطيع في ظل غيره من الحكام أو الخلفاء -مهمها بلغ مركزهم وحرصهم على الإسلام- أن تتلاعب وتجمع شتاها وتعيد نفوذها وماضيها.

وكانت بالتأكيد أميل إلى عثمان من علي، وأميل إلى طلحة والزبير ما داما من أعدائه. وأميل إلى معاوية الذي أعاد إليها أمجادها وعزها الذي كاد أن يندثر. وكان قاتلها مع معاوية ضد الإمام عليه السلام يعني تمسكها بفرصتها الأخيرة للحفاظ على مصالحها وامتيازاتها، وكانت استئناتها نتيجة منطقية لاعتقادها، إذ لو خسرت الحرب لضاع كل شيء وفقدت نفوذها إلى الأبد.

ولو أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم نفسه كان في موضع أمير المؤمنين عليه السلام لوجدت المبررات لقتاله والخروج عليه. فلا عجب أن نراها بعد ذلك وبعد تمكنها وامتداد طغيانها تتصدى للحسين عليه السلام ولأهل المدينة بذلك الأسلوب الدموي العنيف الذي لجأ إليه وبرره لها فيما بعد مرتزقتها من المتجرين بالدين لأغراض الدنيا.

### مجتمع طاغوتٍ مترف

وقد شهدنا المجتمع الإسلامي في مطلع العصر الأموي، ثم خلال ذلك العصر كله، مجتمعاً طاغوتياً، عادت الطبقة المترفة إلى نفوذها الأول فيه، وبرزت ثانية متسلحة بأسلحة جديدة ما كانت تتح لها قبل ظهور الإسلام، وبدأت تنتشر وتسع وتمد أيديها الاحطبوطية إلى كل مفاصل المجتمع ومرافقه، ولاحت كقوة كبيرة لا يمكن إزالتها بحركة اصلاحية أو رغبة مجردة من الأمة، بل كأمر واقع بدا أنه المسيطر والسائل، كما



سيطر وساد على بقية المجتمعات الأخرى التي لم تعرف الإسلام.

لم تكن أية قوة غريبة عن الإسلام أو من خارجه تستطيع أن تحقق الدمار الذي ألحقه معاوية بهذا الدين. فمعاوية عمل من الداخل، وانطلق في عمله كمسلم حريص على دينه أمام أنظار المخدوعين من أهالي الشام، وكإنسان مصلح غيور أمام أنظار قريش التي هادنته ومالت إليه؛ لأنَّه يحقق أحالمها القديمة في الثروة والسيادة، ولم يكن بحاجة إلى اقتحام السور من الخارج. وهذا هو الأمر المخيف بالمسألة كلها، والذي لازال نعاني من تبعاته وأثاره. فعمله كان ولا يزال مثار خلاف بين المسلمين أنفسهم، وقد توزعوا في أمره قسمين، قسم رأى ما رأه معاوية وأتباعه من وعاظ المسلمين والمتاجرين بالقرآن والحديث والذين لا تزال جاهير كبيرة من الأمة تنخدع بهم وبضخامة أسمائهم. وقسم رأى الأمر على حقيقته، فلم ينخدع بالحجج الواهية التي بربها معاوية سلوكه وخروجه المعتمد على الإمام وشقه الأمة المسلمة إلى طبقتين تتناقض مصالحهما وتحاول الأولى منها وهي الطبقة المترفة الثرية المتنفذة أن تستعبد الثانية وتستغلها إلى الأبد.

لقد أعاد معاوية المجتمع إلى حالة التناقض والارتباك التي شهدتها المجتمعات الجاهلية، لا التناقض في مجال حيatic واحد وحسب، بل التناقض الشامل القائم على نظرتين مختلفتين إلى الكون والحياة، أعاد التناقضات الاجتماعية بتوسيع شقة الفرق في المستوى المعيشي وحجم الثروات الشخصية، وتفويبة التيارات القبلية، واستئلاة رؤساء القبائل بالأموال والقطاع، وأوجد التباساً وفهمًا خطأً للإسلام نفسه بزرع جيش القصاصين والمحدثين والمفسرين والصحابة والوعاظ والشعراء الذين راحوا يروجون للنمط الجديد من الحكم والحياة ويررون أشياء من شأنها أن تثير تساؤلات عديدة حول طبيعة الدين الإسلامي نفسه، وجدوه وجوده كقوة منظمة فاعلة قادرة على قيادة الحياة وإدارة شؤون الناس إدارة عادلة محكمة.



لقد استبعد معاوية الإسلام كقوة حقيقة، وجعل منه مجرد قشرة خالية من اللب وغطاء لثمرة فاسدة، واستبدلها بنظام مسوخٍ أوجده هو ورسخه خلفاؤه من بعده.

### روح ملتوية شريرة

إننا لا بد أن نلمح خلف روح الشر الملتوية التي تلبست معاوية روحًا يهودية شريرة أخرى. فبنفس الحماس الذي تصدى فيه آل أمية وأحلافهم للرسالة عند ظهورها وحتى قيامها واستواها، تصدى اليهود للرسالة أيضًاً وشنوا على الرسول ﷺ حرباً ضاربة، لا تقل عن تلك التي شنتها قريش وتزعمها أبو سفيان وأخراه.

ولا بد أن تكون وحدة المصالح بين الطرفين المعادين للإسلام، عاملاً على جمعهما والتقائهما وأن هذا العامل هو الثراء والتجارة والمهارة فيها، فأبو سفيان وآل أمية التجار، لا بدّ أنهم كانوا على تماهي كبير باليهود التجار أيضًاً. ابحث عن اليهود وستجد أصابعهم في كل شيء وتجد وراء كل حادث وكل مصيبة أحاقت بالإسلام، بل بالبشرية كافة يدهم اللئيمة الخبيثة.

لو تفرغ باحث لهذا الأمر وجمع خيوط التاريخ وحوادثه، فسيجد الكف الأموية قد التقت مع الكف اليهودية في مصافحة حميّة، تعاهد فيها الطرفان على شن الحرب ضد الإسلام دون هواة وإبادته؟ لا بد أنه سيلمس ذلك، ويدرك أن فنون الترف والخلاعة التي أخذ بها (خلفاء)بني أمية أنفسهم وحاشياتهم لم تكن وليدة المجتمع العربي المتحفظ المتمسك بالقيم الأسرية ووحدة العائلة وشرفها.

### جو منفتح أم منغلق

إن اليهودي الذي يقف وراء زق الخمر والطنبور والرقيق والبغاء، لا بد أنه قد أتيحت له فرصة توسيع تجارتة في هذا الجو (المنفتح) الذي أوجده الأمويون، ولا بد



أن بريق الأصفر الرنان قد جعله يلتفت بحماس إلى أولئك الذين استأثروا به ليحصل على حصته من خلال مساعدتهم لتحقيق مآربهم وشهواتهم، وما نظن أن حماسه كانت بفعل الذهب وحده فقط، وإنما بفعل عامل آخر، وهو انتهاز الفرصة لتحطيم الدين الجديد وإدخال السموم والفايروسات التي أبعدها الإسلام إلى جسم المجتمع الإسلامي ثانية. وربما كانت الصليبية التي تمد جسور التفاهم مع معاوية سرًا من خلال مولاه ومستشاره قد فعلت فعلها.

ولو أن يهوداً أو غيرهم من أعداء الإسلام أرادوا تكرييم شخص قدم لهم أفضل الخدمات في مجال محاربة هذا الدين الذي كان يبدو خطراً عليهم، لكان هذا الشخص معاوية بلا شك، ولعله يستحق منهم أن يقيموا له تمثالاً في كل مدينة من مدنهم بل في كل حي من أحياها.

### خلاف أم طواغيت؟

إن (الخلافة الأممية) تنسخ التصور الإسلامي الصحيح عن الخلافة وتحاول محو التصورات القرآنية الصحيحة التي يعمل القرآن الكريم على تكريسها في ذهن الفرد المسلم ووضعها موضع العمل والتطبيق، فهي تستبعد التصور الإسلامي القائم على فهم السنن التاريخية فيها دقيقاً ومستوعباً، وتنظيم العلاقة بين الإنسان والطبيعة وأخيه الإنسان على أساس التكليف الرباني العلوي للإنسان فإن هذه العلاقة ستكون على نمط العلاقات الطاغوتية الفرعونية التي استبعدت من الأساس هذا التكليف ونفت التدخل الرباني أو الوصاية الإلهية في أي شأن من شؤون الحياة، وجعلت أمر تنظيمها وإدارتها في يدها هي، كي تتصرف وتبعث كيف ما شاءت عندما تخلص من هذا (القيد) أو الوصاية الإلهية وبذلك فإنها تستطيع منح نفسها فرصة تنفيذ رغباتها وسياساتها.



وهكذا كان الأمر مع (ال الخليفة الأموي) في كل عهود (الخلافة الأموية)، وقد استند (ال الخليفة الأول) معاوية - كما رأينا - إلى (مبادرات) من سبقة للخروج عن بعض مناهج الإسلام في العطاء وغيره. غير أنه استغل الخرق ليوسّعه، واستغل من جاء بعده ذلك ليدخلوا من الخرق الكبير الذي أوجده، ليتمدوا إلى أبعد حد ممكن، حتى لم يعد بوسع أحد أن يدخل في أذهانهم وتصوراتهم أنهم مقيدون بهذه (الخلافة) التي ابتنوها، وليس معنى صيرورتهم (خلفاء) أنهم كانوا يستطيعون الانقلاب والتحرر من التزامات الإسلام وقواعده!

كيف يستطيع أحد أن يفهم يزيد والوليد وأضرابهما مهمة الخليفة ودور الخليفة في المجتمع الإسلامي؟

#### مع الترف منذ البداية

إنهم جاؤوا إلى الدنيا ووجدوا أنهم يتمتعون بسلطات مطلقة وامتيازات وأنهم يرفلون بالتعيم والترف وأن الناس تنحني أمامهم وتطيعهم طاعة عمياء، ولا بد أنهم عندما نظروا إلى تاريخ أسرتهم المحسن والمزوق، والذي زينته شهادات رسمية من الله ورسوله ﷺ على لسان بعض الذين حسبوا على الصحابة ومن رواة الأحاديث المزورة ومحري الكلم ومؤوليه. فإنهم ظنوا حقاً أنهم يتمتعون بامتياز إلهي خاص وأنهم المختارون من قبل الله حقاً ليسجد الناس أمامهم ويكونوا لهم عبيداً إلى الأبد.

هل روى لنا أحد أن أحداً من أولئك (الخلفاء الأمويين) تصدى لمسائل الإسلام الكبرى وأبدى اهتمامه فيها، عدا الأمور المظهرية التي يتصدى لها عادة الموظفون المعينون المتخصصون من الفقهاء والمحاذين والقصاصين و(الصحابة) المأجورين وأضرابهم. الذين تطوعوا بشهادتهم المزورة بحق أولئك (الخلفاء) وإنهم من ذوي

العلم والتقوى. أما ما هي مظاهر ذلك العلم والتقوى فأمر علمه عند الله وعند أولئك (الخلفاء) أنفسهم، وليس على وعاظ السلاطين إلا أداء مهماتهم في المدح والثناء، ما دامت الدولة تدفع لهم بكرم وسخاء وعدا الشكل الزخرفي المتمثل بتحسين قصور الخليفة ومظهره ومساجده ومدنه وسائر المظاهر العامة التي تخضع له؟

### تعطلت مهمة المسجد فتعطل كل شيء

لقد عطلوا المسجد عن أداء مهمته الرئيسية، وصار البناء فخماً يتفوق على تلك المساجد الأولى التي بناها رسول الله ﷺ وصحابته في صدر الإسلام، معتبرين الفخامة مظهراً من مظاهر التفوق، واعتبروا أن هذه هي كل مهمتهم، وأنهم أنجزوا ما عليهم وأدوا واجباتهم. كما أنهم عطلوا القرآن، ولم يعد إلا مجرد كلام يؤدى أداء جميلاً في هذه المساجد، أما ما يكمن خلف كلامه وآياته. وتطبيق حدوده، فلا شأن لأحد به. وما على الذي يريد أن يقرأ إلا أن يقرأ دون سؤال، وليس عليه أن يبحث عن التفسير الصائب لكلام الله المستند إلى أقوال رسول الله ﷺ. وعند ذاك سوف يمنح أجوراً من الدولة على مواظبيه وحضوره إلى المساجد. وقد روي لنا فعلاً أن (الخلفاء) في العصرين الأموي والعباسي كانوا يمنحون (القراء) المواظبين على الحضور لقراءة الذكر الحكيم، والتخلي عن كل أمور الحياة رواتب وأعطيات، وقد ينطلي أمر ذلك على العديد من أبناء الأمة فيتصورون أن الحرص والغيرة على الدين هي التي دفعتهم إلى ذلك، غير مدركون أن هؤلاء كانوا يسعون إلى حصر الدين في المسجد وعدم السماح له بالظهور خارجه، حيث نفوذهم وملكهم وسلطانهم.

وهكذا صحت توقعات رسول الله ﷺ، عندما رأى بعين البصيرة النافذة المسدة بالعلم الإلهي الاكيد، حينما قال لأبي سعيد الخدري: «يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيّاً». ثم يكون خلف يقرؤون القرآن



لا يجاوز تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة مؤمن ومنافق وفاجر»<sup>(١)</sup>.

ومن يستطيع أن يعمل بوعي الرسول ﷺ وفهمه للقرآن؟ ومن يستطيع أن ينظر إلى الإسلام إلا بالعين التي ينظر بها فرعون وحاشيته وجنوده؟ وهل يستطيع أحد أن يخرج عن حدود تلك النظرة الضيقة الجامدة التي لا ترى إلا مصالحها وهوها وسلطانها؟

كان الذي يفعل ذلك أو يتطلع إليه، سيتعرض لسخط فرعون وغضبه ونقmetه وسيف الإرهاب السلط دوماً على الرقاب، وسيحرم من عطايا فرعون وجاه فرعون وعطف فرعون!

إن ترسيخ حالة التكرار والرتابة والخمول من شأنه أن يفعل فعله من الأجيال اللاحقة، التي تكون قد تقبلت الأوضاع التي توحّي بالاستقرار - كما تراها أمامها، متّوّهمة أنها كانت هكذا منذ البداية. وهكذا تتكرر قصة البناء المبهورين المعجّبين بالآباء والأجداد ثانية وفي كل مرة يظهر فرعون جديد يمهد لسلطانه ومصالحه.

﴿قَالُوا حَسِبْنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.<sup>(٢)</sup>

﴿قَالُوا بَلْ نَعَّمُ مَا أَفْفَنْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.<sup>(٣)</sup>

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آتَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾.<sup>(٤)</sup>

نفس القصة المعادة المكرورة. الآن وقبلاً وكأن أولئك الآباء هم الذين جعلوا ملوكهم وفراعنتهم وخلفاءهم ملوكاً وفراعنة وخلفاء، برغبة صادقة من عند أنفسهم،

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ٢٣٣.

(٢) المائدة ١٠٤.

(٣) البقرة ١٧.

(٤) الزخرف ٢٢.

وأن هؤلاء لم يتسلقوا على أكتافهم برغمهم، وكأن الأمر تم باستفتاء شعبي أو على طريقة إحدى (الديمقراطيات البرلمانية) الحديثة.

وحتى هذا ربما قنعت به الأمة لو تم - لا كأمر أساسى كان يجب أن يتم - بل من باب إلقاء الحجة على أولئك الذين استسلموا أمام جمود الواقع ورتابته وتحجره. فما هو دور أولئك الآباء فعلا حتى نجح الأبناء نهجهم وتبنا مواقفهم؟ لقد أقهروا أولئك الآباء، واضطهدوا ودمروا وقتلوا وسرقوا، حتى أصبح الأمر كما وجده الأبناء المخدوعون وووجهه أبناؤهم من بعدهم كذلك. غير أن مهمة الفراعنة في كل زمان ومكان هي أن يسكتوا شعوبهم ليظلوها هم في المقدمة دائمًا، المتكلمين الوحيدين ونجوم كل الحفلات والمناسبات وجلسات السمر وحلقات الذكر والملاهي والجماع! أن يكونوا كل شيء ويملكوا كل شيء ويحاسبوا على التهمة والظن، ويذَّاعوا العلم بما في سرائر الناس ويؤاخذهم على ذلك. كل شيء يتضاءل أمامهم ويتصاغر وينجو ويضمحل.

### أين الأمة الإسلامية؟

وإلا، فأين هي تلك الأمة الإسلامية القوية المفكرة المتفهمة المحاربة البنية؟ أين مواقفها وأين رجالها؟ لقد اختفت وأضمرحت أمام معاوية ومن جاء من بعده من (الخلفاء)، ولم يبق منها سوى زعماء امعات ترتب لهم الأدوار وتردد لهم الأقوال التي سيرددونها مسبقاً، وليس عليهم غير أن يهزوا رؤوسهم استحساناً ويخنوها أمام السلطان القوي الشري المتنفذ. وسنرى مصداق ذلك في حفلات الخطابة و(المذاكرة) والسمر التي أعدها معاوية تمهدًا لتنصيب يزيد خليفة من بعده والمسرحيات التي أعدت لهذا الغرض. كل دور كان مرسوماً، وكل تصرف كان مرصوداً. وكانت المعركة حامية الوطيس، لا بين الإسلام وخصومه من الجاهلية التي لا تزال تحيط به وتحاول افتراسه والانقضاض عليه، وإنما بينه وبين من حاولوا الوثوب على الخلافة وسرقة



## مكاسب الأمة وتكريس الحكم في العائلة الأموية المحظوظة!

وهكذا صح ما تخوف منه الرسول ﷺ وأمير المؤمنين ع من أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها. وكان ذلك مبعث أسى وألم مسبق للإمام ع وهو يرى أن كل شيء يضيع منها وأن ما حصلت عليه بجهادها وصبرها وتضحياتها قد ذهب في طرفة عين. إن الانحراف البطيء في البداية قد أتى أكله الآن، وإن الانحدار الذي تبع ذلك لابد أن يأتي بأمثال هؤلاء، ويرى كذلك الشكل الجديد للدولة (الإسلامية) التي يديرها ويترىع على عرشها السفهاء والفجار والفاشيون. «ولكنني أسي أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاشيين حزباً، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام، وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ»<sup>(١)</sup>.

### نظام (إسلامي) بالاسم

لقد تحدد منذ البدء، ومنذ أن استلم معاوية الحكم شكل الدولة (الإسلامية) الجديدة. فقد رأينا من هو الذي تصدر عرশها، ومن كان أعوانه، ورأينا عموم الناس والصالحين منهم كيف كانوا في ظل هذه الدولة الجديدة التي استأثرت بالخيرات لأعوانها، ولعبت بالناس ومقدراتهم.

إن الأداء الخاطئ والمنحرف لعموم المسؤولين في هذه الدولة وأقطاب الحكم فيها قد وضع المجتمع أمام تقسيم جديد مستحدث يكرس الحالة خاصة من شأنها أن تبعد الناس نهائياً عن الإسلام، لا يتطلع فيها أحد إلى أي علم حقيقي من علومه يعمل على تبصيرهم بأمور حياتهم ويجعل أفكارهم وعقولهم تعمل بشكل ايجابي فعال وفق نظرته

---

(١) نهج البلاغة: ص ٦٣٤ - ٦٣٥.



وتصوراته وتشريعاته، وإنما لقيادتهم بشكل متعمد ومقصود إلى هاوية الجهل والتأخر وجعلهم كتلة من همج رعاع لهم موقف واضح أو رأي محدد أو تفكير سوي، يمكن التلاعب بمشاعرهم وعواطفهم و(عقولهم)، والتأثير فيهم كما تشاء إرادة الدولة المتسلطة وفرعونها، طالما أنهم ابتعدوا عن نوره وركنه الوثيق.

### فئات المجتمع. حسب تقسيم الإمام رحمه الله

وهكذا قسم الإمام رحمه الله فئات المجتمع إلى ثلات، وبين لنا سبب انحدار وتخلف الفئة الثالثة منه. (الناس ثلاثة: فعال رباني، وتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستطعوا بنور العلم، ولم يلجموا إلى ركن وثيق).<sup>(١)</sup>

لقد أراد الأمويون تكريس الحالة الأخيرة وجعلها هي السائدة من خلال سلب الناس حرياتهم في التفكير والنقد والكلام والنظر، ليتبناها فكرة (الدولة) وأهدافها وتوجهاتها. وكان هذا أشد فعل مدمر يمكن أن يعمل على إفقادها شخصيتها وعوامل وجودها كأمة إسلامية قائمة على أساس الإسلام ومبادئه وقيمته.

إن استئثار أو استغلال (الرعاع) أو العوام الذين لا يملكون موقفاً معيناً ثابتاً، يكون عادة أسهل على مؤسسات السلطة الحاكمة من استئثار مواقف الذين يتبنون مواقف مبدئية معينة؛ فمع هؤلاء الآخرين تكون المهمة معقدة ومزدوجة، إذ يتوجب أولاً إفراغهم أو جعلهم يتخلون عن الموقف التي يتبنوها أولاً، ثم (إقناعهم) بعد ذلك لتبني الموقف الجديدة التي هي بطبيعة الحال مواقف الدولة نفسها. وهذا أمر لا ينال بالتخمين، مع هؤلاء الذين غالباً ما يكونون متعلمين ومتذمرين، ولو بحدود بسيطة تسمح لهم بالتخليص من الانجراف والوقوع بقبضة أعداء الإسلام والمزورين

---

(١) نهج البلاغة: ٦٩.



والمنحرفين.

إن توسيع هذا الصنف من الناس الذين ذكرهم الإمام كهمج رعاع، وجعله الأغلبية الساحقة من المجتمع، يعمل على إبعاد الإسلام نهائياً عن ساحة الحياة؛ لأن ذلك يجردهم من الضمانة الوحيدة التي تؤهلهم لخوض الحياة على أساس سليم، وحل مشكلاتها وتحقيق مصالحهم وحرياتهم. وذلك هو الشيء الوحيد الذي يتتيح للحكام تنفيذ سياساتهم وخططهم المدمرة.

وعمل معاوية هذا هو عمل الفرعونية على مر العصور، إذ تحاول أن تجعل من فرعون المثل الأعلى مقابل المثل الأعلى الحقيقي وتحاول بناء العلاقات داخل المجتمع على أساس الظلم والاستغلال.

### **المستكبرون والمستضعفون مسؤولون جميعاً**

إن مشهدًا مؤثراً من مشاهد القيامة التي يعرضها القرآن الكريم، يتعرض فيه لأحد الحوادث التي تجري بين الظالمين، ذوي النفوذ والقوة والمكانة وأعوانهم من (المستضعفين) قبيل الجزاء والحساب، يبين لنا كيفية تفكير هذين العنصرين من عناصر المجتمع الفرعوني. كلاهما ظالم لنفسه ولغيره، وكلاهما يتوقع عقوبة شديدة هي جزاء عادل لما اقترفوه ﴿وَلَوْ تَرَى إِذَا الظَّالِمُونَ مُوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَتَتْمُ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَّهُنْ صَدَّاقُكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلْ كُتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بِلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَدَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقٍ

**الَّذِينَ كَفَرُوا هُلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾.**

لابد أن هؤلاء (المستضعفين) كانوا عوناً للذين استكروا، ولا بد أنهم كانوا في مقدمة الذين عملوا على تنفيذ خططاتهم وسياساتهم دون مناقشة، متنازلين عن حرياتهم وإرادتهم دون شعور بالكرامة، منقادين انتياداً أعمى لا يرون أمامهم إلهاً سوى فرعون استبدلوا بخالقهم وبارئهم بعد أن نسوه وكفروا به.

ويشكل جواب الذين استكروا جواباً دائمياً حاسماً شافياً لكل (مستضعف) قديم وحديث يسير في ركاب الطواغيت على هذه الأرض، وهو جواب صادق حتماً، إن لا يملك هؤلاء سوى الصدق، وهم يقدمون على ربهم العزيز القدير يوم الجزاء ويحطون رحالم في ذلك اليوم الأخير الذي تزوج فيه القلوب والأبصار: لقد جاءكم الهدى، ولقد عرفتموه، ومع ذلك كانت لديكم استعدادات للشر والانحراف وكنتم ميلان إلى خدمتنا وعبادتنا بعد أن عميت أبصاركم وقلوبكم وكانت استعداداتكم للشر والجريمة هي التي دعتكم إلى الوقوف معنا مع أنكم تعرفون حق المعرفة أننا كنا على خطأ.

لم ينكر المستكبرون أنهم كانوا ظالمين ومحظيين في الحياة الدنيا، ولم يقولوا أنهم كانوا على حق، كما كانوا يتبعجون دائماً، بل يعترفون بمسيرتهم المنحرفة، ولا يغضبون - كما كانوا يفعلون في تلك الحياة الأولى إذا ما اتهمهم أحد بالظلم والخطأ، ولا يدفعون عن أنفسهم اتهاماً. فما وجه إليهم صحيح، هم ظالمون، ويعترفون بذلك. وكانوا يريدون الجميع أن يقف في خدمتهم وفي صفتهم، فما بال هذا (الجميع المستضعف) لم يرفع عند ذاك في وجههم يداً أو اصبعاً، مستنكراً الظلم، وما باله - بدلاً من ذلك - يكرس حياته وجهوده لخدمتهم ولا يرى أمامه إلا فرعون وآل فرعون وملاً فرعون؟



وينهنا الشهيد الصدر إلى أن عناصر المجتمع الفرعوني، مجتمع الظلم، بعد أن يستعرض الآية الأولى من هذا الحوار، وبعد استعراض مقوله الإمام عليه السلام التي ذكرناها قبل قليل، متكون من طوائف متعددة، نرى من الضروري أن نستعرضها هنا باختصار ونحن نتكلم عن عناصر المجتمع الإسلامي في ظل معاوية أول الفراعنة المسلمين، الذين تولوا قيادة الأمة بالقوة، وتوالى على أثره سلاسل طويلة منهم، لا يزالون يطالعونا إلى اليوم ويدعون حق الحكم تحت ذرائع مشابهة، كلهم نجحوا نفس المنهج، وطوروا الأساليب وأفادوا من الخبرات المتراكمة على مر الزمن للخروج (بشرعية) متجددة تتيح لهم العلو في الأرض والاستكبار فيها والسيطرة على مقدرات الناس.

١ - **الطائفة الأولى:** هم الظالمون المستضعفون الذين ذكرهم القرآن الكريم، (سبأ ٣) الظالمون الثانويون، بحسب تعبير أئمتنا عليهم السلام (أعون الظلمة)، هؤلاء يشكلون حماية لفرعون والفرعونية، وسندًا في المجتمع لبناء الفرعونية، واستمرار وجودها.

٢ - **الطائفة الثانية:** الحاشية والمتعلمون، أولئك الذين قد لا يمارسون ظلماً بأيديهم بالفعل، ولكنهم دائماً وأبداً على مستوى نزوات وشهوات ورغبات فرعون، يسبقونه بالقول ومهمتهم في أغلب الأحيان تحريضية مثيرة «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ أَتَنْذِرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآهِتَكَ قَالَ سَنُقْتَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقُهُمْ قَاهِرُونَ»<sup>(١)</sup> هؤلاء كانوا يعلمون أنهم عندما يضربون على هذا الوتر الحساس في قلب فرعون الذي كان بحاجة إلى هذا الكلام، فتساقوا إلى هذا الكلام لكي يجعلوا فرعون يعبر عنها في نفسه ويتخذ الموقف المنسجم مع مشاعره وعواطفه وفرعونيته.

. (١) الأعراف ١٢٧



٣ - الطائفة الثالثة: أولئك الذين عبر عنهم الإمام ﷺ «بالمجتمع الرعاع» لا تدرك أنها مظلومة، ولا تدرك أن في المجتمع ظلماً، تتحرك تحرك التبعية والطاعة دون تدبر، ودون وعي أو عقل، تستسلم للأوامر الفرعونية دون أن تناقشها أو تتدبرها حتى بينها وبين نفسها، وهذه الفئة تفقد القدرة على الابداع البشري وكل قابليات النمو ﴿وَقَالُوا رَبِّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّوْنَا السَّبِيلًا﴾<sup>(١)</sup> كلامها يدل على أنهم لا يشعرون بالظلم. وبقدر ما تكون هذه الفئة مشكلة بالنسبة للمجتمع الصالح الذي يحاول تصفيتهم بتحويلهم إلى فئة متعلمة ولو على سبيل نجاة لكي يشاركون في مسيرة الابداع، بينما تحاول الفرعونية أن توسع منهم، لأن في ذلك ازدياد خطر فناء المجتمع وموته موتاً طبيعياً.

٤ - الطائفة الرابعة: هم أولئك الذين يستنكرون الظلم في أنفسهم ولم يفقدوا بهم أمام فرعون والفرعونية لكنهم يهادنون ويستكتون عنه، فيعيشون حالة التوتر والقلق بشكل لا يسمح لهم بالابداع والتتجدد والنمو، وكما يسميهم القرآن ظالمي أنفسهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتَهاجِرُوا فِيهَا﴾<sup>(٢)</sup>.

٥ - الطائفة الخامسة: الطائفة التي تهرب وتبتعد عن مسرح الحياة و(ترهيب) لكي لا تتلوث بأحوال المجتمع. هذه الرهبانية التي عبر عنها القرآن الكريم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾<sup>(٣)</sup>.

وهي رهبانية يشجبها الإسلام؛ لأنها موقف سلبي تجاه مسؤولية خلافة الإنسان

(١) الأحزاب .٦٧

(٢) النساء .٩٧

(٣) الحديد .٢٧



على الأرض. وهناك صيغة مفعولة للرهبانية، يترهب ويلبس مسوح الرهبان، ولكنه ليس راهباً في أعماق نفسه، وإنما يريد بذلك أن يخدر الناس ويشغلهم عن فرعون وظلم فرعون ويسطوا عليهم نفسياً وروحياً ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانَ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.<sup>(١)</sup>

٦- الطائفة السادسة: المستضعفون، خصمهم فرعون بالاستضعفاف والاذلال وهدر الكرامة؛ لأنها كانت هي الطائفة التي يتوسّم أن تشكل اطاراً للتحرّك ضده.

وقد علمنا القرآن الكريم ضمن سنة من سنن التاريخ بين أن موقع أي طائفة في التركيب الفرعوني لمجتمع الظلم يتناسب عكسياً مع موقعه بعد انحسار الظلم، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾<sup>(٢)</sup> ومن ذلك استخلصنا حقيقة مهمّة: وهي: أن المجتمع يتناسب مدى الظلم فيه تناسباً عكسيّاً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة ويتناصف مدى العدل فيه تناسباً طردياً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة.

«مجتمع الفرعونية المجزأ، المشتت، مهدور القابلّيات والطاقة والإمكانّيات. وأمّا مجتمع العدل فهو على العكس تماماً. هو مجتمع تتوحد فيه كل القابلّيات وتساوي فيه كل الفرص والإمكانّيات»<sup>(٣)</sup>.

### مجتمع شاذ. مجتمع التناقضات

إن مجتمع الظلم الفرعوني من شأنه أن يفرز قياماً وحالات شاذة تتقاطع وتتعارض مع القيم الإسلامية الأصيلة التي تتجه بالإنسان نحو العمل الإيجابي البناء الذي يستثمر

(١) التوبة ٣٤.

(٢) القصص: ٥.

(٣) المدرسة القرآنية: ص ٢٣٨.

طاقات الإنسان وإبداعه وتبعده عن الانحدار والانحراف والهلاك، ومن شأنه أن يفرز أصنافاً من الناس لا يمكن أن تظهر في الحالات الطبيعية وفي المجتمع السوي الذي يريده الإسلام، فهو مجتمع الفساد والاتهازية وقوة الغاب والشر والنفاق والمعصية والحسد والتنافس غير الشريف والخوف والفقر والجحود. وقد رأى أمير المؤمنين ﷺ بوادر ظهور هذا المجتمع ومقدمات هذه الظهور بعد أن رأى العبث الذي كان يجري في عهد عثمان والذي كان يمهد لصلاحية خاصة من الناس ظهرت كطبقة متربة جديدة ابتعدت عن الإسلام، وربما كانت بعيدة عنه منذ البداية. ورأى أن الحال لا يمكن تغييره بمحاولات إصلاحية بسيطة وأنه يتآزم ويتغير نحو الأسوأ.

وهكذا أعرب عن شعوره هذا، ووصف الحالات الاجتماعية الشاذة التي بدأت تظهر في المجتمع الذي أريد جره إلى الانحراف والسقوط في أحضان فرعون وملئه وزبانيته، محذراً المجتمع من مغبة الوصول إلى ما أراد أعداء الإسلام إيصاله إليه؛ لأنه سيعود عند ذلك مجرد حطام مجتمع و مجرد أثر غابر وأمة فاسدة سبقتها غيرها من الأمم إلى الفساد.

وقد خطب - قائلاً: «أيها الناس، إننا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن كنود، يعد فيه المحن مسيئاً، ويزداد الظالم فيه عتواً، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا ولا نخوف قارعة حتى تحل بنا. والناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلالة حده، ونضيض وفره. ومنهم المصلت لسيفه والمعلن لشره، والمجلب بخيله ورجله قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مقرب يقوده أو منبر يقرعه. ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً وما لك عند الله عوضاً! ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه وقارب من خطوه وشمر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية،



ومنهم من أبعده عن طلب الملك ضئولة نفسه وانقطاع سببه فقصرته الحال على حاله، فتخلى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهد وليس من ذلك في مراح ولا مغدى.

وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد ناد وخائف مقمع، وساكت مكعوم، وداع خلص، وثكلان موجع، قد أحملتهم التقية وشملتهم الذلة فهم في بحر أجاج، أفواهم ضافرة، وقلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا وقتلوا حتى قلوا»<sup>(١)</sup>.

وتفرز الأصناف الأربع الأولى كل حاجات فرعون من الرجال الذين يزيرون عرشه ويدعمون حكمه، حاشية واتباعاً وقادة عسكريين ووعاظاً للسلاميين ومتاجرين بالدين وأثرياء وسماسرة وغيرهم، وذلك ما هو بحاجة إليه.

أما الصنف الأخير فإن فرعون يحاول إسكاته بكلفة الطرق المناسبة، ويستعين عليه ببقية الأصناف الأولى. فهو صنف يقط منتبه واع، لا ينشد إلا مصلحة الإسلام، أما مصلحته الذاتية فهي آخر شيء يفكر به. وقد استغل فرعون ذلك لجعله يظل فقيراً وحرضاً عليه تلك الأصناف عندما جعلها تعتقد أن مصالحها ستتضارب مع (مصالحه) مع أن لا مصلحة له إلا انقاذ الجميع، حتى فرعون وملئه وحاشيته. غير أن فرعون والملا والأحاشية في غمرة التمتع بكل لذائذ الأرض ونعمتها لا يرون فيه إلا عدوهم الذي يريد أن يستلب لنفسه كل ما استلبوه بالقوة والمال والخيلة.

### فرعونية متطورة..!

وعلى ضوء التوزيع الموفق الذي أشار إليه السيد الشهيد رضوان الله عليه، والذي يمكن أن نتوصل إلى فهمه فهماً أفضل لوحالنا أن ننظر نظرة متفرضة في آيات القرآن

(١) نهج البلاغة: ص ٧٤-٧٥.

الكريم وفي أقوال الرسول ﷺ. نرى أن النظام الفرعوني الجديد - بإيعاز وتوجيه من معاوية نفسه - قد حاول أن يخذو حذو الفرعونية القديمة - مستفيداً من خبراتها ومن غطاء الشرعية الإسلامية الذي حاول أن يضيئه على نفسه وعلى حكمه - مستغلاً عوامل الانحراف التي بدأت تظهر قبله ومحاولات جر الأمة إلى ما ابتعدت عنه في السابق - وحاول أن يكرس تقسيم المجتمع على نفس الأسس التي قامت عليها الفرعونيات السابقة مع بعض التحسينات والتزيينات التي أجرأها لجعل صورته مقبولة وحكمه مستساغاً، وحاول بفعل الخزينة الضخمة التي استأثر بها أن يوسع من دائرة الطبقة الثرية المستفيدة والمنحازة إلى جانبه لتشكل دائرة حماية قوية له. وظيفي أن تتبنى هذه الطبقة الثرية كل تصورات وأطروحات وتوجهات الدولة الجديدة المفترضة التي تدعي في الظاهر عداءها للفرعون التقليدي الأول، بينما توغل في أعمال لم يكن حتى ذلك الفرعون يقوم بها في السابق.

#### بين الخبرات الجاهزة والاستفادة من طبقة المجتمع الرعاع

ويجدر أن نؤكّد هنا ما قلناه سابقاً، وهو أن معاوية قد استفاد من خبرات جاهزة قديمة إلى الحد الذي أمكنه من (استثمار) الإسلام نفسه و(تطييعه) وعرضه بالشكل الذي يشاء لتعزيز حكمه وسلطانه، وقد استمد خبرته من حياة حافلة بالتصدي للإسلام نفسه قبل أن (يدخل) فيه قبيل الفتح واطلاعه الواسع على سياسات وأخبار الملوك السابقين، كما أوضحتنا في مقدمة هذا الفصل وفهمه للعديد من أمور الإسلام، فهو ليس بالجاهل، وربما كان عالماً، أو كما قال عنه الفضيل بن عياض «معاوية من (الصحابة) من العلماء الكبار ولكن ابتي بحب الدنيا»<sup>(١)</sup> ولعلها أخف كلمة تقرير ضقيلت بحق هذا (الصحابي الجليل) الذي أمضى حياته مع رسول الله! غير أننا لا بد أن

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٢.



نقول أنه ليس بالجاهل وأن بين جنبيه نفساً زاخرة بعقرية الشر التي استطاعت تحويل مجرى التاريخ الإسلامي إلى أسوأ حال وتهديم ما بناه الإسلام طيلة عقود عديدة من الزمن.

وقد أدرك معاوية أنه سيتمكن في مجتمع الهمج الرعاع من تطبيق سياساته وخططه وعلم أنه سيجد فيهم خير جند ورعيه. وكان لابد من تكريس حالة الجهل المطبق واللاوعي واللامبالاة والتواكل والاعتماد على كفاعة (الخليفة القائد) وقدرته ودهائه لتمرير ما عزم على تمريره دون اعتراف أو مناقشة.

وقد أرسل إشارة خبيثة إلى الإمام عليه السلام بهذا المعنى وأوصى من يقول له: إني أقاتلك بمائة ألف لا يميزون بين الناقة والجمل، ولعله قد وضع قصة الناقة والجمل تلك يدلل على جهل أهل الشام وانقيادهم له. وكان له من طبقة الحاشية المتملقة المستفيدة المتزلفة عوناً لتنفيذ خطط أبعد مدى من تلك التي طبقها فعلاً في حرب ضد الإمام عليه السلام ومطالبه بدم عثمان. وهي محاولاته أن يمد في طول حكمه من خلال تكريسه في ابنه يزيد وسلالته بعد ذلك. وقد رأينا من عرف رغبته تلك، وأشار عليه أن يقدم على جعل يزيد خليفة له، وزين له هذا الأمر حتى سعى إلى ذلك فترة تزيد عن السبع سنوات كما ستر في الفصل القادم.

#### الحاشية المتملقة : مصالح فرعون مصالحهم

وكانت الحاشية المتملقة ترصد تحركات معاوية، وتستشعر رغباته ولهفته للتمهيد لابنه يزيد وتلتقط كل ما من شأنه أن يتبع لها المزيد من الاطلاع على تلك الرغبات، لتقتربها عليه وكأنه لم يفكر بها أصلاً. وكأنها من بنات أفكار غيره، بل هي رغبتهم ورغبة الأمة كلها. إنها تغازل رغباته وترصد هوا وتسحبها من داخله وتطرحها عليه

كأنها رغبتها هي وكأنها إرادتها أو إرادة الأمة المطيعة المحبة! وتلك كانت نفس مهمة أعون فرعون موسى في السابق: تزين لفرعون رغباته ونزواته وأحلامه واندفاعاته.

وقد رأينا على من وقع الظلم، ومن هم أولئك الذين توقع معاوية أن يتصدوا له ولسالاته فيما بعد، فعمل على استئصالهم وكسر شوكتهم وإسكاتهم، قبل أن يبادروا بهم فيستأصلوه ويقفوا عقبة في طريقه، وقد تحرك ضدتهم قبل أن يتحرکوا ضده، مستنداً إلى توقعاته لا إلى ما يراه منهم فعلاً، وهكذا ساد قانون الأخذ على الشبهة والظن، ذلك القانون الأموي الذي لم تشهد له الفرعونيات السابقة مثيلاً والذي تجلّى بمهارات عنيفة من قبل النظام الأموي ضد كل من توقع واعتقد عدوا لهم، مع أن ذلك هو ما حذر منه القرآن الكريم بشدة ووضوح.

### استهدفو الإمام ﷺ وخطه

ومن الطبيعي أن تكون الفئة التي حاربها معاوية هي الفئة التي التزمت خط الإمام ﷺ ونهجه، وهكذا فإنه بادر إلى العمل ضدها بأعنف الأساليب وأقساها، كما عمد إلى فعل مضاد قصد به تشویه صورة الإمام ﷺ وحشد خطباءه والمتسبين إلى دولته من المرتزقة الذين حسبو أنفسهم على الصحابة والعلماء والمفسرين وناقلين الحديث والقصاصين والشعراء وغيرهم في أعظم حملة سباب وشتمة شهدتها التاريخ ضد آل البيت وفي مقدمتهم أمير المؤمنين ع. وقد قصد من ذلك إضافة لتشويه صورة الإمام ﷺ الاقلal من قيمة رسول الله عليه ﷺ نفسه بنظر المسلمين، باعتبار أن من يسبه يتمي إلى الرسول ﷺ انتهاء حقيقياً من حيث النسب أو الدين. وجعل سبب ﷺ سنة أموية بل إسلامية، يتقارب من يقوم به إلى الدولة ويحسن صورته أمامها. وبنفس الوقت عمد إلى تضخيم صورته وتزويقها أمام المسلمين مقابل صورة الإمام التي عمد إلى تشويهها ومحوها.



وباللجوء إلى أسلوب السب المباشر والعلني، كان يعني بذلك أن السير على خط الإمام غير شرعي ومن نوع وأن الخط (الشرع) الوحيد المسموح به هو خطه وشريعته، وأوهم بذلك طبقة كبيرة من الناس خصوصاً من أهل الشام الذين رباهم تربية خاصة وانحدر بهم ليكونوا أكبر طبقة للهمج الرعاع حفل بهم قطر إسلامي في ذلك الوقت.

### تصرفوا بالخلافة تصرفهم بارث شخصي

كمارأينا القادة والولاة الذين حكموا وتصرفوا وكأنهم يتصرفون بملك خاص بهم ورثوه عن أهليهم، واستعرضنا بعض الشخصيات التي شكلت أركان الحكم مثل عمرو بن العاص والمغيرة وزياد ومروان، ورأينا أساليب الخداع والقوة التي لجأوا إليها وأساليب القمع المبتكرة التي ابتدعواها، رغم ادعاء الدولة الأممية بأنها امتداد لدولة الإسلام الأولى أو أنها شكل محسّن لدولة الخلفاء السابقين وأنها دولة عادلة لا تعمد إلا إلى الحلم واللين والصبر في سياسة الناس وحكمهم، حتى لقد انطلت دعوى معاوية بالحلم والدهاء والصبر والكياسة على جماهير كبيرة من الناس في عهده وفي العهود اللاحقة وإلى يومنا هذا، مع أن سياسة الإرهاب والقوة والقمع هي التي طبعت ذلك العهد بطبعها، كمارأينا عند استعراضنا شخصية معاوية وحملاته الإرهابية على أطراف العراق وقتله النساء والأطفال والأبرياء لمجرد أنه يشم منهم رائحة الولاء لأمير المؤمنين، وحملات قمع المعارضين أمثال حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وغيرهم وغيرهم. مما رویت لنا عنها أقاصيص وأخبار طويلة حفلت بها كتب التاريخ وغيرها.

كمارأينا طرفاً من أخبار أولئك الذين وقفوا موقفاً (سلبياً) من هذه الدولة الظالمة، وأولئك الذين اعتزلوا وترهيبوا خوفاً من سلطتها وبطشهما فكانوا مثار رضاها وسكتها عنهم وأولئك الذين أعلنوا الرهبة مع أنهم كانوا أكثر الناس تعلقاً بالدنيا وقرباً من السلطان وأصبحوا وعاظاً للسلاطين ودعاة للسکوت والصبر على جورهم، إلا أنهم



لبسو عبامة الإسلام بدلاً من طيلسان الكاهن وثياب الراهب وأظهروا التقشف في الظاهر مع أنهم كانوا متلهفين على قرب السلطان ومنظر الأصفر الرنان.

### ارتداد عن الإسلام من خلال إبعاده عن الحياة

كان المجتمع يعيش في ظل معاوية حالة ارتداد واسعة عن الإسلام، وكان فرعون يقع على قمة عرشه سعيداً بمساعيه وبما أوصل الأمة إليه. وقد بذاله أخيراً أن الإسلام لم يظهر ويتشر إلا لتحقيق مصالحه وطموحاته ورغباته هو وأفراد تلك العائلة (السعيدة، المحظوظة) التي ناصبته العداء منذ البداية. وأن الأمر برمته لا يعدو سوى أن يكون مهزلة أو مبارأة هزلية لا مكان فيها إلا للاعب الماهر الذي يتمتع بأكبر قدر من الحيلة والدهاء والمكر. من أمثاله وأشباهه.

لم يكن يحس بالإسلام إطلاقاً. ولن يستطيع أحد مهما تخيز إليه أن يدعى مستندًا إلى أدلة وواقع ملموسة أنه كان يعمل بدافع من حرصه على الإسلام، ولم يكن يصلح بالمقاييس الإسلامية حتى أن يكون مجرد مواطن سوي في الدولة الإسلامية.

ذلك كان معاوية، وذلك هو المجتمع الذي أراد إيجاده وتوسيع حلقاته وأطر ممارسته لا في الشام وحدها بل في كل أقطار المسلمين، وقد نجح في ذلك هو وخلفاؤه إلى حد بعيد.

### عصر الأحداث والمفاجآت

كان عصرًا حافلاً بالأحداث والمفاجآت والمتغيرات والبعد المعمد عن الإسلام، وكانت كل دقة فيه مكررة بشكل مقصود لإبعاد الإسلام عن الحياة إلى الأبد. وكان التصدي لهذه المحاولات الماكنة يقتضي عزماً وشعوراً عالياً بالمسؤولية نابعاً من عزم وتصميم القيادة الحقيقة للإسلام المتمثلة بالرسول ﷺ وآلـهـ وـلـيـهـ الـسـلـاـمـ وفي مقدمتهم أمير



المؤمنين ﷺ الذي أعده إعداداً خاصاً كرس له وقتاً طويلاً استمر طوال حياته عليه السلام ليتولى شؤون المسلمين وقيادتهم على نفس النهج والأسلوب الذي اتبعه عليه السلام.

ولم تكن حياة أمير المؤمنين ﷺ الذي وقف بمواجهة الأزمة التي مر بها المسلمون منذ وفاة رسول الله عليه السلام والتي تفاقمت إلى أبعد حد بعد خروج معاوية عليه وإعلانه الحرب السافرة، تتميز بتلك الرتابة والتكرار اللذين تميز بهما عهد العديدين من تنسموا مسؤولية قيادة الأمة، وظلوا يتمتعون بذلك الخدر الناعم اللذيد الذي تتيحه مباهج السلطة، بل كانت حياة حافلة بالأحداث والمواقف. وكانت دروسها معدة لكي يتلقاها، لا ذلك الجيل الذي عاشه وشهد الأحداث معه، وإنما كل الأجيال التي تتطلع إلى الإسلام كحلٌ لتناقضاتها وخلافاتها ومشاكلها وجودها كعالم ثالث متاخر يتحكم فيه الطاغوت ويبيتز ثرواته وخيراته وجهوده.

### أمير المؤمنين ﷺ أمل الأمة

وكان ﷺ مع الصفة من آل بيته من الأمم المعصومين يمثلون الأمل الكبير لجماهير المسلمين الوعيين على امتداد العصور، وكانت تجربته القريبة، بل المتماسة مع التجربة النبوية العظيمة، هي الوحيدة القادرة على منع الانحراف وإيقافه رغم تقادم العهد وبعد المدة؛ لأن طبيعة هذه الرسالة العظيمة تكمن في وضوحها وواقعيتها وقربها من النفوس المستقيمة الوعائية وكذلك في إمكانية تحقيقها وتطبيقها، كحالة وحيدة كفيلة بالقضاء على التناقضات والسلبيات التي تطرحها الجاهلية المختلفة وإحداث التغيير الذي سعى إليه الإمام ﷺ طوال حياته، وخصوصاً في فترة حكمه، بطريقة حاسمة وبوضوح كبير، رافضاً انصاف الحلول والمساومات والرشاوي والفساد في مجتمع أراد له أن يكون طليعة الأمة واعية مدركة لأهداف الرسالة الإسلامية العظيمة، وهو مجتمع الكوفة في البداية. وقد لاقى في سبيل ذلك الأمرين، وهو يخوض تجربة بناء الأمة



وتربيتها من جديد على نفس النمط الذي أراده رسول الله ﷺ وحاول أن يستبعد كل الشوائب والانحرافات التي بدأت تلوح في أفق هذه الرسالة ولما تكبدتبدأ مهمتها بعد.

### عليه استقامته استقامة الإسلام

وقد رأينا أن استقامته هي استقامة الإسلام نفسه، ورأينا وضوحاً للخارق وبصيرته النافذة ونظرته السديدة. ولعل ذلك الوضوح وتلك الاستقامة لم يسبقها إلا وضوح واستقامة صاحب الرسالة ﷺ نفسه، هو ما حير أعداءه ومحبيه في وقت واحد وجعلهم يشطون في أمره ويدهبون به مذاهب شتى كما عبر هو بنفسه - سلام الله عليه - عن ذلك.

كان عليه أن يتصدى للمؤامرات التي تعرض لها الإسلام، إما بشكل مباشر وعنif كما فعل في أيام قيادته الفعلية وحكمه، أو بشكل ينسجم مع الظرف الذي مرت به الأمة كما فعل قبل خلافته بعد أن بدأ الانحراف بزاوية ضيقه غير ملحوظة ثم بدأ يتسرع وينفرج بزاوية واسعة واضحة - وقد خاض حرباً بالسيف واللسان مع كل الذين تصدوا لعداوه وحربه لكي يفوت المؤامرة التي حاكها ضده (دهاة) قريش وعتاتها وطواقيتها المفسدون المترفون، وهم نفس أولئك الذين تصدوا للرسول ﷺ نفسه في حروب مكشوفة ومكائد مستورة.

### عليه، تنوع مواقف وأدوار

كانت مهمة الإمام ﷺ تتغير وتتنوع وفقاً للأحداث المتغيرة وأشكال الذين وقفوا على سدة الحكم خلفاء وحكاماً وعملاً. وكان ينطلق لأداء مهمته بالدرجة الأولى من منطلق الحفاظ على الإسلام والحرص عليه وضرورة بقائه ونموه كقوة رئيسية محركة دافعة مغيرة وفق السنن والقوانين الإلهية لا القوانين الفرعونية المتسلطة. وهكذا تنوعت الأدوار التي لعبها في كل وقت وإن كانت كلها تستهدف أمراً واحداً بلا شك



وهو - كما قلنا - الحفاظ على الإسلام.

وكان حضوره واضحًا لمنع الانحراف وتحجيمه وحصره في أضيق زاوية وخصوصاً في عصر عثمان. ولا يحسن أحد أنه رغم معرفته بأنه أحق من ينبغي أن يتولى القيادة الفعلية لل المسلمين خليفة وإماماً، أنه كان يتصرف من منطلق رد فعل سلبي تجاه من جلسوا على كرسي الخلافة، بل أنه كان حر يصاً حتى على حياتهم ما داموا قد أصبحوا يمثلون المسلمين. وهو أمر غريب لو حدث من شخص غير الإمام، غير أنها لا تستغرب ذلك متى علمنا من هو أمير المؤمنين، ومتى ما أتتنا لأنفسنا فرصة أكبر للتتعرف على شخصيته العظيمة.

أما مع معاوية، فلم يكن له سوى أن يواجهه مواجهة حاسمة بفعل قتالي بعد أن رفض الانصياع لإرادة الأمة ومبaitته، وحشد له الأمة واستنفرها لمقاتلته، وأراد لها بمواجهتها معاوية وأمثاله، أن تواجه في المستقبل كل حالة طاغوتية شاذة منحرفة قد تطفو على سطح المجتمع الإسلامي.

وكانت وقوفته المبدئية ضد معاوية وأنصاره، وقفه أريد لها أن تشخص أمام الأ بصار لا خلال حياته ﷺ فحسب وإنما على امتداد العصور.

وهكذا دعا المسلمين في بداية توليه الحكم إلى قتال الخارجين على إجماعهم كطلحة والزبير ثم معاوية بعد ذلك، ولإزالته عن المركز الذي احتله خطأً وظلمًا.

وكانت مسؤوليته التاريخية والتلفاف جماهير واسعة من الأمة حوله، ونظرتها إليه كرمز كبير من رموز الإسلام. وكان شعوره بهذه المسؤولية المستمد من وعيه وفهمه الكامل للإسلام ومركزه بين المسلمين لا يدع أمامه أي مجال للتردد في شن الحرب على عدو الإسلام العتيد معاوية.

وقد أدى دوره أداءً كاملاً على كافة الجبهات وفي كل المجالات.

لقد وفد كلاهما على ربِّه، على معاوية، الإمام والطاغية.

فكيف سيكون حوارهما أمام رب العالمين؟ وماذا سيقول معاوية حينذاك، وكيف سيبرر تصرفاته وخرقاته الفظيعة للإسلام؟ وهل ستظل مغالطاته ومبرراته التي أوجدها له أعوناً السوء مفيدة له حينذاك؟

وهل سيظل يتمتع بذلك (الدهاء) الذي تبجح به طوال حياته؟ وهل يستطيع مد لسانه لأولئك الذين استخدمهم لتنفيذ مآربه وخططه، وينظر نظرة ساخرة لكل من مهد لهذا الدين ودعا له، بعد أن سطا عليه وحوله إلى أداة سخرها لمنافعه وتوطيد عرشه؟ وما عسى ملأ معاوية أن يقولوا المعاوية، وكيف سيكون حوارهم في ذلك اليوم الرهيب؟ ويبدو لنا أنه كان بمواجهة كل موسى النبي، فرعون طاغ متسلط.

وبمواجهة كل علي الإمام، معاوية طاغ متسلط أيضاً.

والمعركة قائمة دائمةً بين الحق والباطل، والحق أوضح من أن يخفى. ودروب الباطل مكشوفة دائمةً.

سلام على أمير المؤمنين عندما يقول: «ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالاً»<sup>(١)</sup> ولن يفوت أحد متى ما عرف دعوة علي ومنهجه ومركزه من رسول الله ﷺ والإسلام، أن يعرف من كان معاوية، ويعرف حجم الجريمة التي ارتكبها بحق الإسلام والتي لا يزال يعاني منها المسلمون بل كل أبناء المعمورة إلى اليوم.

إن من العجب أنه لا يزال أحد يجهل ذلك حتى الآن.

(١) نهج البلاغة: ص ٦٩٩.



## المحتويات

٣	<b>الأمة الإسلامية في عهد معاوية ويزيد</b>
٥	<b>١ - القيادة - عودة إلى معاوية الحاشية- الملا المقربون</b>
٦	فرعونية جديدة، تستغل اسم الإسلام وشعاراته
٦	النظام الأموي- الإفادة من الخبرات الفرعونية المترآمة
٦	التجيرية الأموية، تقاطع مع السنن الربانية
٧	بين الانحراف الحذر والانحراف المعلن
٨	المعركة الأموية مع الإسلام استمرت طيلة العهد الأموي
٩	التبجح الأموي بكرامة الأصل - تهديد لخنق الأنفاس
١٠	استهدفوا أهل البيت ﷺ بعد أن فشلوا مع النبي ﷺ
١٠	ماذا كانوا سيفعلون، لو علموا أن الأمر سيصير إليهم
١١	معارك جديدة تخوضها الدولة الفرعونية
١٢	هل جاء الرسول ﷺ ليبشر بمعاوية!!
١٤	رمتني بدائها وانسلت
١٥	فرعون متتطور - لم يعلن نفسه رباً أعلى ...
١٧	المكر، ثم المكر ((أطير إذا وقعتم، وأقع إذا طرتم))
١٩	تربة الشام، أخصبت بفكر معاوية وتصوراته، فأصبحت مهياً لقيام دولته.
١٩	كيف عرض أهل الشام! الطائفة المنصورة! الحكم على الناس ...
٢٣	ردود على المغالطات الأموية
٢٦	أهل الشام، أول ضحية لمعاوية
٢٧	كسب ودّهم لكي ينفذوا مخططاته الشيطانية
٢٩	كل شيء مشروع أمام طموحات فرعون.. الغاية تبرر الواسطة
٣٠	نقد الإمام لأهل الشام.. استهدف تخليصهم من الورطة الأموية
٣١	الإرهاب.. الأسلوب الأمثل لتوطيد دعائم الملك الأموي



٣٢	مسرحية الاستخلاف
٣٣	نماذج من أعماله الارهابية
٣٥	حصانة لأعوان الدولة.. مصنونون غير مسؤولين
٣٦	كشف الانحراف.. لا داعي للتلميحات
٣٨	مثُل أعلى (واطئ)
٤٠	«فَمَا آخَذَ مِنْ مَالِ اللَّهِ فَهُوَ لِي»
٤١	أهل الشام.. أخذوا الإسلام عن الأمويين إسلاماًً أمورياًً
٤٢	أضاليل في أباطيل
٤٤	إعلان الانحراف.. لا خوف من الأمة
٤٥	بدع أصبحت سنتاً في دول الظلم
٤٩	توسيع تجربة الشام تمهيد لتجريد الأمة من مسؤولياتها
٥٣	عمرو بن العاص شريك في الجريمة، شريك في السلطة
٥٣	أبناء المرواني في الصداررة
٥٤	إلتقاء المصالح يلغى الخلافات.. تقاسم الغنائم
٥٥	ابن الأبت
٥٧	عداء موروث
٥٨	معاوية وعمرو.. لقاء على الشر والعدوان.. منذ أيام الجاهلية
٥٩	كصحابه معاوية: يمكر ويفجر
٦١	إلى الدين حتى يستأثر بالدنيا
٦٢	مكر أم غباء؟
٦٤	شيطانان يجتمعان
٦٤	بين منظار الإسلام ومنظار المصالح الدنيوية
٦٥	لو كانا يرييان الأمور بعيوني الإمام
٦٦	لا يتذكرون الموت إلا ساعة الاحضار
٦٧	فرط بذرية الرسول ﷺ واحتفظ بقلامة من أظفاره
٦٨	ساوم على الباطل في شيخوخته



- عندهما يموت الطغاة  
شتان ما بين الفائز والخاسر

طمعه قتله... حرض على عثمان وطالب الأبراء بدمه  
كرهه لعلي ﷺ جعله ينحاز لمعاوية

(أواما علي فلا خير عنده، وهو غير مشركي في شيء من أمره).  
من يطالب بدم عثمان؟

أقصر الطرق.. مساومة مكشوفة  
((إنما أردنا هذه الدنيا..)).

باع دينه، فخسر كل شيء  
لا يجتمعان إلا للشر

شريك في السلطة.. شريك في المكائد  
بين موقف و موقف

الغدر، حتى ولو بالحليف، هو القاعدة  
الفئة الباغية

حيلة رفع المصاحف.. تفتق عنها مكر ابن النابغة  
الحيل لا تنطلي إلا على الأغبياء

نفس أمير المؤمنين تفليس أسي وحزناً حتى على أعدائه  
ملَكَ مصر سنتين.. مات بعدها حتف أنفه

لم يرتدع رغم نصائح الإمام  
﴿فَأَلْ رَبُّ ارْجِعُونَ ه لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾

مات عمرو وبقي شره  
زياد ابن أبيه (بن أبي سفيان)!؛ بين بعد الطموح، ودناءة الأصل

أصل دنيء وأخوة في الزنى  
الخائن

الولد للفراش وللعاهر الحجر.. قانون إسلامي محمد  
كيف غاب الحباء؟



- عقدة النقص لا يحلها التظاهر بالقوة  
١٠٥
- قانون أموي ((لَا حذن الولي بالولي...))  
١٠٥
- سياسة جديدة أساسها الشدة والعنف  
١٠٧
- شديد فظ غليظ.. اعترف لنفسه بهذه الصفات  
١٠٨
- أهل المدينة: استعنوا عليه بالله ورسوله  
١٠٩
- تعاون على الشر والعدوان  
١١١
- الارهاب الأموي  
١١١
- جريمة قتل حجر بن عدي  
١١٢
- مكر وغدر  
١١٣
- تحريض على الجريمة  
١١٥
- حجّوهم ورب الكعبة  
١١٥
- المغيرة بن شعبة.. (الداهية) الوسوس  
١١٧
- دهاء أم أغبياء؟  
١١٧
- المصلحة الشخصية أولاً؟  
١١٨
- معتدل.. متخيّز  
١١٨
- نحن مع من غالب  
١١٩
- علاقة قديمة بمعاوية  
١١٩
- الاقتراح المشؤوم - دمر الأمة في سبيل مصالحه الشخصية  
١٢١
- أشار على معاوية باستلحاق زياد  
١٢٢
- دعا معاوية إلى بيعة يزيد.. وضع الأمة في مأزق شديد  
١٢٢
- هرب من الطاعون وعاد ليقتله الطاعون  
١٢٤
- ماض ملوث.. يزني وهو أمير  
١٢٥
- صحابي مزيف.. ادعى أنه أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ  
١٢٦
- قاتل عمر بن الخطاب  
١٢٧
- انتهازي متلون  
١٢٧
- كيف التقي الزناة وأولاد الزواني  
١٢٨

- ١٢٩ مروان بن الحكم الشيطان الغبي... قاتل عثمان
- ١٢٩ الأموي الذي لعنه رسول الله في بطن أمه
- ١٢٩ الوزير الأول لعثمان - عينه ولسانه
- ١٣٠ استغلوا ضعف الشيخ فسللوا إليه
- ١٣١ استغلال السلطة
- ١٣٢ بداية تفاقم الانحراف في عهد عثمان
- ١٣٣ الإمام ﷺ أول من حاول ايقاف الانحراف: ...
- ١٣٤ لا تنازل عن (المكاسب)
- ١٣٦ كل الناس تكره مروان حتى نائلة زوجة عثمان
- ١٣٧ مروان ومعاوية أعدا وأخرجا مسرحية قتل عثمان
- ١٣٩ مروان.. قاتل طلحة يوم الجمل
- ١٤٠ أفل نجمه أمام نجم معاوية ويزيد
- ١٤١ مأثرته الوحيدة.. بغض أهل البيت عليهم السلام...
- ١٤٣ قطعة مهملة من أحجار الشطرنج
- ١٤٤ كاد أن يباع ابن الزبير لو لأن منعه ابن زياد
- ١٤٤ ليس نقاتل إلا عن عرض دنيا
- ١٤٥ مروان: خيط باطل: أهل الدار أدرى بما فيها
- ١٤٥ بطل مسرحي
- ١٤٧ قادة أم أعضاء عصابة سرية
- ١٤٨ الإرهاب الرسمي.. هو الشرعي
- ١٤٩ لماذا الدفاع عن معاوية وأقطاب النظام الأموي؟
- ١٥٠ من شابه أباه فيما ظلم
- ١٥٢ تلاقفواها...!
- ١٥٥ ٢ - خصائص المجتمع الإسلامي وبعض ملامحه
- ١٥٥ عهد يزيد.. امتداده لعهد معاوية
- ١٥٥ إلى الجاهلية من جديد



- ١٥٦ لماذا التساهل.. هل الأمر خاص لا يمس مصالح المسلمين؟
- ١٥٦ هل يحق للحاكم بإبعاد الإسلام عن الحياة؟
- ١٥٧ مقاييسنا لكشف الانحراف
- ١٥٨ لماذا العد التنازلي؟
- ١٥٩ الأمة ليست قريشاً
- ١٦٠ لماذا نقلب صفحات التاريخ؟
- ١٦٠ السلطة في الإسلام.. وسيلة لتحقيق عدالته
- ١٦٢ لماذا الاختلاف بين الحكام؟
- ١٦٢ هل كان الإمام عليه السلام يطالب بحقه أم بحق الأمة؟
- ١٦٤ لماذا استهان معاوية مجتمع الشام وأعده لتنفيذ مشاريعه؟
- ١٦٥ مملكة واسعة.. افتعلت معاوية في عهود الخلفاء السابقين
- ١٦٧ معاوية لم يكن موظفاً بل كان ملكاً
- ١٦٨ استغل الانحرافات الأولى
- ١٦٨ «فقد كنا، وأبوك فيما، نعرف فضل ابن أبي طالب ...
- ١٦٩ لماذا لو هزم الإمام؟
- ١٦٩ لابد من قوة عسكرية ضاربة.. أهل الشام
- ١٧١ رأوا الإسلام بعيني معاوية
- ١٧٢ في عهد الدولة الأموية؛ لم يبق من الإسلام إلا اسمه
- ١٧٣ تمهيد للعد التنازلي وقبول أمثال يزيد حكاماً وقادة
- ١٧٣ (مقولات مدرّوسة)
- ١٧٤ نادررة مبكية
- ١٧٥ الخزانة الذهبية والقفاز الفولاذى
- ١٧٦ تنازل الأمة عن كيانها جعلها تتقبل معاوية وأمثاله
- ١٧٦ نتائج التنازل
- ١٧٧ الدولة الأموية مهدت للدول (العلمانية) وسبقتها...
- ١٧٨ رصيد الأب من (الدهاء) و (الحكمة). لا يتمتع به الابن



- ١٧٩ على طريق الاعداد للحكم، تحسين الصورة، دعوة يزيد للصلوة...
- ١٨٠ الأطراف الأربع للاستخلاف
- ١٨١ محاولة إلغاء المستخلف
- ١٨٣ الغاء الشرعية الإسلامية لتمرير (الشرعية) الأممية
- ١٨٤ خلافة أم عبث؟
- ١٨٧ من بصنع الفراعنة والطواحيت
- ١٨٩ مقوله فرعون الدائمة: أنا ربكم الأعلى
- ١٩٢ انحرف على أن لا يعلم بأمرك أحد
- ١٩٣ الطقوس الظاهرية. لتحسين الصورة
- ١٩٤ الرسول ﷺ: أول من حذر الوقوع في براثن الانحراف
- ١٩٤ وكذلك حذر منه أمير المؤمنين ﷺ
- ١٩٥ سنن تاريخية - انحراف بسيط في البداية سيمهد...
- ١٩٥ الإسلام الحمدي العلوي الضمانة الوحيدة...
- ١٩٦ منهج في التزوير لتعزيز دولة الظلم
- ١٩٧ ما هو الانحراف؟
- ١٩٨ الله وحده هو المشّرع
- ١٩٩ شعارات كاذبة
- ٢٠٠ هل المشكلة هي لعن يزيد من عدم لعنه أم أن...
- ٢٠٢ روایات مسلیة.. یزید یکشیف من آثار الرسول ﷺ...
- ٢٠٣ روایات وروایات مضادة
- ٢٠٣ (الخليفة) أولاً
- ٢٠٥ إحياء غريب. عمل الصحابة الأوائل كان تطوعياً
- ٢٠٦ أحـقاًـكـ لـاـ تـعـرـفـ الـحـقـائـقـ أـيـهاـ الـكـاتـبـ الـإـسـلامـيـ الـكـبـيرـ؟
- ٢٠٧ دولة الإسلام أصبحت حلمًا!
- ٢٠٨ لابد من استعراض الأخطاء
- ٢٠٩ هل كانت معركة بين فتتین من المسلمين؟



- ٢١١ بدائل مزورة لنسخ الإسلام
- ٢١٢ إذا كان رب الدار بالدف ضارباً
- ٢١٤ انتهاكات مفضوحة، ومزاعم مكشوفة
- ٢١٦ التسلط الفرعوني سبب كل الرذائل
- ٢١٨ نموذج فرعوني جاهز، (صالح) لكل زمان ومكان
- ٢١٩ تالله ما فعلت علوج أمية
- ٢٢٠ تأويل أحاديث.. قريش للخلافة.. ولا يهم...
- ٢٢١ فعل الشيختين ليس سنة «أعمل بمبلغ علمي وطاقتى»
- ٢٢٢ ندم متأخر «فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء».
- ٢٢٤ العالم الرباني.. ورث علم الرسول ﷺ «يرفع لي في كل ...»
- ٢٢٥ ما دامت قد وصلت إلى معاوية.. فما المانع أن تصل إلى يزيد؟
- ٢٢٧ الخليفة أفضل من الرسول بدعة أممية جديدة (خليفة الله في....)
- ٢٢٨ الحاج يرسل الرسل لتهنئة عبد الملك على عطاسه
- ٢٢٩ نزاع غير متكافئ
- ٢٣٠ كرهوا علينا ﷺ فهالوا إلى معاوية
- ٢٣٠ «لو كان لي المال لسوّيت بينهم» أمير المؤمنين ﷺ
- ٢٣١ «فما آخذ من مال الله فهو لي» (معاوية)
- ٢٣٢ ماذا جنت الأمة من غلبة معاوية؟
- ٢٣٢ أسف على الجهد الضائع
- ٢٣٢ ما ذنب المسلمين حتى تثار الزوبعة؟
- ٢٣٣ لم تعرقل هذه الروبيعة المد الإسلامي؟
- ٢٣٤ هل كان كل ذلك الدمار مجرد فتنه؟
- ٢٣٥ انقلاب على الإسلام
- ٢٣٥ أطروحة أممية لا داعي للمواصفات الصارمة.. فليكن...
- ٢٣٦ أطروحة أممية أخرى الخليفة غير محاسب حتى أمام الله
- ٢٣٨ لأبد من تشخيص الداء



- ٢٣٩ بعد الزمن لا يمنعنا من دراسة الأحداث

٢٤٠ الفتوحات الإسلامية.. مكاسب للمسلمين أم لحكامهم

٢٤١ أموال أسطورية

٢٤٢ أين قارونَ منهم..؟!

٢٤٣ شدّتهم الأرض فلم ينظروا إلى السماء

٢٤٣ لا تلاعب بالتشريعات الإلهية

٢٤٥ سلب الخلافة، سطوة غير عادل على مكاسب المسلمين

٢٤٦ معاوية وريث رسول الله؟!

٢٤٦ هل نصروا الله فنصرهم؟

٢٤٧ لماذا زال الملك عنهم؟

٢٤٨ عطاء كيسي وتلاعب بأموال المسلمين

٢٤٩ انفراج زاوية الانحراف

٢٥١ محاولات لتدمير الإسلام

٢٥١ الخليفة. وكيل أم مالك؟

٢٥٣ الإسلام.. دين متكمel

٢٥٣ لا يحق لأحد أن يخترق أي جانب من جوانب النظام الإسلامي

٢٥٥ احتكار الثروة. تهديد لدولة المستكبرين والطغاة

٢٥٨ إلى الفرعونية من جديد

٢٥٨ جنائية على كل الأجيال

٢٥٩ أراد الله.. وأرادوا

٢٥٩ أوقفوا مسيرة الإسلام

٢٦٠ دولة الإسلام قامت على الاستجابة لحاجات الناس ومطالبهم

٢٦١ تكامل بين الجوانب.. لا يمكن فصل بعضها عن بعض

٢٦٣ عطاء كيسي غير منضبط بتشريعات الإسلام

٢٦٣ نعطي من يخدمنا

٢٦٥ هيا إلى خدمة الدولة ما دامت تدفع لنا



- ٢٦٥ لتكن الدولة في أيديينا إلى الأبد
- ٢٦٦ لماذا استهدف معاوية الكوفة؟
- ٢٦٨ أوجه الصراع ومقارقاته
- ٢٧٠ بين العدالة والتلويح بالمنافع والرشوات
- ٢٧٢ قضية الشام. أم قضية معاوية تخطيط قديم لتربيـة ...
- ٢٧٣ الشام: ثقة مطلقة بمعاوية
- ٢٧٤ نهادج من المضحـات المبكـيات
- ٢٧٦ مجتمع غريب
- ٢٧٧ أساليب جاهلية لمواجهة الإسلام ثانية
- ٢٧٩ نموذج مزور مقابل نموذج أصيل
- ٢٨٠ الإمام يراقب الحالة الأممية الشاذة ويعرف بنفسه
- ٢٨٢ «إنـي أشـكـوـ الـيـومـ حـيـفـ رـعـيـتـيـ كـأـنـيـ المـقـودـ وـهـمـ الـقـادـةـ»
- ٢٨٤ معارك الإسلام واحدة في كل زمان ومكان
- ٢٨٥ كشف الأخطاء لا يتم بالسباب وإنما بوصف الأعمال
- ٢٨٥ احذروا معاوية.. لو ظهر في غير زمان الإمام لدمـرـ الإـسـلـامـ إـلـىـ الأـبـدـ
- ٢٨٨ موقف الإمام ﷺ من معاوية
- ٢٩٠ كيف وصفـهـ: إـذـاـ أـرـدـتـ أـنـ تـعـرـفـ فـاقـارـأـ وـصـفـ الـإـمـامـ لـهـ ...
- ٢٩٢ «أـولـ مـنـ يـغـيـرـ سـتـيـ رـجـلـ مـنـ بـنـيـ أـمـيـةـ»
- ٢٩٣ معاوية: الإعداد لدين جديد
- ٢٩٤ فقدـتـ الـأـمـةـ هـوـيـتـهـ الإـسـلـامـيـةـ عـنـدـمـاـ اـسـتـسـلـمـتـ لـمـعـاوـيـةـ
- ٢٩٥ لـابـدـ لـلـمـقـدـمـاتـ مـنـ نـتـائـجـ
- ٢٩٦ الشـامـ: نـقـطـةـ الشـرـوـعـ لـتـعزـيزـ الـانـحرـافـ
- ٢٩٦ قـريـشـ وـالـأـخـرـابـ
- ٢٩٨ أـهـلـ الشـامـ. كـيـفـ وـصـفـهـ الـإـمـامـ ﷺ
- ٣٠٠ مـعـالـمـ الـفـتـنـ «إـنـ أـخـوـفـ الـفـتـنـ عـلـيـكـمـ فـتـنـةـ بـنـيـ أـمـيـةـ»
- ٣٠١ بـصـيـرـةـ وـعـلـمـ: تـشـخـصـ حـالـ الـأـمـةـ فـيـ ظـلـ الـأـمـوـيـنـ



- ٣٠٢ سفن إلهية: ظلم الراعي والرعيه يهلك الحرف والنسل
- ٣٠٤ كيف يرى الإمام ﷺ الأمة في ظل معاوية؟
- ٣٠٥ يعرف علياً، ومع ذلك يأمر بسبه والتيل منه
- ٣٠٦ أهل بيته ﷺ: ضمانة لعدم انحراف الأمة
- ٣٠٧ كيف يرى الإمام ﷺ المجتمع الإسلامي في ظل حكام الانحراف؟
- ٣٠٩ لقد رأى الإمام ﷺ المقدمات، فرأى النتائج.
- ٣١٠ الترف مقدمة للظلم والكفر
- ٣١٣ المترفون: بداية هلاك الأمة
- ٣١٤ مجتمع طاغوتي مترف
- ٣١٦ روح ملتوية شريرة
- ٣١٦ جو منفتح أم منفلت
- ٣١٧ خلفاء أم طواغيت؟
- ٣١٨ مع الترف منذ البداية
- ٣١٩ تعطلت مهمة المسجد فتعطل كل شيء
- ٣٢١ أين الأمة الإسلامية؟
- ٣٢٢ نظام (إسلامي) بالاسم
- ٣٢٣ فئات المجتمع. حسب تقسيم الإمام ﷺ
- ٣٢٤ المستكبرون والمستضعفون مسؤولون جميعاً
- ٣٢٦ عناصر المجتمع الفرعوني
- ٣٢٨ مجتمع شاذ. مجتمع التناقضات
- ٣٣٠ فرعونية منظورة..!
- ٣٣١ بين الخبرات الجاهزة والاستفادة من طبقة الهمج الرعاع
- ٣٣٢ الحاشية المتلقية: مصالح فرعون مصالحهم
- ٣٣٣ استهدفوا الإمام ﷺ وخطّه
- ٣٣٤ تصرفوا بالخلافة تصرفهم بإرث شخصي
- ٣٣٥ ارتداد عن الإسلام من خلال إبعاده عن الحياة



٣٣٥	عصر الأحداث والمفاجآت
٣٣٦	أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small> أمل الأمة
٣٣٧	عليه استقامته استقامة الإسلام
٣٣٧	عليه: تنوع موافق وأدوار